الأمثل

في تفسير كتاب الله المنزل

العلامة الفقيه المفسر

الشيخ ناصر مكارم الشيرازي

١٣

بسم الله الرحمن الرحیم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل

کاتب:

آیت الله ناصرمکارم شیرازی

نشرت فی الطباعهٔ:

مدرسه الامام علی بن ابی طالب (علیه السلام)

رقمی الناشر:

مرکز القائمیهٔ باصفهان للتحریات الکمبیوتریهٔ

الفهرس

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل المجلد ۱۳

اشاره

سرشناسه : مکارم شیرازی، ناصر، - ۱۳۰۵

عنوان و نام پدیدآور : الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل/ تالیف ناصر مکارم شیرازی؛ [با همکاری جمعی از فضلا]

وضعیت ویراست : [ویرایش]۲

مشخصات نشر : قم: مدرسه الامام علی بن ابی طالب(ع)، ۱۴۲۱ق. = ۱۳۷۹.

مشخصات ظاهری : ج ۲۰

شابک : ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۳-X(دوره) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۹-۱(ج.۱) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۳-۲(ج.۲) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۸-۳(ج.۳) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۲-۴(ج.۴) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۷-۵(ج.۵) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۱-۶(ج.۶) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۶-۷(ج.۷) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۰-۸(ج.۸) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۵-۹(ج.۹) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۴-۰(ج.۱۰) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۲-۱(ج.۱۱) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۷-۲(ج.۱۲) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۱-۳(ج.۱۳) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۰-۵(ج.۱۵)

وضعیت فهرست نویسی : فهرستنویسی قبلی

یادداشت : کتاب حاضر ترجمه و تلخیص "تفسیر نمونه" است

یادداشت : کتاب حاضر در سالهای مختلف توسط ناشرین مختلف منتشر گردیده است

یادداشت : کتابنامه

موضوع : تفاسیر شیعه -- قرن ۱۴

شناسه افزوده : مدرسه الامام علی بن ابی طالب(ع)

رده بندی کنگره : BP۹۸/م۷ ت۷۰۴۴۷ ۱۳۷۹

رده بندی دیویی : ۲۹۷/۱۷۹

شماره کتابشناسی ملی : م ۷۹-۱۰۳۹۱

ص :۱

اشاره

سوره لقمان

اشاره

مکّیه و عدد آیاتها أربع و ثلاثون آیه

ص :۵

محتوى السوره:

المعروف و المشهور بين المفسّرين أنّ هذه السوره نزلت فى مكّه،و بالرغم من أنّ بعض المفسّرين قد استثنى بعض آيات هذه السوره كالشيخ الطوسى فى (التبيان)حيث استثنى الآيه الرّابعه التى تتحدّث عن الصلاه و الزكاه،أو الفخر الرازى الذى استثنى مضافا إلى هذه الآيه،و الآيه(۲۷)التى تبحث فى علم اللّه الواسع،إلاّ أنّه لا يوجد دليل واضح لهذه الاستثناءات،لأنّ الصلاه و الزكاه-الزكاه بصوره عامّه طبعا-كانتا موجودتين فى مكّه أيضا،و قضيّه البحث عن سعه علم اللّه لا تصلح لأن تكون دليلا على كونها مدنيه.

بناء على هذا،فإنّ سوره لقمان بحكم كونها مكّيه تشتمل على محتوى السور المكّيه العام،أى أنّها تبحث حول العقائد الإسلاميه الأساسيه،و خاصّه المبدأ و المعاد،و كذلك النبوّه.و بصوره عامّه فإنّ محتوى هذه السوره يتلخّص فى خمسه أقسام:

القسم الأوّل:يشير-بعد ذكر الحروف المقطّعه-إلى عظمه القرآن و كونه هدى و رحمه للمؤمنين الذين يتمتّعون بصفات خاصّه،و يتحدّث فى الطرف المقابل عن الذين يظهرون التعصّب و العناد أمام هذه الآيات البيّنات بحيث يبدون و كأنّهم صمّ الآذان،بل يسعون أيضا إلى صرف الآخرين عن القرآن عن طريق إيجاد وسائل لهو غير صحيحه.

القسم الثّانى:يتحدّث عن آيات اللّه فى خلق السماء و رفعها بدون أى عمد، و خلق الجبال،و الاحياء المختلفه،و نزول المطر، و نموّ النباتات.

القسم الثّالث:ينقل جانبا من كلام لقمان الحكيم و المتألّه فى وصيّته لابنه، و يبدأ من التوحيد و محاربه الشرك،و ينتهى بالوصيّه بالإحسان إلى الوالدين، و الصلاه،و الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر،و الثبات أمام الحوادث الصعبه.

و البشاشه و الطلاقه مع الناس،و التواضع و الاعتدال فى الأمور.

فى القسم الرّابع:تعود السوره إلى أدلّه و علامات التوحيد مرّه اخرى فتتحدّث عن تسخير السماء و الأرض و نعم اللّه الوفيره،و ذمّ منطق الوثنيين الذين سقطوا فى وادى الضلال و الانحراف نتيجه التقليد و اتّباع الآباء و الأجداد،و تجعلهم يقرّون بمسأله كون اللّه خالقا التى هى أساس العبوديه له.

و تكشف الستار عن علم اللّه المطلق بذكر مثال واضح،و تبحث فى هذا الباب- إضافه إلى ذكر آيات الآفاق-عن التوحيد الفطرى الذى يتجلّى عند الوقوع فى عواصف البلاء،و تطرح ذلک بشكل رائع.

أمّا القسم الخامس:فإنّه يشير إشاره قصيره مؤثّره تهزّ الوجدان إلى مسأله المعاد و الحياه بعد الموت،و تحذّر الإنسان من الاغترار بهذه الدنيا،و تحثّه على أن يفكّر بتلک الحياه الخالده و يتهيّأ لها.

ثمّ تنهى هذا المبحث بذكر جانب من علم اللّه بالغيب بما يتعلّق بالإنسان،و من جمله ذلک لحظه موته،و حتّى على الجنين فى بطن امّه،و بذلک تنتهى السوره.

و من الواضح أنّ تسميه هذه السوره بسوره«لقمان»بسبب البحث المهمّ العميق المحتوى الذى ورد فى هذه السوره عن مواعظ لقمان،و هى السوره الوحيده التى تتحدّث عن هذا الرجل الحكيم.

فضل سوره لقمان:

وردت روايات عديده عن الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و بعض أئمّه أهل البيت عليهم السّلام فى فضل هذه السوره،و من جملتها ما

ورد فى حديث عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله: «من قرأ سوره

لقمان كان لقمان له رفيقا يوم القيامه،و أعطى من الحسنات عشرا بعدد من عمل بالمعروف و نهى عن المنكر» (۱) .

و

فى حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السّلام: «من قرأ سوره لقمان فى ليله و كّل اللّه به فى ليلته ثلاثين ملكا يحفظونه من إبليس و جنوده حتّى يصبح،فإذا قرأها بالنهار لم يزالوا يحفظونه من إبليس و جنوده حتّى يمسى» (۲) .

و قلنا مرارا،بأنّ كلّ هذا الفضل و الثواب و الامتياز لتلاوه سوره من القرآن لأنّ التلاوه مقدّمه للتفكّر،و التفكّر مقدّمه للعمل،و يجب أن لا يتوقّع الإنسان كلّ هذا الفضل بلقلقه اللسان فقط.

۱- ۱) -مجمع البيان:ج ۸،ص ۳۱۲.

۲- ۲) -نور الثقلين،ج ۴،ص ۱۹۳.

الآيات [سوره لقمان (۳۱): الآيات ۱ الى ۵]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِ الم (۱) تِلْكَ آيَاتُ اَلْكِتٰابِ اَلْحَكِيمِ (۲) هُدىً وَ رَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ (۳) اَلَّذِينَ يُقِيمُونَ اَلصَّلاٰةَ وَ يُؤْتُونَ اَلزَّكٰاةَ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (۴) أُولٰئِكَ عَلىٰ هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَ أُولٰئِكَ هُمُ اَلْمُفْلِحُونَ (۵)

التّفسير

اشاره

من هم المحسنون؟

الم

تبدأ هذه السوره بذكر أهميّه و عظمه القرآن،و بيان الحروف المقطّعه فى بدايتها إشاره لطيفه إلى هذه الحقيقه،و هى أنّ هذه الآيات التى تتركّب من حروف الألف باء البسيطه،لها محتوى و مفهوم سام يغيّر مصير البشر بصوره تامّه.و لذلك فإنّها تقول بعد ذكر الحروف المقطّعه: تِلْكَ آيٰاتُ الْكِتٰابِ الْحَكِيمِ .

تِلْكَ

فى لغه العرب إشاره للبعيد،و قلنا مرارا أنّ هذا التعبير بالخصوص كنايه عن عظمه و أهميّه هذه الآيات،و كأنّها فى أعالى السماء و فى نقطه بعيده المنال.

إنّ وصف«الكتاب»ب«الحكيم»إمّا لقوّه و متانه محتواه،لأنّ الباطل لا يجد إليه طريقا و سبيلا،و يطرد عن نفسه كلّ نوع من الخرافات و الأساطير،و لا يقول إلاّ الحقّ،و لا يدعو إلاّ إليه،و هذا التعبير فى مقابل لَهْوَ الْحَدِيثِ الذى يأتى فى الآيات التاليه تماما.

أو بمعنى أنّ القرآن كالعالم الحكيم الذى يتكلّم بألف لسان فى الوقت الذى هو صامت لا ينطق،فيعلّم،و يعظ و ينصح،و يرغّب و يرهّب،و يحذّر و يتوعّد،و يبيّن القصص ذات العبره،و خلاصه القول فإنّه حكيم بكلّ معنى الكلمه.و لهذه البدايه علاقه مباشره بكلام لقمان الحكيم الذى ورد البحث فيه فى هذه السوره.

و لا مانع-طبعا-من أن يكون المعنيان مرادين فى الآيه أعلاه.

ثمّ تذكر الآيه التاليه الهدف النهائى من نزول القرآن،فتقول: هُدىً وَ رَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ .

إنّ الهدايه فى الحقيقه مقدّمه لرحمه اللّه،لأنّ الإنسان يجد الحقيقه أوّلا فى ظلّ نور القرآن،و يعتقد بها و يعمل بها،و بعد ذلك يكون مشمولا برحمه اللّه الواسعه و نعمه التى لا حدّ لها.

و ممّا يستحقّ الانتباه أنّ هذه السوره اعتبرت القرآن سببا لهدايه و رحمه «المحسنين»،و فى بدايه سوره النمل: هُدىً وَ بُشْرىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ و فى بدايه سوره البقره: هُدىً لِلْمُتَّقِينَ .

و هذا الاختلاف فى التعبير ربّما كان بسبب أنّ روح التسليم و قبول الحقائق لا تحيا فى الإنسان بدون التقوى،و عند ذلك سوف لا تتحقّق الهدايه،و بعد مرحله قبول الحقّ نصل إلى مرحله الإيمان التى تتضمّن البشاره بالنعم الإلهيه علاوه على الهدايه،و إذا تقدّمنا أكثر فسنصل إلى مرحله العمل الصالح،و عندها تتجلّى رحمه اللّه أكثر من ذى قبل.

بناء على هذا فإنّ الآيات الثلاث أعلاه تبيّن ثلاث مراحل متعاقبه من مراحل

تکامل عباد اللّه:مرحله قبول الحقّ،ثمّ الإیمان،فالعمل،و القرآن فی هذه المراحل مصدر الهدایه و البشاره و الرحمه علی الترتیب-تأمّلوا ذلک-.

ثمّ تصف الآیه التالیه المحسنین بثلاث صفات،فتقول: اَلَّذِینَ یُقِیمُونَ الصَّلاٰهَ وَ یُؤْتُونَ الزَّکاٰهَ وَ هُمْ بِالْآخِرَهِ هُمْ یُوقِنُونَ فإنّ ارتباط هؤلاء بالخالق عن طریق الصلاه،و بخلق اللّه عن طریق الزکاه،و یقینهم بمحکمه القیامه باعث قوی علی الابتعاد عن الذنب و المعصیه،و دافع لأداء الواجبات.

و تبیّن الآیه الأخیره-من الآیات مورد البحث-عاقبه عمل المحسنین،فتقول:

أُولٰئِکَ عَلیٰ هُدیً مِنْ رَبِّهِمْ وَ أُولٰئِکَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ

.

جمله أُولٰئِکَ عَلیٰ هُدیً مِنْ رَبِّهِمْ توحی بأنّ هدایه أولئک قد ضمنت من قبل ربّهم من جهه،و من جهه اخری فإنّ التعبیر ب(علی)دلیل علی أنّ الهدایه کأنّها مطیّه سریعه السیر،و أولئک قد رکبوها و أخذوا بزمامها،و من هنا یتّضح التفاوت بین هذه الهدایه،و الهدایه التی وردت فی بدایه السوره،لأنّ الهدایه الاولی هی الاستعداد لقبول الحقّ،و هذه الهدایه برنامج للوصول إلی الغایه و الهدف.

ثمّ إنّ جمله أُولٰئِکَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ التی تدلّ علی الحصر وفقا للقواعد العربیه، توحی بأنّ هذا الطریق هو الطریق الوحید إلی الإخلاص،طریق المحسنین، طریق أولئک المرتبطین باللّه و خلقه،و طریق أولئک الذین یؤمنون إیمانا کاملا بالمبدأ و المعاد.

ص:۱۲

الآیات [سوره لقمان (۳۱): الآیات ۶ الی ۹]

اشاره

وَ مِنَ اَلنّٰاسِ مَنْ یَشْتَرِی لَهْوَ اَلْحَدِیثِ لِیُضِلَّ عَنْ سَبِیلِ اَللّٰهِ بِغَیْرِ عِلْمٍ وَ یَتَّخِذَهٰا هُزُواً أُولٰئِکَ لَهُمْ عَذٰابٌ مُهِینٌ (۶) وَ إِذٰا تُتْلیٰ عَلَیْهِ آیٰاتُنٰا وَلّٰی مُسْتَکْبِراً کَأَنْ لَمْ یَسْمَعْهٰا کَأَنَّ فِی أُذُنَیْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذٰابٍ أَلِیمٍ (۷) إِنَّ اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ لَهُمْ جَنّٰاتُ اَلنَّعِیمِ (۸) خٰالِدِینَ فِیهٰا وَعْدَ اَللّٰهِ حَقًّا وَ هُوَ اَلْعَزِیزُ اَلْحَکِیمُ (۹)

سبب النّزول

قال بعض المفسّرین:إنّ الآیه الاولی من هذه الآیات نزلت فی«النضر بن الحارث»،فقد کان تاجرا یسافر إلی ایران،و کان یحدّث قریشا بقصص الإیرانیین و أحادیثهم،و کان یقول:إذا کان محمّد یحدّثکم بقصص عاد و ثمود فإنّی أحدّثکم بقصص رستم و إسفندیار و أخبار کسری و سلاطین العجم،فکانوا یجتمعون حوله و یترکون استماع القرآن.

و قال البعض الآخر:إنّ هذا المقطع من الآیات نزل فی رجل اشتری جاریه

ص:۱۳

مغنّيه،و كانت تغنّيه ليل نهار فتشغله عن ذكر اللّه.

يقول المفسّر الكبير الطبرسى رحمه اللّه،بعد ذكر سبب النّزول هذا:و

قد روى حديث عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله فى هذا الباب يؤيّد سبب النّزول أعلاه،لأنّه صلّى اللّه عليه و آله قال:«لا يحلّ تعليم المغنّيات و لا بيعهن،و أثمانهنّ حرام،و قد نزل تصديق ذلك فى كتاب اللّه: وَ مِنَ النّاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ...

التّفسير

اشاره

الغناء أحد مكائد الشياطين الكبيره.

الكلام فى هذه الآيات عن جماعه يقعون تماما فى الطرف المقابل لجماعه المحسنين و المؤمنين الذين ذكروا فى الآيات السابقه.

الكلام و الحديث هنا عن جماعه يستخدمون طاقاتهم من أجل بثّ اللاهدفيه و إضلال المجتمع،و يشترون شقاء و بؤس دنياهم و آخرتهم! فتقول أوّلا: وَ مِنَ النّاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ يَتَّخِذَها هُزُواً (1) ثمّ تضيف أخيرا: أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ .

إنّ شراء لهو الحديث و الكلام الأجوف إمّا أن يتمّ عن طريق دفع المال فى مقابل سماع الخرافات و الأساطير،كما قرأنا ذلك فى قصّه النضر بن الحارث.

أو أن يكون عن طريق شراء المغنّيات لعقد مجالس اللهو و الباطل و الغناء.أو صرف المال بأىّ شكل كان و فى أى طريق للوصول إلى هذا الهدف غير المشروع، أى لهو الحديث و الكلام الفارغ.

و العجيب أنّ عمى القلوب هؤلاء،كانوا يشترون الكلام الباطل و اللهو بأغلى القيم و الأثمان،و يعرضون عن الآيات الإلهيه و الحكمه التى منحهم اللّه إيّاها

---

۱ - ۱) -ضمير«يتّخذها»يعود إلى(آيات الكتاب)التى وردت فى الآيات السابقه.و احتمل البعض أنّه يعود إلى(السبيل). لأنّ كلمه(السبيل)قد وردت فى آيات القرآن بصيغه المذكّر تاره،و بصيغه المؤنث تاره اخرى.

مجّانا! و يحتمل أيضا أن يكون للشراء هنا معنى كنائى،و المراد منه كلّ أنواع السعى للوصول إلى هذه الغايه.

و أمّا(لهو الحديث)فإنّ له معنى واسعا يشمل كلّ نوع من الكلام أو الموسيقى أو الترجيع الذى يؤدّى إلى اللهو و الغفله،و يجرّ الإنسان إلى اللاهدفيّه أو الضلال، سواء كان من قبيل الغناء و الألحان و الموسيقى المهيّجه المثيره للشهوه و الغرائز و الميول الشيطانيه،أو الكلام الذى يسوق الإنسان إلى الفساد عن طريق محتواه و مضامينه،و قد يكون عن كلا الطريقين كما هو الحال فى أشعار و تأليفات المغنّين الغراميّه العاديّه المضلّله فى محتواها و ألحانها.

أو يكون كالقصص الخرافيه و الأساطير التى تؤدّى إلى انحراف الناس عن الصراط المستقيم.

أو يكون كلام الاستهزاء و السخريه الذى يطلق بهدف محو الحقّ و تضعيف أسس و دعائم الإيمان،كالذى ينقلونه عن أبى جهل أنّه كان يقف على قريش و يقول:أ تريدون أن أطعمكم من الزقّوم الذى يتهدّدنا به محمّد؟ثمّ يبعث فيحضرون الزبد و التمر،فكان يقول:هذا هو الزقّوم!و بهذا الأسلوب كان يستهزئ بآيات اللّه.

و على كلّ حال،فإنّ للهو الحديث معنى واسعا يتضمّن كلّ هذه المعانى و أمثالها،و إذا أشارت الروايات الإسلاميه و كلمات المفسّرين إلى إحداها،فإنّ ذلك لا يدلّ مطلقا على انحصار معنى الآيه فيه.

و تلاحظ فى الرّوايات الوارده عن أهل البيت عليهم السّلام تعبيرات تبيّن سعه معنى هذه الكلمه،و من جملتها ما نراه

فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام: «الغناء مجلس لا ينظر اللّه إلى أهله،و هو ممّا قال اللّه عزّ و جلّ: وَ مِنَ النّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ

الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللّهِ

» . (۱)

و التعبير ب لَهْوَ الْحَدِيثِ بدلا من(حديث اللهو)ربّما كان إشاره إلى أنّ الهدف الأساس لهؤلاء هو اللهو و العبث،و الكلام و الحديث وسيله للوصول إليه.

و لجمله لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللّهِ مفهوم واسع أيضا،يشمل الإضلال العقائدى، كما قرأنا ذلك فى قصّه النضر بن الحارث و أبى جهل،و كذلك يشمل الإفساد الأخلاقى كما جاء فى أحاديث الغناء.

و التعبير ب بِغَيْرِ عِلْمٍ إشاره إلى أنّ هذه الجماعه الضالّه المنحرفه لا تؤمن حتّى بمذهبها الباطل،بل يتّبعون الجهل و التقليد الأعمى لا غير،فإنّهم جهلاء يورطون و يشغلون الآخرين بجهلهم.

هذا إذا اعتبرنا بِغَيْرِ عِلْمٍ وصفا للمضلّين،إلاّ أنّ بعض المفسّرين اعتبر هذا التعبير وصفا للضالّين،أى أنّهم يجرّون الناس الجهله إلى وادى الانحراف و الباطل دون أن يعلموا بذلك لجهلهم.

إنّ هؤلاء المغفّلين قد يتمادون فى غيّهم فلا يقنعون بلهو هذه المسائل،بل إنّهم يجعلون كلامهم الأجوف و لهو حديثهم وسيله للاستهزاء بآيات اللّه،و هذا هو الذى أشارت إليه نهايه الآيه حيث تقول: وَ يَتَّخِذَها هُزُواً .

أمّا وصف العذاب ب(المهين)فلأنّ العقوبه متناغمه مع الذنب،فإنّ هؤلاء قد استهزءوا بآيات اللّه و أهانوها،و لذلك فإنّ اللّه سبحانه قد أعدّ لهم عذابا مهينا، إضافه إلى كونه أليما.

و أشارت الآيه التاليه إلى ردّ فعل هذه الفئه أمام آيات اللّه،و توحى بالمقارنه بردّ فعلهم تجاه لهو الحديث،فتقول: وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا وَلّى مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً أى ثقلا يمنعه من السماع..

ص: ۱۶

۱- ۱) -وسائل الشيعه،ج ۱۲،ص ۲۲۸ باب تحريم الغناء.

ثمّ تذكر أخيرا عقاب مثل هؤلاء الأفراد الأليم فتقول: فَبَشِّرْهُ بِعَذٰابٍ أَلِيمٍ .

إنّ التعبير ب وَلّٰى مُسْتَكْبِراً إشاره إلى أنّ إعراضه لم يكن نابعا من تضرّر مصالحه الدنيويّه و الحدّ من رغباته و شهواته فحسب،بل إنّ الأمر أكبر من ذلك، فإنّ فيه دافع التكبّر أمام عظمه اللّه و آياته،و هو أعظم ذنب فيه.

و الرائع فى تعبير الآيه أنّها تقول أوّلا:إنّه لم يعبأ بآيات اللّه كأنّه لم يسمعها قطّ، و يمرّ عليها دون اكتراث بها،ثمّ تضيف:بل كأنّه أصمّ لا يسمع أىّ كلام قطّ! إنّ جزاء مثل هؤلاء الأفراد يناسب أعمالهم،فكما أنّ أعمالهم كانت مؤلمه و مؤذيه لأهل الحقّ،فإنّ اللّه سبحانه قد جعل عقابهم و عذابهم أليما أيضا.

و ينبغى الالتفات إلى أن تعبير(بشّر)فى مورد العذاب الإلهى الأليم،يتناسب مع عمل المستكبرين الذين كانوا يتّخذون آيات اللّه هزوا، و التشبّه بصفات أبى جهل،حيث كانوا يفسّرون«زقّوم جهنّم»بالزبد و التمر! ثمّ تعود الآيات التاليه إلى شرح و تبيان حال المؤمنين الحقيقيّين،و قد بدأت السوره فى مقارنتها هذه بذكر حالهم أوّلا ثمّ ختمت به فى نهايه هذا المقطع أيضا، فتقول: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ لَهُمْ جَنّٰاتُ النَّعِيمِ .

أجل،إنّ هذه الفئه على عكس المستكبرين و الضالّين المضلّين الذين لا يرون آثار قدره اللّه فى عالم الوجود،و لا يصغون إلى كلام أنبياء اللّه.

إنّ هؤلاء يؤمنون بحكم العقل الواعى،و العين البصيره،و الاذن السامعه التى منحهم اللّه إيّاها،يؤمنون بآيات اللّه و يعملون بها صالحا،فما أجدر أن يكون لأولئك العذاب الأليم،و لهؤلاء جنّات النعيم! و الأهمّ من ذلك أنّ هذه الجنان الوافره النعم خالده لهؤلاء خٰالِدِينَ فِيهٰا وَعْدَ اللّٰهِ حَقًّا و اللّه سبحانه لا يعد كذبا،و ليس عاجزا عن الوفاء بوعوده وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

و ثمّه مسأله تستحقّ الدقّه،و هى أنّه قد ورد العذاب فى حقّ المستكبرين بصيغه

المفرد،و فی شأن المؤمنین الـذین یعملون الصالحات جاءت«الجنّات»بصیغه الجمع،و ذلک لأنّ رحمه اللّه عزّ و جلّ وسعت غضبه.

و التأکید علی الخلود و وعد اللّه الحقّ،تأکید أیضا علی سعه هذه الرحمه، و تفوّقها علی الغضب.

و للنعیم معنی واسع یشمل کلّ أنواع النعم المادیّه و المعنویه،و حتّی النعم التی لا یمکن أن ندرکها،فنحن أساری شهوات البدن فی هذه الدنیا،و الراغب فی (مفرداته)یقول:النعیم:النعمه الکثیره.

بحوث

اشاره

۱-تحریم الغناء

لا شکّ فی أنّ الغناء بصوره إجمالیه حرام علی المشهور بین علماء الشیعه، و تصل هذه الشهره إلی حدّ الإجماع.

و أکّد کثیر من علماء أهل السنّه علی هذه الحرمه،و إن کان بعضهم قد استثنوا بعض الأمور،و ربّما لا یعدّ بعضها استثناء فی الحقیقه،بل تعتبر خارجه عن موضوع الغناء،أو کما یقال:خارج تخصّصا.

یقول«القرطبی»فی ذیل الآیات مورد البحث فی هذا الباب:«و هو الغناء المعتاد عند المشتهرین به،الذی یحرّک النفوس و یبعثها علی الهوی و الغزل، و المجون الذی یحرّک الساکن و یبعث الکامن،فهذا النوع إذا کان فی شعر یشبّب فیه بذکر النساء و وصف محاسنهن و ذکر الخمور و المحرّمات لا-یختلف فی تحریمه،لأنّه اللهو و الغناء المذموم بالاتّفاق،فامّا ما سلم من ذلک فیجوز القلیل منه فی أوقات الفرح،کالعرس و العید و عند التنشیط علی الأعمال الشاقّه کما کان فی حفر الخندق و حدو أنجشه و سلمه بن الأکوع،فامّا ما ابتدعته الصوفیه الیوم

من الإدمان على سماع الأغانى بالآلات المطربه من الشبابات و الطار و المعازف و الأوتار فحرام» (١) .

إنّ ما ذكره القرطبى و بيّنه كاستثناء،من قبيل الحداء للإبل،أو الأشعار الخاصّه التى كان يقرؤها المسلمون أثناء حفر الخندق،يحتمل قويّا أنّه لم يكن من الغناء أساسا،فهو شبيه بالأشعار التى يقرؤها جماعه بلحن خاصّ فى المسيرات أو مجالس الفرح و مجالس العزاء الدينيّه.

و فى أيدينا أدلّه كثيره على تحريم الغناء فى المصادر الإسلاميه،و من جملتها الآيه أعلاه: وَ مِنَ النّٰاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ و بعض آيات أخر من القرآن التى تنطبق-على الأقلّ طبق الروايات الوارده فى تفسير هذه الآيات-على الغناء،أو أنّ الغناء اعتبر من مصاديقها:

ففى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام فى تفسير آيه: وَ اجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٢) قال:

«قول الزور الغناء» (٣) .

و

عنه عليه السّلام فى تفسير الآيه: وَ الَّذِينَ لاٰ يَشْهَدُونَ الزُّورَ (۴) قال:«الغناء» (۵) .

و

قد رويت فى تفسير هذه الآيه روايات عديده عن الإمام الباقر و الصادق و الرضا عليهم السّلام أوضحوا فيها أنّ أحد مصاديق لهو الحديث الموجب للعذاب المهين هو«الغناء» (۶) .

إضافه إلى هذا فإنّه تلاحظ فى المصادر الإسلاميه روايات كثيره اخرى-عدا ما ورد فى تفسير الآيات-تبيّن تحريم الغناء بصوره مؤكّده:

۱- ۱) -تفسير القرطبى،ج ۷،ص ۵۱۳۶.

۲- ۲) -الحجّ،۳۰.

۳- ۳) -وسائل الشيعه،ج ۱۲،ص ۲۲۵-۲۲۷،۲۳۱ باب تحريم الغناء.

۴- ۴) -الفرقان،۷۲.

۵- ۵) -المصدر السابق.

۶- ۶) -المصدر السابق.

ففی حدیث مروی عن جابر بن عبد اللّه،عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله: «کان إبلیس أوّل من تغنّی» (۱) .

و

جاء فی حدیث آخر عن الإمام الصادق علیه السّلام: «بیت الغناء لا تؤمن فیه الفجیعه،و لا تجاب فیه الدعوه،و لا یدخله الملک» (۲) .

و

فی حدیث آخر علیه السّلام: «الغناء یورث النفاق،و یعقب الفقر» (۳) .

و

فی حدیث آخر عن الصادق علیه السّلام: «المغنّیه ملعونه،و من أدّاها ملعون،و آکل کسبها ملعون» (۴) .

و قد نقلت روایات کثیره فی هذا المجال فی کتب أهل السنّه المعروفه أیضا، و من جملتها الروایه التی

نقلها فی(الدرّ المنثور)عن جماعه کثیره من المحدّثین، عن الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله،أنّه قال: «لا یحلّ تعلیم المغنّیات و لا بیعهنّ،و أثمانهنّ حرام» (۵) .

و نقل نظیر هذا المعنی کاتب(التاج)عن الترمذی و الإمام أحمد (۶) .

و

یروی ابن مسعود عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله أنّه قال: «الغناء ینبت النفاق فی القلب کما ینبت الماء البقل» (۷) .

و بالجمله،فإنّ الرّوایات الوارده فی هذا الباب کثیره جدّا بحیث تصل إلی حدّ التواتر،و لهذا فإنّ أکثر علماء الإسلام قد أفتوا بالحرمه،علاوه علی علماء الشیعه، الذین یتّفقون بالرأی فی هذا الموضوع تقریبا،و قد نقل تحریمه عن أبی حنیفه

۱- ۱) -المصدر السابق.

۲- ۲) -وسائل الشیعه،ج ۱۲،ص ۲۲۵-۲۳۰.

۳- ۳) -المصدر السابق.

۴- ۴) -سفینه البحار،ج ۲،صفحه ۳۳۸.

۵- ۵) -الدرّ المنثور ذیل الآیه مورد البحث.

۶- ۶) -التاج،المجلّد،ج ۵،ص ۲۸۷.

۷- ۷) -تفسير روح المعانی،ذيل الآيه مورد البحث.

أیضا،و عند ما سألوا«أحمد»-إمام السنّه المعروف-عن الغناء قال:ینبت النفاق.

و قال«مالک»-إمام أهل السنّه المعروف-مجیبا عن هذا السؤال:یفعله الفسّاق.

و صرّح«الشافعی»بأنّ شهاده أصحاب الغناء غیر مقبوله،و هذا بنفسه دلیل علی فسق هؤلاء.

و نقل عن أصحاب الشافعی أیضا أنّهم اعتبروا فتوی الشافعی تحریما،علی خلاف ما اعتقده البعض (۱) .

۲-ما هو الغناء؟

لا- یواجهنا إشکال مهم فی حرمه الغناء،إنّما الإشکال الصعب هو تشخیص موضوع الغناء،فهل أنّ کلّ صوت حسن غناء؟ من المسلّم أنّ الأمر لیس کذلک،لأنّه قد ورد فی الرّوایات الإسلامیه،و سیره المسلمین تحکی أیضا،أن اقرؤوا القرآن و أذّنوا بصوت حسن.

هل أنّ الغناء کلّ صوت فیه ترجیع-و هو تردّد الصوت فی الحنجره-؟هذا أیضا غیر ثابت.

و الذی یمکن استفادته من مجموع کلمات فقهاء و أقوال أهل السنّه فی هذا المجال،أنّ الغناء هو کلّ لحن و صوت یطرب،و یشتمل علی اللهو و الباطل.

و بعباره أوضح:الغناء هو الأصوات و الألحان التی تناسب مجالس الفسق و الفجور،و أهل المعصیه و الفساد.

و بتعبیر آخر:الغناء یقال للصوت الذی یحرّک القوی الشهوانیه فی الإنسان، بحیث یشعر الإنسان فی تلک الحال بأنّه لو کان إلی جانب هذا الصوت خمر

۱- ۱) -تفسیر روح المعانی،ذیل الآیات مورد البحث.

و مسـكر و إباحه و فساد جنسـى،لكان ذلك مناسبا جدّا! و هناك مسأله تستحقّ الانتباه،و هى أنّ بعض الألحان تعدّ أحيانا غناء و لهوا باطلا بذاتها و محتواها،مثال ذلك أشعار العشق و الغرام و الأشعار المفسده التى تقرأ بألحان و موسيقى راقصه.

و قـد تكون الألحان بـذاتها غناء أحيانا اخرى،مثال الأشـعار الجيـده،أو آيات القرآن و الـدعاء و المناجاه التى تقرأ بلحن يناسـب مجالس الفاسدين و الفسّاق، و هو حرام فى كلام الصورتين«فتأمّل».

و ثمّه مسـأله ينبغى ذكرهـا،و هى أنّه يـذكر للغنـاء معنيـان:معنى عـامّ،و معنى خـاصّ،و المعنى الخـاصّ هو مـا ذكرنـاه أعلاه،أى الموسيقى و الألحان التى تحرّك الشهوات،و تناسب مجالس الفسق و الفجور.

و المعنى العامّ هو كلّ صوت حسن،فمن فسّر الغناء بالمعنى العامّ قسّمه إلى قسمين:غناء حلال،و غناء حرام.

و المراد من الغناء الحرام:هو ما قيل أعلاه،و المراد من الغناء الحلال:الصوت الحسن الجميل و الـذى لا يكون باعثا على الفساد،و لا يناسب مجالس الفسق و الفجور.

و بناء على هذا فلا يوجد اختلاف-تقريبا-فى أصل تحريم الغناء،بل الاختلاف فى كيفيه تفسيره.

و من الطبيعى أن يكون للغنـاء موارد شـكّ-ككـلّ المفـاهيم الاـخرى-و أنّ الإنسان لا يعلم حقّا هل أنّ الصوت الفلانى يناسـب مجـالس الفسق و الفجور،أم لا؟و فى هـذه الصوره يحكم بالحلّيه بحكم أصل البراءه،و هـذا-طبعا-بعـد الإحاطه الكافيه بالمفهوم العرفى للغناء طبق التعريف أعلاه.

و من هنا يتّضح أنّ الأصوات و الموسيقى الحماسيه التى تناسب ساحات الحرب أو الرياضه و أمثالها لا دليل على حرمتها.

ص :٢٢

و من الطبيعى أنّ هناك بحوثا أخرى فى باب الغناء،من قبيل بعض الاستثناءات التى قبلها جماعه و أنكرها آخرون،و مسائل أخرى ينبغى الكلام عنها فى الكتب الفقهيّه.

و الكلام الأخير هو أنّ ما ذكر أعلاه يتعلّق بالغناء،و أمّا استعمال الآلات الموسيقيه و حرمتها،فهو بحث آخر خارج عن هذا الموضوع.

٣-فلسفه تحريم الغناء:

إنّ التدقيق فى مفهوم الغناء-مع الشروط التى قلناها فى شرح هذا المفهوم- تجعل الغايه من تحريم الغناء واضحه جدّا.

فبنظره سريعه إلى معطيات الغناء سنواجه المفاسد أدناه:

أوّلا:الترغيب و الدعوه إلى فساد الأخلاق.

لقد بيّنت التجربه-و التجربه خير شاهد-أنّ كثيرا من الأفراد الواقعين تحت تأثير موسيقى و ألحان الغناء قد تركوا طريق التقوى،و اتّجهوا نحو الشهوات و الفساد.

إنّ مجلس الغناء-عاده-يعدّ مركزا لأنواع المفاسد،و الدافع على هذه المفاسد هو الغناء.

و نقرأ فى بعض التقارير التى وردت فى الصحف الأجنبيه أنّه كان فى مجلس جماعه من الفتيان و الفتيات فعزفت فيه موسيقى خاصّه و على نمط خاص من الغناء،فهيّجت الفتيان و الفتيات إلى الحدّ الذى هجم فيه بعضهم على البعض الآخر،و عملوا من الفضائح ما يخجل القلم عن ذكره.

و ينقل فى تفسير(روح المعانى)حديثا عن أحد زعماء بنى أميّه أنّه قال لهم:

إيّاكم و الغناء فإنّه ينقص الحياء،و يزيد فى الشهوه،و يهدم المروءه،و إنّه ينوب عن

الخمر،و يفعل ما يفعل السكر (۱) .و هذا يبيّن أنّه حتّى أولئک كانوا مطّلعين على مفاسده أيضا.

و عند ما نرى فى الرّوايات الإسلاميه:

أنّ الغناء ينبت النفاق، فإنّه إشاره إلى هذه الحقيقه،و هى أنّ روح النفاق هى روح التلوّث بالفساد و الابتعاد عن التقوى.

و إذا جاء فى الرّوايات أنّ الملائكه لا تدخل البيت الذى فيه غناء،فبسبب التلوّث بالفساد،لأنّ الملائكه طاهره تطلب الطهاره،و تتأذّى من هذه الأجواء الملوّثه.

ثانيا:الغفله عن ذكر اللّه:

إنّ التعبير باللهو الذى فسّر بالغناء فى بعض الرّوايات الإسلاميه إشاره إلى حقيقه أنّ الغناء يجعل الإنسان عبدا ثملا من الشهوات حتّى يغفل عن ذكر اللّه.

و فى الآيات أعلاه قرأنا أنّ«لهو الحديث»أحد عوامل الضلاله عن سبيل اللّه، و موجب للعذاب الأليم.

فى حديث عن على عليه السّلام: «كلّ ما ألهى عن ذكر اللّه(و أوقع الإنسان فى و حل الشهوات)فهو من الميسر» (۲) -أى فى حكم القمار-.

ثالثا:الإضرار بالأعصاب:

إنّ الغناء و الموسيقى-فى الحقيقه-أحد العوامل المهمّه فى تخدير الأعصاب، و بتعبير آخر:إنّ الموادّ المخدّره ترد البدن عن طريق الفمّ و الشرب أحيانا كالخمر، و أحيانا عن طريق الشمّ و حاسّه الشمّ كالهيروئين،و أحيانا عن طريق التزريق كالمورفين،و أحيانا عن طريق حاسّه السمع كالغناء.

و لهذا فإنّ الغناء و الموسيقى المطربه قد تجعل الأفراد منتشين أحيانا إلى حدّ يشبهون فيه السكارى،و قد لا يصل إلى هذه المرحله أحيانا،و لكنّه يوجد تخديرا

۱- ۱) -تفسير روح المعانى،الجزء ۲۱،صفحه ۶۰.

۲- ۲) -وسائل الشيعه،الجزء ۱۲،صفحه ۲۳۵.

خفیفا،و لهذا فإنّ کثیرا من مفاسد المخدّرات موجوده فی الغناء،سواء کان تخدیره خفیفا أم قویّا.

«إنّ الانتباه بدقّه إلی سیره مشاهیر الموسیقیین یبیّن أنّهم قد واجهوا تدریجیّا مصاعب و صدمات نفسیه خلال مراحل حیاتهم حتّی فقدوا أعصابهم شیئا فشیئا، و ابتلی عدد منهم بأمراض نفسیه،و جماعه فقدوا مشاعرهم و ساروا إلی دار المجانین،و بعضهم أصیبوا بالشلل و العجز،و بعضهم أصیب بالسکته،حیث ارتفع ضغط الدم عندهم أثناء عزف الموسیقی» (۱) .

و قد جاء فی بعض الکتب التی کتبت فی مجال لآثار المضرّه للموسیقی علی أعصاب الإنسان،حالات جمع من الموسیقیین و المغنّین المعروفین الذین أصیبوا بالسکته و موت الفجأه أثناء أداء برامجهم،و زهقت أرواحهم فی ذلک المجلس (۲) .

و خلاصه القول فإنّ الآثار المضرّه للغناء و الموسیقی علی الأعصاب تصل إلی حدّ إیجاد الجنون،و تؤثّر علی القلب و تؤدّی إلی ارتفاع ضغط الدم و غیر ذلک من الآثار المخرّبه.

و یستفاد من الإحصاءات المعدّه للوفیّات فی عصرنا الحالی بأنّ معدّل موت الفجأه قد إزداد بالمقارنه مع السابق،و قد ذکروا أسبابا مختلفه کان من جملتها الغناء و الموسیقی.

رابعا:الغناء أحد وسائل الاستعمار:

إنّ مستعمری العالم یخافون دائما من وعی الشعوب،و خاصّه الشباب،و لذلک فإنّ جانبا من برامجهم الواسعه لاستمرار و إدامه الاستعمار هو إغراق المجتمعات بالغفله و الجهل و الضلال،و توسعه وسائل اللهو المفسده.

إنّ المخدّرات لا تتّصف الیوم بصفه تجاریه فقط،بل هی أحد الوسائل

۱- ۱) -تأثیر الموسیقی علی النفس و الأعصاب،صفحه ۲۶.

۲- ۲) -یراجع المصدر السابق صفحه ۹۲ و ما بعدها.

السیاسیه المهمّه،فإنّ السیاسات الاستعماریه تسعی إلی إیجاد مراکز الفحشاء و نوادی القمار و وسائل اللهو الفاسده الاخری،و من جملتها توسعه و نشر الغناء و الموسیقی،و هی من أهمّ الوسائل التی یصرّ علیها المستعمرون لتخدیر أفکار الناس،و لهذا فإنّ الموسیقی تشکّل القسم الأکبر من وقت إذا عات العالم و وسائل الإعلام الأساسیه.

الآيتان [سوره لقمان (٣١): الآيات ١٠ الى ١١]

اشاره

خَلَقَ اَلسَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها وَ أَلْقى فِي اَلْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَ بَثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دابَّةٍ وَ أَنْزَلْنا مِنَ اَلسَّماءِ ماءً فَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (١٠) هذا خَلْقُ اَللّهِ فَأَرُونِي ما ذا خَلَقَ اَلَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ اَلظّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (١١)

التّفسير

اشاره

هذا خلق اللّه:

مواصله للبحث حول القرآن و الإيمان به فى الآيات السابقه،تتحدّث الآيتان أعلاه عن أدلّه التوحيد الذى هو أهمّ الأصول العقائديه.

تشير الآيه الاولى إلى خمسه أقسام من مخلوقات اللّه التى ترتبط مع بعضها ارتباطا وثيقا لا ينفصل،و هى: خلق السماء،و كون الكواكب معلّقه فى الفضاء، و خلق الجبال لتثبيت الأرض،ثمّ خلق الدواب،و بعد ذلك الماء و النباتات التى هى وسيله تغذيتها،فتقول: خَلَقَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها .

(العمد)جمع(عمود)،و تقييد بنائها و إقامتها ب تَرَوْنَها دليل على أنّه ليس لهذه السماء أعمده مرئيّه،و معنى ذلك أنّ لها أعمده إلاّ أنّها غير قابله للرؤيه،و كما

قلنا قبل هـذا فی تفسـیر سوره الرعـد أیضا،فإنّ هـذا التعبیر إشاره لطیفه إلی قانون الجاذبیّه الذی یبدو کالعمود القویّ جدّا،إلاّ أنّه غیر مرئیّ،یحفظ الأجرام السماویه.

و قد صرّح

فی حـدیث رواه حسـین بن خالـد،عن الإمـام علی بن موسـی الرضا علیه السّـلام،أنّه قال: «سـبحان اللّه!ألیس اللّه یقول: بِغَیْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهٰا ؟قلت:بلی، قال:«ثمّ عمد و لکن لا ترونها» (۱) (۲) .

و علی کلّ حال،فإنّ الجمله أعلاه أحـد معاجز القرآن المجیـد العلمیّه،و قـد أوردنا تفصـیلا أکثر عنها فی ذیل الآیه(۲)من سوره الرعد.

ثمّ تقول الآیه فی الغایه من خلق الجبال: وَ أَلْقیٰ فِی الْأَرْضِ رَوٰاسِیَ أَنْ تَمِیدَ بِکُمْ (۳) .

إنّ هـذه الآـیه التی لها نظائر کثیره فی القرآن،توضّـح أنّ الجبال وسـیله لتثبیت الأرض،و قـد تثبت هـذه الحقیقه الیوم من الناحیه العلمیّه من جهات عدیده:

فمن جهه أنّ أصولها مرتبطه مع بعضها،و هی کالدرع المحکم یحفظ الکره الأرضیه أمام الضغوط الناشئه من الحراره الداخلیه،و لو لا هذه الجبال فإنّ الزلازل المدمّره کانت ستبلغ حدّا ربّما لا تدع معه للإنسان مجالا للحیاه.

و من جهه أنّ هـذه السلسـله المحکمه تقـاوم جـاذبیه القمر و الشـمس الشدیـده، و إلاّ فسـیحدث جزر و مـدّ عظیمان فی القشـره الأرضیه أقوی من جزر و مدّ البحار، و تجعل الحیاه بالنسبه للإنسان مستحیله.

و من جهه أنّها تقف سدّا أمام العواصف و الریاح العاتیه،و تقلّل من تماسّ الهواء

ص: ۲۸

۱- ۱) -تفسیر البرهان،المجلّد ۲،صفحه ۲۷۸.

۲- ۲) -إنّ الـذین اعتبروا الآیه أعلاه دلیلا علی نفی العمد مطلقا لا بدّ لهم من التقدیم و التأخیر فی الآیه لیقولوا:إنّ أصل الجمله کانت:خلق السماوات ترونها بغیر عمد،و هذا خلاف الظاهر قطعا.

۳- ۳) -«تمید»من(المید)أی تزلزل الأشیاء و اضطرابها اضطرابا عظیما،و جمله(أن تمید بکم)فی تقدیر:لئلاّ تمید بکم.

المجاور للأرض عند دوران الأرض حول نفسها إلى أقلّ حدّ،و لو لم تكن هذه الجبال لكان سطح الأرض كالصحارى اليابسه،و عرضه للأعاصير و الزوابع المهلكه،و العواصف الهوجاء المدمّره ليل نهار (۱) .

و بعد ذكر نعمه استقرار السماء بأعمده الجاذبيه.و استقرار و ثبات الأرض بواسطه الجبال،تصل النوبه إلى خلق الكائنات الحيّه و استقرارها،بحيث تستطيع أن تضع أقدامها فى محيط هادئ مطمئن،فتقول: وَ بَثَّ فِيهٰا مِنْ كُلِّ دٰابَّهٍ .

إنّ التعبير ب مِنْ كُلِّ دٰابَّهٍ إشاره إلى تنوّع الحياه فى صور مختلفه،ابتداء من الكائنات الحيّه المجهريه و التى ملأت جميع الأرجاء إلى الحيوانات العملاقه و المخوفه.

و كذلك الحيوانات المختلفه الألوان،و المتفاوته الأشكال التى تعيش فى الماء و الهواء من الطيور و الزواحف،و الحشرات المختلفه و أمثالها،و التى لكلّ منها عالمها الخاصّ تعكس الحياه فى مئات الآلاف من المرايا.

إلاّ أنّ من المعلوم أنّ هذه الحيوانات تحتاج إلى الماء و الغذاء،و لذلك فإنّ الجمله التاليه أشارت إلى هذا الموضوع،فقالت: وَ أَنْزَلْنٰا مِنَ السَّمٰاءِ مٰاءً فَأَنْبَتْنٰا فِيهٰا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ .

و بهذا فإنّ الآيه تبيّن أساس حياه كلّ الحيوانات-و خاصّه الإنسان-و الذى يكوّنه الماء و النبات،فالكره الأرضيه تعتبر سماطا واسعا ذا أغذيه متنوّعه يمتدّ فى جميع أنحائها،و يصلح لكلّ نوع منها حسب خلقته،ممّا يدلّ على عظمه الخالق جلّ و علا.

و ممّا يستحقّ الانتباه هو أنّه فى بيان خلق الأقسام الثلاثه الاولى ذكرت الأفعال بصيغه الغائب،و حين وصل الأمر إلى نزول المطر و نمو النباتات أتت

۱- ۱) -لمزيد الاطلاع حول فوائد الجبال راجع ذيل الآيه(۳)من سوره الرعد.

الأفعال بصيغه المتكلّم،فيقول:نحن أنزلنا من السماء ماء،و نحن أنبتنا النباتات فی الأرض.

و هذا بنفسه أحد فنون الفصاحه،حيث إنّهم عند ما يريدون ذكر امور مختلفه، فإنّهم يبيّنونها بشكلين أو أكثر،كی لا يشعر السامع بأیّ نوع من الضجر و الرتابه، إضافه إلى أنّ هذا التعبير يوضّح أنّ نزول المطر و نمو النبات كانا محطّ اهتمام خاصّ.

ثمّ تشير هذه الآيه مرّه أخرى إلى مسأله(الزوجيّه فی عالم النباتات)و هی أيضا من معجزات القرآن العلميّه،لأنّ الزوجيّه-أی وجود الذكر و الأنثى-فی عالم النباتات لم تكن ثابته فی ذلك الزمان بصوره واسعه،و القرآن كشف الستار عنها.و لزياده التفصيل حول هذه المسأله يمكنكم مراجعه ذيل الآيه(۷)من سوره الشعراء.

ثمّ إنّ وصف أزواج النباتات ب«الكريم»إشاره ضمنيه إلى أنواع المواهب الموجوده فيها.

بعد ذكر عظمه اللّه فی عالم الخلقه،و ذكر صور مختلفه من المخلوقات،وجّهت الآيه الخطاب إلى المشركين،و جعلتهم موضع سؤال و استجواب،فقالت: هٰذٰا خَلْقُ اللّٰهِ فَأَرُونِی مٰا ذٰا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ؟! من المسلّم أنّ أولئك لم يكونوا يستطيعون ادّعاء كون أیّ من المخلوقات من خلق الأصنام،و على هذا فإنّهم كانوا يقرّون بتوحيد الخالق،مع هذا الحال كيف يستطيعون تعليل الشرك فی العباده؟!لأنّ توحيد الخالق دليل على توحيد الربّ و كون مدبّر العالم واحدا،و هو دليل على توحيد العبوديّه.

و لذلك اعتبرت الآيه عمل أولئك منطبقا على الظلم و الضلال،فقالت: بَلِ الظّٰالِمُونَ فِی ضَلاٰلٍ مُبِينٍ .

و معلوم أنّ«الظلم»له معنى واسعا يشمل وضع كلّ شیء فی غير موضعه،و لمّا

كان المشركون يربطون العباده،و تدبير العالم أحيانا بالأصنام،فإنّهم كانوا مرتكبين لأكبر ظلم و ضلاله.

ثمّ إنّ التعبير أعلاه يتضمّن إشاره لطيفه إلى ارتباط«الظلم»و«الضلال»،لأنّ الإنسان عند ما لا يعرف مكانه الموجودات الموضوعيه فى العالم،أو يعرفها و لا يراعيها،و لا يرى كلّ شيء فى مكانه،فمن المسلّم أنّ هذا الظلم سيكون سببا للضلاله و الضياع.

ص :٣١

الآيات [سوره لقمان (۳۱): الآيات ۱۲ الی ۱۵]

اشاره

وَ لَقَدْ آتَيْنا لُقْمانَ اَلْحِكْمَهَ أَنِ اُشْكُرْ لِلّهِ وَ مَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اَللّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (۱۲) وَ إِذْ قالَ لُقْمانُ لِابْنِهِ وَ هُوَ يَعِظُهُ يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللّهِ إِنَّ اَلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (۱۳) وَ وَصَّيْنَا اَلْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلى وَهْنٍ وَ فِصالُهُ فِي عامَيْنِ أَنِ اُشْكُرْ لِي وَ لِوالِدَيْكَ إِلَيَّ اَلْمَصِيرُ (۱۴) وَ إِنْ جاهَداكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما وَ صاحِبْهُما فِي اَلدُّنْيا مَعْرُوفاً وَ اِتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۱۵)

التّفسیر

اشاره

احترام الوالدین:

لتكميل البحوث السابقه حول التوحيد و الشرك،و أهميّه و عظمه القرآن، و الحكمه التى استعملت و اتّبعت فى هذا الكتاب السماوى،فقد ورد الكلام فى هذه الآيات التى نبحثها و الآيات الاخرى التاليه عن لقمان الحكيم،و عن جانب

من المواعظ المهمّه لهـذا الرجل المتألّه فى باب التوحيـد و محاربه الشـرك،و قـد انعكست المسائل الأخلاقيّه المهمّه فى مواعظ لقمان لابنه.

إنّ هـذه المواعـظ العشـره التى ذكرت ضـمن ستّ آيـات،قـد بيّنت بأسـلوب رائع المسائل العقائـديه،إضافه إلى أصول الواجبات الدينيّه و المباحث الأخلاقيه.

و سـنبحث فيمـا بعـد-فى بحث الملاحظات-إن شاء اللّه تعالى،من هو لقمان؟ و أيّه خصائص كان يمتلكها؟و لكنّ ما نـذكره هنا هو أنّ القرائن تبيّن أنّه لم يكن نبيّا،بل كان رجلا ورعا مهذّبا انتصر فى ميدان جهاد هوى النفس،فكان أن فجّر اللّه تعالى فى قلبه ينابيع العلم و الحكمه.

و يكفى فى عظمه مقامه أنّ اللّه قد قرن مواعظه بكلامه،و ذكرها فى طيّات آيات القرآن.

أجل..عنـد ما يتنوّر قلب الإنسان بنور الحكمه نتيجه للطهاره و التقوى،فإنّ الكلام الإلهى يجرى على لسانه،و يقول ما يقوله اللّه،و يفكّر بالشكل الذى يرضاه اللّه! بعد هذا التوضيح الموجز نعود إلى تفسير الآيات:

تقول الآيه الاولى: وَ لَقَدْ آتَيْنا لُقْمانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلّهِ وَ مَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (١) .

فما هى الحكمه؟

فى معرض الحـديث عـن مـاهيه الحكمه ينبغى القـول:إنّهم قـد ذكروا للحكمه معـانى كـثيره،مثـل:معرفه أسـرار عـالم الوجـود،و الإحاطه و العلم بحقائق القرآن،

١- ١) -هنـاك بحث بين المفسّـِرين فى أنّه هل يوجـد لجمله(أن اشـكر للّه)شـىء مقـدّر أم لا؟فالبعض يعتقـد أنّ جمله(قلنا له) مقدّره قبلها،و البعض يقولون:لا تحتاج إلى تقدير،و(أنّ)فى جمله(أن اشـكر)تفسـيريه،لأنّ الشـكر بنفسه عين الحكمه، و الحكمه عينه.و كلا التّفسيرين يمكن قبوله.

و الوصول إلى الحقّ من جهه القول و العمل،و معرفه اللّه.

إلاّـ أنّ كلّ هذه المعانى يمكن جمعها فى تعريف واحد،فالحكمه التى يتحدّث عنها القرآن،و التى كان اللّه قد آتاها لقمان،كانت مجموعه من المعرفه و العلم، و الأخلاق الطاهره و التقوى و نور الهدايه.

و

فى حديث عن الإمام موسى بن جعفر عليه السّلام،أنّه قال لهشام بن الحكم فى تفسير هذه الآيه: «إنّ الحكمه هى الفهم و العقل» (1) .

و

فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السّلام فى تفسير هذه الآيه،أنّه قال: «أوتى معرفه إمام زمانه» (2) .

و من الواضح أنّ كلاّ من هذه المفاهيم يعتبر أحد فروع معنى الحكمه الواسع، و لا منافاه بينها.

و على كلّ حال،فإنّ لقمان بامتلاكه هذه الحكمه كان يشكر اللّه،فقد كان يعلم الهدف من وراء هذه النعم الإلهيّه،و كيفيّه استغلالها و الاستفاده منها،و كان يضعها بدقّه و صواب كامل فى مكانها المناسب لتحقيق الهدف الذى خلقت من أجله، و هذه هى الحكمه،هى وضع كلّ شيء فى موضعه،و بناء على هذا فإنّ الشكر و الحكمه يعودان إلى نقطه واحده.

و قد اتّضحت نتيجه الشكر و الكفران للنعم بصوره ضمنيه فى الآيه،و هى أنّ شكر النعمه سيكون من صالح الإنسان و فى منفعته،و أنّ كفران النعمه سيكون سببا لضرره أيضا،لأنّ اللّه سبحانه غنىّ عن العالمين،فلو أنّ كلّ الممكنات قد شكرته فلا يزيد فى عظمته شيء،و لو أنّ كلّ الكائنات كفرت فلاـ ينقص من كبريائه شيء! إنّ«اللام»فى جمله أَنِ اشْكُرْ لِلّٰهِ لام الإختصاص،و«اللام»فى لِنَفْسِهِ لام النفع،و بناء على هذا،فإنّ نفع الشكر،و الذى هو دوام النعمه و كثرتها،إضافه

1- 1) -أصول الكافى،ج 2،ص 13.كتاب العقل و الجهل حديث 12.

2- 2) -نور الثقلين،الجزء 4،صفحه 196.

إلى ثواب الآخره يعود على الإنسان نفسه،كما أنّ مضرّه الكفر تحيق به فقط.

و التعبير ب غَنِيٌّ حَمِيدٌ إشاره إلى شكر الناس للأفراد العاديين أمّا أن يؤدّى إلى النفع المادّى للمشكور،أو زياده مكانه صاحبه فى أنظار الناس،إلاّ أنّ أيّا من هذين الأمرين لا معنى له و لا مصداق فى حقّ اللّه تعالى،فإنّه غنىّ عن الجميع، و هو أهل لحمد كلّ الحامدين و ثنائهم،فالملائكه تحمده،و كلّ ذرّات الوجود و الموجودات مشغوله بتسبيحه،و إذا ما نطق إنسان بالكفر فليس له أدنى تأثير، فحتّى ذرّات وجوده مشغوله بحمده و ثنائه بلسان الحال! و ممّا يجدر ذكره أنّ الشكر قد ذكر بصيغه المضارع،و الذى يدلّ على الاستمرار،أمّا الكفر فقد جاء بصيغه الماضى الذى يصدق حتّى على المرّه الواحده،و هذا إشاره إلى أنّ الكفران و لو لمرّه واحده يمكن أن يؤدّى إلى عواقب و خيمه مؤلمه،أمّا الشكر فإنّه لازم،و يجب أن يكون مستمرّا ليطوى الإنسان مسيره التكاملى.

و بعد تعريف لقمان و مقامه العلمى و الحكمى،أشارت الآيه التاليه إلى اولى مواعظه،و هى فى الوقت نفسه أهمّ وصاياه لولده،فقالت: وَ إِذْ قالَ لُقْمانُ لِابْنِهِ وَ هُوَ يَعِظُهُ يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ .

إنّ حكمه لقمان توجب عليه أن يتوجّه قبل كلّ شىء إلى أهمّ المسائل الأساسيه،و هى مسأله التوحيد..التوحيد فى كلّ المجالات و الأبعاد،لأنّ كلّ حركه هدّامه ضدّ التوجّه الإلهى تنبع من الشرك،من عباده الدنيا و المنصب و الهوى و أمثال ذلك،و الذى يعتبر كلّ منها فرعا من الشرك.

كما أنّ أساس كلّ الحركات الصحيحه البنّاءه هو التوحيد و التوجّه إلى اللّه، و إطاعه أوامره،و الابتعاد عن غيره،و كسر كلّ الأصنام فى ساحه كبريائه! و ممّا يستحقّ الإشاره أنّ لقمان الحكيم قد جعل علّه نفى الشرك هو أنّ الشرك

ظلم عظيم،و قد احيط بالتأكيد من عدّه جهات (۱) .

و أيّ ظلم أعظم منه،حيث جعلوا موجودات لا قيمه لها في مصافّ اللّه و درجته،هذا من جانب،و من جانب آخر يجرّون الناس إلى الضلال و الانحراف، و يظلمونهم بجناياتهم و جرائمهم،و هم يظلمون أنفسهم أيضا حيث ينزلونها من قمّه عزّه العبوديه للّه و يهوون بها إلى منحدر ذلّه العبوديه لغيره.

و الآيتان التاليتان جمل معترضه ذكرها اللّه تعالى في طيّات مواعظ لقمان،لكنّ هذا الاعتراض لا يعني عدم الاتّصال و الارتباط،بل يعني الصله الواضحه لكلام اللّه عزّ و جلّ بكلام لقمان،لأنّ في هاتين الآيتين بحثا عن نعمه وجود الوالدين و مشاقّهما و خدماتهما و حقوقهما،و جعل شكر الوالدين في درجه شكر اللّه.

إضافه إلى أنّهما تعتبران تأكيدا على كون مواعظ لقمان لابنه خالصه،لأنّ الوالدين مع هذه العلاقه القويّه و خلوص النيّه لا يمكن أن يذكرا في مواعظهما إلاّ ما فيه خير و صلاح الولد،فتقول أوّلا: وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ و عندئذ تشير إلى جهود و متاعب الامّ العظيمه،فتقول: حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلى وَهْنٍ (۲) .

و هذه المسأله قد ثبتت من الناحيه العلميه،إذ أوضحت التجارب أنّ الامّهات في فتره الحمل يصبن بالضعف و الوهن،لأنّهنّ يصرفن خلاصه وجودهنّ في تغذيه و تنميه الجنين،و يقدّمن له من موادهنّ الحياتيه أفضلها،و لذلك فإنّ الامّهات أثناء فتره الحمل يبتلين بنقص أنواع الفيتامينات و في حاله عدم تعويض هذا النقص فسيؤدّي إلى آلام و متاعب كثيره.

و هذا الأمر يستمر حتّى في فتره الرضاعه،لأنّ اللبن عصاره وجود الامّ،و لهذا تضيف بعد ذلك فتره رضاعه سنتان وَ فِصالُهُ فِي عامَيْنِ كما أشير إلى ذلك في

ص: ۳۶

۱- ۱) -إنّ كلاّ من(أن)و«اللام»،و كون الجمله اسميّه من أدوات التأكيد.

۲- ۲) -إنّ جمله(وهنا على وهن)يمكن أن تكون حالا للامّ بتقدير كلمه«ذات»،فكان تقديرها(حملته أمّه ذات وهن على وهن).و احتمل أيضا أن تكون مفعولا مطلقا لفعل مقدّر من مادّه(وهن)فكان تقديره:(تهن و هنا على وهن).

موضع آخر من القرآن: وَ الْوٰالِدٰاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كٰامِلَيْنِ (١) ،و المراد فتره الرضاعه الكامله،و إن كانت تتمّ أحيانا بفتره أقلّ.

و على كلّ حال،فإنّ الامّ فى هذه ال(٣٣)شهرا-فتره الحمل،و فتره الرضاع- تبدى و تقدّم أعظم تضحيه لولدها،سواء كان من الجانب الروحى و العاطفى،أو الجسمى،أو من جهه الخدمات و الرعايه.

و الملفت للنظر هنا أنّها توصى فى البدايه بالوالدين معا،إلاّ أنّها عند بيان المشاقّ و المتاعب تؤكّد على متاعب الامّ،لتنبّه الإنسان إلى إيثارها و تضحياتها و حقّها العظيم.

ثمّ تقول: أَنِ اشْكُرْ لِي وَ لِوٰالِدَيْكَ فاشكرنى لأنّى خالقك و المنعم الأصلّى عليك،و منحتك مثل هذين الأبوين العطوفين الرحيمين،و اشكر والديك لأنّهما واسطه هذا الفيض و قد تحمّلا مسئوليه إيصال نعمى إليك.فما أجمل أن يجعل شكر الوالدين قرين شكر اللّه!و ما أعمق مغزاه! و يقول اللّه تعالى فى نهايه الآيه بنبره لا تخلو من التهديد و العتاب: إِلَيَّ الْمَصِيرُ .نعم،فإنّك إذا قصّرت هنا فستحاسب على كلّ هذه الحقوق و المصاعب و الخدمات بدقّه فيجب على الإنسان أن يؤدّى ما عليه من شكر مواهب اللّه.

و كذلك شكر نعمه وجود الأبوين و عواطفهما الصادقه الطاهره لينجح فى ذلك الحساب و تلك المحكمه.

و فى هذا المجال التفت بعض المفسّرين إلى مسأله لطيفه،و هى أنّه قد ورد التأكيد على رعايه حقوق الأبوين مرارا فى القرآن المجيد،إلاّ أنّ التوصيه بالأولاد تلاحظ قليلا-ما عدا مورد النهى عن قتل الأولاد،و التى كانت عاده مشؤومه قبيحه و استثنائيه فى عصر الجاهليه-و ذلك لأنّ الوالدين،و بحكم

١- ١) -البقره،٢٣٣.

عواطفهما القويّه،قلّ ما يهملوا أولادهما بيد النسيان،فى حين يلاحظ بكثره أنّ الأولاد ينسون الأبوين،و خاصّه عند الكبر و العجز،و تعتبر هذه آلم و أشدّ حاله لهما،و أسوأ صور كفران النعمه بالنسبه للأولاد (۱) .

إنّ الوصيّه بالإحسان إلى الأبوين قد توجد الاشتباه و الوهم عند البعض و ذلک حینما یظنّ أنّه یجب مداراتهما و اتّباعهما حتّى فى مسأله العقیده و الکفر و الإیمان،لکنّ الآیه التالیه تقول: وَ إِنْ جٰاهَدٰاکَ عَلىٰ أَنْ تُشْرِکَ بِی مٰا لَیْسَ لَکَ بِهِ عِلْمٌ فَلاٰ تُطِعْهُمٰا فیجب أن لا تکون علاقه الإنسان بأمّه و أبیه مقدّمه على علاقته باللّه مطلقا،و أن لا تکون عواطف القرابه حاکمه على عقیدته الدینیّه أبدا.

جمله جٰاهَدٰاکَ إشاره إلى أنّ الأبوین قد یظنّان أحیانا أنّهما یریدان سعاده الولد،و یسعیان إلى جرّه إلى عقیدتهما المنحرفه و الإیمان بها،و هذا یلاحظ لدى کلّ الآباء و الامّهات.

إنّ واجب الأولاد أن لا یستسلموا أبدا أمام هذه الضغوط،و یجب أن یحافظوا على استقلالهم الفکری،و لا یساوموا على عقیده التوحید،أو یبدّلوها بأیّ شیء.

ثمّ إنّ جمله مٰا لَیْسَ لَکَ بِهِ عِلْمٌ تشیر ضمنا إلى أنّنا لو نتجاهل أدلّه بطلان الشرک،و لم نقم لها وزنا،فإنّه لا یوجد دلیل على إثباته،و لا یستطیع أیّ متعنّت إثبات الشرک بالدلیل.

و إذا تجاوزنا ذلک،فإنّ الشرک إن کانت له حقیقه،فینبغی أن یکون هناک دلیل على إثباته،و لمّا لم یکن هناک دلیل على إثباته،فإنّ هذا بنفسه دلیل على بطلانه.

و لمّا کان من الممکن أیضا أن یوجد هذا الأمر توهّم وجوب استخدام الخشونه مع الوالدین المشرکین و عدم احترامهما،و لذلک أضافت الآیه أنّ عدم طاعتهما فی مسأله الشرک لیس دلیلا على وجوب قطع العلاقه معهما،بل تأمره الآیه أن

۱- ۱) -تفسیر فی ظلال القرآن،الجزء ۶،ص ۴۸۴.

وَ صٰاحِبْهُمٰا فِی الدُّنْیٰا مَعْرُوفاً

.

فلاطفهما و أظهر المحبّه لهما فی الحیاه الدنیویّه و المعاشره،و لا تستسلم لأفکارهما و اقتراحاتهما من الناحیه العقائدیه و البرامج الدینیّه،و هذه بالضبط نقطه الاعتدال الأصلیّه التی تجمع فیها حقوق اللّه و الوالدین،و لذا یضیف بعد ذلک وَ اتَّبِعْ سَبِیلَ مَنْ أَنٰابَ إِلَیَّ لأنّ المصیر إلیه سبحانه ثُمَّ إِلَیَّ مَرْجِعُکُمْ فَأُنَبِّئُکُمْ بِمٰا کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

إنّ سبب النفی و الإثبات المتلاحق،و الأوامر و النواهی المتتابعه فی الآیات أعلاه هو أن یجد المسلمون الخطّ الأصلی و یشخّصوه فی مثل هذه المسائل، حیث یبدو فی أوّل الأمر أنّ هناک تناقضا فی أداء هذین الواجبین،فإن تفکّروا قلیلا فإنّ المسیر الصحیح سیکون نصب أعینهم،و سیسیرون فیه دون أدنی إفراط و لا تفریط،و هذه الدقّه و اللطافه القرآنیه فی أمثال هذه الدقائق من صور فصاحه القرآن و بلاغته العمیقه.

و علی کلّ حال،فإنّ الآیه أعلاه تشبه ما جاء فی الآیه(۸)من سوره العنکبوت،حیث تقول: وَ وَصَّیْنَا الْإِنْسٰانَ بِوٰالِدَیْهِ حُسْناً وَ إِنْ جٰاهَدٰاکَ لِتُشْرِکَ بِی مٰا لَیْسَ لَکَ بِهِ عِلْمٌ فَلاٰ تُطِعْهُمٰا إِلَیَّ مَرْجِعُکُمْ فَأُنَبِّئُکُمْ بِمٰا کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ و قد أوردنا فی ذیل الآیه(۸)من سوره العنکبوت سبب نزول لها ذکر فی بعض التفاسیر.

بحثان

اشاره

۱-من هو لقمان؟

لقد ورد اسم«لقمان»فی آیتین من القرآن فی هذه السوره،و لا یوجد فی القرآن دلیل صریح علی أنّه کان نبیّا أم لا،کما أنّ أسلوب القرآن فی شأن لقمان یوحی بأنّه لم یکن نبیّا،لأنّه یلاحظ فی القرآن أنّ الکلام فی شأن الأنبیاء عاده یدور حول الرساله و الدعوه إلی التوحید و محاربه الشرک و انحرافات البیئه،و عدم

المطالبه بالأجر و المكافأه،و كـذلك بشاره الأمم و إنـذارها،فی حین أنّ أیّا من هذه الأمور لم یذکر فی شأن لقمان،و الذی ورد هو مجموعه مواعظ خاصّه مع ولده (رغم شمولیتها و عمومیتها)،و هذا دلیل علی أنّه کان رجلا حکیما و حسب.

و

فی حـدیثه عـن الرّسـول الأـکرم صـلّی اللّه علیـه و آلـه: «حقّا أقـول:لم یکن لقمـان نبیّا،و لکن کـان عبـدا کـثیر التفکّر،حسـن الیقین،أحبّ اللّه فأحبّه و منّ علیه بالحکمه».

و جاء فی بعض التواریخ:أنّ لقمان کان عبدا أسود من سودان مصـر،و لکنّه إلی جانب وجهه الأسود کان له قلب مضـیء و روح صافیه،و کان یصدق فی القول من البدایه،و لا یمزج الأمانه بالخیانه،و لم یکن یتدخّل فیما لا یعنیه (۱) .

و احتمل بعض المفسّرین نبوّته،لکن-کما قلنا-لا یوجد دلیل علی ذلک،بل لدینا شواهد واضحه علی نقیض ذلک.

و

جاء فی بعض الرّوایات: أنّ شخصا سأل لقمان:ألم تکون ترعی معنا؟قال:

نعم.

قال الرجل:فمن أین أتاک کلّ هذا العلم و الحکمه؟ قال:قدر اللّه،و أداء الأمانه،و صدق الحدیث،و الصمت عمّا لا یعنینی (۲) .

و

ورد کذلک فی ذیل الحدیث الذی نقلناه عن الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله: «کان لقمان نائما نصف النهار،إذ جاءه نداء:یا لقمان،هل لک أن یجعلک اللّه خلیفه تحکم بین الناس بالحقّ؟فأجاب الصوت:إن خیّرنی ربّی قبلت العافیه،و لم أقبل البلاء،و إن عزم علیّ فسمعا و طاعه،فإنّی أعلم أنّه إن فعل بی ذلک أعاننی و عصمنی.

فقالت الملائکه:دون أن یراهم:لم یا لقمان؟ قال:لأنّ الحکم أشـدّ المنازل و آکـدها،یغشاه الظلم من کلّ مکان،إن وقی فبالحری أن ینجو،و إن أخطأ أخطأ طریق الجنّه،و من یکن فی الدنیا ذلیلا و فی

۱- ۱) -قصص القرآن.شرح أحوال لقمان.

۲- ۲) -مجمع البیان ذیل الآیات مورد البحث.

الآخره شریفا خیر من أن یکون فی الدنیا شریفا و فی الآخره ذلیلا،و من یخیّر الدنیا علی الآخره تفته الدنیا و لا یصیب الآخره.

فتعجّبت الملائکه من حسن منطقه،فنام نومه فاعطی الحکمه،فانتبه یتکلّم بها» (1) .

۲-صور من حکمه لقمان

لقد ذکر بعض المفسّرین بعضا من کلمات لقمان الحکیمه مناسبه للمواعظ التی وردت فی آیات هذه السوره،و نحن نذکر هنا مختصرا منها:

أ-کان لقمان یقول لابنه:یا بنی،إنّ الدنیا بحر عمیق،و قد هلک فیها عالم کثیر، فاجعل سفینتک فیها الإیمان باللّه،و اجعل شراعها التوکّل علی اللّه،و اجعل زادک فیها تقوی اللّه،فإن نجوت فبرحمه اللّه،و إن هلکت فبذنوبک (2) .

و

قد ورد نفس هذا المطلب ضمن کلام الإمام الکاظم علیه السّلام مع هشام بن الحکم بصوره أکمل،نقلا عن لقمان الحکیم: «یا بنیّ،إنّ الدنیا بحر عمیق،قد غرق فیها عالم کثیر،فلتکن سفینتک فیها تقوی اللّه،و حشوها الإیمان،و شراعها التوکّل، و قیّمها العقل،و دلیلها العلم،و سکّانها الصبر» (3) .

ب-و فی حوار آخر مع ابنه حول آداب السفر یقول:

یا بنیّ،سافر بسیفک و خفّک و عمامتک،و خبائک و سقائک،و خیوطک و مخرزک، و تزوّد معک من الأدویه ما تنتفع به أنت و من معک،و کن لأصحابک موافقا إلاّ فی معصیه اللّه عزّ و جلّ.

یا بنیّ،إذا سافرت مع قوم فأکثر استشارتهم فی أمرک و أمورهم.

1- 1) -مجمع البیان الجزء 8 صفحه 316 ذیل الآیه مورد البحث.

2- 2) -مجمع البیان.ذیل الآیه مورد البحث.

3- 3) -اصول الکافی،المجلّد الأوّل،صفحه 13 کتاب العقل و الجهل.

و أكثر التبسّم فی وجوههم.

و کن کریما علی زادک بینهم.

و إذا دعوک فأجبهم،و إذا استعانوا بک فأعنهم.

و استعمل طول الصمت،و کثره الصلاه،و سخاء النفس بما معک من دابّه أو ماء أو زاد.

و إذا استشهدوک علی الحقّ فاشهد لهم.

و اجهد رأیک إذا استشاروک،ثمّ لا تعزم حتّی تتثبّت و تنظر،و لا تجب فی مشوره حتّی تقوم فیها و تقعد،و تنام و تأکل و تصلّی،و أنت مستعمل فکرتک و حکمتک فی مشورته،فإنّ من لم یمحض النتیجه من استشاره سلبه اللّه رأیه.

و إذا رأیت أصحابک یمشون فامش معهم،فإذا رأیتهم یعملون فاعمل معهم.

و اسمع لمن هو أکبر منک سنّا.

و إذا أمروک بأمر،و سألوک شیئا فقل:نعم،و لا تقل:لا،فإنّ(لا)عی و لؤم.

یا بنیّ،إذا جاء وقت الصلاه فلا تؤخّرها لشیء،صلّها و استرح منها فإنّها دین.

و صلّ فی جماعه و لو علی رأس زجّ.

و إن استطعت أن لا تأکل طعاما حتّی تبتدئ فتتصدّق منه فافعل.

و علیک بقراءه کتاب اللّه (۱) .

ج-و ثمّه قصّه معروفه أیضا عن لقمان،و هی أنّ مولاه دعاه-یوم کان عبدا- فقال:اذبح شاه،فأتنی بأطیب مضغتین منها،فذبح شاه،و أتاه بالقلب و اللسان.

و بعد عدّه أیّام أمره أن یذبح شاه،و یأتیه بأخبث أعضائها،فذبح شاه و أتاه بالقلب و اللسان،فتعجّب و سأله عن ذلک فقال:إنّ القلب و اللسان إذا طهّرا فهما أطیب من کلّ شیء،و إذا خبثا کانا أخبث من کلّ شیء (۲) .

۱- ۱) -المصدر السابق.

۲- ۲) -تفسیر البیضاوی و الثعلبی،و لکن نقل فی مجمع البیان جزءه الأوّل فقط.

و ننهى هذا البحث بحديث

عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال: «و اللّه ما اوتى لقمان الحكمه لحسب و لا مال و لا بسط فى جسم و لا جمال،و لكنّه كان رجلا قويّا فى أمر اللّه،متورّعا فى اللّه،ساكتا سكينا عميق النظر،طويل التفكّر،حديد البصر.

و لم ينم نهارا قطّ-أى أوّله-و لم يتكئ فى مجلس قطّ-و هو عرف المتكبّرين-و لم يتفل فى مجلس قوم قطّ،و لم يعبث بشىء قطّ،و لم يره أحد من الناس على بول و لا غائط قطّ،و لا على اغتسال لشدّه تستّره و تحفّظه فى أمره.

و لم يمرّ بين رجلين يقتتلان أو يختصمان إلاّ أصلح بينهما،و لم يسمع قولا استحسنه من أحد قطّ إلاّ سأله عن تفسيره و عمّن أخذه،و كان يكثر مجالسه الفقهاء و العلماء،و يتعلّم من العلوم ما يغلب به نفسه،و يجاهد به هواه،و كان لا يظعن إلاّ فيما ينفعه،و لا ينظر إلاّ فيما يعنيه،فبذلك اوتى الحكمه و منح القضيّه» (۱) .

۱- ۱) مجمع البيان بتلخيص.

الآيات [سوره لقمان (۳۱): الآيات ۱۶ الی ۱۹]

اشاره

يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي اَلسَّمَاوَاتِ أَوْ فِي اَلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اَللَّهُ إِنَّ اَللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (۱۶) يَا بُنَيَّ أَقِمِ اَلصَّلاَةَ وَ أْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَ اِنْهَ عَنِ اَلْمُنْكَرِ وَ اِصْبِرْ عَلىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذٰلِكَ مِنْ عَزْمِ اَلْأُمُورِ (۱۷) وَ لاٰ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنّٰاسِ وَ لاٰ تَمْشِ فِي اَلْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اَللّٰهَ لاٰ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتٰالٍ فَخُورٍ (۱۸) وَ اِقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَ اُغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ اَلْأَصْوٰاتِ لَصَوْتُ اَلْحَمِيرِ (۱۹)

التّفسیر

اشاره

أثبت كالجبل،و عامل الناس بالحسنى!

كانت اولى مواعظ لقمان عن مسأله التوحيد و محاربه الشرك،و ثانيتها عن حساب الأعمال و المعاد،و التى تكمّل حلقه المبدأ و المعاد،فيقول: يٰا بُنَيَّ إِنَّهٰا إِنْ تَكُ مِثْقٰالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمٰاوٰاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللّٰهُ أى فى يوم القيامه و يضعها للحساب إِنَّ اللّٰهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ .

ص: ۴۴

«الخردل»:نبات له حبّات سوداء صغيره جدّا يضرب المثل بصغرها،و هذا التعبير إشاره إلى أنّ أعمال الخير و الشرّ مهما كانت صغيره لا قيمه لها،و مهما كانت خفيّه كخردله فی بطن صخره فی أعماق الأرض،أو فی زاويه من السماء،فإنّ اللّه اللطيف الخبير المطّلع على كلّ الموجودات،صغيرها و كبيرها فی جميع أنحاء العالم،سيحضرها للحساب و العقاب و الثواب،و لا يضيّع شیء فی هذا الحساب.

و الضمير فی«إنّها»يعود إلى الحسنات و السيّئات،و الإحسان و الإساءه (۱) .

إنّ الالتفات و التوجّه إلى هذا الاطّلاع التامّ من قبل الخالق سبحانه على أعمال الإنسان و علمه بها،و بقاء كلّ الحسنات و السيّئات محفوظه فی كتاب علم اللّه، و عدم ضياع و تلف شیء فی عالم الوجود هذا،هو أساس كلّ الإصلاحات الفرديّه و الاجتماعيه،و هو قوّه و طاقه محرّكه نحو الخيرات،و سدّ منيع من الشرور و السيّئات.و ذكر السماوات و الأرض بعد بيان الصخره،هو فی الواقع من قبيل ذكر العامّ بعد الخاصّ.

و

فی حديث روی عن الإمام الباقر عليه السّلام: «اتّقوا المحقّرات من الذنوب،فإنّ لها طالبا،يقول أحدكم:أذنب و أستغفر،إنّ اللّه عزّ و جلّ يقول: نَكْتُبُ مٰا قَدَّمُوا وَ آثٰارَهُمْ وَ كُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنٰاهُ فِي إِمٰامٍ مُبِينٍ .و قال عزّ و جلّ: إِنَّهٰا إِنْ تَكُ مِثْقٰالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمٰاوٰاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللّٰهُ إِنَّ اللّٰهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (۲) .

و بعد تحكيم أسس المبدأ و المعاد،و التی هی أساس كلّ الإعتقادات الدينيّه، تطرّق لقمان إلى أهمّ الأعمال،أی مسأله الصلاه،فقال: يٰا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاٰةَ لأنّ الصلاه أهمّ علاقه و ارتباط مع الخالق،و الصلاه تنوّر قلبك،و تصفّی روحك، و تضیء حياتك،و تطهّر روحك من آثار الذنب،و تقذف نور الإيمان فی أنحاء

۱- ۱) احتمل البعض أنّ الضمير أعلاه ضمير الشأن و القصّه،أو يعود إلى مفهوم الشرك،و كلا الاحتمالين بعيد.

۲- ۲) نور الثقلين،الجزء ۴،صفحه ۲۰۴.

وجودک،و تمنعک عن الفحشاء و المنکر.

و بعد الصلاه یتطرّق لقمان إلی أهمّ دستور اجتماعی،أی الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر،فیقول: وَ أْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَ انْهَ عَنِ الْمُنْکَرِ .

و بعد هذه الأوامر العملیّه المهمّه الثلاثه،ینتقل إلی مسأله الصبر و الاستقامه، و التی هی من الإیمان بمنزله الرأس من الجسد،فیقول: وَ اصْبِرْ عَلیٰ مٰا أَصٰابَکَ إِنَّ ذٰلِکَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ .

من المسلّم أنّه توجد مشاکل و عقبات کثیره فی سائر الأعمال الاجتماعیه، و خاصّه فی مسأله الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر،و من المسلّم أیضا أنّ أصحاب المصالح و المتسلّطین،و المجرمین و الأنانیّین لا یستسلمون بهذه السهوله،بل یسعون إلی إیذاء و اتّهام الآمرین بالمعروف و الناهین عن المنکر،و لا یمکن الإنتصار علی هذه المصاعب و العقبات بدون الصبر و التحمّل و الاستقامه أبدا.

«العزم»بمعنی الإراده المحکمه القویّه،و التعبیر ب عَزْمِ الْأُمُورِ هنا إمّا بمعنی الأعمال التی أمر اللّه بها أمرا مؤکّدا،أو الأمور و الأعمال التی یجب أن یمتلک الإنسان فیها إراده فولاذیه و تصمیما راسخا،و أیّا من هذین المعنیین کان فإنّه یشیر إلی أهمیّه تلک الأعمال.

و التعبیر ب«ذلک»إشاره إلی الصبر و التحمّل،و یحتمل أیضا أن یعود إلی کلّ الأمور و المسائل التی ذکرت فی الآیه أعلاه،و من جملتها الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر،إلاّ أنّ هذا التعبیر قد ورد بعد مسأله الصبر فی بعض الآیات القرآنیه الاخری،و هذا یدعم و یقوّی الاحتمال الأوّل.

ثمّ انتقل لقمان إلی المسائل الأخلاقیه المرتبطه بالناس و النفس،فیوصی أوّلا بالتواضع و البشاشه و عدم التکبر،فیقول: وَ لاٰ تُصَعِّرْ خَدَّکَ لِلنّٰاسِ أی لا تعرض بوجهک عن الناس وَ لاٰ تَمْشِ فِی الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللّٰهَ لاٰ یُحِبُّ کُلَّ مُخْتٰالٍ فَخُورٍ .

«تصعّر»:من مادّه(صعّر)،و هی فی الأصل مرض یصیب البعیر فیؤدّی إلی اعوجاج رقبته.

و«المرح»:یعنی الغرور و البطر الناشئ من النعمه.

و«المختال»:من مادّه(الخیال)و(الخیلاء)،و تعنی الشخص الذی یری نفسه عظیما و کبیرا،نتیجه سلسله من التخیّلات و الأوهام.

و«الفخور»:من مادّه(الفخر)و یعنی الشخص الذی یفتخر علی الآخرین.

و الفرق بین کلمتی المختال و الفخور،أنّ الاولی إشاره إلی التخیّلات الذهنیّه للکبر و العظمه،أمّا الثّانیه فهی تشیر إلی أعمال التکبّر الخارجی.

و علی هذا،فإنّ لقمان الحکیم یشیر هنا إلی صفتین مذمومتین جدّا و أساس توهین و قطع الروابط الاجتماعیه الصمیمیّه:إحداهما التکبّر و عدم الاهتمام بالآخرین،و الاخری الغرور و العجب بالنفس،و هما مشترکتان من جهه دفع الإنسان إلی عالم من التوهّم و الخیال و نظره التفوّق علی الآخرین،و إسقاطه فی هذه الهاویه،و بالتالی تقطعان علاقته بالآخرین و تعزلانه عنهم،خاصّه و أنّه بملاحظه الأصل اللغوی ل«صعّر»سیتّضح أنّ مثل هذه الصفات مرض نفسی و أخلاقی،و نوع من الانحراف فی التشخیص و التفکیر،و إلاّ فإنّ الإنسان السالم من الناحیه الروحیه و النفسیه لا یبتلی مطلقا بمثل هذه الظنون و التخیّلات.

و لا یخفی أنّ مراد لقمان لم یکن مسأله الإعراض عن الناس،أو المشی بغرور و حسب،بل المراد محاربه کلّ مظاهر التکبّر و الغرور،و لمّا کانت هذه الصفات تظهر فی طلیعه الحرکات العادیّه الیومیّه،فإنّه وضع إصبعه علی مثل هذه المظاهر الخاصّه.

ثمّ بیّن فی الآیه التالیه أمرین و سلوکین أخلاقیین إیجابیّین فی مقابل النهیین عن سلوکین سلبیین فی الآیه السابقه فیقول:ابتغ الاعتدال فی مشیک: وَ اقْصِدْ فِی مَشْیِکَ و ابتغ الاعتدال کذلک فی کلامک و لا ترفع صوتک عالیا وَ اغْضُضْ مِنْ

صَوْتِکَ إِنَّ أَنْکَرَ الْأَصْوٰاتِ لَصَوْتُ الْحَمِیرِ

(۱)

.

إنّ هاتین الآیتین فی الحقیقه أمرتا بصفتین،و نهتا عن صفتین:

فالنهی عن«التکبّر»و«العجب»،فإنّ أحدهما یؤدّی إلی أن یتکبّر الإنسان علی عباد اللّه،و الآخر یؤدّی إلی أن یظنّ الإنسان أنّه فی مرتبه الکمال و أسمی من الآخرین،و بالتالی سیغلق أبواب التکامل بوجهه،و إن کان لا یقارن بینه و بین الآخرین.

و بالرغم من أنّ هاتین الصفتین مقترنتان غالبا،و لهما أصل مشترک،إلاّ أنّهما قد تفترقان أحیانا.

أمّا الأمر بصفتین،فهما رعایه الاعتدال فی العمل و الکلام،لأنّ التأکید علی الاعتدال فی المشی أو إطلاق الصوت هو من باب المثال فی الحقیقه.

و الحقّ أنّ الإنسان الذی یتّبع هذه النصائح الأربع موفّق و سعید و ناجح فی الحیاه،و محبوب بین الناس،و عزیز عند اللّه.

و ممّا یستحقّ الانتباه أنّ من الممکن أن نسمع أصواتا أزعج من أصوات الحمیر فی محیط حیاتنا،کصوت سحب بعض القطع الفلزّیه إلی بعضها الآخر، حیث یحسّ الإنسان عند سماعه بأنّ لحمه یتساقط،إلاّ أنّ هذه الأصوات لا تمتلک صفه عامّه،إضافه إلی وجود فرق بین المزعج و القبیح من الأصوات، و الحقّ هو أنّ صوت الحمار أقبح من کلّ الأصوات العادیّه التی یسمعها الإنسان، و به شبّهت صرخات و نعرات المغرورین البله.

و لیس القبح من جهه ارتفاع الصوت و طریقته فحسب،بل من جهه کونه بلا سبب أحیانا،لأنّ بعض المفسّرین یقولون:إنّ أصوات الحیوانات تعبّر غالبا عن حاجه،إلاّ أنّ هذا الحیوان یطلق صوته أحیانا بدون مبرّر أو داع،و بدون أیّ

۱- ۱) «أنکر»أفعل التفضیل،و مع أنّه لا یأتی عاده فی مورد المفعول،إلاّ أنّ هذه الصیغه وردت بصوره نادره فی باب العیوب.

حاجه أو مقدّمه!و ربّما كان ما ورد فى بعض الرّوايات من أنّ الحمار كلّما أطلق صوته فقد رأى شيطانا،لهذا السبب.

و قال البعض:إنّ صراخ كلّ حيوان تسبيح إلاّ صوت الحمار! و على كلّ حال،فإنّنا إذا تجاوزنا كلّ ذلك،فإنّ كون هذا الصوت قبيحا من بين الأصوات لا يحتاج إلى بحث، و إذا رأينا فى الرّوايات المرويّه عن الإمام الصادق عليه السّلام،و التى فسّرت هذه الآيه بالعطسه بصوت عال،أو الصراخ عند التكلّم و التحدّث،فإنّه فى الحقيقه مصداق واضح لذلك (۱) .

تعليقات

اشاره

۱-آداب المشى

صحيح أنّ المشى مسأله سهله و بسيطه،إلاّ أنّ نفس هذه المسأله السهله يمكن أن تعكس أحوال و أوضاع الإنسان الداخليه و الأخلاقيه،و قد تحدّد ملامح شخصيته،لأنّ روحيّه الإنسان و أخلاقه تنعكس فى طيّات كلّ أعماله،كما قلنا سابقا،و قد يكون العمل الصغير حاكيا عن روحيه متأصّله أحيانا.و لمّا كان الإسلام قد اهتمّ بكلّ أبعاد الحياه،فإنّه لم يهمل شيئا فى هذا الباب أيضا.

ففى حديث عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله: «من مشى على الأرض اختيالا لعنته الأرض و من تحتها و من فوقها» (۲) .

و

فى حديث آخر عن النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله أنّه نهى أن يختال الرجل فى مشيه، و قال:«من لبس ثوبا فاختال فيه خسف اللّه به من شفير جهنّم،و كان قرين قارون

۱- ۱) مجمع البيان،ذيل الآيه مورد البحث.

۲- ۲) ثواب الأعمال و أمالى الصدوق،طبقا لنقل تفسير نور الثقلين،الجزء ۴،صفحه ۲۰۷.

لأنّه أوّل من اختال!» (۱) .

و كذلك

ورد عن الصادق عليه السّلام أنّه قال: «إنّ اللّه تبارك و تعالى فرض الإيمان على جوارح ابن آدم و قسّمه عليها و فرّقه فيها-إلى أن قال-و فرض على الرجلين أن لا تمشى بهما إلى شيء من معاصى اللّه،و فرض عليهما المشى إلى ما يرضى اللّه عزّ و جلّ،فقال تعالى: وَ لاٰ تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً و قال: وَ اقْصِدْ فِي مَشْيِكَ (۲) .

و قد نقل ذلك عن نبى الإسلام العزيز صلّى اللّه عليه و آله،و ذلك أنّه

كان قد مرّ من طريق،فرأى مجنونا قد اجتمع الناس حوله ينظرون إليه،فقال:«علام اجتمع هؤلاء؟»فقالوا:

على مجنون يصرع،فنظر إليهم النّبى صلّى اللّه عليه و آله و قال:«ما هذا بمجنون!ألا أخبركم بالمجنون حقّ المجنون؟»قالوا:بلى يا رسول اللّه،فقال:«إنّ المجنون:المتبختر فى مشيه،الناظر فى عطفيه،المحرّك جنبيه بمنكبيه،فذلك المجنون و هذا المبتلى» (۳) .

۲-آداب الحديث

لقد وردت إشاره إلى آداب الحديث فى مواعظ لقمان،و قد فتح فى الإسلام باب واسع لهذه المسأله،و ذكرت فيه آداب كثيره من جملتها:

-طالما لم تكن هناك ضروره للحديث و التكلّم،فإنّ السكوت خير منه،كما نرى ذلك

فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام: «السكوت راحه للعقل» (۴) .

-و

جاء فى حديث عن الإمام على بن موسى الرضا عليهما السّلام: «من علامات الفقه:

العلم و الحلم و الصمت،إنّ الصمت باب من أبواب الحكمه» (۵) .

-و قد ورد التأكيد فى روايات اخرى على أنّه لا ينبغى للمؤمن أن يسكت فى

۱- ۱) المصدر السابق.

۲- ۲) اصول الكافى،الجزء الثّانى،صفحه ۲۸ باب(أنّ الإيمان مبثوث لجوارح البدن كلّها).

۳- ۳) بحار الأنوار،ج ۷۶،صفحه ۵۷.

۴- ۴) الوسائل،الجزء صفحه ۵۳۲.

۵- ۵) المصدر السابق.

المواضع التی یلزم فیها الکلام،و أنّ الأنبیاء بعثوا بالکلام لا بالسکوت،و أنّ وسیله الوصول إلی الجنّه و الخلاص من النار هی الکلام فی الموضع المناسب (۱) .

۳-آداب العشره

لقد اهتمّت الروایات الإسلامیه الوارده عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و أئمّه أهل البیت علیهم السّلام بمسأله التواضع و حسن الخلق و الملاطفه فی المعامله،و ترک الخشونه و الجفاء فی المعاشره،اهتماما قلّ نظیره فی الموارد الاخری، و أفضل و أبلغ شاهد فی هذا الباب هی الروایات الإسلامیه نفسها،و نذکر منها هنا نماذج:

-

جاء رجل إلی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله فقال:یا رسول اللّه،أوصنی،فکان فیما أوصاه أن قال:«الق أخاک بوجه منبسط» (۲)

.

و

فی حدیث آخر عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله أنّه قال: «ما یوضع فی میزان امرئ یوم القیامه أفضل من حسن الخلق» (۳) .

-و

جاء فی حدیث آخر عن الإمام الصادق علیه السّلام: «البرّ و حسن الخلق یعمران الدیار،و یزیدان فی الأعمار» (۴) .

و

نقل عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله: «أکثر ما تلج به امّتی الجنّه تقوی اللّه و حسن الخلق» (۵) .

و

عن علی علیه السّلام فی شأن التواضع: «زینه الشریف التواضع» (۶) .

-و أخیرا نطالع

فی حدیث عن الإمام الصادق علیه السّلام: «التواضع أصل کلّ خیر

۱- ۱) المصدر السابق.

۲- ۲) بحار الأنوار،الجزء ۷۴،صفحه ۱۷۱.

۳- ۳) اصول الكافی،الجزء ۲،باب حسن الخلق و ما بعده صفحه ۸۱،۸۲.

۴- ۴) المصدر السابق.

۵- ۵) المصدر السابق.

۶- ۶) بحار الأنوار،الجزء ۷۵،صفحه ۱۲۰.

نفیس،و مرتبه رفیعه،و لو کـان للتواضع لغه یفهمهـا الخلق لنطق عن حقـائق مـا فی مخفیـات العواقب..و من تواضع للّه شـرّفه اللّه علی کثیر من عباده..و لیس للّه عزّ و جلّ عباده یقبلها و یرضاها إلاّ و بابها التواضع» (1) .

1- 1) بحار الأنوار،الجزء 75،صفحه 121.

الآیات [سوره لقمان (۳۱): الآیات ۲۰ الی ۲۴]

اشاره

أَ لَمْ تَرَوْا أَنَّ اَللّٰهَ سَخَّرَ لَكُمْ مٰا فِي اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِي اَلْأَرْضِ وَ أَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظٰاهِرَةً وَ بٰاطِنَةً وَ مِنَ اَلنّٰاسِ مَنْ يُجٰادِلُ فِي اَللّٰهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ لاٰ هُدىً وَ لاٰ كِتٰابٍ مُنِيرٍ (۲۰) وَ إِذٰا قِيلَ لَهُمُ اِتَّبِعُوا مٰا أَنْزَلَ اَللّٰهُ قٰالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مٰا وَجَدْنٰا عَلَيْهِ آبٰاءَنٰا أَ وَ لَوْ كٰانَ اَلشَّيْطٰانُ يَدْعُوهُمْ إِلىٰ عَذٰابِ اَلسَّعِيرِ (۲۱) وَ مَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اَللّٰهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اِسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ اَلْوُثْقىٰ وَ إِلَى اَللّٰهِ عٰاقِبَةُ اَلْأُمُورِ (۲۲) وَ مَنْ كَفَرَ فَلاٰ يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنٰا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمٰا عَمِلُوا إِنَّ اَللّٰهَ عَلِيمٌ بِذٰاتِ اَلصُّدُورِ (۲۳) نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلىٰ عَذٰابٍ غَلِيظٍ (۲۴)

التّفسير

بعد انتهاء مواعظ لقمان العشر حول المبدأ و المعاد و طريقه الحياه،و خطط و برامج القرآن الأخلاقيه و الاجتماعيه،و لأجل إكمال البحث،تتّجه الآيات إلى بيان نعم اللّه تعالى لتبعث فى الناس حسن الشكر..الشكر الذى يكون منبعا لمعرفه

ص: ۵۳

اللّه و طاعه أوامره (۱) ، فيوجّه الخطاب لكلّ البشر،فيقول: أَ لَمْ تَرَوْا أَنَّ اللّهَ سَخَّرَ لَكَمْ ما فِى السَّماواتِ وَ ما فِى الْأَرْضِ .

إنّ لتسخير الموجودات السماويه و الأرضيّه للإنسان معنى واسعا يشمل الأمور التى فى قبضته و إختياره،و يستخدمها برغبته و إرادته فى طريق تحصيل منافعه ككثير من الموجودات الأرضيّه،كما تشمل الأمور التى ليست تحت تصرّفه و إختياره،لكنّها تخدم الإنسان بأمر اللّه جلّ و علا كالشمس و القمر.و بناء على هذا فإنّ كلّ الموجودات مسخّره بإذن اللّه لنفع البشر،سواء كانت مسخّره بأمر الإنسان أم لا،و على هذا فإنّ اللام فى(لكم)لام المنفعه (۲) .

ثمّ تضيف الآيه: وَ أَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظاهِرَةً وَ باطِنَةً .

«أسبغ»من مادّه(سبغ)و هى فى الأصل بمعنى الثوب أو الدرع العريض الكامل،ثمّ اطلق على النعم الكثيره الوفيره أيضا.

هناك اختلاف بين المفسّرين فى المراد من النعم الظاهره و الباطنه فى هذه الآيه..

فالبعض اعتقد أنّ النعمه الظاهره هى الشىء الذى لا يمكن لأىّ أحد إنكاره كالخلق و الحياه و أنواع الأرزاق،و النعم الباطنه إشاره إلى الأمور التى لا يمكن إدراكها من دون دقّه و مطالعه ككثير من القوى الروحيه و الغرائز المهمّه.

و البعض عدّ الأعضاء الظاهره هى النعم الظاهره،و القلب هو النعمه الباطنه.

و البعض الآخر اعتبر حسن الصوره و الوجه و القامه المستقيمه و سلامه الأعضاء النعمه الظاهره،و معرفه اللّه هى النعمه الباطنه.

۱- ۱) اعتقد بعض المفسّرين كالآلوسى فى روح المعانى،و الفخر الرازى فى التّفسير الكبير،بأنّ هذه الآيات مرتبطه بالآيات التى سبقت مواعظ لقمان،حيث تخاطب المشركين: هذا خَلْقُ اللّهِ فَأَرُونِى ما ذا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ و تقول فى الآيات مورد البحث: أَ لَمْ تَرَوْا أَنَّ اللّهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِى السَّماواتِ وَ ما فِى الْأَرْضِ .إلاّ أنّ آخر هذه الآيه و الآيات التى بعدها، و الروايات الوارده فى تفسيرها تتناسب مع عموميّه الآيه.

۲- ۲) كانت لنا بحوث اخرى حول تسخير الموجودات للإنسان فى ذيل الآيه(۲)من سوره الرعد.

و

فی حـدیث عن الرّسول الأعظم صـلّی اللّه علیه و آله أنّ ابن عبّاس سأله عن النعم الظاهره و الباطنه فقال صـلّی اللّه علیه و آله:«یا بن عبّـاس،أمّـا مـا ظهر فالإسـلام و ما سوّی اللّه من خلقک، و ما أفاض علیک من الرزق،و أمّا ما بطن فستر مساوئ عملک و لم یفضحک به» (۱) .

و

فی حـدیث آخر عن البـاقر علیه السّـلام: «النعمه الظـاهره:النّبی صـلّی اللّه علیه و آله و مـا جـاء به النّبی من معرفه اللّه،و أمّا النعمه الباطنه ولایتنا أهل البیت و عقد مودّتنا» (۲) .

إلاّـ أنّه لاـ توجـد أیّه منافـاه بین هـذه التفاسـیر فی الحقیقه،و کـلّ منها یبیّن مصـداقا بارزا للنعمه الظاهره و النعمه الباطنه دون أن یحدّد معناها الواسع.

و تتحـدّث الآـیه فی النهـایه عمّن یکفر بـالنعم الإلهیه الکبیره العظیمه،و التی تحیط الإنسان من کلّ جانب،و یهبّ إلی الجـدال و محـاربه الحقّ،فتقول: مِنَ النّاسِ مَنْ یُجادِلُ فِی اللّهِ بِغَیْرِ عِلْمٍ وَ لا هُـدیً وَ لا کِتابٍ مُنِیرٍ و بـدل أن یعرف و یقـدّر هبه و عطاء کلّ هذه النعم الظاهره و الباطنه،فإنّه یتّجه إلی الشرک و الجحود نتیجه الجهل.

و لکن مـا هـو الفرق بین«العلم»و«الهـدی»و«الکتـاب المنیر»؟ لعـلّ أفضـل مـا یمکن أن یقـال فی ذلـک هو أنّ«العلم»:إشـاره إلی الإدراکـات التی یـدرکها الإنسـان عن طریق عقله،و«الهـدی»:إشاره إلی المعلّمین و القاده الربّانیین و السـماویین،و العلماء الـذین یأخذون بیده فی هذا المسیر و یوصـلونه إلی الغایه و الهدف،و المراد من«الکتاب المنیر»:الکتب السماویه التی تملأ قلب الإنسان نورا عن طریق الوحی.

إنّ هـذه الجماعه العنیـده فی الحقیقه لا یمتلکون علما،و لا یتّبعون مرشـدا و هادیا،و لا یستلهمون من الوحی الإلهی،و لمّا کانت طرق الهدایه منحصره بهذه

۱- ۱) مجمع البیان،ذیل الآیه مورد البحث.

۲- ۲) المصدر السابق.

الأمور الثلاثه فإنّ هؤلاء لمّا تركوها سقطوا فی هاویه الضلال و الضیاع و وادی الشیاطین.

و تشیر الآیه التالیه إلی المنطق الضعیف السقیم لهذه الفئه،فتقول: وَ إِذٰا قِیلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ قٰالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مٰا وَجَدْنٰا عَلَیْهِ آبٰاءَنٰا و لمّا لم یکن اتّباع الآباء الجهله المنحرفین جزءا من أیّ واحد من الطرق الثلاثه المذکوره أعلاه للهدایه، فإنّ القرآن ذکره بعنوان الطریق الشیطانی،و قال: أَ وَ لَوْ کٰانَ الشَّیْطٰانُ یَدْعُوهُمْ إِلیٰ عَذٰابِ السَّعِیرِ (۱) .

إنّ القرآن-فی الحقیقه-یزیح هنا الغطاء عن اتّباع سنّه الآباء و الأجداد الزائفه،و یبیّن الوجه الحقیقی لعمل هؤلاء و الذی هو فی حقیقته اتّباع الشیطان فی مسیر جهنّم.

أجل،إنّ قیاده الشیطان بذاتها تستوجب أن یخالفها الإنسان و إن کانت مبطّنه بالدعوه إلی الحقّ،فمن المسلّم أنّه غطاء و خدعه،و الدعوه إلی النار کافیه لوحدها أیضا للمخالفه بالرغم من أنّ الداعی مجهول الحال،فإذا کان الداعی الشیطان، و دعوته إلی نار جهنّم المستعره،فالأمر واضح.

هل یوجد عاقل یترک دعوه أنبیاء اللّه إلی الجنّه،و یلهث وراء دعوه الشیطان إلی جهنّم؟! ثمّ تطرّقت الآیه التالیه إلی بیان حال مجموعتین:المؤمنین الخلّص،و الکفّار الملوّثین،و تجعلهم مورد اهتمامها فی المقارنه بینهم،فقالت: وَ مَنْ یُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَی اللّٰهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَکَ بِالْعُرْوَهِ الْوُثْقیٰ .

و المراد من تسلیم الوجه إلی اللّه سبحانه،هو التوجّه الکامل و بکلّ الوجود إلی ذات اللّه المقدّسه،لأنّ الوجه لمّا کان أشرف عضو فی البدن،و مرکزا لأهمّ

---

۱ - ۱) اعتبر المفسّرون(لو)هنا شرطیه کالمعتاد،و جزاؤها محذوف،و التقدیر:لو کان الشیطان یدعوهم إلی عذاب السعیر أ یتبعونه.

الحواسّ الإنسانيه،فإنّه يستعمل كنايه عن ذاته.

و التعبير ب وَ هُوَ مُحْسِنٌ من قبيل ذكر العمل الصالح بعد الإيمان.

و الاستمساك بالعروه الوثقى تشبيه لطيف لهذه الحقيقه،و هى أنّ الإنسان يحتاج لنجاته من منحدر الماديّه و الارتقاء إلى أعلى قمم المعرفه و المعنويات و تسامى الروح،إلى واسطه و وسيله محكمه مستقرّه ثابته،و ليست هذه الوسيله إلاّ الإيمان و العمل الصالح،و كلّ سبيل و متّكأ غيرهما متهرّئ متخرّق هاو و سبب للسقوط و الموت،إضافه إلى أنّ ما يبقى هو هذه الوسيله،و كلّ ما عداها فان، و لذلك فإنّ الآيه تقول فى النهايه: وَ إِلَى اللّهِ عاقِبَهُ الْأُمُورِ .

جاء فى حديث نقل فى تفسير البرهان عن طرق العامّه عن الإمام على بن موسى الرضا عليهما السّلام عن النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله: «و سيكون بعدى فتنه مظلمه،الناجى منها من تمسّك بالعروه الوثقى،فقيل:يا رسول اللّه،و ما العروه الوثقى؟قال:ولايه سيّد الوصيّين،قيل:يا رسول اللّه،و من سيّد الوصيّين؟قال:أمير المؤمنين،قيل:

يا رسول اللّه و من أمير المؤمنين؟قال:مولى المسلمين و إمامهم بعدى،قيل:

يا رسول اللّه،و من مولى المسلمين و إمامهم بعدك؟قال:أخى على بن أبى طالب» (1) .

و قد رويت روايات اخرى فى هذا الباب تؤيّد أنّ المراد من العروه الوثقى مودّه أهل البيت عليهم السّلام،أو حبّ آل محمّد صلّى اللّه عليه و آله،أو الأئمّه من ولد الحسين عليهم السّلام (2) .

و قد قلنا مرارا:إنّ هذه التفاسير بيان للمصاديق الواضحه،و لا تتنافى مع المصاديق الاخرى كالتوحيد و التقوى و أمثال ذلك.

ثمّ تطرقت الآيه التاليه إلى بيان حال الفئه الثّانيه،فقالت: وَ مَنْ كَفَرَ فَلا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ لأنك قد أدّيت واجبك على أحسن وجه،و هو الذى قد ظلم نفسه.

ص: 57

1- 1) تفسير البرهان،الجزء 3،صفحه 279 ذيل الآيه مورد البحث.

2- 2) لمزيد الإيضاح راجع تفسير البرهان،الجزء 3،صفحه 278 و 279.

و مثـل هـذه التعبيرات التی وردت مرارا فی القرآن،تبيّن أنّ النّبی الأكرم صلّی اللّه عليه و آله كان يتألّم و يتعذّب كثيرا عنـد ما يری الجاهلين العنودين يتركون سبيل اللّه مع تلك الـدلائل البيّنه و العلامات الواضحه،و يسلكون سبيل الغیّ و الضـلال،و كان يغتمّ إلی درجه أنّ اللّه تعالی كان يسلّی خاطره فی عدّه مرّات،و هذا دأب و حال المرشد و القائد الحريص المخلص.

فلا تحزن أن تكفر جماعه من النـاس،و يظلموا و يجوروا و هم متنعّمون بـالنعم الإلهيّه و لا يعاقبون،فلا عجله فی الأمر،إذ: إِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا فإنّنا مطّلعون علی أسرارهم و نيّاتهم كاطّلاعنا علی أعمالهم،ف: إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ .

إنّ تعبير:إنّ اللّه ينبّئ النـاس فی القيـامه بأعمـالهم،أو أنّه تعـالی ينبّئهم بمـا كانوا فيه يختلفون،قـد ورد فی آيات كثيره من القرآن المجيـد،و بملاحظه أنّ(ننبّئكم) من مـادّه(نبـأ)و النبأ- علی ما أورده الراغب فی مفرداته-يقال للخبر الـذی ينطوی علی محتوی و فائـده مهمّه،و هو صريح و خال من كلّ أشكال الكـذب،سيتّضح أنّ هذه التعبيرات تشير إلی أنّ اللّه سبحانه يفشی و يفضح أعمال البشر بحيث لا يبقی لأحد أیّ اعتراض و إنكار،فهو يظهر ما عمله الناس فی هذه الدنيا و نسوه أو تناسوه،و يهيّؤه للحساب و الجزاء،و حتّی ما يخطر فی قلب الإنسان و لم يطّلع عليه إلاّ اللّه تعالی،فإنّه سبحانه سيذكرهم بها.

ثمّ يضيف بأنّ تمتّع هؤلاء بالحياه لا ينبغی أن يثير عجبك،لأنّا نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلی عَذابٍ غَلِيظٍ ذلك العـذاب الأليم المستمر.

إنّ هـذا التعبير لعلّه إشاره إلی أنّ هؤلاء لا يتصوّروا أنّهم خارجون عن قبضه قدره اللّه سبحانه،بل إنّه يريد أن يمهل هؤلاء للفتنه و إتمام الحجّه و الأهداف الاخری،و إنّ هذا المتاع القليل من جانبه أيضا،و كم يختلف حال هؤلاء الذين

يجرّون و يسحبون بذلّه و إكراه إلى العذاب الإلهى الغليظ،و حال أولئك الذين وضعوا كلّ وجودهم فى طريق العبوديه للّه سبحانه،و استمسكوا بالعروه الوثقى، فهم يعيشون فى هذه الدنيا طاهرين صالحين،و فى الآخره يتنعّمون بجوار رحمه اللّه.

ص :۵۹

الآیات [سوره لقمان (۳۱): الآیات ۲۵ الی ۳۰]

اشاره

وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اَللّٰهُ قُلِ اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ (۲۵) لِلّٰهِ مٰا فِی اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ إِنَّ اَللّٰهَ هُوَ اَلْغَنِيُّ اَلْحَمِيدُ (۲۶) وَ لَوْ أَنَّ مٰا فِی اَلْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلاٰمٌ وَ اَلْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مٰا نَفِدَتْ كَلِمٰاتُ اَللّٰهِ إِنَّ اَللّٰهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (۲۷) مٰا خَلْقُكُمْ وَ لاٰ بَعْثُكُمْ إِلاّٰ كَنَفْسٍ وٰاحِدَةٍ إِنَّ اَللّٰهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (۲۸) أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اَللّٰهَ يُولِجُ اَللَّيْلَ فِی اَلنَّهٰارِ وَ يُولِجُ اَلنَّهٰارَ فِی اَللَّيْلِ وَ سَخَّرَ اَلشَّمْسَ وَ اَلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِی إِلىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى وَ أَنَّ اَللّٰهَ بِمٰا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (۲۹) ذٰلِكَ بِأَنَّ اَللّٰهَ هُوَ اَلْحَقُّ وَ أَنَّ مٰا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ اَلْبٰاطِلُ وَ أَنَّ اَللّٰهَ هُوَ اَلْعَلِيُّ اَلْكَبِيرُ (۳۰)

التّفسير

اشاره

عشر صفات للّه سبحانه:

بيّنت الآيات الستّه أعلاه مجموعه من صفات اللّه سبحانه،و هی عشر صفات

ص :۶۰

رئیسیّه،أو عشره أسماء من الأسماء الحسنی:

الغنی،الحمید،العزیز،الحکیم،السمیع،البصیر،الخبیر،الحقّ،العلیّ،و الکبیر.

هـذا مـن جهـه،و مـن جهـه اخری فـإنّ الآیه الاولی تتحـدّث عـن«خـالقیه»اللّه، و الآیه الثّانیه عـن«مـالکیته»المطلقـه،و الثـالثه عن«علمه»اللامتنـاهی،و الآیه الرّابعه و الخـامسه عن«قـدته»اللامتنـاهیه.و الآیه الأخیره تخلص إلی هـذه النـتیجه، و هی أنّ الـذی یمتلک هذه الصفات و یتمتّع بها هو اللّه تعالی،و کلّ ما دونه باطل أجوف حقیر.

مع ملاحظه هذا البحث الإجمالی نعود إلی شرح الآیات،فتقول الآیه الاولی:

وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ لَیَقُولُنَّ اللّٰهُ

.

هـذا التعبیر-و الـذی یلاحـظ فی آیـات القرآن الاخری،کالآیه(۶۱-۶۳)من سوره العنکبوت،و الآیه(۳۸)من الزمر،و الآیه(۹)من الزخرف-یـدلّ من جهه علی أنّ المشـرکین لم یکونوا منکرین لتوحید الخالق مطلقا،و لم یکونوا یسـتطیعون ادّعاء کون الأصـنام خالقه،إنّما کانوا معتقـدین بالشـرک فی عباده الأصـنام و شـفاعتها فقط.و من جهه اخری یدلّ علی کون التوحید فطریّا و أنّ هذا النور کامن فی طینه و طبیعه کلّ البشر.

ثمّ تقول:إذا کان هؤلاء معترفین بتوحید الخالق ف قُلِ الْحَمْدُ لِلّٰهِ بَلْ أَکْثَرُهُمْ لاٰ یَعْلَمُونَ .

ثمّ تتطرّق إلی«مالکیه»اللّه،لأنّه بعـد ثبوت کونه خالقا لا حاجه إلی دلیل علی کونه مالکا،فتقول: لِلّٰهِ مٰا فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ .و من البدیهی أنّ الخالق و المالک یکون مدبّرا لأمر العالم أیضا،و بهذا تثبت أرکان التوحید الثلاثه،و هی:

«توحیـد الخالقیه»و«توحیـد المالکیه»و«توحید الربوبیه».و الذی یکون علی هذا الحال فإنّه غنیّ عن کلّ شـیء،و أهل لکلّ حمد و ثناء،و لذلک تقول الآیه فی النهایه: إِنَّ اللّٰهَ هُوَ الْغَنِیُّ الْحَمِیدُ .

ص:۶۱

إنّه غنيّ على الإطلاق،و حميد من كلّ جهه،لأنّ كلّ موهبه فى هذا العالم تعود إليه،و كلّ ما يملكه الإنسان فإنّه صادر منه و خزائن كلّ الخيرات بيده،و هذا دليل حيّ على غناه.

و لمّا كان«الحمد»بمعنى الثناء على العمل الحسن الذى يصدر عن المرء باختياره،و كلّ حسن نراه فى هذا العالم فهو من اللّه سبحانه،فإنّ كلّ حمد و ثناء منه،فحتّى إذا مدحنا جمال الزهور،و وصفنا جاذبيه العشق الملكوتى،و قدّرنا إيثار الشخص الكريم،فإنّنا فى الحقيقه نحمده،لأنّ هذا الجمال و الجاذبيه و الكرم منه أيضا..إذن فهو حميد على الإطلاق.

ثمّ تجسّد الآيه التاليه علم اللّه اللامحدود من خلال ذكر مثال بليغ جدّا،و قبل ذلك نرى لزوم ذكر هذه المسأله،و هى-طبقا لما جاء فى تفسير على بن إبراهيم:

إنّ قوما من اليهود عند ما سألوا النّبى صلّى اللّه عليه و آله حول مسأله الروح،و أجابهم القرآن بأن قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَ مٰا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاّٰ قَلِيلاً صعب هذا الكلام عليهم، و سألوا النّبى صلّى اللّه عليه و آله:هل أنّ هذا فى حقّنا فقط؟فأجابهم النّبى صلّى اللّه عليه و آله:

«بل الناس عامّه»، قالوا:فكيف يجتمع هذا يا محمّد؟!أ تزعم أنّك لم تؤت من العلم إلاّ قليلا، و قد أوتيت القرآن و أوتينا التوراه،و قد قرأت: وَ مَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَهَ -و هى التوراه- فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً هنا نزلت الآيه وَ لَوْ أَنَّ مٰا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَهٍ أَقْلاٰمٌ... -الآيه مورد البحث-و أوضحت أنّ علم الإنسان مهما كان واسعا فإنّه فى مقابل علم اللّه عزّ و جلّ ليس إلاّ ذرّه تافهه،و الذى يعدّ كثيرا فى نظركم،هو قليل جدّا عند اللّه (1) .

و قد بيّنا نظير هذه الروايه عن طريق آخر فى ذيل الآيه(109)من سوره الكهف.

ص: ۶۲

1- 1) تفسير البرهان،الجزء 3،صفحه 279.

و على كلّ حال،فإنّ القرآن الكريم و لأجل تجسيد علم اللّه اللامتناهى يقول:

وَ لَوْ أَنَّ مٰا فِى الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلاٰمٌ وَ الْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مٰا نَفِدَتْ كَلِمٰاتُ اللّٰهِ إِنَّ اللّٰهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ

.

«يمـدّه»من مادّه(المداد)و هى بمعنى الحبر أو المادّه الملوّنه التى يكتبون بها، و هى فى الأصل من(مدّ)بمعنى الخطّ،لأنّ الخطوط تظهر على صفحه الورق بواسطه جرّ القلم.

و نقل بعض المفسّرين معنى آخر لها،و هو الزيت الذى يوضع فى السراج و يسبّب إناره السراج.و كلا المعنيين فى الواقع يرجعان إلى أصل واحد.

«الكلمـات»جمع«كلمه»،و هى فى الأصـل الألفـاظ التى يتحـدّث و يتكلّم بها الإنسان،ثمّ أطلقت على معنى أوسع،و هو كلّ شـىء يمكنه أن يبيّن المراد و المطلب،و لمّا كانت مخلوقات هـذا العالم المختلفه يبيّن كلّ منها ذات اللّه المقـدّسه و عظمته،فقـد أطلق على كـلّ موجود(كلمه اللّه)، و اسـتعمل هـذا التعـبير خـاصّه فى الموجودات الأشـرف و الأعظم،كمـا نقرأ فى شـأن المسـيح فى الآيه(۱۷۱)مـن سـوره النسـاء إِنَّمَـا الْمَسِـيحُ عِيسَـى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُـولُ اللّٰهِ وَ كَلِمَتُهُ ثمّ اسـتعملت كلمـات اللّه بمعنى علم اللّه لهـذه المناسبه.

و الآن يجب أن نفكّر بدقّه و بشـكل صـحيح بأنّه قد يكفى أحيانا قلم واحد مع مقدار من الحبر لكتابه كلّ المعلومات التى تتعلّق بإنسـان مـا،بل قـد يكون من الممكن أن يسـجّل أفراد آخرون مجموعه معلوماتهم على الأوراق بنفس ذلك القلم،إلاّ أنّ القرآن يقول:لو أنّ كلّ الأشـجار الموجوده على سـطح الأرض تصـبح أقلاما-و نحن نعلم أنّه قـد تصـنع من شـجره ضـخمه،من ساقها و أغصانها،آلاف،بل ملايين الأقلام،و مع الأخـذ بنظر الإعتبار المقـدار العظيم للأشـجار الموجوده فى الأرض،و الغابات التى تغطّى الكثير من الجبال و السهول،و عدد الأقلام الذى سينتج منها..

و كـذلك لـو كـانت كـلّ البحـار و المحيطـات الموجـوده،و الـتى تشـكّل ثلاـثه أربـاع الكره الأرضـيّه تقريبـا،بـذلك العمق الساحق،تصبح حبرا،عند ذلك يتّضح عظمه ما سيكتب،و كم من العلوم يمكن كتابتها بهذا المقدار من الأقلام و الحبر!سيّما مع ملاـحظه مضـاعفه ذلـك بإضـافه سـبعه أبحر اخرى،و كلّ واحـد منها يعادل كلّ محيطات الأرض،و بالأخصّ إذا علمنا أنّ عـدد السـبعه هنـا لاـ يعنى العـدد،بـل للكثره و الإشـاره إلى البحار التى لاعـدّ لها،فعنـد ذلك سـتّتضح سـعه علم اللّه عزّ و جلّ و ترامى أطرافه،و مع ذلك فإنّ كلّ هذه الأقلام و المحابر تنتهى و لكنّ علومه سبحانه لا تعرف النهايه.

هل يوجد تجسـيد و تصوير للّانهايه أروع و أبلغ و أجمل من هذا التجسـيد؟إنّ هذا العدد حىّ و ناطق إلى الحدّ الذى يصـطحب معه أمواج فكر الإنسان إلى الآفاق اللامحدوده، و يغرقها فى الحيره و الهيبه و الجلال.

إنّ الإنسـان يشـعر مع هـذا البيـان البليغ الواضـح أنّ معلومـاته مقابـل علم اللّه كالصـفر مقابل اللانهايه،و يليق به أن يقول فقط:إنّ علمى قد أوصلنى إلى أن أطّلع على جهلى،فحتّى التشبيه بالفطره من البحر لتبيان هذه الحقيقه لا يبدو صحيحا.

و من جمله المسائل اللطيفه التى تلاحظ فى الآيه:أنّ الشـجره قـد وردت بصـيغه المفرد،و الأقلام قـد وردت بصـيغه الجمع،و هذا تبيان لعدد الأقلام الكثيره التى تنتج من شجره واحده بساقها و أغصانها.

و كـذلك التعبير ب(البحر)بصـيغه المفرد مع(الف و لاـم)الجنس ليشـمل كـلّ البحار و المحيطات على وجه الأرض،خاصّه و أنّ كلّ بحار العالم و محيطاته متّصله ببعضها،و هى فى الواقع بحكم بحر واسع.

و الطريف فى الأمر أنّه لا يتحدّث فى مورد الأقلام عن أقلام إضافيه و مساعده،أمّا فيما يتعلّق بالبحار فإنّه يتحدّث عن سبعه أبحر اخرى،لأنّ القلم يستهلك قليلا أثناء الكتابه،و الذى يستهلك أكثر هو الحبر.

ص :۶۴

انتخاب كلمه(سبع)للكثره فى لغه العرب،ربّما كان بسبب أنّ السابقين كانوا يعتقدون أنّ عدد كواكب المنظومه الشمسيه سبعه كواكب-و فى أنّ ما يرى اليوم بالعين المجرّده من المنظومه الشمسيه سبعه كواكب لا أكثر-و مع ملاحظه أنّ الأسبوع دوره زمانيه كامله تتكوّن من سبعه أيّام لا أكثر،و أنّهم كانوا يقسّمون كلّ الكره الأرضيه إلى سبع مناطق،و كانوا قد وضعوا لها اسم الأقاليم السبعه،سيتّضح لماذا انتخب عدد السبعه كعدد كامل من بين الأعداد،و استعمل لبيان الكثره (١) .

بعد ذكر علم اللّه اللامحدود،تتحدّث الآيه الاخرى عن قدرته اللامتناهيه، فتقول: مٰا خَلْقُكُمْ وَ لاٰ بَعْثُكُمْ إِلاّٰ كَنَفْسٍ وٰاحِدَةٍ إِنَّ اللّٰهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ .

قال بعض المفسّرين:أنّ جمعا من كفّار قريش كانوا يقولون من باب التعجّب و الاستبعاد لمسأله المعاد:إنّ اللّه قد خلقنا بأشكال مختلفه،و على مدى مراحل مختلفه،فكنّا يوما نطفه،و بعدها صرنا علقه،و بعدها صرنا مضغه،ثمّ أصبحنا تدريجيّا على هيئات و صور مختلفه،فكيف يخلقنا اللّه جميعا خلقا جديدا فى ساعه واحده؟!فنزلت الآيه مورد البحث فأجابتهم.

إنّ هؤلاء كانوا غافلين فى الحقيقه عن مسأله مهمّه،و هى أنّ هذه المفاهيم كالصعوبه و السهوله،و الصغير و الكبير يمكن تصوّرها من قبل موجودات لها قدره محدوده كقدرتنا،إلاّ أنّها أمام قدره اللّه اللامتناهيه تكون متساويه،فلا يختلف خلق إنسان واحد عن خلق جميع البشر مطلقا،و خلق موجود ما فى لحظه واحده أو على مدى سنين طوال بالنسبه إلى قدرته المطلقه.

و إذا كان تعجّب كفّار قريش من أنّه كيف يمكن فصل الأجساد عن بعضها و إرجاع كلّ منها إلى محلّه بعد أن كانت الطبائع مختلفه،و الإشكال متغايره، و الشخصيات متنوّعه،و ذلك بعد أن تحوّل بدن الإنسان إلى تراب و تطايرت

١- ١) تحدّثنا حول(علم اللّه المطلق)فى ذيل الآيه(١٠٩)من سوره الكهف.

ذرّات ذلك التراب؟!فإنّ علم اللّه اللامتناهى،و قدرته اللامحدوده تجيبهم عن سؤالهم،فإنّه قد جعل بين الموجودات روابط و علاقات بحيث أنّ الواحد منها كالمجموعه،و المجموعه كالواحد.

و أساسا فإنّ انسجام و ترابط هذا العالم بشكل ترجع كلّ كثره فيه إلى الوحده، و خلقه مجموع البشر تتّبع خلقه إنسان واحد.

و إذا كان تعجّب هؤلاء من قصر الزمان،لأنّه كيف يمكن أن تطوى المراحل التى يطويها الإنسان خلال سنين طوال من كونه نطفه إلى مرحله الشباب،فى لحظات قصيره؟!فإنّ قدره اللّه تجيب على هذا التساؤل أيضا،فإنّنا نرى فى عالم الأحياء أنّ أطفال الإنسان يحتاجون لمدّه طويله ليتعلّموا المشى بصوره جيّده،أو يصبحوا قادرين على الاستفاده من كلّ أنواع الأغذيه،فى حين أنّنا نرى الفراخ بمجرّد أن تخرج من البيضه تنهض و تسير،و تأكل دونما حاجه حتّى للامّ،و هذه الظاهره تبيّن أنّ هذه الأمور لا تعنى شيئا أمام قدره اللّه عزّ و جلّ.

إنّ ذكر كون اللّه«سميعا و بصيرا»فى نهايه الآيه قد يكون جوابا عن إشكال آخر من جانب المشركين،و هو على فرض أنّ جميع البشر على اختلاف خلقتهم، و بكلّ خصوصياتهم يبعثون و يحيون فى ساعه واحده،لكن كيف ستخضع أعمالهم و كلامهم للحساب،فإنّ الأعمال و الأقوال امور تفنى بعد الوجود؟! فيجيب القرآن بأنّ اللّه سميع و بصير،قد سمع كلّ كلامهم،و رأى كلّ أعمالهم، علاوه على أنّ الفناء المطلق لا معنى و لا وجود له فى هذا العالم،بل إنّ أعمالهم و أقوالهم موجوده دائما.

و إذا تجاوزنا ذلك فإنّ الجمله أعلاه تهديد لهؤلاء المعاندين،بأنّ اللّه سبحانه مطّلع على أقوالكم و مؤامراتكم،بل و حتّى على ما فى قلوبكم و ضمائركم.

الآيه التاليه تأكيد و بيان آخر لقدره اللّه الواسعه،و قد وجّهت الخطاب إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله فقالت: أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللّٰهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهٰارِ وَ يُولِجُ النَّهٰارَ فِي اللَّيْلِ وَ

سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ

لخدمه الناس و تأمين احتياجاتهم كُلٌّ يَجْرِي إِلىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى وَ أَنَّ اللّٰهَ بِمٰا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ .

«الولوج»فى الأصل بمعنى«الدخول»،و دخول الليل فى النهار و النهار فى الليل قد يكون إشاره إلى طول و قصر الليل و النهار التدريجى على مدار السنه، حيث ينقص شيء من أحدهما تدريجيّا،و يضاف على الآخر بصوره غير محسوسه،لتتكوّن الفصول الأربعه للسنه بخصائصها و آثارها المباركه.(و ليست هناك إلاّ نقطتان على سطح الأرض لا يوجد فيهما هذا التغيير التدريجى و الفصول الأربعه:إحداهما:النقطه الحقيقيّه للقطب الشمالى و الجنوبى حيث يكون الليل هناك ستّه أشهر،و النهار ستّه أشهر طوال السنه،و الاخرى خطّ الإستواء الدقيق حيث يتساوى ليله و نهاره كلّ السنه).

أو إشاره إلى أنّ تبديل الليل بالنهار و النهار بالليل لوجود الغلاف الجوّى لا يحدث بصوره مفاجئه فيتعرّض الإنسان و كلّ الموجودات الحيّه للأخطار المختلفه حينئذ،بل إنّ أشعّه الشمس تتوغّل من حيث طلوع الفجر فى أعماق الظلام أوّلا،ثمّ يتّسع و يزداد ضوء النهار حتّى يعمّ كلّ أرجاء السماء،و على العكس تماما ممّا يحدث عند انتهاء النهار و دخول الليل.

و هذا الانتقال التدريجى و المنظّم بدقّه متناهيه من مظاهر قدره اللّه تعالى.

و من الطبيعى أنّ هذين التّفسيرين لا يتنافيان،و يمكن أن يجتمعا فى معنى الآيه و تفسيرها.

أمّا فى مورد تسخير الشمس و القمر و سائر الكواكب السماويه للبشر،فإنّ المراد-و كما قلنا سابقا أيضا-تسخيرها فى سبيل خدمه الإنسان،و بتعبير آخر فإنّ اللام فى سَخَّرَ لَكُمْ لام النفع لا الإختصاص،و قد ورد هذا التعبير فى القرآن المجيد فى شأن الشمس و القمر،و الليل و النهار،و الأنهار و البحار و السفن،و كلّ هذه مبيّنه لعظمه شخصيّه الإنسان،و سعه نعم اللّه عليه حيث أنّ كلّ الموجودات

الأرضـيه و السماويه مسخّره و مطيعه له بأمر اللّه تعالى،و مع كلّ هذا التسخير فليس من الإنصاف أن يعصى اللّه سبحانه و لا يطيع أوامره (۱) .

و جمله كُلٌّ يَجْرِى إِلىٰ أَجَلٍ مُسَـمًّى إشاره إلى أنّ هذا النظام الدقيق لا يستمرّ إلى الأبد،بل إنّ له نهايه بانتهاء الدنيا،و هو ما ذكر فى سوره التكوير: إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ وَ إِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ... .

إنّ ارتباط جمله أَنَّ اللّٰهَ بِمٰا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ بهذا البحث سيتّضح بملاحظه ما قلناه آنفا،لأنّ اللّه الذى جعل الشمس و القمر العظيمين خاضـعين لنظام دقيق، و عاقب بين الليل و النهار بذلك النظام الخاصّ آلاف و ملايين السنين،كيف يمكن أن تخفى عليه أعمال البشر؟نعم..إنّه يعلم الأعمال،و كذلك يعلم النيّات و الأفكار.

و تقول الآـيه الأـخيره،كاستخلاص نتيجه جامعه كليّه ذٰلِكَ بِأَنَّ اللّٰهَ هُوَ الْحَقُّ وَ أَنَّ مٰا يَـدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبٰاطِلُ وَ أَنَّ اللّٰهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (۲) .

إنّ مجموع البحوث التى وردت فى الآيـات السـابقه حول كون اللّه خالقـا و مالكـا،و عن علمه و قـدرته اللامتناهيين،أثبتت هـذه الأمور،و أنّ الحقّ هو اللّه وحده،و كلّ شـىء غيره زائل و باطل و محدود و محتاج،و العلى و الكبير الذى يسمو على كلّ شىء،و يجلّ عن كلّ وصف،هو ذاته المقدّسه،و على قول الشاعر:

ألا كلّ شىء ما خلا اللّه باطل

و كلّ نعيم لا محاله زائل

و يمكن إيضاح هذا الكلام بالتعبير الفلسفى كما يلى:

ص :۶۸

۱- ۱) كـان لنـا بحث مفصّـل حول تسـخير الشـمس و القمر و الموجودات الاخرى للإنسان فى ذيل الآيه(۲)من سوره الرعـد، و الآيه(۳۲)من سوره إبراهيم.

۲- ۲) «البـاء»فى(بـأنّ اللّه هو الحقّ)بالرغم من أنّها تبـدو فى بادئ الأمر سـببيه،و ربّما اعتبر بعض المفسّـرين كالآلوسـى فى روح المعانى مضـمون هـذه الآيه سببا للمطالب السابقه،إلاّ أنّ سـياق الآيات و ذكر الصـفات السابقه-أى الخالقيه و المالكيه و العلم و القـدره و علاماتهـا فى عالم الخلقه-ظاهر فى أنّها جميعا كانت شاهـده على هـذه النتيجه،و بناء على هـذا،فإنّ محتوى هـذه الآيه نتيجه للآيات السابقه لا سببا لها.

إنّ الحقّ إشـاره إلى الوجود الحقيقى الثابت،و فى هـذا العالم فإنّ الوجود الحقيقى القائم بـذاته و الثابت المسـتقرّ الخالـد هو اللّه فقـط،و كـلّ مـا عـداه لاـ وجـود له بـذاته و هـو عين البطلاـن،حيث إنّه يسـتمدّ وجوده عن طريق الارتبـاط بـذلك الوجود الحقّ الـدائم،فـإذا انقطع الفيض عنه لحظه فـإنّه سـيفنى و يمحى فى ظلمـات الفنـاء و العـدم،و بهـذا فإنّه كلّما قوى ارتباط الموجودات الاخرى بوجود اللّه تعالى فإنّها تكتسب بتلك النسبه حقّا أكبر.

و على كلّ حال،و كما قلنا سابقا،فإنّ هذه الآيات مجموعه من عشر صـفات من صـفات اللّه تعالى،و عشره أسـماء من أسمائه،و تشتمل على أدلّه قويّه-لا يمكن إنكارها-و على بطلان كلّ أنواع الشرك،و لزوم التوحيد فى كلّ مراحل العبوديه.

ص: ۶۹

الآیتان [سوره لقمان (۳۱): الآیات ۳۱ الی ۳۲]

اشاره

أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اَلْفُلْکَ تَجْرِی فِی اَلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اَللّٰهِ لِیُرِیَکُمْ مِنْ آیٰاتِهِ إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیٰاتٍ لِکُلِّ صَبّٰارٍ شَکُورٍ (۳۱) وَ إِذٰا غَشِیَهُمْ مَوْجٌ کَالظُّلَلِ دَعَوُا اَللّٰهَ مُخْلِصِینَ لَهُ اَلدِّینَ فَلَمّٰا نَجّٰاهُمْ إِلَی اَلْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَ مٰا یَجْحَدُ بِآیٰاتِنٰا إِلاّٰ کُلُّ خَتّٰارٍ کَفُورٍ (۳۲)

التّفسیر

اشاره

فی دوّامه البلاء!

یدور البحث و الحدیث فی هاتین الآیتین أیضا عن نعم اللّه سبحانه،و أدلّه التوحید فی الآفاق و الأنفس،فالحدیث فی الآیه الاولی عن دلیل النظام،و فی الآیه الثّانیه عن التوحید الفطری،و هما فی المجموع تکمّلان البحوث التی وردت فی الآیات السابقه.

تقول الآیه الاولی: أَ لَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْکَ تَجْرِی فِی الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللّٰهِ (۱) لِیُرِیَکُمْ مِنْ آیٰاتِهِ إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیٰاتٍ لِکُلِّ صَبّٰارٍ شَکُورٍ .

۱- ۱) «الباء»فی(بنعمه اللّه)یمکن أن تکون باء السببیه،أو باء المصاحبه،إلاّ أنّ الاحتمال الأوّل هو الأنسب.

لا شكّ أنّ حركه السفن على سطح المحيطات تتمّ بمجموعه من قوانين الخلقه:

-فحركه الرياح المنتظمه من جهه.

-و الوزن الخاصّ للخشب أو المواد التى تصنع منها تلك السفينه من جانب آخر.

-و مستوى كثافه الماء من جانب ثالث.

-و مقدار ضغط الماء على الأجسام التى تسبح فيه من جهه رابعه.

و حينما يحدث اختلال فى واحد من هذه الأمور فإنّ السفينه إمّا أن تغرق و تنزل إلى قعر البحر،أو تنقلب،أو تبقى حائره لا تهتدى إلى سبيل نجاتها فى وسط البحر.

غير أنّ اللّه جلّ و علا الذى أراد أن يجعل البحار الواسعه أفضل السبل و أهمّها لسفر البشر،و نقل المواد التى يحتاجونها من نقطه إلى اخرى،قد هيّأ و يسّر هذه الشروط و الظروف،و كلّ منها نعمه من نعمه تعالى.

إنّ عظمه قدره اللّه سبحانه فى ميدان المحيطات،و صغر الإنسان مقابلها،تبلغ حدّا بحيث إنّ كلّ البشر فى العالم القديم-الذى كانت السفن تعتمد على الرياح فى حركتها- لو اجتمعوا ليحرّكوا سفينه وسط البحر عكس اتّجاه ريح عاصف قويّه لما استطاعوا.

و اليوم أيضا،حيث حلّت المولّدات و المكائن العظيمه محلّ الهواء،فإنّ هبوب العواصف قد يبلغ من الشدّه أحيانا بحيث يحرّك و يهزّ أعظم السفن،و قد يحطّمها أحيانا.

و التأكيد الذى ورد فى نهايه الآيه على أوصاف(صبّار)و(شكور)إمّا أن يكون من باب أنّ الحياه الدنيا مجموعه من البلاء و النعمه،و كلاهما طريق و محلّ للاختبار،حيث إنّ الصمود و التحمّل أمام الحوادث الصعبه،و الشكر على النعم يشكّلان مجمل ما يجب على الإنسان،و لذا نقل كثير من المفسّرين

عن الرّسول

الأكرم صلّى اللّه عليه و آله: «الإيمان نصفان:نصف صبر،و نصف شكر» (۱) .

أو أن يكون إشاره إلى لزوم وجود هدف لأجل إدراك آيات اللّه العظيمه فى ميدان الخلقه،و هذا الهدف هو شكر المنعم المقترن بالصبر و التحمّل من أجل دقّه و تفحّص أكبر.

و بعد بيان نعمه حركه السفن فى البحار،و التى كانت و لا تزال أكبر و أنفع وسائل حمل و نقل البضائع و البشر،أشارت هذه الآيه إلى صوره اخرى لهذه المسأله، فقالت: وَ إِذٰا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللّٰهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ .

«الظللّ»جمع ظلّه،و قد ذكر المفسّرون لها عدّه معان:

-فيقول الراغب فى مفرداته:الظلّه سحابه تظلّ،و أكثر ما تقال لما يستوخم و يكره.

-و البعض اعتبرها بمعنى المظلّه الكبيره،من مادّه الظلّ.

-و البعض اعتبرها بمعنى الجبل.

و بالرغم من أنّ هذه المعانى-من حيث تعلّقها بالآيه مورد البحث-لا تختلف كثيرا عن بعضها،إلاّ أنّه بملاحظه أنّ هذه الكلمه قد وردت مرارا فى القرآن بمعنى السحاب الذى يظلّ،و بملاحظه أنّ تعبير(غشيهم)يناسب معنى السحاب أكثر، فيبدو أنّ هذا التّفسير هو الأقرب.

أى إنّ أمواج البحر العظيمه تهيج فتحيط بهم كأنّ سحابا قد أظلّهم بظلّ مرعب مهول.

هنا يجد الإنسان نفسه ضعيفا و عاجزا رغم كلّ تلك القوى و الإمكانيات الظاهريه التى أعدّها لنفسه،و يجد يده قاصره عن كلّ شيء و مكان،و تقف كلّ الوسائل العاديه و الماديّه عن العمل،و لا يبقى له أى بصيص أمل إلاّ النور الذى

۱- ۱) تفسير مجمع البيان،و القرطبى،و الفخر الرازى،و الصافى.

يشعّ من أعماق روحه و فطرته،فيزيح عن قلبه حجب الغفله،و يقول له:هل يوجد أحد يستطيع إنقاذك؟ نعم،إنّه الذى تطيع أوامره أمواج البحر..أنّه خالق الماء و الهواء و التراب.

هنا يحيط التوحيد الخالص بكلّ قلبه و يغمره،و يعتقد بأنّ الدين و العباده مختصّه به سبحانه.

ثمّ تضيف الآيه إنّ اللّه سبحانه لمّا نجّاهم من الهلكه انقسم الناس قسمين: فَلَمّا نَجّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ (1) .و هؤلاء وفوا بعهدهم و لم ينقضوه،و لم ينسوا منّه اللّه عليهم فى تلك اللحظات الحسّاسه.

أمّا القسم الثّانى فإنّهم نسوا كلّ ذلك،و استولى جيش الشرك و الكفر على معسكر قلوبهم.

و اعتبر بعض المفسّرين الآيه أعلاه إشاره إلى إسلام«عكرمه بن أبى جهل»،إذ أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله عفا عن جميع الناس عند فتح مكّه غير أربعه نفر أحدهم عكرمه بن أبى جهل،إذ أهدر دمهم،و أمر بقتلهم حيثما وجدوا،لأنّهم لم يتركوا أىّ سيّئه أو جريمه ضدّ الإسلام و المسلمين إلاّ عملوها،و لذلك اضطرّ عكرمه إلى الفرار من مكّه،فتوجّه إلى البحر الأحمر و ركب السفينه،فأخذت بأطرافه ريح عاصف،فقال بعض أهل السفينه لبعضهم الآخر:تعالوا نترك الأصنام و نتضرّع إلى اللّه وحده و نسأله لطفه،فإنّ آلهتنا هذه لا تنفع شيئا! فقال عكرمه:إذا لم ينقذنا غير توحيدنا فى البحر،فلن ينقذنا فى البرّ سواه أيضا،اللهمّ إنّ أعطيك عهدا-إذا نجّيتنى من هذه المحنه-لآتينّ محمّدا صلّى اللّه عليه و آله و أبايعه،فإنّى أعلم أنّه كريم عفوّ.

و أخيرا نجا،و أتى إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله (2) .

1- 1) «مقتصد»من مادّه قصد،بمعنى الاعتدال فى العمل،و الوفاء بالعهد.

2- 2) مجمع البيان،ذيل الآيه مورد البحث،و وردت هذه الحادثه فى(اسد الغابه فى معرفه الصحابه)ج 4،صفحه 5 بتفاوت

و قد ورد فی التواریخ الإسلامیه أنّ عکرمه قد أصبح فی صفّ المسلمین الحقیقیین،و استشهد فی معرکه الیوموک أو أجنادین.

و تضیف الآیه فی النهایه وَ مٰا یَجْحَدُ بِآیٰاتِنٰا إِلاّٰ کُلُّ خَتّٰارٍ کَفُورٍ .

(ختّار)من الختر،بمعنی نقض العهد،و هذه الکلمه صیغه مبالغه،لأنّ المشرکین و العاصین یتوجّهون إلی اللّه مرارا،و یقطعون علی أنفسهم العهود،و ینذرون النذور،إلاّ أنّهم بمجرّد أن یهدأ طوفان الحوادث ینقضون عهودهم بصوره متلاحقه،و یکفرون بنعم اللّه علیهم.

إنّ تعبیر«ختّار»و«کفور»الذی ورد فی نهایه هذه الآیه،هو فی الحقیقه مقابل تعبیر«صبّار»و«شکور»الذی ورد فی نهایه الآیه السابقه-فالکفران فی مقابل الشکر،و نقض العهد فی مقابل الصبر و الثبات علی العهد-لأنّ الوفاء بالعهد لا یتمّ إلاّ من قبل الثابتین الصامدین..أولئک الذین إذا توهّج الإیمان الفطری فی أعماق أرواحهم فلا یدعون هذا النور الإلهی ینطفئ مرّه اخری و تتکاثف علیه الحجب.

۲)

یسیر.

الآیتان [سوره لقمان (۳۱): الآیات ۳۳ الی ۳۴]

اشاره

یا أَیُّهَا اَلنّاسُ اِتَّقُوا رَبَّکُمْ وَ اِخْشَوْا یَوْماً لا یَجْزِی والِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَ لا مَوْلُودٌ هُوَ جازٍ عَنْ والِدِهِ شَیْئاً إِنَّ وَعْدَ اَللّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّکُمُ اَلْحَیاهُ اَلدُّنْیا وَ لا یَغُرَّنَّکُمْ بِاللّهِ اَلْغَرُورُ (۳۳) إِنَّ اَللّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ اَلسّاعَهِ وَ یُنَزِّلُ اَلْغَیْثَ وَ یَعْلَمُ ما فِی اَلْأَرْحامِ وَ ما تَدْرِی نَفْسٌ ما ذا تَکْسِبُ غَداً وَ ما تَدْرِی نَفْسٌ بِأَیِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اَللّهَ عَلِیمٌ خَبِیرٌ (۳۴)

التّفسیر

اشاره

سعه علم اللّه:

فی هاتین الآیتین اللتین هما آخر آیات سوره لقمان،تلخیص للمواعظ و النصائح السابقه و لأدلّه التوحید و المعاد،و توجیه الناس إلی اللّه و الیوم الآخر و تحذیر من الغرور الناشئ من الدنیا و الشیطان، ثمّ الحدیث عن سعه علم اللّه سبحانه و شموله لکلّ شیء،فتقول: یا أَیُّهَا النّاسُ اتَّقُوا رَبَّکُمْ وَ اخْشَوْا یَوْماً لا یَجْزِی والِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَ لا مَوْلُودٌ هُوَ جازٍ عَنْ والِدِهِ شَیْئاً .

إنّ الدستور الأوّل هو التوجّه إلى المعاد،فالدستور الأوّل يحيى فى الإنسان قوّه المراقبه،و الثّانى ينمّى روح الثواب و العقاب،و لا شكّ أنّ الإنسان الذى يعلم أنّ شخصا خبيرا و مطّلعا على كلّ أعماله يراه و يعلم به و يسجّل كلّ أعماله،و من ناحيه اخرى يعلم أنّ محكمه عادله ستتشكّل للتحقيق فى كلّ جزئيات أعماله،لا يمكن أن يتلوّث بأدنى فساد و معصيه.

جمله لاٰ يَجْزِي من مادّه الجزاء،و«الجزاء،و«الجزاء»ورد بمعنيين من الناحيه اللغويه:

أحدهما:المكافأه و المعاقبه مقابل شيء،كما يقال:جزّاه اللّه خيرا.

و الآخر:الكفايه و النيابه و التحمّل للشيء عن الآخرين،كما جاء فى الآيه مورد البحث: لاٰ يَجْزِي وٰالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ .

و من الممكن أن يعود كلا المعنيين إلى أصل واحد،لأنّ الثواب و العقاب يحلاّن محلّ العمل و ينوبان عنه،و هما بمقداره أيضا- تأمّلوا ذلك-.

على كلّ حال،فإنّ كلّ إنسان فى ذلك اليوم مشغول بنفسه،و مبتلى بمعطيات أعماله و آثارها إلى درجه أنّه لا ينظر إلى أحد و لا يهتمّ به،حتّى و إن كان أبوه،أو ابنه الذى كانت تربطه به أقرب الروابط،فلا يفكّر أحد بآخر مطلقا.

و هذه الآيه نظير ما ورد فى بدايه سوره الحجّ فى الحديث حول القيامه و الزلزله: يَوْمَ تَرَوْنَهٰا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَهٍ عَمّٰا أَرْضَعَتْ .

و ممّا يستحقّ الانتباه أنّه يعبّر ب لاٰ يَجْزِي فى مورد الأب،و هى صيغه المضارع،أمّا فى شأن الابن فإنّه يعبّر باسم الفاعل(جاز)و هذا التفاوت فى التعبير لعلّه من باب التنوّع فى الكلام،أو إشاره إلى واجب و مسئوليه الابن تجاه الأب، لأنّ اسم الفاعل يؤدّى معنى الدوام و التكرار أكثر.

و بتعبير آخر،فإنّ المتوقّع من العواطف الأبويه أن يتحمّل الأب مقدارا من العذاب عن ابنه،كما كان فى الدنيا يتحمّل المصاعب و المشاكل فى سبيله،لكن من

الابن أن يتحمّل مصائب الأب أكثر وفاء لحقوق الابوّه المترتّبه عليه،فى حين أن أيّا منهما لا يتحمّل أدنى مشكله عن الآخر،و كلّ منهما مشغول بأعماله،و حائر فى أمره و نفسه.

و تحذّر الآيه فى النهايه البشر من شيئين،فتقول: إِنَّ وَعْدَ اللّٰهِ حَقٌّ فَلاٰ تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيٰاةُ الدُّنْيٰا وَ لاٰ يَغُرَّنَّكُمْ بِاللّٰهِ الْغَرُورُ أى الشيطان.

فى الواقع،يلاحظ هنا نهيان فى مقابل الأمرين اللذين كانا فى بدايه الآيه،فإنّ الإنسان إذا نمت فيه مسأله التوجّه إلى اللّه،و الخوف من الحساب و الجزاء، فلا يخاف عليه من الانحراف و الفساد،إلّا من طريقين:

أحدهما:أن تغلب زخارف الدنيا و زبرجها الحقائق فى عينيه بصور اخرى، و تسلب منه القدره على التشخيص،لأنّ حبّ الدنيا رأس كلّ الخطايا و أساسها.

و الآخر:أن تخدعه وساوس الشيطان و تغرّه،و تبعده عن المبدأ و المعاد.

فإذا أغلق طريقى نفوذ المعصيه و الذنب هذين،فسوف لا يهدّده أىّ خطر، و على هذا فإنّ الدساتير و البنود الأربعه أعلاه تمثّل مجموعه كامله من برنامج نجاه و خلاص الإنسان.

و فى آخر آيه من هذه السوره،و بمناسبه البحث الذى جاء فى الآيه السابقه حول يوم القيامه،يدور الكلام عن العلوم المختّصه باللّه سبحانه،فتقول: إِنَّ اللّٰهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السّٰاعَةِ وَ يُنَزِّلُ الْغَيْثَ و مطّلع على جميع جزئياته و تفاصيله...

وَ يَعْلَمُ مٰا فِى الْأَرْحٰامِ وَ مٰا تَدْرِى نَفْسٌ مٰا ذٰا تَكْسِبُ غَداً وَ مٰا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللّٰهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ

.

فكأنّ مجموع هذه الآيه جواب عن سؤال يطرح فى باب القيامه،و هو نفس السؤال الذى سأل المشركون به النّبى صلّى اللّه عليه و آله مرارا و تكرارا،و قالوا: مَتىٰ هُوَ ؟ (1) ، فيجيبهم القرآن عن سؤالهم،و يقول:لا يعلم أحد بموعد قيام القيامه إلّا اللّه

1- 1) الإسراء،51.

سبحانه،و طبقا لصريح آيات اخرى،فإنّ اللّه أخفى هذا العلم عن الجميع: إِنَّ السّٰاعَةَ آتِيَةٌ أَكٰادُ أُخْفِيهٰا (۱) ،و ذلك كى لا يحيط الغرور و الغفله بأطراف البشر.

ثمّ تقول الآيه:إنّ مسأله القيامه ليست هى المسأله الوحيده الخافيه عليكم، ففى حياتكم اليوميه،و من بين أقرب المسائل المرتبطه بحياتكم و مماتكم، مسائل كثيره تجهلونها..

أنتم لا تعلمون زمان نزول قطرات المطر،و التى ترتبط بها حياه كلّ الكائنات الحيّه،و إنّما تتوقّعونها على أساس الحدس و الظنّ و التخمين.

و كذلك زمان تكوّنكم فى بطون الامّهات و خصائص الجنين فلا علم لأحد منكم بذلك.

و مستقبلكم القريب،أى حوادث الغد،و كذلك مكان موتكم و توديعكم للحياه، خاف على الجميع.

فإذا كنتم جاهلين بهذه المسائل القريبه من حياتكم و المتّصله بها،فلا مجال للعجب من عدم علمكم بلحظه قيام القيامه (۲) .

و نقل فى الدرّ المنثور:أنّ رجلا-يقال له«الوراث»،من بنى«مازن بن حفصه»، جاء إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله،فقال:يا محمّد،متى تقوم الساعه؟و قد أجدبت بلادنا فمتى تخصب؟و قد تركت امرأتى حبلى فمتى تلد؟و قد علمت ما كسبت اليوم فما ذا أكسب غدا؟و قد علمت بأى أرض ولدت فبأى أرض أموت؟فنزلت هذه الآيه (۳) .

۱- ۱) سوره طه،۱۵.

۲- ۲) صحيح أنّ جمله(ينزل الغيث)فى الآيات أعلاه لا تتحدّث عن مسأله علم اللّه-و لهذا السبب فإنّ البعض اعتبر هذه الجمله استثناء من بين هذه الجمل،و جعلها مبيّنه لقدره اللّه لا علمه،إلاّ أنّ انسجام الجمل الخمس مع بعضها من جهه، و الروايات المتعدّده التى وردت فى نهج البلاغه و كتب اخرى-و سنشير إليها قريبا-من جهه اخرى،قرينه على أنّها ترتبط بعلم اللّه أيضا.

۳- ۳) تفسير الدرّ المنثور،طبقا لنقل تفسير الميزان،الجزء۱۶ صفحه ۲۴۱.

بحوث

اشاره

۱-أنواع الغرور و الخدع!

إنّ الآيات أعلاه تحـذّر من الانخداع و الاغترار بزخارف الحياه الدنيا و بهارجها،ثمّ تتحدّث عن خدع الشـيطان و مكائده،و تعلن عن خطورته،لأنّ الناس عدّه أقسام:

فبعضهم ضعيف و عاجز إلى الحدّ الذى يكفى لخداعه و التغرير به مجرّد رؤيه زخارف الدنيا.

أمّا القسم الذى يمتلك مقاومه أكثر،فلا بدّ أن تزداد الوساوس الشيطانيه لازدياد مقاومتهم،و يتّحد لإضلالهم و خداعهم الشيطان الداخلى و الخارجى.

و تعبيرات الآيه أعلاه تحذير لأفراد كلا الفئتين.

و ممّـا يجـدر ذكره أنّ(الغرور)على وزن«جسور»يعنى كـلّ موجود خـدّاع، و إنّمـا فسّـروها بالشـيطان لأنّه مصـداقها الواضـح فى الحقيقه،و إلاّـ فـإنّ كلّ إنسان خـدّاع،و كلّ كتاب مضلّ،و أىّ مقام و منصب يوسوس،و كلّ موجود يخـدع الإنسان و يضـلّه فإنّه يـدخل فى المفهوم الواسع لهـذه الكلمه،اللهمّ إلاّ أن نعطى للشـيطان من سعه المعنى بحيث يشـمل كلّ المعانى المتقدّمه،و لهذا فـإنّ الراغب فى مفرداته يقول:فـالغرور كـلّ مـا يغرّ الإنسـان من مال و جاه و شـهوه و شـيطان،و قـد فسّـر بالشـيطان إذ هو أخبث الغارين.

و قد فسّرها البعض بالدنيا لخداعها و غرورها، كما نقرأ فى نهج البلاغه:«تغرّ و تضرّ و تمرّ» (۱) .

۲-خداع الدنيا

لا شكّ أنّ كثيرا من مظاهر الحياه الدنيا غارّه و مضلّه،و قد تشغل الإنسان بها

۱- ۱) وردت جمله(تغرّ و تضرّ و تمرّ)فى شأن الدنيا فى نهج البلاغه فى باب الحكم القصار لأمير المؤمنين عليه السّلام:۴۱۵.

أحيانا حتّى يغفل عن كلّ شیء،و لا یشتغل إلّا بها،و لذلک نقرأ

فی بعض الروایات عن أمیر المؤمنین علیه السّلام حینما سأله بعضهم: أیّ الناس أثبت رأیا؟قال:«من لم یغرّه الناس من نفسه،و لم تغرّه الدنیا بتشویقها» (۱) .

و لکن،و مع هذه الحال،فإنّ فی طیّات مشاهد هذه الدنیا الخدّاعه المختلفه، مشاهد و حوادث ناطقه معبّره عن زوال هذا العالم،و کون زخارفه و زبارجه جوفاء خالیه بأبلغ تعبیر و أوضحه،تلک الحوادث تستطیع أن توقظ کلّ إنسان عاقل،بل و تجعل الأغبیاء عاقلین حکماء.

ففی حدیث: أنّ أمیر المؤمنین علیا علیه السّلام سمع رجلا یذمّ الدنیا و کان یعدّها خدّاعه،فقال علیه السّلام:«أیّها الذامّ للدنیا المغترّ بغرورها،المخدوع بأباطیلها،أ تغترّ بالدنیا ثمّ تذمّها؟ أنت المتجرّم علیها،أم هی المتجرّمه علیک؟ متی استهوتک؟أم متی غرّتک؟أ بمصارع آبائک من البلی أم بمضاجع امّهاتک تحت الثری...؟! إنّ الدنیا دار صدق لمن صدقها،و دار عافیه لمن فهم عنها،و دار غنی لمن تزوّد منها،و دار موعظه لمن اتّعظ بها،مسجد أحبّاء اللّه،و مصلّی ملائکه اللّه، و مهبط وحی اللّه،و متجر أولیاء اللّه...» (۲) .

۳-هذه العلوم الخمسه مختصّه باللّه

إنّ أسلوب الآیه أعلاه یحکی أنّ العلم بالقیامه،و نزول المطر،و وضعیّه الجنین فی رحم الامّ،و الأمور التی سیقوم بها الإنسان فی المستقبل،و محلّ موته منحصر باللّه،و لا سبیل للآخرین إلی العلم بذلک،إضافه إلی هذا فإنّ الرّوایات الوارده فی

۱- ۱) من لا یحضره الفقیه،وفقا لنقل نور الثقلین،المجلّد ۴،صفحه ۲۱۷.

۲- ۲) نهج البلاغه،الحکم القصار،جمله ۱۳۱.

تفسير هذه الآيه تؤكّد هذه الحقيقه،و من جملتها ما

ورد فی حديث: «إنّ مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهنّ إلاّ اللّه،و قرأ هذه الآيه» (۱) .

و

جاء فی روايه اخری وردت فی نهج البلاغه: أنّ عليّا عليه السّلام كان يوما يخبر بحوادث المستقبل،فقال له أحد أصحابه:يا أمير المؤمنين،أ تتحدّث عن الغيب و تعلم به؟ فتبسّم الإمام،و قال له:«يا أخا كلب(لأنّ الرجل كان من بنی كلب)،ليس هو بعلم غيب،و إنّما هو تعلّم من ذی علم،و إنّما علم الغيب علم الساعه و ما عدده اللّه سبحانه بقوله: إِنَّ اللّٰهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السّٰاعَهِ... فيعلم اللّه سبحانه ما فی الأرحام،من ذكر أو أنثی،و قبيح أو جميل،و سخیّ أو بخيل،و شقیّ أو سعيد،و من يكون فی النار حطبا،و فی الجنان للنبيين مرافقا،فهذا علم الغيب الذی لا يعلمه أحد إلاّ اللّه، و ما سوی ذلک فعلم علّمه اللّه نبيّه فعلّمنيه و دعا لی بأن يعيه صدری و تضطمّ عليه جوانحی» (۲) .

و يظهر من هذه الروايات جليّا أنّ المراد من عدم علم الناس بهذه الأمور، جهلهم بكلّ خصوصياتها و جزئياتها،فمثلا:إذا وضعت تحت تصرّف الإنسان يوما ما وسائل معيّنه-و لم يحلّ ذلک اليوم إلی الآن-بحيث يطّلع تماما علی كون الجنين ذكرا أو أنثی،فإنّ هذا الأمر برغم كونه تطوّرا علميّا هامّا لا يعدّ شيئا،لأنّ الاطّلاع علی الجنين و العلم به يعنی أن نعلم كلّ خصائصه الجسميه،القبح و الجمال،الصحّه و المرض،الاستعدادات الداخليه،الذوق العلمی و الفلسفی و الأدبی،و سائر الصفات و الكيفيّات الروحيه،و هذا الأمر لا يتمّ لغير اللّه سبحانه.

و كذلک ما يتعلّق بالمطر،فمتی ينزل؟و أيّه منطقه يصيب و يهطل عليها؟و أیّ مقدار-علی وجه الدقّه-سينزل فی البحر؟و ما مقدار ما ينزل فی الصحراء

۱- ۱) مجمع البيان،ذيل الآيه مورد البحث.

۲- ۲) نهج البلاغه.الخطبه ۱۲۸.

و المنحدرات و الجبال؟لا يعلم بذلك إلاّ اللّه تعالى.

و كذلك شأن حوادث الغد،و الأيّام التاليه،و خصوصياتها و جزئيّاتها.

و من هنا يتّضح جيّدا جواب السؤال الذى يطرح هنا غالبا،حيث يقولون:إنّنا نقرأ فى التواريخ و الروايات المتعدّده أنّ أئمّه أهل البيت عليهم السّلام،بل و حتّى بعض أولياء اللّه من غير الأئمّه،قد أخبروا بموتهم،أو بيّنوا و حدّدوا مكان دفنهم،و من جملتها الحوادث المتعلّقه بكربلاء،فقد قرأنا مرارا فى الروايات أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله،أو أمير المؤمنين عليه السّلام و الأنبياء السابقين قد أخبروا بشهاده الإمام الحسين عليه السّلام و أصحابه بأرض كربلاء.

و فى كتاب اصول الكافى يلاحظ باب فى علم الأئمّه بزمان و فاتهم (۱) .

و الجواب هو:إنّ العلم بجزء من هذه الأمور،علما إجماليا-و هذا العلم أيضا عن طريق التعليم الإلهى-لا ينافى مطلقا اختصاص العلم التفصيلى بها بذات اللّه المقدّسه.

ثمّ إنّ هذا الإجمال أيضا-و كما قلنا-ليس ذاتيا و مستقلا،بل هو عرضى و حصل بالتعليم الإلهى،بالمقدار الذى يريده اللّه و يرى فيه الصلاح،و لذلك نرى

فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّ أحد أصحابه سأله:هل يعلم الإمام الغيب؟ قال:«لا،و لكن إذا أراد اللّه أن يعلم الشيء أعلمه اللّه ذلك» (۲) .

و قد وردت فى باب علم الغيب،و كيفيّه علم الأنبياء و الأئمّه به روايات كثيره سنبحثها فى نهايه الآيات المناسبه،إلاّ أنّ من المسلّم أنّ هناك علوما لم يطّلع عليها و لا يعلم بها أحد إلاّ اللّه عزّ و جلّ (۳) .

۱- ۱) اصول الكافى،المجلّد الأوّل،ص ۲۰۲ باب أنّ الأئمّه يعلمون متى يموتون.

۲- ۲) اصول الكافى،المجلّد الثّانى،ص ۲۰۱ باب نادر فيه ذكر الغيب.

۳- ۳) لدينا فى كتاب الكافى روايات عديده فى أنّ للّه علما لا يعلمه إلاّ هو،و علما علّمه الملائكه و الأنبياء و الأئمّه.المجلّد الأوّل،صفحه ۱۹۹ باب أنّ الأئمّه عليهم السّلام يعلمون جميع العلوم التى خرجت إلى الملائكه.

اللهمّ نوّر قلوبنا بنور العلم،وهب لنا من علمک اللامتناهی.

اللهمّ اعصمنا زخارف هذه الدنيا،و لا يغرّنا الشيطان و هوی أنفسنا.

إلهنا اجعلنا منتبهين دائما إلی إحاطه علمک،و جنّبنا أن نعمل بين يديک ما يخالف رضاك و يجلب سخطک.

نهايه سوره لقمان

ص :۸۳

سوره السّجده

اشاره

مکّیه و عدد آیاتها ثلاثون آیه

ص :۸۵

أسماء هذه السوره:

المعروف أنّ هذه السوره نزلت فی مکّه،إلاّ أنّ البعض الآخر یری أنّ الآیات ۱۸-۲۰ مدنیّه،فی حین لا تلاحظ أیّه قرینه أو علامه فی هذه الآیات علی کونها مدنیه.

اسم هذه السوره فی بعض الرّوایات،و کذلک المشهور علی لسان المفسّرین:

(سوره السجده)،أو(الم السجده)،و یسمّونها أحیانا(سجده لقمان)لتمییزها عن سوره(حم السجده)،لأنّها جاءت بعد سوره لقمان.

و ذکرت فی بعض الرّوایات باسم(الم تنزیل).

و ذکر«الفخر الرازی»و«الآلوسی»أنّ من جمله أسمائها(سوره المضاجع)، و هو إشاره إلی الآیه(۱۶)من هذه السوره: تَتَجٰافیٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضٰاجِعِ... .

فضل تلاوه سوره السجده:

ورد فی حدیث عن الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله: «من قرأ الم تنزیل،و تبارک الذی بیده الملک،فکأنّما أحیی لیله القدر» (۱) .

و

روی عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق علیه السّلام فی حدیث آخر: «من قرأ سوره السجده فی کلّ لیله جمعه أعطاه اللّه کتابه بیمینه،و لم یحاسبه بما کان منه،و کان من رفقاء محمّد صلّی اللّه علیه و آله و أهل بیته» (۲) .

و لمّا کانت قد وردت فی هذه السوره بحوث واسعه عن المبدأ و المعاد،و عقاب المجرمین فی یوم القیامه،و دروس محذّره ترتبط بالمؤمنین و الکافرین،فلا شکّ أنّ تلاوتها-التلاوه التی تکون مصدرا و منبعا للتفکیر،و بالتالی مبدءا للتصمیم و الحرکه- قادره علی أن تصنع من الإنسان مثالا متکاملا تشمله کلّ هذه الفضیله و الفخر،و أن یکون أثرها کإحیاء لیله القدر،و نتیجتها أن یکون فی مصافّ أصحاب الیمین،و نیل افتخار محبّه النّبی و آله صلوات اللّه علیهم.

محتوی سوره السجده:

هذه السوره بحکم کونها من السور المکّیه تتابع بقوّه الخطوط الأصلیه للسور

۱- ۱) مجمع البیان،الجزء ۸،صفحه ۳۲۴.

۲- ۲) مجمع البیان،الجزء ۸،صفحه ۳۲۵.

المكّيه،أى البحث فى المبدأ و المعاد،و البشاره و الإنذار،و على العموم تنقسم مباحثها إلى عدّه أقسام:

۱-الكلام عن عظمه القرآن،و نزوله من قبل ربّ العالمين،و نفى اتّهامات الأعداء عنه.

۲-ثمّ البحث حول آيات اللّه سبحانه فى السماء و الأرض،و تدبير هذا العالم.

۳-بحث آخر حول خلق الإنسان من«التراب»و«النطفه»و«الروح الإلهيّه»، و منحه وسائل تحصيل العلم،أى العين و الاذن و العقل من قبل اللّه تعالى.

۴-ثمّ تتحدّث بعد ذلك عن القيامه و الحوادث التى تسبقها،أى الموت،و ما بعدها،أى السؤال و الحساب.

۶-۵-بحوث مؤثّره تهزّ الوجدان عن البشاره و الإنذار،تبشّر المؤمنين بجنّه المأوى،و تهدّد الفاسقين بعذاب جهنّم الشديد.

۷-و فى السوره إشاره قصيره إلى تأريخ بنى إسرائيل،و قصّه موسى عليه السّلام و انتصارات هذه الامّه.

۸-و كذلك تشير-مناسبه لبحث البشاره و الإنذار-إلى أحوال قوم آخرين من الأمم السابقه،و مصيرهم المؤلم.

۱۰-۹-ثمّ تعود مرّه اخرى إلى مسأله التوحيد و آيات عظمه اللّه،و تنهى السوره بتهديد الأعداء المعاندين.

و بهذا فإنّ الهدف الأصلى للسوره تقويه أسس الإيمان بالمبدأ و المعاد،و إيجاد دفعه قويّه فى المحتوى الداخلى للإنسان نحو التقوى،و الابتعاد عن العصيان

ص :۸۹

و التمرّد و الطغيان،و التوجّه إلى مقام الإنسان الرفيع،و هذا المعنى كان يحظى بالأهميّه القصوى خاصّه فى بدايه حركه الإسلام،و فى محيط مكّه.

ص :٩٠

الآیات [سوره السجده (۳۲): الآیات ۱ الی ۵]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِ الم (۱) تَنْزِیلُ اَلْکِتٰابِ لاٰ رَیْبَ فِیهِ مِنْ رَبِّ اَلْعٰالَمِینَ (۲) أَمْ یَقُولُونَ اِفْتَرٰاهُ بَلْ هُوَ اَلْحَقُّ مِنْ رَبِّکَ لِتُنْذِرَ قَوْماً مٰا أَتٰاهُمْ مِنْ نَذِیرٍ مِنْ قَبْلِکَ لَعَلَّهُمْ یَهْتَدُونَ (۳) اَللّٰهُ اَلَّذِی خَلَقَ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضَ وَ مٰا بَیْنَهُمٰا فِی سِتَّهِ أَیّٰامٍ ثُمَّ اِسْتَویٰ عَلَی اَلْعَرْشِ مٰا لَکُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِیٍّ وَ لاٰ شَفِیعٍ أَ فَلاٰ تَتَذَکَّرُونَ (۴) یُدَبِّرُ اَلْأَمْرَ مِنَ اَلسَّمٰاءِ إِلَی اَلْأَرْضِ ثُمَّ یَعْرُجُ إِلَیْهِ فِی یَوْمٍ کٰانَ مِقْدٰارُهُ أَلْفَ سَنَهٍ مِمّٰا تَعُدُّونَ (۵)

التّفسیر

اشاره

عظمه القرآن،و المبدأ و المعاد:

مرّه اخری نواجه الحروف المقطّعه(الف-لام-میم)فی هذه السوره،و هذه هی المرّه الخامسه عشره التی نری فیها مثل هذه الحروف فی بدایه السور القرآنیه.

ص:۹۱

و لقد بحثنا بصوره مفصّله فی بدایه سوره البقره،و آل عمران و الأعراف التفاسیر المختلفه لهذه الحروف.و البحث الذی جاء بعد هذه الحروف مباشره حول أهمیّه القرآن یبیّن مرّه اخری هذه الحقیقه،و هی أنّ الم إشاره إلی عظمه القرآن،و القدره علی إظهار عظمه اللّه سبحانه،و هذا الکتاب العظیم الغنیّ المحتوی،و الذی هو معجزه محمّد صلّی اللّه علیه و آله الخالده یتکوّن من حروف المعجم البسیطه التی یعرفها الجمیع.

تقول الآیه: تَنْزِیلُ الْکِتٰابِ لاٰ رَیْبَ فِیهِ مِنْ رَبِّ الْعٰالَمِینَ (۱) .هذه الآیه-فی الواقع-جواب عن سؤالین:الأوّل عن محتوی هذا الکتاب السماوی،فتقول فی الجواب:إنّ محتواه حقّ و لا مجال لأدنی شکّ فیه.و السؤال الثّانی یدور حول مبدع هذا الکتاب،و فی الجواب تقول:إنّ هذا الکتاب من قبل ربّ العالمین.

و یحتمل فی التّفسیر أیضا أنّ جمله مِنْ رَبِّ الْعٰالَمِینَ جاءت دلیلا و برهانا لجمله لاٰ رَیْبَ فِیهِ ،فکأنّ سائلا یسأل:ما هو الدلیل علی أنّ هذا الکتاب حقّ، و لا مجال للشکّ فیه؟فتقول:الدلیل هو أنّه من ربّ العالمین الذی یصدر منه کلّ حقّ و حقیقه.

ثمّ إنّ التأکید علی صفه رَبِّ الْعٰالَمِینَ من بین صفات اللّه سبحانه قد یکون إشاره إلی أنّ هذا الکتاب مجموعه من عجائب عالم الخلقه،و عصاره حقائق عالم الوجود،لأنّه من ربّ العالمین.

و ینبغی الالتفات أیضا إلی أنّ القرآن لا یرید هنا الاکتفاء بالادّعاء الصرف،بل یرید أن یقول:إنّ الشیء الظاهر للعیان لا یحتاج إلی البیان،فإنّ محتوی هذا

ص:۹۲

---

۱) -«تنزیل الکتاب»خبر لمبتدأ محذوف تقدیره(هذا)و جمله لاٰ رَیْبَ فِیهِ صفته،و(من ربّ العالمین)صفه اخری. و احتمل البعض أن تکون الجمل الثلاث أخبارا متعاقبه.إلاّ أنّ المعنی الأوّل أنسب.و علی کلّ حال فإنّ(تنزیل)مصدر جاء بمعنی اسم المفعول،و إضافته إلی الکتاب من قبیل إضافه الصفه إلی الموصوف.و یحتمل أیضا أن یکون المصدر بمعناه الأصلی و یؤدّی معنی المبالغه.

الكتاب شاهد بنفسه على صحّته و أحقّيته.

ثمّ يشير إلى التهمه التى طالما وجهها المشركون و المنافقون إلى هذا الكتاب السماوى العظيم حيث قالوا:إنّ هذا الكتاب من تأليف محمّد.و قد ادعى كذبا بأنّه من اللّه: أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ (۱) فيقول جوابا على ادّعاء هؤلاء الزائف: بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ و أدلّه أحقّيته واضحه و بيّنه فيه من خلال آياته.

ثمّ يتطرّق إلى الهدف من نزوله،فيقول: لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ .

فبالرغم من أنّ دعوه النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله مبشّره و منذره،و أنّه بشير قبل أن يكون نذيرا،إلاّ أنّه يجب التأكيد على الإنذار أكثر مع القوم الضالّين المعاندين.

و جمله لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ إشاره إلى أنّ القرآن يهيّء أرضيه الهدايه،إلاّ أنّ التصميم و اتّخاذ القرار النهائى موكول و مرتبط بنفس الإنسان.

و هنا يطرح سؤالان:

۱-من هم هؤلاء القوم الذين لم يأتهم أى نذير قبل النّبى صلّى اللّه عليه و آله؟ ۲-ألم يقل القرآن الكريم: وَ إِنْ مِنْ أُمَّهٍ إِلاّ خَلا فِيها نَذِيرٌ . (۲)

قال جمع من المفسّرين فى جواب السؤال الأوّل:المراد قبيله قريش التى لم يكن لها نذير قبل نبىّ الإسلام.

و قال البعض الآخر:المراد مرحله الفتره و الفاصله الزمنيه بين نبوّه عيسى عليه السّلام و ظهور نبى الإسلام صلّى اللّه عليه و آله.

إلاّ أنّ أيّا من هذين الجوابين لا يبدو صحيحا،لأنّ الأرض لا تبقى خاليه من حجّه اللّه مطلقا،و فى كلّ عصر و زمان لا بدّ من وجود نبى أو وصى نبىّ لإتمام

۱- ۱) «أم»هنا بمعنى«بل»،و احتمل البعض أنّ فى الجمله تقديرا،و كانت فى الأصل:أ يعترفون به أم يقولون افتراه- تفسير«الفخر الرازى و أبى الفتوح-»إلاّ أنّ هذا الاحتمال يبدو بعيدا.

۲- ۲) فاطر،۲۴.

الحجّه.

بناء على هـذا،يبدو أنّ المراد من«النذير»هنا النّبى الكبير الذى يوضّح و يبيّن دعوته مقرونه بالمعجزات و فى محيط واسع،و معلوم أنّ مثل هذا النذير لم يقم فى الجزيره العربيه و بين قبائل مكّه.

و فى الإجابه عن السؤال الثّانى ينبغى أن يقال:إنّ معنى جمله: وَ إِنْ مِنْ أُمَّهٍ إِلاّ خَلا فِيها نَذِيرٌ هو أنّ كلّ امّه كان لها نذير،إلاّ أنّه لا يلزم حضوره بنفسه فى كلّ مكان،بل يكفى أن يصل صوت دعوه أنبياء اللّه العظام بواسطه أوصيائهم إلى أسماع كلّ البشر فى العالم.

و هـذا يشـبه قولنـا:إنّ كـلّ امّه كان لها نبى من اولى العزم،و لها كتاب سـماوى، فمعنى هـذا الكلام أنّ صوت هـذا النّبى و كتابه السماوى قد وصل عن طريق وكلائه و أوصيائه لكلّ تلك الامّه على طول التاريخ.

بعـد بيـان عظمه القرآن و رسـاله النّبى صـلّى اللّه عليه و آله تطرّقت الآـيه التـاليه إلى أساس آخر من أهم أسـس و دعائم العقائد الإسلاميه،فتقول: اَللّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما فِى سِتَّهِ أَيّامٍ (۱) .

و قلنـا مرارا:إنّ المراد مـن سِتَّهِ أَيّامٍ فى هـذه الآيـات:ستّ مراحـل،لأـنّ أحـد معـانى اليـوم فى المحادثـات اليـوميه:المرحله،كما نقول:كـان النظـام المسـتبدّ يحكمنـا بالأمس،و اليوم يحكمنا نظام الشورى،فى حين أنّ الحكومات المسـتبدّه كانت تحكم آلاف السنين،إلاّ أنّهم يعبّرون عن تلك المرحله باليوم.

و من جهه اخرى،فقد مرّت فترات و مراحل مختلفه على السماء و الأرض:

-فيوما كانت كلّ كواكب المنظومه الشمسيه كتله واحده مذابه.

۱- ۱) لفظ الجلاله فى هـذه الجمله مبتـدأ،و(الـذى)خبره.و احتملت فى تركيب هذه الجمله احتمالات اخرى،من جملتها،أنّ لفظ الجلاـله خبر لمبتـدأ محـذوف،أو أنّ لفـظ الجلاـله مبتـدأ و خبره(مـا لكم من دونه من ولى)إلاّـ أنّ هـذين الاحتمالين لا يبـدوان مناسبين بتلك الدرجه.

-و فی یوم آخر انفصلت السیارات عن الشمس و بدأت تدور حولها.

-و فی یوم کانت الأرض کتله نار ملتهبه.

-و فی یوم آخر أصبحت بارده و جاهزه لحیاه النباتات و الحیوانات،ثمّ وجدت الکائنات الحیّه عبر مراحل مختلفه.

و قد أوردنا شرحا مفصّلا لهذا المعنی و المراحل الستّ بصوره مفصّله فی ذیل الآیه(۵۴)من سوره الأعراف.

و من البدیهی أنّ قدره اللّه اللامتناهیه کافیه لإیجاد کلّ هذا العالم فی لحظه،بل و فی أقلّ منها،إلاّ أنّ هذا النظام التدریجی یبیّن عظمه اللّه و علمه و تدبیره فی جمیع المراحل بصوره أفضل.

فمثلا:إذا طوی الجنین فی لحظه واحده کلّ مراحل تکامله و ولد،فإنّ عجائبه ستبقی بعیده عن نظر الإنسان،أمّا عند ما نراه یطوی فی کلّ یوم و أسبوع-طوال هذه التسعه أشهر-أشکالا عجیبه جدیده،فسنتعرّف أکثر علی عظمه اللّه سبحانه.

و بعد مسأله الخلق تتطرّق الآیه إلی مسأله حاکمیّه اللّه سبحانه علی عالم الوجود،فتقول:إنّ اللّه تعالی بعد ذلک استوی علی عرش قدرته و سیطر علی جمیع الکائنات: ثُمَّ اسْتَویٰ عَلَی الْعَرْشِ .

کلمه(العرش)کما قلنا سابقا،تعنی فی الأصل الکراسی الطویله القوائم،و تأتی عاده کنایه عن القدره،کما نقول فی تعبیراتنا الیومیه:تکسّرت قوائم عرش فلان، أی إنّ قدرته و حکومته قد زالت.

بناء علی هذا،فإنّ استواء اللّه علی العرش لا یراد منه المعنی الجسمی بأن یکون للّه عرش کالملوک یجلس علیه،بل بمعنی أنّه خالق عالم الوجود،و کذلک الحاکم علی کلّ العالم (۱) .

۱- ۱) لمزید التوضیح حول هذا الکلام راجع ذیل الآیه(۵۴)من سوره الأعراف.

و تكمّل الآيه مراحل التوحيد بالإشاره إلى توحيد«الولايه»و«الشفاعه»، فتقول: مٰا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لاٰ شَفِيعٍ .

فمع هذا الدليل الواضح،بأنّ كونه سبحانه خالقا دليل على كونه حاكما، و الحاكميّه دليل على توحيد الولى و الشفيع و المعبود،فلما ذا تنحرفون و تضلّون و تتمسّكون بالأصنام؟ أَ فَلاٰ تَتَذَكَّرُونَ ! فى الحقيقه،إنّ المراحل الثلاث للتوحيد التى انعكست فى الآيه أعلاه يعتبر كلّ منها دليلا على الاخرى،فتوحيد الخالقيه دليل على توحيد الحاكميه،و توحيد الحاكميه دليل على توحيد الوليّ و الشفيع و المعبود.

و هنا طرح بعض المفسّرين سؤال،و هو أنّ الجمله الأخيره تقول:ما لكم من دون اللّه من وليّ و لا شفيع،و معناها أنّ وليّكم و شفيعكم الوحيد هو اللّه سبحانه وحده،فهل من الممكن أن يشفع أحد عنده؟ و يمكن الإجابه على هذا السؤال من ثلاثه جوانب:

١-بملاحظه أنّ جميع الشفعاء لا يشفعون إلاّ بإذنه تعالى: مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاّٰ بِإِذْنِهِ (١) ،يمكن القول بأنّ الشفاعه بالرغم من كونها من قبل الأنبياء و أولياء اللّه،إلاّ أنّها تعود إلى اللّه سبحانه،سواء كانت الشفاعه لغفران الذنوب و العفو عن العاصين،أم للوصول إلى النعم الإلهيّه،و الشاهد على هذا الكلام الآيه التى وردت فى بدايه سوره«يونس»بمضمون هذه الآيه تماما،حيث تقول:

يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مٰا مِنْ شَفِيعٍ إِلاّٰ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ . (٢)

٢-إنّنا عند التوسّل باللّه نتوسّل بصفاته،فنستمدّ من رحمته و رحمانيّته،من كونه غفّارا غفورا،و من فضله و كرمه،فكأنّنا قد جعلناه شفيعا إلى نفسه،و نعتبر هذه الصفات واسطه بينها و بين ذاته المقدّسه،و إن كانت صفاته عين ذاته فى

١- ١) البقره،٢٥٥.

٢- ٢) يونس،٣.

الحقیقه،و هذا هو نفس الشیء الذی جاء فی دعاء کمیل فی عباره علی علیه السّلام العمیقه المعنی: «و استشفع بک إلی نفسک».

۳-المراد من«الشفیع»هنا:الناصر و المعین،و نحن نعلم أنّ الناصر و الولیّ و المعین هو اللّه وحده،و ما قیل من أنّ الشفاعه هنا بمعنی الخلق و تکمیل النفوس یعود فی الحقیقه إلی نفس هذا المعنی.

و تشیر الآیه الأخیره من الآیات مورد البحث إلی توحید اللّه سبحانه فی البدایه، ثمّ إلی مسأله«المعاد»،و بهذا تکمل هنا فروع و أرکان التوحید الثلاثه التی اتّضحت فی الآیات السابقه-(توحید الخالقیه و الحاکمیه و العبودیه)-بذکر توحید الربوبیه،أی تدبیر عالم الوجود من قبل اللّه سبحانه فقط،فتقول:إنّ اللّه یدبّر امور العالم من مقام القرب منه إلی الأرض: یُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمٰاءِ إِلَی الْأَرْضِ .

و بتعبیر آخر،فإنّ اللّه سبحانه قد جعل عالم الوجود من السماء إلی الأرض تحت أمره و تدبیره،و لا یوجد مدبّر سواه فی هذا العالم (۱) .

ثمّ تضیف: ثُمَّ یَعْرُجُ إِلَیْهِ فِی یَوْمٍ کٰانَ مِقْدٰارُهُ أَلْفَ سَنَهٍ مِمّٰا تَعُدُّونَ و المراد من هذا الیوم یوم القیامه.

و توضیح ذلک:أنّ المفسّرین قد تحدّثوا کثیرا فی تفسیر هذه الآیه،و احتملوا احتمالات عدیده مختلفه:

۱-فاعتبرها بعضهم إشاره إلی قوس الصعود و النّزول لتدبیر العالم فی هذه الدنیا.

۲-و ذهب آخرون إلی أنّها إشاره إلی ملائکه اللّه الذین یطوون المسافه بین السماء و الأرض فی خمسمائه سنه،و یرجعون بهذه المدّه أیضا،و هو مشغولون

---

۱ – ۱) طبقا للتعبیر الأوّل فإنّ«السماء»بمعنی مقام القرب من اللّه،و طبقا للتعبیر الثّانی فإنّ«السماء»تعنی نفس هذه السماء -تأمّلوا ذلک-.

بتدبير هذا العالم بأمر اللّه سبحانه.

۳-و يعتبرها البعض الآخر إشاره إلى مراحل التدبير الإلهى فى هذا العالم، و يعتقدون أنّ مراحل التدبير الإلهى فى هذا العالم كلّ ألف سنه،و يأمر اللّه سبحانه ملائكته بتدبير أمر السماء و الأرض فى كلّ الف سنه،و بعد انتهاء مرحله الألف سنه هذه تبدأ مرحله اخرى.

إنّ هذه التفاسير علاوه على أنّها تطرح مطالب غامضه و مبهمه،فإنّها لا تمتلك قرينه و شاهدا من نفس الآيه أو من آيات القرآن الاخرى.

و فى اعتقادنا أنّ المراد من الآيه-بقرينه آيات اخرى من القرآن،و كذلك الروايات الوارده فى تفسير الآيه-شىء آخر،و هو أنّ اللّه سبحانه خلق هذا العالم،و نظّم و دبّر السماء و الأرض بتدبير خاصّ،و ألبس البشر و الموجودات الحيّه الاخرى لباس الحياه،إلاّ أنّه يطوى هذا التدبير فى نهايه العالم،فتظلم الشمس،و تفقد النجوم أشعّتها،و بتعبير القرآن ستطوى السماوات حتّى ترجع إلى حالتها قبل توسّع هذا العالم يَوْمَ نَطْوِى السَّمٰاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمٰا بَدَأْنٰا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ (1) ،و بعد طىّ هذا العالم سيبدأ إبداع برنامج و مشروع عالمى جديد أوسع،أى سيبدأ عالم آخر بعد انتهاء هذه الدنيا.

و هذا المعنى قد ورد فى آيات القرآن الاخرى،و من جملتها الآيه(۱۵۶)من سوره البقره: إِنّٰا لِلّٰهِ وَ إِنّٰا إِلَيْهِ رٰاجِعُونَ .

و جاء فى الآيه(۲۷)من سوره الروم: وَ هُوَ الَّذِى يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ .

و نقرأ فى الآيه(۳۴)من سوره يونس: قُلِ اللّٰهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنّٰى تُؤْفَكُونَ .

۱- ۱) الأنبياء،۱۰۴.

بملاحظه هذه التعبيرات،و التعبيرات الاخرى التى تقول: وَ إِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ (۱) ،يتّضح أنّ الآيه مورد البحث تتحدّث أيضا عن بدايه و نهايه العالم و قيام يوم القيامه،و الذى يعبّرون عنه أحيانا ب«قوس النّزول»و«قوس الصعود».

بناء على هذا فإنّ معنى الآيه يصبح:إنّ اللّه سبحانه يدبّر أمر هذا العالم من السماء إلى الأرض-يبدأ من السماء و ينتهى بالأرض- ثمّ يعود كلّ ذلك إليه فى يوم القيامه.

و نطالع فى تفسير على بن إبراهيم فى ذيل هذه الآيه:يعنى الأمور التى يدبّرها، و الأمر و النهى الذى أمر به،و أعمال العباد،كلّ هذا يظهر يوم القيامه فيكون مقدار ذلك اليوم ألف سنه من سنىّ الدنيا.

و هنا سؤال،و هو:إنّنا نرى فى الآيه(۴)من سوره المعارج فى شأن طول يوم القيامه: تَعْرُجُ الْمَلاٰئِكَهُ وَ الرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كٰانَ مِقْدٰارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَهٍ فكيف يمكن الجمع بين الآيه مورد البحث،و التى عيّنت مقداره بألف سنه فقط، و آيه سوره المعارج؟! و

قد ورد الجواب عن هذا السؤال فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام روى فى (أمالى الشيخ الطوسى)أنّه قال: «إنّ فى القيامه خمسين موقفا،كلّ موقف مثل الف سنه ممّا تعدّون،ثمّ تلا هذه الآيه:فى يوم كان مقداره خمسين الف سنه» (۲) .

و من الطبيعى أنّ هذه التعبيرات لا تنافى عدم كون المراد من عدد الألف و الخمسين ألفا،العدد و الحساب هنا،بل كلّ منهما لبيان الكثره و الزياده،أى إنّ فى القيامه خمسين موقفا يجب أن يتوقّف الإنسان فى كلّ موقف مدّه طويله جدّا.

۱- ۱) سوره هود،۱۲۳.

۲- ۲) تفسير نور الثقلين،ج ۴،ص ۲۲۱،و تفسير الصافى ذيل الآيه مورد البحث.

بحث

اشاره

إساءه الاستفاده من آیه يُدَبِّرُ الْأَمْرَ

لقد اتّخذ بعض أتباع المذاهب المصطنعه المبتدعه (۱) الآیه أعلاه وسیله و دلیلا لتوجیه مسلکهم و مذهبهم،و أرادوا أن یطبّقوا هذه الآیه علی مرادهم بارتکاب المغالطات و الاشتباهات و ادّعوا أنّ المراد من«الأمر»فی الآیه:الدین و المذهب، و«التدبیر»:یعنی إرسال الدین،و«العروج»:یعنی رفع و نسخ الدین!و استنادا إلی هذا فإنّ کلّ مذهب أو دین لا یمکنه أن یعمّر أکثر من ألف سنه،و یجب أن یترک مکانه لدین آخر،و بهذا فإنّهم یقولون:إنّنا نقبل القرآن،لکن،و استنادا إلی نفس هذا القرآن فإنّ دینا آخر سیأتی بعد مرور الف سنه! و الآن نرید أن نبحث و نحلّل الآیه المذکوره بحثا محایدا،لنری هل یوجد فیها ارتباط بما یدّعیه هؤلاء،أم لا؟و نغضّ النظر عن أنّ هذا المعنی بعید عن مفهوم الآیه إلی الحدّ الذی لا یخطر علی ذهن أیّ قارئ خالی الذهن.

إنّنا نری-بعد الدقّه-أنّ ما یقولونه لا ینسجم مع مفهوم الآیه،بل إنّه مشکل بصوره واضحه من جهات کثیره:

۱-إنّ تفسیر کلمه«الأمر»بالدین لا دلیل علیه،بل تنفی آیات القرآن الاخری ذلک،لأنّ کلمه الأمر قد استعملت فی آیات اخری بمعنی أمر الخلق،مثل إِنَّمٰا أَمْرُهُ إِذٰا أَرٰادَ شَیْئاً أَنْ یَقُولَ لَهُ کُنْ فَیَکُونُ (۲) .

و قد استعملت کلمه الأمر فی هذه الآیه،و آیات اخری مثل:الآیه /۵۰سوره القمر،الآیه(۲۷)من سوره المؤمنون،الآیه(۵۴)من سوره الأعراف،(۳۲)من سوره إبراهیم،(۱۲)من سوره النحل،(۲۵)من سوره الروم،(۱۲)من سوره الجاثیه،بمعنی الأمر التکوینی،لا بمعنی تشریع الدین و المذهب.

ص:۱۰۰

۱- ۱) «البهائیه و البابیه».

۲- ۲) سوره یس،۸۲.

و أساسا فإنّ كلّ مورد يأتى الكلام فيه عن السماء و الأرض،و الخلق و الخلقه و أمثال ذلك،فإنّ«الأمر»يأتى بهذا المعنى(فتأمّل).

۲-كلمه«التدبير»تستعمل أيضا فى مورد الخلقه و الخلق و تنظيم وضع عالم الوجود،لا بمعنى إنزال الدين و الشريعه،و لذلك نرى فى آيات القرآن الاخرى- و الآيات يفسّر بعضها بعضا-أنّ هذه الكلمه لم تستعمل مطلقا فى مورد الدين و المذهب،بل استعملت كلمه«التشريع»أو«التنزيل»أو«الإنزال»:

- شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مٰا وَصّٰى بِهِ نُوحاً . (۱)

- وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْكٰافِرُونَ (۲) .

- نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتٰابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمٰا بَيْنَ يَدَيْهِ . (۳)

۳-إنّ الآيات التى قبل و بعد هذه الآيه مرتبطه بالخلقه و خلق العالم،و لا ترتبط بتشريع الأديان،لأنّ الكلام فى الآيه السابقه كان عن خلق السماء و الأرض فى ستّه أيّام-و بعباره اخرى ستّ مراحل-و الكلام فى الآيه التاليه عن خلق الإنسان.

و لا يخفى أنّ تناسب و انسجام الآيات يوجب أن تكون هذه الآيه المتوسّطه لآيات الخلقه مرتبطه بمسأله الخلقه و تدبير أمر الخلق،و لهذا فإنّنا إذا طالعنا كتب التّفسير التى كتبت قبل مئات السنين فإنّنا لا نجد أحدا قد احتمل أن تكون الآيه متعلّقه بتشريع الأديان،بالرغم من أنّهم احتملوا احتمالات مختلفه،فمثلا:مؤلّف تفسير«مجمع البيان»-و هو من أشهر التفاسير الإسلاميه،و مؤلّفه عاش فى القرن السادس الهجرى-لم ينقل عن أحد علماء الإسلام قولا يدّعى فيه أنّ الآيه ترتبط بتشريع الأديان،مع أنّه ذكر أقوالا مختلفه فى تفسير الآيه أعلاه.

۱- ۱) الشورى،۱۳.

۲- ۲) المائده،۴۴.

۳- ۳) آل عمران،۳.

۴-إنّ كلمه«العروج»تعنى الصعود و الارتفاع،لا نسخ الأديان و زوالها،و لا يلاحظ العروج فى أى موضع من القرآن بمعنى النسخ-و هذه الكلمه قد ذكرت فى خمس آيات من القرآن،و لا تؤدّى هذا المعنى فى أىّ منها-بل تستعمل كلمه النسخ أو التبديل و أمثالهما فى مورد الأديان.

إنّ الأديان و الكتب السماويه فى الأساس ليست كأرواح البشر تعرج إلى السماء مع الملائكه بعد انتهاء العمر،بل إنّ الأديان المنسوخه،موجوده فى الأرض،إلاّ أنّها تسقط عن الإعتبار فى بعض مسائلها،فى حين أنّ أصولها تبقى على قوّتها.

و الخلاصه:فإنّ كلمه العروج علاوه على أنّها لم تستعمل فى أىّ موضع من القرآن بمعنى نسخ الأديان،فهى لا تتناسب مع مفهوم نسخ الأديان،لأنّ الأديان المنسوخه لا تعرج إلى السماء.

۵-إضافه إلى كلّ ما مرّ فإنّ هذا المعنى لا ينطبق على الواقع الحقيقى العينى، لأنّ الفاصله بين الأديان السابقه لم تكن ألف سنه فى أىّ مورد! فمثلا:الفاصله بين ظهور موسى و المسيح عليهم السّلام أكثر من(۱۵۰۰)سنه،و الفاصله بين المسيح عليه السّلام و ظهور نبى الإسلام العظيم صلّى اللّه عليه و آله أقلّ من(۶۰۰)سنه،و كما تلاحظون فإنّ أيّا من هذين الموردين لا ينطبق على الألف سنه التى يقول بها هؤلاء،بل إنّ الفاصله بين الواقع و ما يدّعون كبيره.

و ذكروا أنّ الفتره الزمنيه بين ظهور نوح عليه السّلام الذى كان من أنبياء اولى العزم، و واضع دعائم الدين و الشريعه الخاصّه،و بين محطّم الأصنام الصنديد إبراهيم عليه السّلام الذى كان نبيّا آخر من ذوى الشرائع أكثر من(۱۶۰۰)سنه،و الفتره بين إبراهيم و موسى عليهما السّلام أقلّ من(۵۰۰)سنه.

من هذا الموضوع نخلص إلى هذه النتيجه،و هى أنّه لم تكن هناك فتره و لا فاصله،و لو من باب المثال،بين أحد الأديان و المذاهب و بين الدين الذى يليه

بمقدار ألف سنه.

۶-و إذا غضضنا النظر عن كلّ ما مرّ،فإنّ بدعه«السيّد على محمّد باب»و التى تحمل أتباعه لأجل الدفاع عنها كلّ هذه التوجيهات الباطله لا تتناسب مع هذا الحساب،لأنّه باعترافهم ولد سنه ۱۳۲۵ هجری،و کان بدء دعوته سنه ۱۲۶۰ هجری قمری،و بملاحظه أنّ بدايه دعوه الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله التى كانت بثلاثه عشر عاما قبل الهجره،فإنّ الفاصله بين الإثنين تكون(۱۲۷۳)أى بإضافه(۲۷۳) فما ذا نصنع بهذا الفارق الكبير؟و بأيّه خطّه سنتجاهله؟ ۷-و لو تركنا جانبا كلّ هذه الإيرادات الستّه،و صرفنا النظر عن هذه الردود الواضحه،و جعلنا أنفسنا مكان القرآن،و أردنا أن نقول للبشريه:كونوا بانتظار نبىّ جديد بعد مرور ألف سنه،فهل هذا يصحّ طرح هذا المفهوم بالشكل الذى ذكرته الآيه،حتّى لا ينتبه و يطّلع أحد من العلماء و غير العلماء أدنى اطّلاع على معنى الآيه على مدى الإثنى أو الثلاثه عشر قرنا،ثمّ يأتى جماعه بعد مرور(۱۲۷۳) عام ليدّعوا أنّهم اكتشفوا اكتشافا جديدا،و أزاحوا الغطاء عنه،و هو مع ذلک لا يتجاوز إطار قبولهم أنفسهم لا قبول الآخرين؟! ألم يكن الأحسن و الأكثر حكمه و عقلا أن يقال مكان هذه الجمله:ابشّركم بأنّ نبيّا بهذا الاسم سيظهر بعد ألف سنه،كما قال عيسى عليه السّلام فى شأن نبى الإسلام صلّى اللّه عليه و آله:

وَ مُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ . (۱)

و على كلّ حال،فهذه المسأله قد لا تستحقّ بحثا بهذا المقدار إلاّ أنّه لتنبيه و إيقاظ جيل الشباب المسلم،و اطلاعهم على المكائد التى هيّأها الاستعمار العالمى،و المسالک و المذاهب التى ابتدعها لتضعيف جبهه الإسلام،لم يكن لنا سبيل إلاّ أن يعلموا و يطّلعوا على جانب من منطق هؤلاء،و عليهم الباقى.

۱- ۱) سوره الصف،۶.

الآيات [سوره السجده (۳۲): الآيات ۶ الى ۹]

اشاره

ذٰلِکَ عٰالِمُ اَلْغَيْبِ وَ اَلشَّهٰادَهِ اَلْعَزِيزُ اَلرَّحِيمُ (۶) اَلَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَ بَدَأَ خَلْقَ اَلْإِنْسٰانِ مِنْ طِينٍ (۷) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلاٰلَهٍ مِنْ مٰاءٍ مَهِينٍ (۸) ثُمَّ سَوّٰاهُ وَ نَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَ جَعَلَ لَكُمُ اَلسَّمْعَ وَ اَلْأَبْصٰارَ وَ اَلْأَفْئِدَهَ قَلِيلاً مٰا تَشْكُرُونَ (۹)

التّفسير

اشاره

مراحل خلق الإنسان العجيبه!

إنّ الآيات-مورد البحث-إشاره و تأكيد فى البدايه على بحوث التوحيد التى مرّت فى الآيات السابقه،و التى كانت تتلخّص فى أربع مراحل:توحيد الخالقيه، و الحاكميه، و الولايه،و الربوبيه،فتقول: ذٰلِكَ عٰالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهٰادَهِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ .

من البديهى أنّ من يريد أن يدبّر امور السماء و الأرض،و أن يكون حاكما عليها،و يتعهّد و يقوم بمهام مقام الولايه و الشفاعه و الإبداع،يجب أن يكون مطّلعا على كلّ شيء،الظاهر و الباطن،حيث لا يمكن أن يتمّ أىّ من هذه الأمور بدون الاطّلاع و سعه العلم.

و فى نفس الوقت الـذى يجب أن يكون هـذا المـدبّر عزيزا قويّـا لا يقهر ليقوى على القيام بهـذه الأعمال المهمّه،ينبغى أن تقترن هذه العزّه باللطف و الرحمه،لا الخشونه و الغلظه.

ثمّ تشـير الآيه التاليه إلى نظام الخلقه الأحسن و الأكمل بصوره عامّه،و مقـدّمه لبيان خلق الإنسان و مراحل تكامله بشـكل خاصّ: اَلَّذِی أَحْسَنَ کُلَّ شَیْءٍ خَلَقَهُ و أعطى كلّ شىء ما يحتاجه،و بتعبير آخر:فإنّ تشييد صرح الخلقه العظيم قد قام على أساس النظام الأحسن،أى قام على نظام دقيق سالم لا يمكن تخيّل نظام أكمل منه.

لقد أوجد سبحانه بين كلّ الموجودات علاقه و انسجاما،و أعطى كلّا منها ما يطلبه على لسان الحال.

إذا نظرنا إلى وجود الإنسان،و أخذنا بنظر الإعتبار كلّ جهاز من أجهزته، فسنرى أنّها خلقت من ناحيه البناء و الهيكل،و الحجم،و وضع الخلايا،و طريقه عملها،بشـكل تستطيع معه أن تؤدّى وظيفتها على النحو الأحسن،و فى الوقت ذاته فقد وضعت بين الأعضاء روابط قويّه بحيث يؤثّر و يتأثّر بعضها بالبعض الآخر بدون استثناء.

و هذا المعنى هو الحاكم تماما فى العالم الكبير مع المخلوقات المتنوّعه، و خاصّه فى عالم الكائنات الحيّه،مع تلك التشكيلات و الهيئات المختلفه جدّا.

و الخلاصه:فـإنّه هـو الـذى أودع أنواع العطور البهيجه فى الأزهـار المختلفه،و هو الـذى يهبّ الروح للتراب و الطين و يخلق منه إنسانـا حرّا ذكيّـا عاقلا،و من هـذا الـتراب المخلـوط يخلـق أحيانـا الأزهـار،و أحيانـا الإنسـان،و أحيانـا اخرى أنـواع الموجودات الاخرى،و حتّى التراب نفسه خلق فيه ما ينبغى أن يكون فيه.

و نرى نظير هـذا الكلام فى الآيه(۵۰)من سوره«طه»من قول موسـى و هارون عليهما السّـلام: رَبُّنَا الَّذِی أَعْطیٰ کُلَّ شَیْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدیٰ .

و هنا يطرح سؤال حول خلق الشرور و الآفات،و كيفيه انسجامها مع النظام العالم الأحسن،و سنبحثه إن شاء اللّه تعالى فيما بعد.

بعد هذه المقدّمه الآفاقيه يدخل القرآن بحث الأنفس،و كما تحدّث فى بحث الآيات الآفاقيه عن عدّه أقسام للتوحيد،فإنّه يتحدّث هنا عن عدّه مواهب عظيمه فى مورد البشر:

يقول أوّلا: وَ بَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسانِ مِنْ طِينٍ ليبيّن عظمه و قدره اللّه سبحانه حيث خلق مثل هذا المخلوق الجليل العظيم من مثل هذا الموجود البسيط الحقير،هذا من جانب، و من جانب آخر يحذّر الإنسان و يذكّره من أين أتيت،و إلى أين ستذهب؟! و من المعلوم أنّ هذه الآيه تتحدّث عن خلق آدم،لا كلّ البشر،لأنّ استمرار نسله قد ذكر فى الآيه التاليه،و ظاهر هذه الآيه دليل واضح على خلق الإنسان بشكل مستقل،و نفى فرضيّه تحوّل الأنواع(و على الأقل فى مورد نوع الإنسان).

و بالرغم من أنّ البعض أراد أن يفسّر هذه الآيه بحيث تناسب و تلائم فرضيه تكامل الأنواع،بأنّ خلق الإنسان يرجع إلى أنواع سافله،و هى تنتهى أخيرا إلى الماء و الطين،إلاّ أنّ ظاهر الآيه ينفى وجود أنواع اخرى من الموجودات الحيّه- و هم يدّعون أنّها أنواع لا تحصى-تفصل بين آدم و الطين،بل إنّ خلق الإنسان قد تمّ من الطين مباشره و بدون واسطه.و لم يتحدّث القرآن عن أنواع الكائنات الحيّه الاخرى.

و هذا المعنى يتّضح أكثر عند ملاحظه الآيه(۵۹)من سوره آل عمران،حيث تقول: إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ .

و يقول فى الآيه(۲۶)من سوره الحجر: وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ .

و يستفاد من مجموع الآيات أنّ خلق آدم قد تكوّن من التراب و الطين كخلق

مستقل،و من المعلوم أنّ فرضيه تطور الأنواع لم تكن مسأله علميه قطعيه لنحاول تفسير الآيات أعلاه بشكل آخر بسبب تضادّها و تعارضها مع هذه الفرضيه، و بتعبير آخر:طالما لا توجد قرينه واضحه على خلاف ظواهر الآيات فيجب أن نطبّقها بمعناها الظاهر،و كذلك الحال فی مورد خلق آدم المستقلّ.

ثمّ تشير الآيه بعدها،إلى خلق نسل الإنسان،و كيفيه تولّد أولاد آدم فی مراحل،فتقول: ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلاٰلَهٍ مِنْ مٰاءٍ مَهِينٍ .

«جعل»هنا بمعنى الخلق،و«النسل»:بمعنى الأولاد و الأحفاد فی جميع المراحل.

«السلاله»فی الأصل،بمعنى العصاره الخالصه لكلّ شیء،و المراد منها هنا نطفه الإنسان التی تعتبر عصاره كلّ وجوده،و مبدأ حياه و تولّد الذريّه و استمرار النسل.

إنّ هذا السائل الذی يبدو تافها لا قيمه له و لا مقدار فإنّه يعدّ من الناحيه البنائيه و الخلايا الحيويه التی تسبح فيه،و كذلك تركيب السائل الخاصّ الذی تسبح فيه الخلايا رقيقا و دقيقا و معقّدا إلى أبعد الحدود،و يعتبر من آيات عظمه اللّه سبحانه، و علمه و قدرته.و كلمه«مهين»التی تعنی الضعيف إشاره إلى وضعه الظاهری،و إلاّ فإنّه من أعمق أسرار الموجودات.

و تشير الآيه التاليه إلى مراحل تكامل الإنسان المعقّده فی عالم الرحم،و كذلك المراحل التی طواها آدم عند خلقه من التراب،فتقول: ثُمَّ سَوّٰاهُ وَ نَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصٰارَ وَ الْأَفْئِدَهَ قَلِيلاً مٰا تَشْكُرُونَ .

«سوّاه»من التسويه،أی الإكمال،و هذه إشاره إلى مجموع المراحل التی يطويها الإنسان من حال كونه نطفه إلى المرحله التی تتّضح فيها جميع أعضاء

بدنه،و كذلك المراحل التى طواها آدم بعد خلقه من التراب حتّى نفخ الروح (۱) .

و التعبير ب«النفخ»كنايه عن حلول الروح فى بدن الإنسان،فكأنّه شبّه الحال بالهواء و التنفّس،بالرغم من أنّه لا هذا و لا ذاك.

فإن قيل:إنّ نطفه الإنسان منذ استقرارها فى الرحم-بل و قبل ذلك-كانت كائنا حيّا و على هذا فأىّ معنى لنفخ الروح؟ قلنا فى الجواب:إنّ النطفه عند ما تنعقد فى البدايه ليس لها إلاّ نوعا من«الحياه النباتيه»،أى التغذيه و النمو فقط،أمّا الحسّ و الحركه التى هى علامه«الحياه الحيوانيه»،و كذلك قوّه الإدراكات التى هى علامه الحياه الإنسانيه،فلا أثر عن كلّ ذلك.

إنّ تكامل النطفه فى الرحم تصل إلى مرحله تبدأ عندها بالحركه،و تحيا و تنبعث فيها القوى الإنسانيه الاخرى تدريجيا،و هذه هى المرحله التى يعبّر عنها القرآن بنفخ الروح.

أمّا إضافه«الروح»إلى«اللّه»فهى«إضافه تشريفيه»،أى إنّ روحا ثمينه و شريفه بحيث أنّ من المناسب أن تسمّى«روح اللّه»قد دبّت فى الإنسان و نفخت فيه،و هذا يبيّن حقيقه أنّ الإنسان و إن كان من ناحيه البعد المادّى يتكوّن من الطين و الماء،إلاّ أنّه من البعد المعنوى و الروحى يحمل«روح اللّه».

إنّ أحد طرفى وجوده ينتهى إلى التراب،و طرفه الآخر يتّصل بعرش اللّه،فإنّه خليط من الملائكه و الحيوان،و لوجود هذين البعدين فإنّ منحنى صعوده و نزوله، و تكامله و انحطاطه واسع جدّا (۲) .

ص: ۱۰۸

۱- ۱) البعض يعتبر هذه الآيه إشاره إلى مراحل التكامل الجنينى فقط،و البعض الآخر احتمل أن تكون إشاره إلى مراحل تكامل آدم بعد خلقه من التراب،لأنّ عين هذه التعبيرات قد جاء فى آيات اخرى من القرآن.إلاّ أنّه لا مانع من أن تعود إلى الإثنين،لأنّ خلق آدم من التراب،و نسله من منى،طوى و يطوى هذه المراحل.

۲- ۲) بحثنا فى هذا الباب فى ذيل الآيه(۲۹)من سوره الحجر.

و أشار القرآن فى آخر مرحله-و التى تعتبر المرحله الخامسه فى خلق الإنسان-إلى نعمه الاذن و العين و القلب،و من الطبيعى أنّ المراد هنا ليس خلقه هذه الأعضاء،لأنّ هذه الخلقه تتكوّن قبل نفخ الروح،بل المراد حسّ السمع و البصر و الإدراك و العقل.

و التأكيد على هذه الحواس الثلاث فقط من بين كلّ الحواس«الظاهره»و «الباطنه»،لأنّ أهمّ حسّ ظاهرى يربط الإنسان بالعالم الخارجى رابطه قويّه هو السمع و البصر،فالأذن تدرك الأصوات،و خاصّه أنّ التربيه و التعليم يتمّ بواسطتها، و العين وسيله النظر إلى العالم الخارجى و مشاهده مشاهد هذا العالم المختلفه، و قوّه العقل أهمّ حسّ باطنى لدى الإنسان،و بتعبير آخر فإنّه حاكم على وجود البشر.

و الجدير بالذكر أنّ«أفئده»جمع«فؤاد»بمعنى«قلب»و لكن مفهومها أدقّ من القلب حين يقصد بها عاده الحنكه و الفطانه فى الفرد، و بهذا يبيّن اللّه تعالى فى هذه الآيه أهمّ وسائل المعرفه و الإدراك الظاهريه و الباطنيه فى الإنسان،لأنّ العلوم و المعارف إمّا أن يحصل عليها الإنسان بواسطه«التجربه»فالوسيله هى السمع و البصر،أو عن طريق التحليل و الاستدلال العقلى،و الوسيله لذلك هو العقل و الفؤاد كما ورد التعبير عنه فى هذه الآيه،و حتّى الإدراك الحاصل من الوحى أو الإشراق و الشهود القلبى يتمّ بواسطه هذه الوسيله أيضا،أى«الأفئده».

و لو فقد الإنسان هذه الوسائل للمعرفه،فسوف يخسر قيمته تماما و يصبح مجرّد كميّه مهمله من المادّه و التراب،و لهذا نجد الآيه الشريفه محل البحث تؤكّد فى ختامها على مسأله الشكر لهذه النعم العظيمه على الإنسان و تقول قَلِيلاً مّا تَشْكُرُونَ و ذلك إشاره إلى أنّ الإنسان مهما سعى فى أداء شكر هذه النعم و المواهب العظيمه،فمع ذلك لا يؤدّى حقّ الشكر.

بحث

اشاره

کیفیه خلق آدم من التراب:

رغم أنّ الآیات القرآنیه تحدّثت أحیانا عن خلق الإنسان من«طین» (کالآیات محلّ البحث)،و کما ورد فی قصّه آدم و إبلیس فی قوله تعالی:

فَسَجَدُوا إِلاّ إِبْلِیسَ قالَ أَ أَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِیناً

(۱)

.

و أحیانا اخری عن الخلق من الماء مثل: وَ جَعَلْنا مِنَ الْماءِ کُلَّ شَیْءٍ حَیٍّ ، (۲) إلاّ أنّ من المعلوم أنّ هذه جمیعا تعود إلی مطلب واحد،و حتّی عند الکلام عن خلق آدم من التراب،مثل إِنَّ مَثَلَ عِیسی عِنْدَ اللّهِ کَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ . (۳) لأنّ المراد:التراب الممتزج بالماء،أی الطین.

و من هنا تتّضح عدّه نقاط:

۱-أنّ الذین احتملوا أنّ المراد من خلق الإنسان من التراب،هو أنّ أفراد البشر یتغذّون علی النباتات-سواء کانت التغذیه بصوره مباشره أو غیر مباشره- و أنّ النباتات کلّها من التراب-قد جانبوا الصواب،لأنّ آیات القرآن یفسّر بعضها بعضا،و الآیات أعلاه إشاره إلی شخص آدم الذی خلق من التراب.

۲-أنّ کلّ هذه الآیات دلیل علی نفی فرضیه التکامل-و علی الأقل فی مورد الإنسان،و أنّ نوع البشر الذی ینتهی بآدم له خلق مستقلّ.

و ما قیل من أنّ آیات الخلق من التراب إشاره إلی نوع الإنسان الذی یعود إلی الموجودات أحادیه الخلیّه بآلاف الوسائط،و هی أیضا قد جاءت-طبقا للفرضیات الأخیره-من الطین الموجود علی جانب المحیطات،أمّا نفس آدم فقد کان فردا انتخب من بین نوع البشر،و لم یکن له خلق مستقلّ،بل إنّ امتیازه کان

۱- ۱) سوره الإسراء،الآیه ۶۱.

۲- ۲) سوره الأنبیاء،الآیه ۳۰.

۳- ۳) آل عمران،۵۹.

فى صفاته الخاصّه..هذه الفرضيه لا تتناسب مع ظواهر آيات القرآن بأىّ وجه من الوجوه.

و تؤكّد مجدّدا أنّ مسأله تحوّل الأنواع ليست قانونا علميّا مسلّما،بل هى مجرّد فرضيّه-لأنّ الشىء الذى امتدّ أصله إلى ملايين السنين و خفى فيها،فمن المسلّم أنّه لا يخضع للتجربه و المشاهده،و لا يمكن أن يكون فى مصاف القوانين العلميه الثابته-بل هى فرضيه لتوجيه ظاهره تنوّع الأجناس التى ظهرت إلى الوجود توجيها تخمينيا،و نحن نعلم أنّ الفرضيات فى حاله تغيّر و تحوّل دائما حيث تخلى الساحه أمام الفرضيات الجديده.

بناء على هذا،فإنّه لا يمكن الاعتماد عليها مطلقا فى المسائل الفلسفيه التى تحتاج إلى أسس مسلّمه قطعيه.

و قد أوردنا إيضاحا مفصّلا حول أسس فرضيه تكامل الأنواع،و عدم صحّتها، تحت عنوان(القرآن و خلق الإنسان)فى ذيل الآيه(٢٨)من سوره الحجر.

و فى نهايه هذا البحث نرى لزاما ذكر هذه المسأله،و هى أنّه ليس لفرضيه التكامل أى ارتباط بمسأله التوحيد و معرفه اللّه،و لا تعتبر دليلا على نفى عالم ما وراء الطبيعه،لأنّ الإعتقاد التوحيدى يقول:إنّ العالم قد خلق من قبل اللّه سبحانه، و إنّه هو الذى أعطى كلّ خواص الموجودات،و يشملها بفيضه فى جميع المراحل.

إنّ هذا المعنى يمكن أن يقبله المعتقد بنظريه(ثبوت الأنواع)كما يقبله من يذهب إلى(تطور الأنواع)،غير أنّ المشكله الوحيده التى يواجهها المعتقد بفرضيه تحوّل الأنواع هى أنّ هذه الفرضيّه لا تتناسب مع التفصيل الذى بيّنه القرآن الكريم حول خلق آدم،حيث يذكر كيفيّه خلقه من التراب و الطين.

بناء على هذا فإنّنا ننفى فرضيه التكامل لهذا السبب فقط،لا بسبب مخالفتها لمسأله التوحيد.هذا من الناحيه التّفسيريه.

ص:١١١

أمّا من الناحيه العلميه-أی العلوم الطبيعيه-فإنّنا ننفی فرضيه التكامل-و كما أشير إلی ذلك-من جهه عدم امتلاكها الأدلّه القطعيّه علی ثبوتها.

ص: ١١٢

الآيات [سوره السجده (۳۲): الآيات ۱۰ الى ۱۴]

اشاره

وَ قالُوا أَ إِذا ضَلَلْنا فِي اَلْأَرْضِ أَ إِنّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ كافِرُونَ (۱۰) قُلْ يَتَوَفّاكُمْ مَلَكُ اَلْمَوْتِ اَلَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (۱۱) وَ لَوْ تَرى إِذِ اَلْمُجْرِمُونَ ناكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنا أَبْصَرْنا وَ سَمِعْنا فَارْجِعْنا نَعْمَلْ صالِحاً إِنّا مُوقِنُونَ (۱۲) وَ لَوْ شِئْنا لَآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُداها وَ لكِنْ حَقَّ اَلْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ اَلْجِنَّهِ وَ اَلنّاسِ أَجْمَعِينَ (۱۳) فَذُوقُوا بِما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا إِنّا نَسِيناكُمْ وَ ذُوقُوا عَذابَ اَلْخُلْدِ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۱۴)

التّفسير

اشاره

الندم و طلب الرجوع:

تبدأ هذه الآيات ببحث واضح جلى حول المعاد،ثمّ تبيّن و تبحث حال المجرمين فى العالم الآخر،و هى فى المجموع تتمّه للبحوث السابقه التى تحدّثت حول المبدأ،إذ أنّ البحث عن المبدأ و المعاد مقترنان غالبا فى القرآن المجيد

ص:۱۱۳

فتقول:إنّ هؤلاء الكفّار يتساءلون باستغراب بأنّنا إذا متنا و تحوّلت أبـدانا إلى تراب و اندثرت تماما فهل سوف نخلق من جديد: وَ قالُوا أَ إِذا ضَلَلْنا فِی الْأَرْضِ أَ إِنّا لَفِی خَلْقٍ جَدِیدٍ .

إنّ التعبیر ب ضَلَلْنا فِی الْأَرْضِ إشاره إلی أنّ الإنسان یصبح ترابا بعد موته کسائر الأتربه و یتفرّق هـذا التراب نتیجه العوامل الطبیعیه و غیر الطبیعیه،و لا یبقی منه شیء حتّی یعیده اللّه سبحانه فی القیامه مرّه اخری.

إلاّ أنّ هؤلاء لیسوا بمنکرین قدره اللّه فی الحقیقه بَلْ هُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ کافِرُونَ فإنّهم ینکرون مرحله لقاء اللّه و الحساب و الثواب و العقاب و لتبریر حریه العمل و لیعملوا ما یریدون! و هـذه الآیه تشبه کثیرا الآیات الاولی من سوره القیامه التی تقول: أَ یَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظامَهُ بَلی قادِرِینَ عَلی أَنْ نُسَوِّیَ بَنانَهُ بَلْ یُرِیدُ الْإِنْسانُ لِیَفْجُرَ أَمامَهُ یَسْئَلُ أَیّانَ یَوْمُ الْقِیامَهِ . (۱)

بناء علی هذا،فإنّ هؤلاء لیسوا قاصرین من ناحیه الاستدلال،و لکن شهواتهم حجبت قلوبهم،و نیّاتهم السیّئه منعتهم من قبول مسأله المعاد،و إلاّ فإنّ اللّه الذی أعطی قطعه المغناطیس القوّه التی تجذب إلی نفسها ذرّات الحدید الصغیره جدّا و المتناثره فی طیّات أطنان من تراب الأرض من خلال جوله سریعه فی تلک الأرض،و تجمعها بکلّ بساطه،هو الذی یجعل بین ذرّات بدن الإنسان مثل هذه الجاذبیه المتقابله.

من الذی یستطیع أن ینکر أنّ المیاه الموجوده فی جسم الإنسان-و أکثر جسم الإنسان ماء-و کذلک المواد الغذائیه،کانت ذرّاتها متناثره فی زاویه من العالم قبل ألف عام مثلا،و کلّ قطره فی محیط،و کلّ ذرّه فی إقلیم،إلاّ أنّها تجمّعت عن طریق

۱- ۱) سوره القیامه،۳-۶.

السحاب و المطر و العوامل الطبيعيه الاخرى،و كوّنت الوجود الإنسانى فى النهايه، فأى داع للعجب من أن تجتمع و ترجع إلى حالها الأوّل بعد تلاشيها و تبعثرها؟! و تجيب الآيه هؤلاء عن طريق آخر،فتقول:لا تتصوّروا أنّ شخصيتكم بأبدانكم و أجسامكم،بل بأرواحكم،و هى باقيه و محفوظه: قُلْ يَتَوَفّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ .

إذا لا حظنا أنّ معنى«يتوفّاكم»-من ماده«توفّى»(على وزن تصدّى)،هو الإستيفاء،فإنّ الموت سوف لا يعنى الفناء،بل نوع من قبض الملائكه لروح الإنسان التى تشكّل أهمّ من وجود الإنسان.

صحيح أنّ القرآن يتحدّث عن المعاد الجسمانى،و يعتبر رجوع الروح و الجسم المادّى فى المعاد حتميّا،إلاّ أنّ الهدف من الآيه أعلاه هو بيان أنّ هذه الأجزاء المادّى التى شغلتم بها فكركم تماما ليست هى أساس شخصيّه الإنسان،بل الأساس هو الجوهر الروحى الذى جاء من قبل اللّه تعالى و إليه يرجع.

و فى المجموع يمكن أن يقال:إنّ الآيتين أعلاه تجيبان منكرى المعاد بهذا الجواب:إذا كان إشكالكم فى تفرّق الأجزاء الجسميه،فإنّكم تقرّون بقدره اللّه سبحانه و لا تنكرونها،و إذا كان إشكالكم فى اضمحلال و فناء شخصيه الإنسان على أثر تناثر تلك الذرّات،فلا يصحّ ذلك لأنّ أساس شخصيّه الإنسان يستند إلى الروح.

و هذا الإيراد لا يختلف عن شبهه(الآكل و المأكول)المعروفه،كما أنّ جوابه فى الموردين يشبه جواب تلك الشبهه (1) .

و ثمّه مسأله ينبغى التوجّه إليها،و هى أنّ فى بعض آيات القرآن نسب التوفّى

١- ١) لمزيد الإيضاح حول شبهه(الآكل و المأكول)و جوابها المفصّل راجع التّفسير الأمثل،ذيل الآيه(٢۶٠)من سوره البقره.

إلى اللّه سبحانه: اَللّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها ، (۱) و فی بعضها إلی مجموعه من الملائکه: اَلَّذِینَ تَتَوَفّاهُمُ الْمَلائِکَهُ ظالِمِی أَنْفُسِهِمْ... (۲) .و فی الآیات مورد البحث نسب قبض الأرواح إلی ملک الموت،إلاّ أنّه لا منافاه بین هذه التعبیرات مطلقا،فإنّ لملک الموت معنی الجنس،و هو یطلق علی کلّ الملائکه،أو هو إشاره إلی کبیر الملائکه و زعیمها،و لمّا کان الجمیع یقبضون الأرواح بأمر اللّه سبحانه، فقد نسب الفعل إلی اللّه عزّ و جلّ.

ثمّ تجسّد وضع هؤلاء المجرمین الکافرین و منکری المعاد الذین یندمون فی القیامه أشدّ الندم علی ما کان منهم لدی مشاهده مشاهدها و مواقفها المختلفه.

فتقول: وَ لَوْ تَری إِذِ الْمُجْرِمُونَ ناکِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنا أَبْصَرْنا وَ سَمِعْنا فَارْجِعْنا نَعْمَلْ صالِحاً إِنّا مُوقِنُونَ (۳) .

ستعجب حقّا!أ هؤلاء النادمون الناکسو الرؤوس هم أولئک المتکبرون العتاه العصاه الذین لم یکونوا یذعنون فی الدنیا لأیّه حقیقه؟! إلاّ أنّهم الآن یتغیّرون تماما عند رؤیه مشاهد القیامه و یصلون إلی مستوی الشهود،لکنّ هذا الوعی و تغییر الموقف سریع الزوال،فإنّهم-و طبقا لآیات القرآن الاخری-لو رجعوا إلی هذه الدنیا لعادوا إلی حالتهم الأولی،الأنعام/الآیه ۲۸.

«الناکس»من مادّه(نکس)علی وزن(کلب)بمعنی انقلاب الشیء،و هنا یعنی خفض الرأس إلی الأسفل و طأطأته.

تقدیم«أبصرنا»علی«سمعنا»لأنّ الإنسان یری المشاهد و المواقف أوّلا،ثمّ یسمع استجواب اللّه و الملائکه.

ص:۱۱۶

۱- ۱) الزمر،۴۲.

۲- ۲) النحل،۲۸.

۳- ۳) (لو)فی الآیه الشریفه شرطیه،شرطها جمله(و تری..)و جزاؤها محذوف،و التقدیر:«و لو تری إذ المجرمون...لرأیت عجبا».و فی جمله(ربّنا أبصرنا)حذف تقدیره:یقولون ربّنا أبصرنا.

و يتبيّن ممّا قلناه أنّ المراد من«المجرمين»هنا الكافرون،و خاصّه منكرى القيامه.

و على كلّ حال،فليست هـذه المرّه الاولى التى نواجه فيها هـذه المسأله فى آيات القرآن،و هى أنّ المجرمين ينـدمون أشدّ الندم عنـد مشاهـده نتائـج الأعمـال و العـذاب الإلـهى،و يطلبـون الرجوع إلى الـدنيا،فى حين أنّ مثـل هـذا الرجوع غير ممن فى السـنّه الإلهيه،كما أنّ رجوع الطفل إلى رحم الأمّ،و الثمره المقطوفه إلى الشجره غير ممكن.

و الجـدير بالـذكر أنّ طلب المجرمين الوحيـد هو الرجوع إلى الـدنيا ليعملوا صالحـا،و من هنـا يتّضـح جيّـدا أنّ رأس مـال النجاه الوحيد فى القيامه هو الأعمال الصالحه..تلك الأعمال التى تنبع من قلب طاهر ملىء بالإيمان،و تتمّ بخالص النيّه.

و لمّا كان كلّ هذا الإصـرار و التأكيد على قبول الإيمان قد يوهم عجز اللّه سبحانه عن أن يلقى نور الإيمان فى قلوب هؤلاء، فإنّ الآيه التاليه تضيف: وَ لَوْ شِئْنا لَآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُداها .

فمن المسـلّم أنّ اللّه تعالى يمتلك مثل هـذه القـدره،إلاّ أنّ الإيمان الـذى يتحقّق و يتمّ بالإجبار لا قيمه له،و لـذا فالمشـيئه الإلهيّه أرادت أن ينال الإنسان شـرف كونه مختارا،و أن يسير فى طريق التكامل بحريته و إختياره،و لذلك تضيف فى النهايه لقد قرّرت أن أخلق الإنسان مختارا وَ لٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّهِ وَ النّاسِ أَجْمَعِينَ .

أجـل..إنّ المجرمين سـلكوا هـذا الطريق بسوء اختيـارهم،و لـذلك فهم مسـتحقّون للعقاب،و نحن قـد قطعنا على أنفسـنا أن نملأ جهنّم منهم.

و بملاـحظه مـا قلناه،و بملاحظه مئات الآيات القرآنيه التى تعتبر الإنسان موجودا مختارا ذا إراده،و مكلّفا بتكاليف،و مسـئولا عن أعماله،و قابلا للهدايه

ص: ۱۱۷

بواسطه الأنبياء و تهذيب النفس و تربيتها،فإنّ كلّ توهّم يبتنى على أنّ الآيه أعلاه دليل على الجبر-كما ظنّ ذلك الفخر الرازى و أمثاله-واضح البطلان.

و لعلّ الجمله الشديده القاطعه أعلاه إشاره إلى أن لا تتصوّروا أنّ رحمه اللّه الواسعه تمنع من عقاب المجرمين الفسقه و الظالمين،و أن لا تغترّوا بآيات الرحمه و تعدّوا أنفسكم بمأمن من العذاب الإلهى،فإنّ لرحمته موضعا،و لغضبه موضعا.

إنّه عزّ و جلّ سيفى بوعيده حتما-و خاصّه بملاحظه لام القسم فى جمله (لأملأنّ)و نون التوكيد فى آخرها-و سيملأ جهنّم من أصحابها هؤلاء،و إن لم يفعل فذلك خلاف الحكمه، و لذلك تقول الآيه التاليه:إنّا سنقول لأصحاب النار فَذُوقُوا بِمٰا نَسِيتُمْ لِقٰاءَ يَوْمِكُمْ هٰذٰا إِنّٰا نَسِينٰاكُمْ وَ ذُوقُوا عَذٰابَ الْخُلْدِ بِمٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

مرّه اخرى يستفاد من هذه الآيه أنّ نسيان محكمه القيامه العادله هو الأساس لكلّ تعاسه و شقاء للإنسان،لأنّه سيرى نفسه فى هذه الصوره حرّا إزاء ارتكاب القبائح و الظلم و العدوان.

و كذلك يستفاد من الآيه بوضوح أنّ العقاب الأبدى للفرد معلول لما ارتكبه من أعمال فى دار الدنيا،لا لشىء آخر.

و ضمنا يتّضح أنّ المراد من«نسيان اللّه»هو عدم رعايته و نصرته لهم،و إلاّ فإنّ جميع العالم حاضر دوما عند اللّه،و لا معنى للنسيان بالنسبه له عزّ و جلّ.

مسألتان

اشاره

۱-استقلال الروح و أصالتها

الآيه الاولى من الآيات مورد البحث،و التى لها دلاله على قبض الأرواح بواسطه ملك الموت،من أدلّه استقلال روح الإنسان،لأنّ التعبير بالتوفّى(و الذى

یعنی القبض)یوحی بأنّ الروح تبقی بعد انفصالها عن البدن و لا تفنی.

و التعبیر عن الإنسان فی الآیه بالروح أو النفس فی الآیه أعلاه شاهد آخر علی هذا المعنی، لأنّ الروح-وفق نظریه المادّیین-لیست إلاّ الخواص الفیزیائیه و الکیمیائیه للخلایا المخیّه،و هی تفنی بفنائها،تماما کما تفنی حرکات عقارب الساعه بعد فنائها و تحطّمها.و طبقا لهذه النظریه فإنّ الروح لیست هی المحافظه علی شخصیه الإنسان،بل هی جزء من خواصّ جسمه تتلاشی عند تلاشی جسمه.

و لدینا أدلّه فلسفیه عدیده علی أصاله الروح و استقلالها،ذکرنا بعضا منها فی ذیل الآیه(۸۵)من سوره الإسراء،و المراد هنا بیان الدلیل النقلی علی هذا الموضوع،حیث تعتبر الآیه أعلاه من الآیات الدالّه علی هذا المعنی.

۲-ملک الموت

یستفاد من آیات القرآن المجید أنّ اللّه سبحانه یدبّر امور هذا العالم بواسطه مجموعه من الملائکه،کما فی الآیه(۵)من سوره النازعات حیث یقول:

فَالْمُدَبِّرٰاتِ أَمْراً و نعلم أنّ السنّه الإلهیّه قد جرت علی أن تمضی الأمور بأسبابها.

و قسم من هؤلاء الملائکه هم الملائکه الموکّلون بقبض الأرواح،و الذین أشارت إلیهم الآیات(۲۸ و ۳۳)من سوره النحل،و بعض الآیات القرآنیه الاخری،و علی رأسهم ملک الموت.

و قد رویت أحادیث کثیره فی هذا الباب،تبدو الإشاره إلی بعضها لازمه من جهات:

-۱

فی حدیث روی عن الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله أنّه قال: «الأمراض و الأوجاع کلّها برید الموت و رسل الموت!فإذا حان الأجل أتی ملک الموت بنفسه فقال:یا أیّها العبد،کم خبر بعد خبر؟و کم رسول بعد رسول؟و کم برید بعد برید؟أنا الخبر

الذی لیس بعدی خبر!و أنا الرّسول أجب ربّک طائعا أو مکرها.

فإذا قبض روحه و تصارخوا علیه،قال:علی من تصرخون؟و علی من تبکون؟ فو اللّه ما ظلمت له أجلا،و لا أکلت له رزقا،بل دعاه ربّه،فلیبک الباکی علی نفسه، و إنّ لی فیکم عودات و عودات حتّی لا ابقی فیکم أحدا» (1) .

طالعوا هذا الحدیث المروّع مرّه اخری،فقد أخفیت فیه حقائق کثیره.

۲-و

فی حدیث عن الإمام الباقر علیه السلام: «دخل رسول اللّه علی رجل من الأنصار یعوده،فإذا ملک الموت عند رأسه،فقال رسول اللّه: یا ملک الموت،ارفق بصاحبی فإنّه مؤمن،فقال:أبشر یا محمّد،فإنّی بکلّ مؤمن رفیق،و اعلم یا محمّد،أنّی لأقبض روح ابن آدم فیصرخ أهله،فأقوم فی جانب الدار فأقول:و اللّه،ما لی من ذنب،و إنّ لی لعوده و عوده،الحذر الحذر،و ما خلق اللّه من أهل بیت و لا مدر و لا شعر و لا وبر،فی برّ و لا بحر إلاّ و أنا أتصفّحهم فی کلّ یوم و لیله خمس مرّات حتّی أنّی لأعرف بصغیرهم و کبیرهم منهم بأنفسهم» (2) .

و قد وردت روایات اخری بهذا المضمون فی مختلف المصادر الإسلامیه، تحذّر جمیعا کلّ البشر أنّ المسافه بینهم و بین الموت لیست کبیره!و من الممکن جدّا أن ینتهی کلّ شیء فی لحظه قصیره.

أ یحسن بالإنسان و الحال هذه أن یغترّ و ینخدع بزخارف هذه الدنیا و زبرجها، و یتلوّث بأنواع المعاصی و الظلامات،و یبقی غافلا عن عاقبه أعماله؟!

ص:120

1- 1) مجمع البیان ذیل الآیه مورد البحث،و تفسیر نور الثقلین،ج 4،ص 225.

2- 2) تفسیر الدرّ المنثور طبقا لنقل المیزان،الجزء 16،صفحه 255.

الآيات [سوره السجده (٣٢): الآيات ١٥ الى ٢٠]

اشاره

إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا اَلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّداً وَ سَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ هُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ (١۵) تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ اَلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَ طَمَعاً وَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (١۶) فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧) أَ فَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لاَ يَسْتَوُونَ (١٨) أَمَّا اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ اَلْمَأْوىٰ نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٩) وَ أَمَّا اَلَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ اَلنَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَ قِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ اَلنَّارِ اَلَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٠)

التّفسير

اشاره

جوائز عظيمه لم يطّلع عليها أحد!

إنّ طريقه القرآن هى أنّه يبيّن كثيرا من الحقائق من خلال مقارنتها مع بعضها، لتكون مفهومه و مستقرّه فى القلب تماما،و هنا أيضا بعد الشرح و التفصيل الذى مرّ

فی الآیات السابقه حول المجرمین و الکافرین،فإنّه یتطرّق إلی صفات المؤمنین الحقیقیین البارزه،و یبیّن أصولهم العقائدیه،و برامجهم العملیه بصوره مضغوطه ضمن آیتین بذکر ثمان صفات (۱) ،فیقول أوّلا- إِنَّمٰا یُؤْمِنُ بِآیٰاتِنَا الَّذِینَ إِذٰا ذُکِّرُوا بِهٰا خَرُّوا سُجَّداً وَ سَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ هُمْ لاٰ یَسْتَکْبِرُونَ .

التعبیر ب(إنّما)الذی یستعمل عاده لإفاده معنی الحصر،یبیّن أنّ کلّ من یتحدّث عن الإیمان و یتمشدق به،و لا- یمتلک الخصائص و الصفات التی وردت فی هذه الآیات،فإنّه لا یکون فی صفّ المؤمنین الواقعیین،بل هو شخص ضعیف الإیمان.

لقد بیّنت فی هذه الآیه أربع صفات:

۱-أنّهم یسجدون بمجرّد سماعهم آیات اللّه،و التعبیر ب خَرُّوا بدل سُجَّداً إشاره إلی نکته لطیفه،و هی أنّ هؤلاء المؤمنین ینجذبون إلی کلام اللّه لدی سماعهم آیات القرآن و یهیمون فیها بحیث یسجدون لا إرادیا (۲) .

نعم..إنّ أوّل خصائص هؤلاء هو العشق الملتهب،و العلاقه الحمیمه بکلام محبوبهم و معشوقهم.

لقد ذکرت هذه الصفه و الخاصیه فی بعض آیات القرآن الاخری کأحد أبرز صفات الأنبیاء،کما یقول اللّه سبحانه فی شأن جمع من الأنبیاء العظام: إِذٰا تُتْلیٰ عَلَیْهِمْ آیٰاتُ الرَّحْمٰنِ خَرُّوا سُجَّداً وَ بُکِیًّا . (۳)

---

۱ - ۱) ینبغی الالتفات إلی أنّ الآیه الاولی هی اولی السجدات الواجبه فی القرآن الکریم،و إذا ما تلاها أحد بتمامها،أو سمعها من آخر فیجب أن یسجد.طبعا لا یجب فیها الوضوء،لکن یجب الاحتیاط فی وضع الجبهه علی ما یصحّ السجود علیه.

۲ - ۲) یقول الراغب فی المفردات:(خرّوا)فی الأصل من مادّه الخریر،أی صوت الماء و أمثاله حین انحداره من مرتفع إلی منخفض،و استعماله هذا التعبیر فی شأن الساجدین إشاره إلی أنّ هؤلاء ترتفع أصواتهم بالتسبیح فی لحظه هویّهم إلی الأرض للسجود.

۳- ۳) سوره مریم،الآیه ۵۸.

و بالرغم من أنّ الآيات هنا ذكرت بصوره مطلقه،و لكن من المعلوم أنّ المراد منها غالبا الآيات التی تـدعو إلی التوحید و محاربه الشرک.

۳-۲-علامتهم الثّانیه و الثالثه تسبیح اللّه و حمده،فهم ینزّهون اللّه تعالی عن النقائص من جهه،و من جهه اخری فإنّهم یحمدونه و یثنون علیه لصفات کماله و جماله.

۴-و الصـفه الاـخری لهؤلاـء هی التواضع و ترک کـلّ أنواع التکبّر،لأـنّ الکبر و الغرور أوّل درجات الکفر و الجحود،و التواضـع أمـام الحقّ و الحقیقه أولی خطوات الإیمـان! إنّ الـذین یسـیرون فی طریق الکـبر و العجب لاـ یسـجدون للّه،و لاـ یسـبّحونه و لا یحمـدونه،و لاـ یعـترفون بحقـوق عبـاده!إنّ لهؤلاـء صــنما عظیمـا،و هـو أنفسـهم! ثـمّ أشـارت الآـیه الثّـانیه إلی أوصـاف هؤلاـء الاـخری،فقـالت: تَتَجٰافیٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضٰاجِعِ (۱) فیقومـون فی اللیـل،و یتّجهـون إلی ربّهم و محبوبهم و یشـرعون بمناجـاته و عبادته.

نعم..إنّ هؤلاـء یستیقظون و یحیون قـدرا من اللیـل فی حین أنّ عیون الغـافلین تغـطّ فی نوم عمیق،و حینمـا تتعطّـل برامـج الحیـاه العـادیه،و تقـلّ المشاغـل الفکریه إلی أدنی مسـتوی،و یعمّ الهـدوء و الظلاـم کلّ الأرجاء،و یقلّ خطر التلوّث بالریاء فی العباده،و الخلاـصه:عنـد توفّر أفضل الظروف لحضور القلب،فإنّهم یتّجهون بکلّ وجودهم إلی معبودهم،و یطأطئون رؤوسـهم عنـد أعتاب معشوقهم،و یخبرونه بما فی قلوبهم،فهم أحیاء بذکره،و کؤوس قلوبهم طافحه بحبّه و عشقه.

ثمّ تضیف: یَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَ طَمَعاً .

---

۱ – ۱) «تتجـافی»مـن مـادّه«جفـا»،و هی فی الأصـل بمعنی القطع و الحمـل و الإبعـاد،و(الجنـوب)جمـع جنـب،و هـو الجـانب،و (المضـاجع)جمع مضـجع،و هو محل النوم،و إبعاد الجانب عن محلّ النوم کنایه عن النهوض من النوم و التوجّه إلی عباده اللّه فی جوف اللیل.

و هنا تذكر الآيه صفتين أخريين لهؤلاء هما:«الخوف»و«الرجاء»،فلا يأمنون غضب اللّه عزّ و جلّ،و لا ييأسون من رحمته،و التوازن بين الخوف و الرجاء هو ضمان تكاملهم و توغّلهم فى الطريق إلى اللّه سبحانه،و الحاكم على وجودهم دائما،لأنّ غلبه الخوف تجرّ الإنسان إلى اليأس و القنوط،و غلبه الرجاء تغرى الإنسان و تجعله فى غفله،و كلاهما عدوّ للإنسان فى سيره التكاملى إلى اللّه سبحانه.

و ثامن صفاتهم،و آخرها فى الآيه أنّهم وَ مِمّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ .

فهم لا يهبون من أموالهم للمحتاجين و حسب،بل و من علمهم و قوّتهم و قدرتهم و رأيهم الصائب و تجاربهم و رصيدهم الفكرى،فيهبون منها ما يحتاج إليه الغير.

إنّهم ينبوع من الخير و البركه،و عين فوّاره من ماء الصالحات العذب الصافى الذى يروى العطاشى،و يغنى المحتاجين بحسب استطاعتهم.

نعم..إنّ أوصاف هؤلاء مجموعه من العقيده الرصينه الثابته،و الإيمان القوىّ و العشق الملتهب للّه،و العباده و الطاعه،و السعى و الحركه الدؤوبه،و معونه عباد اللّه فى كلّ المجالات.

ثمّ تطرّقت الآيه التاليه إلى الثواب العظيم للمؤمنين الحقيقيين الذين يتمتّعون بالصفات المذكوره فى الآيتين السابقتين،فتقول بتعبير جميل يحكى الأهميّه الفائقه لثوابهم: فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّهِ أَعْيُنٍ جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ .

التعبير ب فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ و كذلك التعبير ب قُرَّهِ أَعْيُنٍ مبيّن لعظمه هذه المواهب و العطايا التى لا عدّ لها و لا حصر،خاصّه و أنّ كلمه(نفس)قد وردت بصيغه النكره فى سياق النفى،و هى تعنى العموم و تشمل كلّ النفوس حتّى ملائكه اللّه المقرّبين و أولياء اللّه.

و التعبير ب قُرَّهِ أَعْيُنٍ من دون الإضافه إلى النفس،إشاره إلى أنّ هذه النعم

الإلهيّه التی خصّصت کثواب و جزاء للمؤمنین المخلصین فی الآخره،فی هیئه تکون معها قرّه لعیون الجمیع.

(قرّه)مادّه القرّ،أی البروده،و من المعروف أنّ دموع الشوق بارده دائما،و أنّ دمع الغمّ و الحسره حارّ محرق،فالتعبیر ب قُرَّهِ أَعْیُنٍ یعنی فی لغه العرب الشیء الذی یسبّب بروده عین الإنسان،أی أنّ دموع الشوق و الفرح تجری من أعینهم، و هذه کنایه لطیفه عن منتهی الفرح و السرور و السعاده.

و

فی حدیث عن النّبی الأکرم صلّی اللّه علیه و آله: «إنّ اللّه یقول:أعددت لعبادی الصالحین ما لا عین رأت،و لا اذن سمعت،و لا خطر علی قلب بشر» (۱) .

و ثمّه سؤال طرحه المفسّر الکبیر العلاّمه«الطبرسی»فی(مجمع البیان)و هو:

لماذا اخفی هذا الثواب و الجزاء؟ ثمّ یذکر ثلاثه أجوبه لهذا السؤال:

۱-أنّ الأمور المهمّه و القیّمه لا یمکن إدراک حقیقتها بسهوله من خلال الألفاظ و الکلام،و لذلک فإنّ إخفاءها و إبهامها یکون أحیانا أکثر تحفیزا،و أبعث علی النشاط،و هو أبلغ من ناحیه الفصاحه.

۲-أنّ الشیء الذی یکون قرّه للأعین،یکون عاده مترامی الأطراف إلی الحدّ الذی لا یصل علم ابن آدم إلی جمیع خصوصیاته.

۳-لمّا کان هذا الجزاء قد جعل لصلاه اللیل المستوره،فإنّ المناسب أن یکون ثواب هذا العمل عظیما و مخفیّا أیضا.و ینبغی الالتفات إلی أنّ جمله تَتَجافیٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضٰاجِعِ فی الآیه السابقه إشاره إلی صلاه اللیل.

و

فی حدیث عن الإمام الصادق علیه السّلام: «ما من حسنه إلاّ و لها ثواب مبین فی القرآن،إلاّ صلاه اللیل،فإنّ اللّه عزّ اسمه لم یبیّن ثوابها لعظم خطرها،قال:فلا تعلم

۱- ۱) نقل هذا الحدیث کثیر من المفسّرین،و من جملتهم الطبرسی فی مجمع البیان،و الآلوسی فی روح المعانی،و القرطبی فی تفسیره.و قد أورده المحدّثان المشهوران البخاری و مسلم فی کتبهما أیضا.

نفس ما اخفی لهم من قرّه أعین» (۱) .

و بغضّ النظر عن کلّ ذلک،فإنّ عالم القیامه-و کما أشرنا إلی ذلک سابقا-عالم أوسع من هذا العالم سعه لا تحتمل المقارنه،فهو أوسع حتّی من الحیاه الدنیا بالقیاس إلی حیاه الجنین فی رحم الامّ،و أبعاد ذلک العالم لا یمکن إدراکها عاده بالنسبه لنا نحن السجناء داخل الجدران الأربعه للدنیا،و لا یمکن تصوّره من قبل أحد.

إنّنا نسمع کلاما عنه فقط،و نری شبحه من بعید،لکنّنا ما لم ندرک و لم نر ذلک العالم،فإنّ من المحال إدراک أهمیّته و عظمته،کما أنّ إدراک الطفل فی بطن الامّ لنعم هذه الدنیا-علی فرض امتلاکه العقل و الإحساس الکامل-غیر ممکن.

و قد ورد نفس هذا التعبیر فی شأن الشهداء فی سبیل اللّه،ذلک أنّ الشهید عند ما یقع علی الأرض تقول له الأرض:مرحبا بالروح الطیّبه التی خرجت من البدن الطیّب،أبشر فإنّ لک ما لا عین رأت،و لا اذن سمعت،و لا خطر علی قلب بشر (۲) .

و تبیّن الآیه التالیه المقارنه التی مرّت فی الآیات السابقه بصیغه أکثر صراحه، فتقول: أَ فَمَنْ کٰانَ مُؤْمِناً کَمَنْ کٰانَ فٰاسِقاً .

لقد وردت الجمله بصیغه الاستفهام الإنکاری،ذلک الاستفهام الذی ینبعث جوابه من عقل و فطره کلّ إنسان بأنّ هذین الصنفین لا یستویان أبدا،و فی الوقت نفسه،و للتأکید،فقد أوضحت الآیه عدم التساوی بصوره أوضح بذکر جمله: لاٰ یَسْتَوُونَ .

لقد جعل«الفاسق»فی مقابل«المؤمن»فی هذه الآیه،و هذا دلیل علی أنّ للفسق مفهوما واسعا یشمل الکفر و الذنوب الاخری،لأنّ هذه الکلمه أخذت فی الأصل من جمله(فسقت الثمره)إذا خرجت من قشرها،ثمّ أطلقت علی الخروج

ص:۱۲۶

۱- ۱) مجمع البیان.ذیل الآیات مورد البحث.

۲- ۲) مجمع البیان،ج ۲ ذیل الآیه(۱۷۱)من آل عمران،و التّفسیر الأمثل،ذیل نفس الآیه.

علی أوامر اللّه و العقل و عصیانها،و نعلم أنّ کلّ من کفر،أو ارتکب معصیه فقد خرج علی أوامر اللّه و العقل.

و ممّا یجدر ذکره أنّ الثمره ما دامت فی قشرها فهی سالمه،و بمجرّد أن تخرج من القشر تفسد،و بناء علی هذا فإنّ فسق الفاسق کفسق الثمره،و فساده کفسادها.

و نقل جمع من المفسّرین الکبار ففی ذیل هذه الآیه

أنّ«الولید بن عقبه»قال یوما لعلی علیه السّلام:أنا أبسط منک لسانا،و أحدّ منک سنانا!إشاره إلی أنّه-بظنّه-یفوق علیا فی الفصاحه و الحرب،فأجابه علی علیه السّلام:«لیس کما تقول یا فاسق»،إشاره إلی أنّک أنت الذی اتّهمت بنی المصطلق بوقوفهم ضدّ الإسلام فی قصّه جمع الزکاه منهم، فکذّبک اللّه و عدّک فاسقا فی الآیه(۶)من سوره الحجرات: یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا إِنْ جٰاءَکُمْ فٰاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَیَّنُوا... (۱) .

و أضاف البعض هنا بأنّ آیه: أَ فَمَنْ کٰانَ مُؤْمِناً کَمَنْ کٰانَ فٰاسِقاً نزلت بعد هذه المحاوره،لکن یبدو من ملاحظه أنّ السوره مورد البحث(سوره السجده)نزلت فی مکّه،و قصّه الولید و بنی المصطلق وقعت فی المدینه،فهذا من قبیل تطبیق الآیه علی مصداق واضح لها.

و بناء علی ما ذهب بعض المفسّرین من أنّ الآیه أعلاه و الآیتین بعدها مدنیه،لا یبقی إشکال من هذه الجهه،و لا مانع من أن تکون هذه الآیات الثلاث قد نزلت بعد المحاوره أعلاه.

و علی کلّ حال،فلا بحث و لا جدال فی إیمان أمیر المؤمنین علی بن أبی طالب علیه السّلام العمیق المتأصّل،و لا فی فسق الولید،حیث أشیر فی آیات القرآن لکلا الإثنین.

۱- ۱) أورد هذه الروایه العلاّمه الطبرسی فی مجمع البیان،و القرطبی فی تفسیره،و الفاضل البرسوئی فی روح البیان.و ممّا یستحقّ الانتباه أنّنا نقرأ فی کتاب(اسد الغابه فی معرفه الصحابه)أنّه لا خلاف بین المطلعین علی تفسیر القرآن و العالمین به فی أنّ آیه إِنْ جٰاءَکُمْ فٰاسِقٌ بِنَبَإٍ قد نزلت فی حقّ الولید بن عقبه فی قصّه بنی المصطلق.

و تبيّن الآيه التاليه عدم المساواه هذه بصوره أوسع و أكثر تفصيلا،فتقول: أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ فَلَهُمْ جَنّاتُ الْمَأْوىٰ (۱) ثمّ تضيف الآيه بأنّ هذه الجنّات قد أعدّها اللّه تعالى لاستقبالهم فى مقابل أعمالهم الصالحه: نُزُلاً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ .

إنّ التعبير ب«نزلا»،و الذى يقال عاده للشىء الذى يهيّئونه لاستقبال و إكرام الضيف،إشاره لطيفه إلى أنّ المؤمنين يستقبلون و يخدمون دائما كما هو حال الضيف،فى حين أنّ الجهنّميين-كما سيأتى فى الآيه الآتيه-كالسجناء الذين يأملون الخروج منها فى كلّ حين،ثمّ يعادون فيها! و ما ورد فى الآيه(۱۰۲)من سوره الكهف: إِنّا أَعْتَدْنا جَهَنَّمَ لِلْكافِرِينَ نُزُلاً فإنّه من قبيل فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ و هو كنايه عن أنّه يعاقب و يعذّب هؤلاء بدل إكرامهم،و يهدّدون مكان بشارتهم.

و يعتقد البعض أنّ«النزل»أوّل شىء يستقبل به الضيف الوارد لتوّه-كالشاى و العصير فى زماننا-و بناء على هذا فإنّه إشاره لطيفه إلى أنّ جنّات المأوى بتمام نعمها و بركاتها هى أوّل ما يستقبل به ضيوف الرحمن،ثمّ تتبعها المواهب فى بركات اخرى لا يعلمها إلاّ اللّه سبحانه.

و التعبير ب فَلَهُمْ جَنّاتُ لعلّه إشاره إلى أنّ اللّه سبحانه لا يعطيهم بساتين الجنّه عاريه،بل يملّكهم إيّاها إلى الأبد،بحيث لا يعكّر هدوء فكرهم احتمال زوال هذه النعم مطلقا.

و تطرّقت الآيه التاليه إلى النقطه التى تقابل هؤلاء،فتقول: وَ أَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْواهُمُ النّارُ فهؤلاء مخلّدون فى هذا المكان المرعب بحيث أنّهم كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها أُعِيدُوا فِيها وَ قِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذابَ النّارِ الَّذِى كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ .

ص :۱۲۸

۱- ۱) «المأوى»من مادّه(أوى)بمعنى انضمام شىء إلى شىء آخر،ثمّ قيلت للمكان و المسكن و المستقرّ.

مرّه اخرى نرى هنا العـذاب الإلهى قـد جعل فى مقابل«الكفر و التكـذيب»، و الثواب و الجزاء فى مقابل«العمل»،و هذا إشاره إلى أنّ الإيمـان لاـ يكفى لوحـده، بل يجب أن يكون حافزا و باعثا على العمل،إلاّ أنّ الكفر كاف لوحـده للعـذاب، و إن لم يرافقه و يقترن به عمل.

بحث

اشاره

أصحاب الليل!

ورد لجمله: تَتَجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ تفسيران فى الروايات الإسلاميه:

أحدهما:تفسيرها بصلاه«العشاء»،و هو يشير إلى أنّ المؤمنين الحقيقيين لا ينامون بعد صلاه المغرب و قبل صلاه العشاء مخافه أن يغلب عليهم النوم فتفوتهم صـلاه العشـاء(لأـنّ المعتـاد فى ذلك الزمان أنّهم كانوا يستريحون فى أوّل الليل- و كانوا يفرّقون بين صلاـتى المغرب و العشـاء،طبقـا لاستحباب التفريق بين الصـلوات الخمس،و كـانوا يؤدّون كلا منهما فى وقت فضـيلتها)فربّما لم يستيقظوا لصلاه العشاء إذا ما ناموا بعد صلاه المغرب مباشره.

و قـد روى هـذا التّفسـير ابن عبّاس عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله طبقا لنقل الدرّ المنثور،و كذلك روى فى أمالى الصدوق عن الإمام الصادق عليه السّلام (۱) .

و ثانيهما:أنّها فسّرت بالقيام و النهوض من النوم و المضجع لأداء صلاه الليل فى أغلب الرّوايات و كلمات المفسّرين:

ففى روايه عن الإمام الباقر عليه السّلام أنّه قال لأحد أصحابه: «ألا أخبرك بالإسلام أصله و فرعه و ذروه سنامه»؟قال:بلى،جعلت فداك،قال:«أمّا أصله فالصلاه،

۱- ۱) الدرّ المنثور و أمالى الشيخ طبقا لنقل تفسير الميزان الجزء ۱۶ صفحه ۲۶۸.

و فرعه الزکاه،و ذروه سنامه الجهاد»! ثمّ قال:«إن شئت أخبرتک بأبواب الخیر»؟قال:نعم جعلت فداک،قال:«الصوم جنّه،و الصدقه تذهب بالخطیئه،و قیام الرجل فی جوف اللیل بذکر اللّه،ثمّ قرأ:

تَتَجافی جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ

(۱)

.

و

روی فی(تفسیر مجمع البیان)عن معاذ بن جبل،قال: بینما نحن مع رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله فی غزوه تبوک،و قد أصابنا الحرّ فتفرّق القوم،فإذا رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله أقربهم منّی،فدنوت منه،فقلت:یا رسول اللّه،أنبئنی بعمل یدخلنی الجنّه،و یباعدنی من النار،قال:«لقد سألت عن عظیم و إنّه لیسیر علی من یسّره اللّه علیه:تعبد اللّه و لا تشرک به شیئا،و تقیم الصلاه المکتوبه،و تؤدّی الزکاه المفروضه،و تصوم شهر رمضان».

قال:«و إن شئت أنبأتک بأبواب الخیر»قال:قلت:أجل یا رسول اللّه،قال:

«الصوم جنّه،و الصدقه تکفّر الخطیئه،و قیام الرجل فی جوف اللیل یبتغی وجه اللّه»ثمّ قرأ هذه الآیه تَتَجافی جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ (۲).

و بالرغم من عدم وجود المانع من أن یکون للآیه معنی واسعا یشمل البقاء علی الیقظه فی أوّل اللیل لصلاه العشاء،إضافه إلی النهوض فی السحر لصلاه اللیل،إلاّ أنّ الدقّه فی مفهوم(تتجافی)تعکس المعنی الثّانی فی الذهن أکثر،لأنّ ظاهر الجمله أنّ الجنوب قد اضطجعت و هدأت فی المضاجع،ثمّ تجافت و ابتعدت عنها، و هذا یناسب القیام آخر اللیل لأداء الصلاه،و بناء علی هذا فإنّ المجموعه الاولی من الروایات من قبیل شمولیه المفهوم و إلغاء الخصوصیه.

و بالرغم من أنّ هذه الروایات القلیله تبدو کافیه حول أهمیّه هذه الصلاه المبارکه،إلاّ أنّ الروایات الإسلامیه قد أولت هذه العباده اهتماما عظیما قلّ أن

۱- ۱) اصول الکافی،الجزء ۲،باب دعائم الإسلام صفحه ۲۰ حدیث ۱۵،و المصدر السابق.

۲- ۲) مجمع البیان ذیل الآیات مورد البحث،و تفسیر نور الثقلین،الجزء ۴،صفحه ۲۲۹.

تحدّثت بهذا المقدار عن عباده اخرى.

لقـد اهتمّ أنصـار الحقّ و محبّوه و سـالكو طريق الفضـيله كثيرا بهـذه العباده الخاليه من الرياء،و التى تنير القلب و تصـفّيه من كلّ الشوائب.

و من الممكن أن لاـ يوفّق البعض إلى هـذه العبـاده المبـاركه دائما،و لكن ما المانع من أن يسـعى الفرد إلى نيل هـذا التوفيق فى بعض الليـالى،و فى الوقت الـذى يرخى الليـل سـدوله،و تهـدأ الأـصوات و تنام العيون يكون الجوّ مهيئا لحضور القلب،يهبّ إلى مناجاه اللّه و ينوّر قلبه بنور عشق الحبيب و محبّته (۱) .

۱- ۱) كان لنا بحث آخر حول أهميّه صلاه الليل و طريقتها فى ذيل الآيه(۷۹)من سوره الإسراء.

الآيتان [سوره السجده (٣٢): الآيات ٢١ الى ٢٢]

اشاره

وَ لَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ اَلْعَذٰابِ اَلْأَدْنىٰ دُونَ اَلْعَذٰابِ اَلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢١) وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيٰاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهٰا إِنّٰا مِنَ اَلْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ (٢٢)

التّفسير

اشاره

عقوبات تربويه:

بعد البحث الذى مرّ فى الآيات السابقه حول المجرمين و عقابهم الأليم،فإنّ الآيات مورد البحث تشير إلى أحد الألطاف الإلهيه الخفيّه و هى موارد العذاب الخفيف فى الدنيا ليتّضح أنّ اللّه سبحانه لا يريد أن يبتلى عبد بالعذاب الخالد أبدا، و لذلك يستخدم كلّ وسائل التوعيه لنجاته،فيرسل الأنبياء،و ينزل الكتب السماويه،و ينعم و يبتلى بالمصائب،و إذا لم تنفع أيّه وسيله منها فليس إلاّ نار الجحيم.

تقول الآيه: وَ لَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذٰابِ الْأَدْنىٰ دُونَ الْعَذٰابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ .

من المسلّم أنّ«العذاب الأدنى»له معنى واسعا يتضمّن أغلب الاحتمالات التى

ص:١٣٢

كتبها المفسّرون بصوره منفصله:

فمن جملتها،أنّ المراد المصائب و الآلام و المشقّه.

أو القحط و الجفاف الشديد الذى دام سبع سنين و ابتلى به المشركون فى مكّه حتّى اضطروا إلى أكل أجساد الموتى! أو الضربه القاصمه التى نزلت عليهم فى غزوه بدر،و أمثال ذلك.

أمّا ما احتمله البعض من أنّ المراد عذاب القبر،أو العقاب فى الرجعه فلا يبدو صحيحا،لأنّه لا يناسب جمله لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ أى عن أعمالهم.

من البديهى أنّ العذاب موجود فى هذه الدنيا أيضا،بحيث إذا نزل أغلقت أبواب التوبه،و هو عذاب الاستئصال،أى العذاب و العقوبات التى تنزل لفناء الأقوام العاصين حينما لا تنفع و لا تؤثّر فيهم أىّ وسيله توعيه و تنبيه.

و أمّا«العذاب الأكبر»فيعنى عذاب يوم القيامه الذى يفوق كلّ عذاب حجما و ألما.

و هناك التفاته أشار إليها بعض المفسّرين فى أنّه لما ذا جعل«الأدنى»فى مقابل «الأكبر»،فى حين أنّه يجب إمّا أن يقع الأدنى مقابل الأبعد،أو الأصغر فى مقابل الأكبر؟ و ذلك أنّ لعذاب الدنيا صفتين:كونه صغيرا،و قريبا،و ليس من المناسب التأكيد على صغره عند التهديد،بل يجب التأكيد على قربه.و لعذاب الآخره صفتان أيضا:

كونه بعيدا و كبيرا،و المناسب فى شأنه التأكيد على كبره و عظمته لا بعده-تأمّلوا جيدا-.

و تقدّم أنّ التعبير ب(لعلّ)فى جمله لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ بسبب أنّ الإحساس بالعقوبات التحذيريه ليس علّه تامّه للوعى و اليقظه،بل هو جزء العلّه،و يحتاج إلى أرضيّه مهيّأه،و بدون هذا الشرط لا يحقّق النتيجه المطلوبه،و كلمه(لعلّ)إشاره إلى هذه الحقيقه.

ص:١٣٣

و تتّضح من هذه الآيه إحدى حكم المصائب و الابتلاءات و الآلام التى تعتبر من المسائل الملحّه و المثيره للجدل فى بحث التوحيد و معرفه اللّه و عدله.

و ليس فى هذه الآيه فحسب،بل أشير فى آيات اخرى من القرآن إلى هذه الحقيقه،و من جملتها فى الآيه(۹۴)من سوره الأعراف وَ مٰا أَرْسَلْنٰا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلاّٰ أَخَذْنٰا أَهْلَهٰا بِالْبَأْسٰاءِ وَ الضَّرّٰاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ .

و لمّا لم تنفع أيّه وسيله من وسائل التوعيه و التنبيه،حتّى العذاب الإلهى،لم يبق طريق إلاّ انتقام اللّه من هؤلاء القوم الذين هم أظلم الناس،و كذلك تقول الآيه التاليه: وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيٰاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهٰا إِنّٰا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ .

فلم تؤثّر فيهم النعمه الإلهيّه،و لا العذاب و الابتلاءات التحذيريه،و على هذا فلا أحد أظلم منهم،و إذا لم ينتقم من هؤلاء فممّن الانتقام؟ من الواضح-و بملاحظه الآيات السابقه-أنّ المراد من«المجرمين»هنا هم منكرو المبدأ و المعاد الذين لا إيمان لهم.

و قد وصف جماعه من الناس فى آيات القرآن مرارا بأنّهم(أظلم)من الباقين، و بالرغم من تعبيراتها المختلفه إلاّ أنّها تعود جميعا إلى أصل الكفر و الشرك،و بناء على هذا فإنّ معنى(أظلم)الذى يعتبر صيغه تفضيل يتطابق مع هذه المصاديق.

و التعبير ب(ثمّ)فى الآيه،و الذى يدلّ عاده على التراخى،لعلّه إشاره إلى أنّ أمثال هؤلاء يعطون فرصه و مجالا كافيا للتفكير و البحث،و لا تكون معاصيهم الابتدائيه سببا لانتقام اللّه أبدا،إلاّ أنّهم سيستحقّون انتقام اللّه عزّ و جلّ بعد انتهاء الفرصه اللازمه.

و يجب الالتفات إلى أنّ التعبير ب«الانتقام»يعنى العقوبه فى لسان العرب،و مع أنّ معنى الكلمه أصبح فى المحادثات اليوميه يعنى تشفّى القلب و إبراد الغليل من العدو،إلاّ أنّ هذا المعنى لا وجود له فى الأصل اللغوى،و لذلك فإنّ هذا التعبير قد

استعمل مرارا فی شأن اللّه عزّ و جلّ فی القرآن المجید،فی حین أنّه سبحانه أسمی و أعلی من هذه المفاهیم،فهو لا یفعل شیئا إلاّ وفق الحکمه.

ص :135

الآيات [سوره السجده (٣٢): الآيات ٢٣ الى ٢٥]

اشاره

وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى اَلْكِتَابَ فَلاَ تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَ جَعَلْنَاهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٣) وَ جَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَ كَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢۴) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ اَلْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٢۵)

التّفسير

اشاره

شرط الإمامه:الصبر و الإيمان:

تشير الآيات مورد البحث إشاره قصيره و عابره إلى قصّه«موسى»عليه السّلام و بنى إسرائيل لتسلّى نبىّ الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و المؤمنين الأوائل و تطيّب خواطرهم،و تدعوهم إلى الصبر و التحمّل و الثبات أمام تكذيب و إنكار المشركين التى أشير إليها فى الآيات السابقه، و لتكون بشاره للمؤمنين بانتصارهم على القوم الكافرين العنودين كما انتصر بنو إسرائيل على أعدائهم و أصبحوا أئمّه فى الأرض.

و لمّا كان موسى عليه السّلام نبيّا جليلا يؤمن به كلّ من اليهود و النصارى،فإنّه يكون حافزا على توجّه أهل الكتاب نحو القرآن و الإسلام.

تقول الآيه أوّلا: وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلاَ تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ أى فلا

تشکّ أو تتردّد فی أنّ«موسی»قد تلقّی آیات اللّه،و قد جعلنا کتاب موسی «التوراه»وسیله لهدایه بنی إسرائیل وَ جَعَلْنٰاهُ هُدیً لِبَنِی إِسْرٰائِیلَ .

ثمّه اختلاف بین المفسّرین فی عوده الضمیر فی قوله: مِنْ لِقٰائِهِ ،و قد احتملوا فی ذلک سبعه احتمالات أو أکثر،إلاّ أنّ أقربها هو عودته إلی الکتاب- کتاب موسی السماوی،أی«التوراه»-کما یبدو،و له معنی المفعول و فاعله موسی، و بناء علی هذا فإنّ المعنی الکلّی لهذه الجمله یصبح:لا تشکّ فی أنّ موسی علیه السّلام تلقّی الکتاب السماوی الذی القی إلیه من قبل اللّه تعالی.

و الشاهد القویّ علی هذا التّفسیر هو أنّه قد وردت فی الآیه أعلاه ثلاث جمل، تتحدّث الجملتین الاولی و الأخیره عن التوراه قطعا،فمن المناسب أن تتابع الجمله الوسط هذا المعنی أیضا،لا أن تتحدّث عن القیامه أو القرآن المجید حیث ستکون جمله معترضه فی هذه الصوره،و نعلم أنّ الجمله المعترضه خلاف الظاهر، و ما دمنا فی غنی عنها فلا ینبغی التوجّه إلیها.

السؤال الوحید الذی یبقی فی هذا التّفسیر هو استعمال کلمه(لقاء)فی مورد الکتاب السماوی،حیث إنّ هذه الکلمه قد استعملت فی القرآن الکریم غالبا بإضافتها إلی اللّه أو الربّ أو الآخره و أمثالها،و هی إشاره إلی القیامه.و لهذا السبب رجّح البعض کون الآیه أعلاه تتحدّث أوّلا عن نزول التوراه علی موسی،ثمّ تأمر نبیّ الإسلام صلّی اللّه علیه و آله أن لا تشکّ فی لقاء اللّه و مسأله المعاد،ثمّ تعود إلی مسأله التوراه، لکن فی هذه الصوره ینهار الانسجام بین جمل هذه الآیه و یزول التناسب فیما بینها.

غیر أنّه ینبغی الالتفات إلی أنّ تعبیر«لقاء»و إن لم یستعمل فی القرآن فی مورد الکتب السماویه،إلاّ أنّ الإلقاء و التلقّی قد استعمل مرارا فی هذا المعنی،کما فی الآیه(۲۵)من سوره القمر: أَ أُلْقِیَ الذِّکْرُ عَلَیْهِ مِنْ بَیْنِنٰا .

و نقرأ فی قصّه سلیمان و ملکه سبأ أنّها قالت عند ما وصلتها رساله سلیمان: إِنِّی

أَلْقِیَ إِلَیَّ کِتٰابٌ کَرِیمٌ .

و فی نفس هذه السوره«سوره سلیمان»فی الآیه(۶)نقرأ فی شأن القرآن الکریم وَ إِنَّکَ لَتُلَقَّی الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَکِیمٍ عَلِیمٍ .

بناء علی هذا فإنّ فعل الإلقاء و التلقّی قد استعمل مرارا فی هذا المورد، بل و حتّی نفس فعل اللقاء قد استعمل فی مورد صحیفه أعمال الإنسان،فنقرأ فی الآیه (۱۳)من سوره الإسراء: وَ نُخْرِجُ لَهُ یَوْمَ الْقِیٰامَهِ کِتٰاباً یَلْقٰاهُ مَنْشُوراً .

و من مجموع ما قلناه یتّضح ترجیح هذا التّفسیر علی سائر الاحتمالات التی احتملت فی الآیه أعلاه (۱) .

لکن ینبغی الالتفات إلی أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله لم یشکّ فی مثل هذه المسائل مطلقا،بل إنّ مثل هذه التعبیرات تستعمل عاده لتأکید المطلب،و لیکون نموذجا للآخرین.

ثمّ تشیر الآیه التالیه إلی الأوسمه و المفاخر التی حصل علیها بنو إسرائیل فی ظلّ الاستقامه و الإیمان لتکون درسا للآخرین،فتقول: وَ جَعَلْنٰا مِنْهُمْ أَئِمَّهً یَهْدُونَ بِأَمْرِنٰا لَمّٰا صَبَرُوا وَ کٰانُوا بِآیٰاتِنٰا یُوقِنُونَ .

لقد ذکرت الآیه هنا شرطین للإمامه:أحدهما:الإیمان و الیقین بآیات اللّه عزّ و جلّ،و الثّانی:الصبر و الاستقامه و الصمود.و هذا الأمر لیس مختصّا ببنی

۱- ۱) ذهب بعض المفسّرین إلی أنّ مرجع الضمیر فی(لقائه)إلی موسی،و بناء علی هذا یصبح المعنی:لا شکّ یا محمّد بأنّک ستلتقی بموسی،و اعتبروا ذلک إشاره إلی لقائه به فی لیله المعراج أو فی یوم القیامه.و هذا المعنی لا یبدو منسجما مع مفهوم الجمله. و قال البعض الآخر:إنّ الضمیر یرجع إلی الکتاب،و المراد منه القرآن،أی:لا تدع أیّها النّبی للشکّ فی أنّ هذا القرآن وحی إلهی إلی نفسک سبیلا،و هذا المعنی و إن کان یتلائم مع آیات بدایه السوره،إلاّ أنّه لا یتلاءم کثیرا مع الجمل الاخری الموجوده فی نفس هذه الآیه.إضافه إلی أنّ الکتاب فی الآیه مورد البحث بمعنی التوراه،فلا ینسجم معه عود الضمیر إلی القرآن-و توجیه هذا المعنی بأنّ المراد مطلق الکتاب السماوی لا یقلّل من کونه خلاف الظاهر. و قال بعض المفسّرین:إنّ الضمیر فی(لقائه)یعود إلی اللّه،و هذه الجمله إشاره إلی أنّه لا شکّ أبدا فی مسأله المعاد،و هذا المعنی و إن کان یتّفق و ینسجم مع الآیات السابقه،إلاّ أنّه لا یتلاءم من أی وجه تقریبا مع نفس الآیه مورد البحث. و من هنا یتّضح أنّ ما ورد فی بعض التفاسیر من أنّ الآیه إشاره إلی التقاء خطّی و برنامجی موسی و نبی الإسلام،مطلب ذوقی لا یناسب المفهوم الواقعی لألفاظ الآیه،و بناء علی هذا فإنّ أوضح التفاسیر و أجلاها ما أوردناه أعلاه.

إسرائيل،بل هو درس لكلّ الأمم،و لجميع مسلمی الأمس و الیوم و الغد بأن یحکموا أسس یقینهم،و لا یخافوا من المشاکل التی تعترضهم فی طریق التوحید، و أن یتحلّوا بالصبر و المقاومه لیکونوا أئمّه الخلق و قاده الأمم و مرشدیها فی تاریخ العالم.

التعبیر ب(یهدون)و(یوقنون)بصیغه الفعل المضارع دلیل علی استمرار هاتین الصفتین طیله حیاه هؤلاء،لأنّ مسأله القیاده لا تخلو لحظه من المشکلات، و یواجه شخص القائد و إمام الناس مشکله جدیده فی کلّ خطوه،و یجب أن یهبّ لمواجهتها مستعینا بقوّه الیقین و الاستقامه المستمرّه،و یدیم خطّ الهدایه إلی اللّه سبحانه.

و الجدیر بالانتباه أنّ الآیه تقیّد الهدایه بأمر اللّه،فتقول: یَهْدُونَ بِأَمْرِنٰا و هذا هو المهمّ فی أمر الهدایه بأن تنبع من الأوامر الإلهیّه،لا من أمر الناس،أو تقلید هذا و ذاک،أو بأمر من النفس و المیول القلبیه.

یقول الإمام الصادق علیه السّلام فی حدیثه العمیق المحتوی،بالاستناد إلی مضامین القرآن المجید: «إنّ الأئمّه فی کتاب اللّه عزّ و جلّ إمامان:قال اللّه تبارک و تعالی:

و جعلناهم أئمّه یهدون بأمرنا،لا بأمر الناس،یقدّمون أمر اللّه قبل أمرهم،و حکم اللّه قبل حکمهم،و قال:و جعلناهم أئمّه یدعون إلی النار،یقدّمون أمرهم قبل أمر اللّه،و حکمهم قبل حکم اللّه،و یأخذون بأهوائهم خلاف ما فی کتاب اللّه عزّ و جلّ» (۱) .

ثمّ أنّ المراد من الأمر هنا هل هو الأمر التشریعی،أم الأمر التکوینی؟ظاهر الآیه یعطی المعنی الأوّل،و تعبیرات الرّوایات و المفسّرین تؤیّد ذلک،إلاّ أنّ بعض کبار المفسّرین اعتبروه بمعنی الأمر التکوینی.

۱- ۱) الکافی،المجلّد الأوّل،صفحه ۱۶۸ باب أنّ الأئمّه فی کتاب اللّه إمامان.

و توضیح ذلک:أنّ الهدایه قد وردت فی الآیات و الروایات بمعنیین:«تبیان الطریق»،و«الإیصال إلی المطلوب»،و کذلک هدایه الأئمّه الإلهیین تتّخذ صورتین:فیکتفون أحیانا بالأمر و النهی،و أحیانا اخری ینفذون إلی أعماق القلوب المستعدّه و الجدیره بالهدایه لیوصلوها إلی الأهداف التربویه و المقامات المعنویه.

و قد استعملت کلمه«الأمر»فی بعض آیات القرآن بمعنی«الأمر التکوینی»، مثل: إِنَّمٰا أَمْرُهُ إِذٰا أَرٰادَ شَیْئاً أَنْ یَقُولَ لَهُ کُنْ فَیَکُونُ (۱) ، و جمله یَهْدُونَ بِأَمْرِنٰا فی الآیه مورد البحث إشاره إلی هذا المعنی أیضا،أی إنّ أولئک کانوا أئمّه ینفذون إلی النفوس المستعدّه بقدره اللّه،و یسوقونها إلی الأهداف التربویه و الإنسانیه العالیه (۲) .

إنّ هذا المعنی یستحقّ الملاحظه و الانتباه،و هو أحد شؤون الإمامه،و فروع و طرق الهدایه،إلاّ أنّ حصر جمله: یَهْدُونَ بِأَمْرِنٰا بهذا المعنی لا یوافق ظاهر الآیه،لکن لا مانع من أن نفسّر کلمه الأمر فی هذه الجمله بمعناها الواسع الذی یتضمّن الأمر التکوینی و التشریعی،و یجمع کلا معنیی الهدایه فی الآیه،و هذا المعنی ینسجم مع بعض الأحادیث الوارده فی تفسیر هذه الآیه.

و لکن،و علی کلّ حال،لا یمکن أن یصل الإمام و الهادی إلی هذا المقام إلاّ فی ظلّ الیقین و الاستقامه فقط.

و یبقی سؤال،و هو:هل المراد من هؤلاء الأئمّه فی بنی إسرائیل هم الأنبیاء الذین بعثوا إلیهم،أم أنّ العلماء الذین کانوا یهدون الناس إلی الخیرات بأمر اللّه یدخلون فی هذه الزمره؟ الآیه ساکته عن ذلک،و اکتفت بالقول بأنّنا قد جعلنا منهم أئمّه،لکن بملاحظه

۱- ۱) سوره یس،الآیه ۸۲.

۲- ۲) تفسیر المیزان،المجلّد الأوّل،صفحه ۲۷۵.

جمله:(جعلنا)يرجّح فى رأينا أنّ المراد هم الأنبياء الذين نصبوا بأمر اللّه فى هذا المنصب.

و لمّا كانوا بنوا إسرائيل-كسائر الأمم-قد اختلفوا بعد هؤلاء الأئمّه الحقيقيين، و سلكوا مسالك مختلفه،فإنّ الآيه الأخيره من الآيات مورد البحث تقول بلحن التهديد: إِنَّ رَبَّکَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَهِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ .

أجل..إنّ مصدر و منبع الاختلاف دائما هو مزج الحقّ بالأهواء و الميول،و لمّا كانت القيامه يوما لا معنى فيه للأهواء و الميول،حيث تمحى و يتجلّى الحقّ بأجلى صوره،فهناك ينهى اللّه سبحانه الاختلافات بأمره،و هذه أيضا إحدى فلسفات المعاد.تأمّلوا ذلك.

ملاحظه

اشاره

صمود و استقامه القاده الإلهيين

قلنا:إنّه قد ذكر فى الآيات مورد البحث شرطان للأئمّه:الأوّل:الصبر و الثبات، و الآخر:الإيمان و اليقين بآيات اللّه.

و لهذا الصبر و الثبات فروعا و أشكالا كثيره:

فيكون أحيانا أمام المصائب التى تحلّ بالإنسان.

و اخرى مقابل الأذى الذى يحيق بأصحابه و مؤيّديه.

و ثالثه فى مقابل التعديات و الألسن البذيئه التى تنال مقدّساته.

و اخرى فى مقابل المنحرفين فكريا.

و اخرى أمام الجاهلين الحمقى.

و اخرى أمام العلماء الخبثاء.

و الخلاصه:فإنّ القائد الواعى الرشيد يجب أن يصمد أمام كلّ هذه المشاكل

و غيرها،و لا ينسحب من ميدان الصراع و الحوادث،و لا يجزع و ييأس،و لا يفقد زمام الأمور من يده،و لا يضطرب و لا يندم حتّى يحقّق هدفه الكبير.

و قد روى فى هذا الباب حديث جامع و رائع عن الإمام الصادق عليه السّلام حيث قال لأحد أصحابه:إنّ من صبر صبر قليلا(و بعده الظفر)و إنّ من جزع جزع قليلا(و من بعده الخسران).

ثمّ قال:عليك بالصبر فى جميع أمورك،فإنّ اللّه عزّ و جلّ بعث محمّدا فأمره بالصبر و الرفق،فقال: وَ اصْبِرْ عَلىٰ مٰا يَقُولُونَ وَ اهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلًا و قال: اِدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَ بَيْنَهُ عَدٰاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ وَ مٰا يُلَقّٰاهٰا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَ مٰا يُلَقّٰاهٰا إِلاّٰ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ .

فصبر رسول اللّه حتّى نالوه بالعظائم و رموه بها-فسمّوه ساحرا و مجنونا و شاعرا،و كذّبوه فى دعوته-فضاق صدره،فأنزل اللّه عزّ و جلّ عليه: وَ لَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمٰا يَقُولُونَ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ كُنْ مِنَ السّٰاجِدِينَ -أى إنّ هذه العباده تمنحك الاطمئنان و الهدوء-.

ثمّ كذّبوه و رموه فحزن لذلك،فأنزل اللّه عزّ و جلّ: قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاٰ يُكَذِّبُونَكَ وَ لٰكِنَّ الظّٰالِمِينَ بِآيٰاتِ اللّٰهِ يَجْحَدُونَ. وَ لَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلىٰ مٰا كُذِّبُوا وَ أُوذُوا حَتّٰى أَتٰاهُمْ نَصْرُنٰا .

فألزم النّبى نفسه الصبر،فتعدّوا فذكروا اللّه تبارك و تعالى و كذّبوه،فقال:قد صبرت فى نفسى و أهلى و عرضى و لا صبر لى على ذكر إلهى،فأنزل اللّه عزّ و جلّ:

وَ اصْبِرْ عَلىٰ مٰا يَقُولُونَ ،فصبر النّبى فى جميع أحواله.

ثمّ بشّر فى عترته بالأئمّه و وصفوا بالصبر،فعند ذلك قال:الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد،فشكر اللّه عزّ و جلّ ذلك له،فأباح له قتال المشركين،فقتلهم اللّه على يدى رسول اللّه و أحبّائه،و جعل له ثواب صبره مع ما ادّخر له فى

الآخره».

ثمّ

أضاف الإمام الصادق علیه السّلام: «فمن صبر و احتسب لم یخرج من الـدنیا حتّی یقرّ اللّه له عینه فی أعـدائه مع ما یـدّخر له فی الآخره» (1) .

ص :143

1- 1) اصول الکافی،الجزء 2،صفحه 72 باب الصبر باختصار قلیل.

الآیات [سوره السجده (۳۲): الآیات ۲۶ الی ۳۰]

اشاره

أَ وَ لَمْ یَهْدِ لَهُمْ کَمْ أَهْلَکْنٰا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ اَلْقُرُونِ یَمْشُونَ فِی مَسٰاکِنِهِمْ إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیٰاتٍ أَ فَلاٰ یَسْمَعُونَ (۲۶) أَ وَ لَمْ یَرَوْا أَنّٰا نَسُوقُ اَلْمٰاءَ إِلَی اَلْأَرْضِ اَلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْکُلُ مِنْهُ أَنْعٰامُهُمْ وَ أَنْفُسُهُمْ أَ فَلاٰ یُبْصِرُونَ (۲۷) وَ یَقُولُونَ مَتیٰ هٰذَا اَلْفَتْحُ إِنْ کُنْتُمْ صٰادِقِینَ (۲۸) قُلْ یَوْمَ اَلْفَتْحِ لاٰ یَنْفَعُ اَلَّذِینَ کَفَرُوا إِیمٰانُهُمْ وَ لاٰ هُمْ یُنْظَرُونَ (۲۹) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَ اِنْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ (۳۰)

التّفسیر

اشاره

یوم انتصارنا:

کانت الآیات السابقه ممزوجه بتهدید المجرمین من الکفّار،و تقول الآیه الاولی من الآیات مورد البحث إکمالا لهذا التهدید: أَ وَ لَمْ یَهْدِ لَهُمْ کَمْ أَهْلَکْنٰا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ (۱) فهؤلاء یسیرون بین الخرائب و یرون آثار أولئک الأقوام

ص: ۱۴۴

۱- ۱) فاعل(لم یهد)یفهم من جمله کَمْ أَهْلَکْنٰا مِنْ قَبْلِهِمْ و التقدیر:أو لم یهد لهم کثره من أهلکنا.

الذين هلكوا من قبلهم يَمْشُونَ فِى مَسٰاكِنِهِمْ (١) .

نقع مساكن«عاد»و«ثمود»المدمّره،و مدن«قوم لوط»الخربه فى طريق هؤلاء إلى الشام،و كانت هذه المساكن مقرّا و مركزا للأقوام الأقوياء المنحرفين، و طالما حذّرهم الأنبياء فلم يؤثّر فيهم ذلك،و أخيرا طوى العذاب الإلهى ملفّ حياتهم،و كان المشركون يمرّون على تلك الخرائب فكأنّ لكلّ بيوت هؤلاء و قصورهم المتهدّمه مائه لسان، تصيح بهؤلاء أن يتنبّهوا،و تبيّن لهم و تحدّثهم بنتيجه الكفر و الانحطاط،لكنّهم لم يعبئوا بها و يلتفتوا إليها،و كأنّهم فقدوا أسماعهم تماما،و لذلك تضيف الآيه فى النهايه: إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَآيٰاتٍ أَ فَلاٰ يَسْمَعُونَ .

و تشير الآيه التاليه إلى أحد أهمّ النعم الإلهيه التى هى أساس عمران كلّ البلدان،و وسيله حياه كلّ الكائنات الحيّه،ليتّضح من خلالها أنّ اللّه سبحانه كما يمتلك القدره على تدمير بلاد الضالّين المجرمين،فإنّه قادر على إحياء الأراضى المدمّره و الميّته،و منح عباده كلّ نوع من المواهب،فتقول: أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنّٰا نَسُوقُ الْمٰاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعٰامُهُمْ وَ أَنْفُسُهُمْ أَ فَلاٰ يُبْصِرُونَ .

«الجرز»تعنى الأرض القاحله التى لا ينبت فيها شىء قطّ،و هى فى الأصل من مادّه(جرز)على وزن(مرض)بمعنى«القطع»،فكأنّ النباتات قد اجتثّت من مثل هذه الأرض،أو أنّ الأرض نفسها قد قطعت تلك النباتات.

و الطريف هنا أنّه قد عبّر ب:(نسوق الماء)و هو إشاره إلى طبيعه الماء توجب- بحكم ثقله-أن يكون على الأرض و فى المنخفضات،و بحكم كونه مائعا يجب أن ينزل إلى أعماق الأرض،إلاّ أنّه عند ما يصله أمرنا يفقد طبيعته،و يتحوّل إلى بخار خفيف يتحرّك إلى كلّ الجهات بهبوب النسيم.

---

١ - ١) ذكر أغلب المفسّرين فى تفسير الآيه ما ذكرناه أعلاه،إلاّ أنّ البعض احتمل أن تكون جمله يَمْشُونَ بيانا لحال المهلكين،أى أنّ أولئك الأقوام كانوا فى غفله تامّه عن العذاب الإلهى،و كانوا يسيرون فى مساكنهم و يتنعّمون بها،إذ أتاهم عذاب اللّه بغته و أهلكهم.إلاّ أنّ هذا الاحتمال يبدو بعيدا.

نعم،إنّ هذه السحب السابحه فی السماء بحار کبیره من المیاه العذبه ترسل إلی الأراضی الیابسه بأمر اللّه و معونه الریاح.

و الواقع أنّه لو لا المطر فإنّ کثیرا من الأراضی لا تری حتّی القطره الواحده من الماء،و إذا افترضنا أنّ هناک أنهارا غزیره المیاه فإنّ تلک المیاه لا تصل إلی أغلب الأراضی،إلاّ أنّنا نری أنّه ببرکه هذه الرحمه الإلهیّه قد نبتت و نمت الأعشاب و الغابات و الأشجار الکثیره جدّا علی قمم کثیر من الجبال و الودیان الوعره و التلال المرتفعه،و هذه القدره العجیبه للمطر علی الری لا یستطیع القیام بها شیء آخر.

«زرعا»له هنا معنی واسعا یشمل کلّ أنواع العشب و الشجر،و إن کان یستعمل أحیانا فی مقابل الشجر.

و یمکن أن یکون تقدیم الدوابّ و الأنعام علی البشر فی هذه الآیه لأنّ تغذیه الحیوانات تعتمد علی النبات،فی حین أنّ البشر یتغذّی علی النبات و علی لحوم الحیوانات.

أو من جهه أنّ النبات بمجرّد نموّه یصبح غذاء للحیوانات،و تستطیع الاستفاده منه و هضمه،فی حین أنّ استفاده الإنسان من النباتات،تتأخّر حتّی تحمل الشجره و تنضج الثمره.

و الطریف هنا أنّ جمله: أَ فَلا یُبْصِرُونَ قد وردت فی نهایه الآیه مورد البحث،فی حین أنّ الآیه السابقه التی کانت تتحدّث عن أطلال قصور الأقوام الغابره قد ختمت بجمله: أَ فَلا یَسْمَعُونَ .

و علّه هذا الاختلاف هو أنّ الجمیع یرون بأمّ أعینهم منظر الأراضی المیّته و هی تحیا علی أثر نزول الأمطار و نموّ نباتها و ینع ثمرها،فی حین أنّهم یسمعون المسائل المرتبطه بالأقوام السابقین کإخبار غالبا.

و یستفاد من مجموع الآیتین أعلاه أنّ اللّه تعالی یقول لهؤلاء العصاه

المتمرّدين:انتبهوا جيّدا،و افتحوا عيونكم و أسماعكم،فاسمعوا الحقائق،و انظروا إليها،و تفكّروا كيف أمرنا الرياح يوما أن تحطّم قصور قوم عاد و مساكنهم و تجعلها أطلالا و آثارا،و فى يوم آخر نأمر ذات الرياح أن تحمل السحاب الممطر إلى الأراضى الميّته البور لتحيى تلك الأراضى و تجعلها خضراء نضره،ألا تستسلمون و تذعنون لهذه القدره؟! و لمّا كانت الآيات السابقه تهدّد المجرمين بالانتقام،و تبشّر المؤمنين بالإمامه و النصر،فإنّ الكفّار يطرحون هذا السؤال غرورا و استكبارا و تعلّلا بأنّ هذه التهديدات متى ستتحقّق؟كما يذكر القرآن ذلك: وَ يَقُولُونَ مَتىٰ هٰذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ .

فيجيبهم القرآن مباشره،و يأمر النّبى صلّى اللّه عليه و آله أن قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لاٰ يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمٰانُهُمْ وَ لاٰ هُمْ يُنْظَرُونَ أى:إذا كان مرادكم أن تروا صدق الوعيد الإلهى الذى سمعتموه من النّبى لتؤمنوا،فإنّ الوقت قد فاتكم،فإذا حلّ ذلك اليوم لا ينفعكم إيمانكم فيه شيئا.

و ممّا قلنا يتّضح أنّ المراد من«يوم الفتح»يوم نزول «عذاب الاستئصال»،أى العذاب الذى يقطع دابر الكافرين،و لا يدع لهم فرصه الإيمان.و بتعبير آخر فإنّ عذاب الاستئصال نوع من العذاب الدنيوى،لا من عذاب الآخره،و لا من العقوبات الدنيويه المعتاده،بل هو العذاب الذى ينهى حياه المجرمين بعد إتمام الحجّه.

و الشاهد على هذا القول امور:

أ:إذا كان المراد العقوبات الدنيويه المعتاده،أو الانتصارات الشبيهه بانتصار المسلمين فى معركه بدر و يوم فتح مكّه-كما قال ذلك بعض المفسّرين-فإنّ جمله: لاٰ يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمٰانُهُمْ لا تصحّ حينئذ،لأنّ الإيمان كان مفيدا حينذاك،و أبواب التوبه كانت مفتّحه يوم الإنتصار فى بدر،و فى يوم فتح مكّه.

ب:إذا كان المراد من يوم الفتح يوم القيامه-كما ارتضى ذلك بعض المفسّرين-فإنّ ذلك لا يناسب جمله: وَ لاٰ هُمْ يُنْظَرُونَ لأنّ إعطاء الفرصه و عدمه يرتبط بالحياه الدنيا،إضافه إلى أنّ«يوم الفتح»لم يستعمل بمعنى يوم القيامه فى أىّ موضع من القرآن الكريم.

ج:إنّ التعبير بالفتح فى مورد عذاب الاستئصال يلاحظ مرارا فى القرآن،مثل الآيه(١١٨)من سوره الشعراء،حيث يقول نوح: فَافْتَحْ بَيْنِي وَ بَيْنَهُمْ فَتْحاً وَ نَجِّنِي وَ مَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ و هو إشاره إلى عقوبه الطوفان.

و ورد نظير هذا المعنى فى الآيه(٧٧)من سوره المؤمنون أيضا.

إلاّ أنّ المراد إذا كان عذاب الاستئصال فى الدنيا فإنّه يتّفق مع ما قلناه أعلاه، و ينسجم مع كلّ القرائن،و هو فى الواقع تهديد للكافرين و الظالمين بأن لا تطلبوا تحقّق الوعد بالفتح للمؤمنين و وقوع عذاب الاستئصال على الكافرين،فإنّ طلبكم إذا تحقّق فسوف لا تجدون الفرصه للإيمان،و إذا وجدتم الفرصه و آمنتم فإنّ إيمانكم سوف لا يقبل.

و هذا المعنى خاصّه يتلاءم كثيرا مع الآيات السابقه التى تحدّثت عن هلاك الأقوام المتمرّدين الطاغين الذين كانوا يعيشون فى القرون الماضيه،و ابتلوا بالعذاب الإلهى و الفناء،لأنّ كفّار مكّه إذا سمعوا الكلام الذى ورد فى الآيتين السابقتين فإنّهم سيطلبون تحقّق مثل هذا الموضوع فى حقّهم،إلاّ أنّ القرآن الكريم يحذّرهم بأن لا يطلبوا مثل هذا الطلب،فإنّ العذاب إذا نزل لا يبقى لهم شىء.

و أخيرا تنهى الآيه الأخيره هذه السوره-سوره السجده-بتهديد بليغ عميق المعنى،فتقول: فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَ انْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ .

الآن،حيث لم تؤثّر فى هؤلاء البشاره و لا الإنذار،و لا هم أهل منطق و استدلال ليعرفوا اللّه سبحانه بمشاهده الآثار الإلهيّه فى خفايا الخلقه فيعبدوه،

و لیس لهم وجـدان حتّی یترنّم فی أعماقهم بنغمه التوحیـد فیسـمعونها،فأعرض عنهم،و انتظر رحمه اللّه سـبحانه،و لینتظروا عـذابه فإنّهم لا یستحقّون سواه.

اللهمّ اجعلنا ممّن یسلّم و یؤمن عند رؤیه أوّل علامات الحقّ و آیاته.

اللهمّ أبعد عنّا روح الکبر و الغرور و العناد و نجّنا منها.

اللهمّ عجلّ بنصر جند الإسلام علی جنود الکفر و الاستکبار و الاستعمار.

نهایه سوره السجده

ص:۱۴۹

سوره الأحزاب

اشاره

مدنيّه و عدد آياتها ثلاث و سبعون آيه

ص :151

سوره الأحزاب

سبب التسميه و فضلها:

هذه السوره نزلت في المدينه باتّفاق علماء الإسلام،و مجموع آياتها(٧٣) آيه،و لمّا كان جزء مهمّ من هذه السوره يتحدّث عن أحداث غزوه الأحزاب (الخندق)فإنّ هذا الاسم قد اختير لها.

و يكفي في فضل هذه السوره أن نقرأ

في حديث عن الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله: «من قرأ سوره الأحزاب و علّمها أهله...اعطى الأمان من عذاب القبر» (١) .

و

روى عن الإمام الصادق عليه السّلام: «من كان كثير القراءه لسوره الأحزاب كان يوم القيامه في جوار محمّد صلّى اللّه عليه و آله و أزواجه» (٢) .

و قد قلنا مرارا:إنّ هذه الفضائل لا تنال بالتلاوه الخاليه من الروح،و العاريه من كلّ أنواع الفكر و العمل،بل التلاوه التي تكون مبدأ للتفكّر الذي يضيء آفاق الإنسان يظهر آثاره في أعماله و سلوكه.

محتوى سوره الأحزاب:

إنّ هذه السوره من أغنى سور القرآن المجيد و أجناها ثمارا،و تتابع و تبحث

١- ١) مجمع البيان،المجلّد ٨،صفحه ٣٣٤.بدايه سوره الأحزاب.

٢- ٢) المصدر السابق.

مسائل متنوّعه و كثيره جدّا فى باب اصول الإسلام و فروعه.

و يمكن تقسيم الأبحاث التى وردت فى هذه السوره إلى سبعه أقسام:

الأوّل:بـدايه السوره التى تـدعو الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله إلى طاعه اللّه و ترك اتّباع الكافرين و مقترحات المنافقين،و تبشّره بأنّ اللّه سبحانه سيدعمه و ينصره فى مقابل استنكار هؤلاء.

الثّانى:أشار إلى بعض خرافات زمان الجاهليه،كالظهار،حيث كانوا يعتبرونه سببا للطلاق و افتراق الرجل عن امرأته،و كـذلك مسأله التبنّى،و أكّدت على بطلانها،و حصرت العلاقات و الروابط العائليه و السببيه بالروابط الواقعيه و الطبيعيه.

الثّالث:و هو أهمّ أقسام هـذه السوره،و يرتبـط بمعركه«الأحزاب»و حوادثهـا المرعبه،و انتصـار المسـلمين المعجز على الكفّـار،و إعاقات و تخرّصات و تعذّر المنافقين،و نقضهم لعهودهم،و قد بيّنت فى هذا المجال قوانين رائعه و جامعه.

الرّابع:يرتبط بزوجات النّبى،حيث يجب أن يكنّ أسوه و أنموذجا أسـمى لكلّ نساء المسـلمين،و يصـدر لهنّ فى هـذا الباب أوامر مهمّه.

الخـامس:يتطرّق إلى قصّه«زينب بنت جحش»الـتى كـانت يومـا زوجه لزيـد، و هو ابن النّبى بـالتبنّى،و افترقت عنه،فتزوّجهـا النّبى صلّى اللّه عليه و آله بأمر اللّه سبحانه،فأصبح هذا الزواج حربه بيد المنافقين،فأجابهم القرآن الجواب الكافى الشافى.

السّادس:يتحدّث عن مسأله الحجاب،و التى ترتبط بالبحوث السابقه،و يوصى كلّ النساء المؤمنات بمراعاه هذا القانون الإسلامى.

السّابع:الـذى يشـكّل الجزء الأخير،و يشير إلى مسأله المعاد المهمّه،و طريق النجاه فى ذلك الموقف العظيم،و كـذلك يشـرح و يبيّن مسأله أمانه الإنسان العظمى، أى مسأله التعهّد و التكليف و المسؤوليه.

آیات [سوره الأحزاب (٣٣): الآیات ١ الی ٣]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِ یٰا أَیُّهَا اَلنَّبِیُّ اِتَّقِ اَللّٰهَ وَ لاٰ تُطِعِ اَلْکٰافِرِینَ وَ اَلْمُنٰافِقِینَ إِنَّ اَللّٰهَ کٰانَ عَلِیماً حَکِیماً (١) وَ اِتَّبِعْ مٰا یُوحیٰ إِلَیْکَ مِنْ رَبِّکَ إِنَّ اَللّٰهَ کٰانَ بِمٰا تَعْمَلُونَ خَبِیراً (٢) وَ تَوَکَّلْ عَلَی اَللّٰهِ وَ کَفیٰ بِاللّٰهِ وَکِیلاً (٣)

سبب النّزول

لقد ذکر المفسّرون هنا أسباب نزول مختلفه،تبحث کلّها تقریبا موضوعا واحدا.

و من جملتها:إنّ هذه الآیات نزلت فی شأن أبی سفیان و بعض آخر من رؤوس الکفر و الشرک الذین أخذوا الأمان من الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله بعد معرکه أحد و دخلوا المدینه،و أتوا مع عبد اللّه بن أبی و جماعه من أصحابه،إلی النّبی صلّی اللّه علیه و آله،و قالوا:

یا محمّد،لا تذکر آلهتنا اللات و العزی و مناه بسوء و قل:إنّ لها شفاعه لمن عبدها و ندعک و ربّک،فشقّ ذلک علی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله،فقال عمر بن الخطّاب:ائذن لنا- یا رسول اللّه-فی قتلهم،

فقال النّبی صلّی اللّه علیه و آله: «إنّی أعطیتهم الأمان» و أمر فأخرجوا من المدینه و نزلت الآیه: وَ لاٰ تُطِعِ الْکٰافِرِینَ و أمرته أن لا یصغی لمثل هذه

ص:١۵۵

الاقتراحات (۱) .

التّفسير

اشاره

اتّبع الوحی الإلهی فقط:

إنّ من أخطر المنعطفات و المنحدرات التی تعترض طریق القاده الکبار قضیّه اقتراحات الصلح و التنازل و الوفاق التی تطرح من قبل المخالفین،و تضع الخطوط الملتویه و الطرق المنحرفه إلی جانب طریق القاده،و تسعی لحرفهم عن مسیرهم الأصلی،و هذا إمتحان صعب و عسیر لهؤلاء.

لقد بذل مشرکو«مکّه»و منافقو«المدینه»کلّ ما فی وسعهم لیحرّفوا الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله عن خطّ التوحید من خلال طرح مقترحات السلام و الاتّفاق،و من جملتها ما قرأناه فی سبب النّزول،إلاّ أنّ أولی آیات سوره الأحزاب نزلت فأنهت مؤامراتهم،و دعت النّبی صلّی اللّه علیه و آله إلی الاستمرار فی أسلوبه الحاسم فی خطّ«التوحید» بدون أدنی تراجع و تنازل و مسالمه.

إنّ هذه الآیات بمجموعها تأمر النّبی صلّی اللّه علیه و آله بأربعه أوامر مهمّه:

الأوّل:فی مجال التقوی،و التی تهیّء الأرضیه لکلّ برنامج آخر،فتقول:

یٰا أَیُّهَا النَّبِیُّ اتَّقِ اللّٰهَ

.

إنّ حقیقه التقوی هی ذلک الإحساس الداخلی بالمسؤولیه،و لو لا هذا الإحساس فإنّ الإنسان لا یندفع و لا یتحرّک باتّجاه أی برنامج بنّاء.

التقوی هی الهدف الأسمی للهدایه و الانتفاع بآیات اللّه،کما جاء فی الآیه الثّانیه من سوره البقره: هُدیً لِلْمُتَّقِینَ .

صحیح أنّ المرحله النهائیه للتقوی تحصل بعد الإیمان و العمل طبق أوامر اللّه

۱- ۱) مجمع البیان،ذیل الآیه مورد البحث،و تفاسیر اخری.

سبحانه،إلاّ أنّ مرحلتها الابتدائيه تقع قبل كلّ هذه المسائل،لأنّ الإنسان إذا لم يحسّ بالمسؤوليه داخليا،فإنّه لا يسعى للتحقّق من دعوه الأنبياء و التثبّت منها، و لا يصغى إليها،و حتّى مسأله(دفع الضرر المحتمل)التى عدّها علماء الكلام و العقائد أساس و دعامه السعى إلى معرفه اللّه،فإنّها فى الحقيقه فرع التقوى.

الثّانى:نفى و رفض طاعه الكافرين: وَ لاٰ تُطِعِ الْكٰافِرِينَ وَ الْمُنٰافِقِينَ و تقول الآيه فى النهايه تأكيدا لهذا الموضوع: إِنَّ اللّٰهَ كٰانَ عَلِيماً حَكِيماً فإنّه تعالى حينما يأمرك بعدم إتّباع هؤلاء،فإنّ ذلك صادر عن حكمته اللامتناهيه،لأنّه يعلم ما اخفى فى هذا الإتّباع و المهادنه من المصائب،الأليمه،و المفاسد الجمّه.

و على كلّ حال،فإنّ أوّل وظيفه بعد التقوى و الإحساس بالمسؤوليه،هى غسل القلب و تصفيته من الغير،و اقتلاع الأشواك الضارّه المؤذيه من هذه الأرض المعنويه.

الثّالث:نثر بذور التوحيد و اتّباع الوحى الإلهى،فيقول: وَ اتَّبِعْ مٰا يُوحىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ و احذر ف إِنَّ اللّٰهَ كٰانَ بِمٰا تَعْمَلُونَ خَبِيراً و بناء على هذا فإنّ الواجب الأوّل هو طرد الشياطين من أعماق الروح لتحلّ محلّها الملائكه،و أن تقلع الأشواك لتبذر محلّها الورود،و يجب أن تطهّر الأرض من الطواغيت لتخلّفهم حكومه اللّه و نظامه المقدّس.

و لمّا كانت هناك مشاكل كثيره،و تهديدات و مؤامرات،و معوّقات فى الاستمرار فى سلوك هذا الطريق،فإنّه تعالى يصدر الأمر الرابع بأن وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللّٰهِ وَ كَفىٰ بِاللّٰهِ وَكِيلاً فلو أنّ الف عدوّ يسعى لقتلك،فلا تخش و لا تخف منهم لأنّى ناصرك و معينك.

و مع أنّ المخاطب فى هذه الآيات هو النّبى صلّى اللّه عليه و آله،إلاّ أنّه خطاب لكلّ المؤمنين، و لعامّه المسلمين،و هو و صفه طبيه تمنح الحياه،و دواء لبث النشاط و الحيويه فى كلّ عصر و زمان.

ص:۱۵۷

و قال بعض المفسّرين:إنّ الخطاب ب يٰا أَيُّهَا خاصّ بالموارد التى يراد منها جلب انتباه العموم لمطلب ما،و إن كان المخاطب واحدا،بخلاف الخطاب ب(يا) و الذى يستعمل فى الموارد التى يراد منها شخص المخاطب (۱) .و لمّا كانت هذه الآيات قد بدأت ب يٰا أَيُّهَا فإنّها تؤكّد كون الهدف من هذه الآيات هو العموم.

و الشاهد الآخر للتعميم،هو أنّ جمله: إِنَّ اللّٰهَ كٰانَ بِمٰا تَعْمَلُونَ خَبِيراً قد وردت بصيغه الجمع،و إذا كان المخاطب هو النّبى صلّى اللّه عليه و آله،فينبغى أن تقول الآيه:إنّ اللّه كان بما تعمل خبيرا-.

و لا يخفى أنّ هذه الأوامر الموجّهه إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله لا تعنى أنّه كان مقصّرا فى التقوى أو أنّه يتّبع الكافرين و المنافقين،بل إنّ لهذه الأوامر صفه التأكيد على واجبات النّبى صلّى اللّه عليه و آله من جهه،و هى درس و عبره لكلّ المؤمنين من جهه اخرى.

ص :۱۵۸

۱- ۱) تفسير الفخر الرازى،المجلّد ۱۵،صفحه ۱۹۰ ذيل الآيات مورد البحث.

الآیات [سوره الأحزاب (۳۳): الآیات ۴ الی ۶]

اشاره

مَا جَعَلَ اَللّٰهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَ مٰا جَعَلَ أَزْوٰاجَكُمُ اَللاّٰئِي تُظٰاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهٰاتِكُمْ وَ مٰا جَعَلَ أَدْعِيٰاءَكُمْ أَبْنٰاءَكُمْ ذٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوٰاهِكُمْ وَ اَللّٰهُ يَقُولُ اَلْحَقَّ وَ هُوَ يَهْدِي اَلسَّبِيلَ (۴) اُدْعُوهُمْ لِآبٰائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اَللّٰهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبٰاءَهُمْ فَإِخْوٰانُكُمْ فِي اَلدِّينِ وَ مَوٰالِيكُمْ وَ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنٰاحٌ فِيمٰا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَ لٰكِنْ مٰا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَ كٰانَ اَللّٰهُ غَفُوراً رَحِيماً (۵) اَلنَّبِيُّ أَوْلىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ أَزْوٰاجُهُ أُمَّهٰاتُهُمْ وَ أُولُوا اَلْأَرْحٰامِ بَعْضُهُمْ أَوْلىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتٰابِ اَللّٰهِ مِنَ اَلْمُؤْمِنِينَ وَ اَلْمُهٰاجِرِينَ إِلاّٰ أَنْ تَفْعَلُوا إِلىٰ أَوْلِيٰائِكُمْ مَعْرُوفاً كٰانَ ذٰلِكَ فِي اَلْكِتٰابِ مَسْطُوراً (۶)

ص: ۱۵۹

التّفسير

اشاره

ادّعاءات جوفاء:

تعقيبا للآيات السابقه التى كانت تأمر النّبى صلّى اللّه عليه و آله أن يتّبع الوحى الإلهى فقط،و لا يتّبع الكافرين و المنافقين،تعكس هذه الآيات التى نحن بصددها عاقبه اتّباع هؤلاء و أنّه يدعو الإنسان إلى مجموعه من الخرافات و الأباطيل،و قد ذكرت الآيه الاولى من الآيات مورد البحث ثلاث منها،فتقول أوّلا: مٰا جَعَلَ اللّٰهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِ .

و قد ذكر جمع من المفسّرين فى سبب نزول هذا القسم من الآيه:أنّ رجلا فى الجاهليه يدعى«جميل بن معمّر»كان عجيب الحفظ،و كان يدّعى أنّ فى جوفه قلبين كلّ منهما أفهم من محمّد صلّى اللّه عليه و آله،و لذلك كان مشركو قريش يسمّونه:ذا القلبين! فلمّا كان يوم بدر و هزم المشركون،و فيهم جميل بن معمّر،تلقّاه أبو سفيان و هو آخذ بيده إحدى نعليه،و الاخرى فى رجله،فقال له:يا أبا معمّر،ما حال الناس؟ قال:انهزموا،قال:فما بالك إحدى نعليك فى يدك،و الاخرى فى رجلك؟فقال أبو معمّر:ما شعرت بذلك،و كنت أظنّهما فى رجلى،فعرفوا يومئذ أنّه لم يكن له إلاّ قلب واحد لما نسى نعله فى يده (1) .بل لم يكن يعقل و يفهم حتّى بمقدار ذى القلب الواحد.

و المراد من«القلب»فى مثل هذه الموارد«العقل».

و على كلّ حال فإنّ اتّباع الكفّار و المنافقين،و عدم اتّباع الوحى الإلهى يدعو الإنسان إلى مثل هذه الإعتقادات الخرافيه.

و بغضّ النظر عن ذلك،فإنّ للجمله معنى أعمق،و هو:أنّه ليس للإنسان إلاّ قلب واحد،و لا يحتوى هذا القلب و لا يختزن إلاّ عشق معبود واحد،و على هذا فإنّ

۱- ۱) مجمع البيان،ذيل الآيه مورد البحث،و تفسير القرطبى.

أولئك الـذين يـدعون إلى الشـرك و الآلهه المتعدّده ينبغى أن تكون لهم قلوب متعدّده،ليجعلوا كلّ واحد منها بيتا لعشق معبود واحـد! من المسـلّم أنّ شخصـيّه الإنسان السـليم شخصـيه واحـده،و خطّه الفكرى واحـد، و يجب أن يكون واحـدا فى وحـدته و اختلاـطه بـالمجتمع،فى الظـاهر و البـاطن،فى الـداخل و الخـارج،و فى الفكر و العمـل،فـإنّ كـلّ نوع من أنواع النفـاق أز ازدواج الشخصيه أمر مفروض على الإنسان و على خلاف طبيعته.

إنّ الإنسان بحكم امتلاكه قلبا واحدا يجب أن يكون له كيان عاطفى واحد، و أن يخضع لقانون واحد..

و لا يدخل قلبه إلّا حبّ معشوق واحد..

و يسلك طريقا معيّنا فى حياته،بأن يتآلف مع فريق واحد،و مجتمع واحد،و إلّا فإنّ التعدّد و التشتّت و الطرق المختلفه و الأهداف المتفرّقه ستقوده إلى اللاهدفيه و الانحراف عن المسير التوحيدى الفطرى.

و لهذا نرى

فى حـديث عن أمير المؤمنين على عليه السّـلام فى تفسـير هـذه الآـيه: «لاـ يجتمع حبّنا و حبّ عـدوّنا فى جوف إنسان،إنّ اللّه لم يجعل لرجل قلبين فى جوفه، فيحبّ بهـذا و يبغض بهـذا،فأمّا محبّنا فيخلص الحبّ لنا كما يخلص الـذهب بالنار لا كـدر فيه،فمن أراد أن يعلم فليمتحن قلبه،فإن شارك فى حبّنا حبّ عدوّنا فليس منّا و لسنا منه» (1) .

و بناء على هـذا فإنّ القلب مركز الإعتقاد الواحـد،و ينفّـذ برنامجا عمليا واحـدا، لأنّ الإنسان لا يسـتطيع أن يعتقد بشـىء حقيقه و ينفصل عنه فى العمل،و ما يـدّعى بعض المعاصـرين من أنّهم يمتلكون شخصـيات متعـدّده،و يقولون:إنّنا قـد قمنا بالعمل الفلانى سياسيا،و بذلك العمل دينيا،و الآخر اجتماعيا،و يوجّهون بذلك

۱- ۱) تفسير على بن إبراهيم،طبقا لنقل نور الثقلين،المجلّد ۴،صفحه ۲۳۴.

أفعالهم المتناقضه،فهو ناشئ من نفاقهم و سوء سريرتهم حيث يريدون أن يسحقوا بهذا الكلام قانون الخلقه.

صحيح أنّ أبعاد حياه الإنسان مختلفه،و لكن يجب أن يحكمها خطّ واحد، و تسير ضمن منهاج واحد.

ثمّ يتطرّق القرآن إلى خرافه اخرى من خرافات الجاهليه،و هی خرافه «الظهار»،حيث أنّ المشركين كانوا إذا غضبوا على نسائهم،و أرادوا أن يبدوا تنفّرهم و عدم ارتياحهم،قالوا للزوجه:أنت علىّ كظهر أمّی فيعتبرها بمثابه أمّه، و كان يعدّ هذا الكلام بمنزله الطلاق! يقول القرآن الكريم فی تتمّه هذه الآيه: وَ مٰا جَعَلَ أَزْوٰاجَكُمُ اللاّٰئِی تُظٰاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهٰاتِكُمْ فلم يمض الإسلام هذا القانون الجاهلی،و لم يصادق عليه،بل جعل عقوبه لمن يتعاطاه،و هی:أنّ من نطق بهذا الكلام فلا يحقّ له أن يقرب زوجته حتّی يدفع الكفّاره،و إذا لم يدفعها و لم يأت زوجته فإنّ لها الحقّ فی أن تستعين بحاكم الشرع ليجبره على أحد أمرين:إمّا أن يطلّقها وفقا لأحكام الإسلام و يفارقها،أو أن يكفّر و يستمرّ فی حياته الزوجيه كالسابق (۱) .

أی منطق هذا الذی تصبح فيه زوجه الإنسان بمنزله أمّه بمجرّد أن يقول لها:

أنت علىّ كظهر أمّی؟!إنّ ارتباط و علاقه الامّ و الولد علاقه طبيعيه لا تتحقّق بمجرّد الكلام مطلقا،و لذلك تقول الآيه ۲-سوره المجادله بصراحه: إِنْ أُمَّهٰاتُهُمْ إِلاَّ اللاّٰئِی وَلَدْنَهُمْ وَ إِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَراً مِنَ الْقَوْلِ وَ زُوراً .

و إذا كان هدف هؤلاء من إطلاق هذه الكلمات هو الإفتراق و الانفصال عن المرأه-(و هكذا كان فی عصر الجاهليه،حيث كانوا يقولون هذه الكلمات بدل لفظ الطلاق)-فإنّ الانفصال عن المرأه لا يحتاج إلى مثل هذا الكلام القبيح السیّء.ألا

۱- ۱) سيأتی-إن شاء اللّه تعالى-توضيح أكثر حول المسائل المرتبطه بالظهار فی ذيل الآيات المناسبه فی سوره المجادله.

یمكن أن یصرّح بالطلاق بتعبیر صحیح بعید عن كلّ ذلك القبح؟ و قال بعض المفسّرین:إنّ«الظهار»فی الجاهلیه لم یكن یؤدّی إلی انفصال الرجل عن المرأه،بل إنّه كان یجعل المرأه كالمعلّقه لا یعرف حالها و مصیرها،و إذا كانت المسأله كذلك،فإنّ جنایه هذا العمل و قبحه ستكون أوضح،لأنّ كلمه لا معنی لها كانت تحرّم علی الرجل علاقته الزوجیه مع زوجته من دون أن تكون المرأه مطلّقه (1) .

ثمّ تطرّقت الآیه إلی ثالث خرافه جاهلیه،فقالت: وَ مٰا جَعَلَ أَدْعِیٰاءَكُمْ أَبْنٰاءَكُمْ .

و توضیح ذلك:أنّه كان من المتعارف فی زمن الجاهلیه أنّهم كانوا ینتخبون بعض الأطفال كأولاد لهم،و یسمّونهم أولادهم،و بعد هذه التسمیه یعطونه كلّ الحقوق التی یستحقّها الولد من الأب،فیرث الولد من تبنّاه،كما یرث المتبنّی الولد،و یجری علیهما تحریم امرأه الأب أو زوجه الابن.

و قد نفی الإسلام هذه العادات غیر المنطقیه و الخرافیه أشدّ النفی،بل-و كما سنری-أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله أقدم-لمحو هذه السنّه المغلوطه-علی الزواج من زوجه ولده المتبنّی«زید بن حارثه»بعد أن طلّقها زید، لیتّضح من خلال هذه السنّه النبویه أنّ هذه الألفاظ الجوفاء لا یمكن أن تغیّر الحقائق و الواقع،لأنّ علاقه البنوّه و الابوّه علاقه طبیعیه لا تحصل أبدا من خلال الألفاظ و الاتّفاقیات و الشعارات.

و مع أنّنا سنقول فیما بعد:أنّ زواج النبی بزوجه زید المطلّقه قد أثار ضجّه عظیمه بین أعداء الإسلام،و أصبح حربه بیدهم للإعلام المضادّ السیء،إلاّ أنّ هذا العمل كان یستحقّ تحمّل كلّ ذلك الصخب الإعلامی لتحطیم هذه السنّه الجاهلیه، و لذلك یقول القرآن الكریم بعد هذه الجمله: ذٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوٰاهِكُمْ .

1- 1) تفسیر فی ظلال القرآن،المجلّد 6،صفحه 534،ذیل الآیه مورد البحث.

إنّكم تقولون:إنّ فلانا ولدی،و أنتم تعلمون علم الیقین أنّ الأمر لیس کذلک، فإنّ الأمواج الصوتیه فقط هی التی تخرج من أفواهکم و لا تنبع مطلقا من إعتقاد قلبی،و هذا کلام باطل لیس إلاّ وَ اللّٰهُ یَقُولُ الْحَقَّ وَ هُوَ یَهْدِی السَّبِیلَ .

إنّ«قول الحقّ»یطلق علی القول الذی ینطبق علی الواقع الموضوعی تماما،أو أن یکون من الأمور الاعتباریه التی تنسجم مع مصالح کلّ أطراف القضیّه،و نعلم أنّ مسأله«الظهار»فی الجاهلیه،أو«التبنّی»الذی کان یستحق حقوق الأبناء الآخرین إلی حدّ کبیر-لم یکونا من الموضوعات العینیه،و لا من الاعتباریات الحافظه لمصلحه عامّه الناس.

ثمّ یضیف القرآن مؤکّدا و موضّحا الخطّ الصحیح و المنطقی للإسلام: اُدْعُوهُمْ لِآبٰائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللّٰهِ .

إنّ التعبیر ب(أقسط)لا یعنی أنّهم إن دعوهم بأسماء المتبنّین لهم فإنّه عدل،و إن دعوهم بأسماء آبائهم الواقعیین فإنّه أعدل،بل-و کما قلنا سابقا مرارا-إنّ صیغه (أفعل التفضیل)تستعمل فی بعض الموارد و لا تدلّ علی الوصف المقابل لصفه ما، فمثلا نقول:من الأفضل أن یحتاط الإنسان و لا یلقی بنفسه فی الخطر،فلا یعنی هذا أنّ إلقاء النفس فی الخطر و التهلکه حسن،إلاّ أنّ الاحتیاط أفضل منه،بل إنّ المراد المقارنه بین الحسن و القبح.

و تقول الآیه لرفع الأعذار و الحجج: فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبٰاءَهُمْ فَإِخْوٰانُکُمْ فِی الدِّینِ وَ مَوٰالِیکُمْ أی إنّ عدم معرفه آبائهم لا یکون دلیلا علی أن تضعوا اسم شخص آخر کأب لهذا الابن،بل یمکنکم أن تخاطبوهم کإخوانکم فی الدین أو أصدقائکم و موالیکم.

(الموالی)جمع«مولی»،و قد ذکر المفسّرون له معانی عدیده،فالبعض فسّره هنا بمعنی الصدیق و الصاحب،و البعض الآخر بمعنی الغلام المعتق و المحرّر،لأنّ بعض الأدعیاء کانوا عبیدا یشترون ثمّ یتحرّرون،و لمّا کان أصحابهم قد اهتّموا

بهم و أحبّوهم فإنّهم كانوا يدعونهم كأبناء لهم.

و ممّا يجدر الإشاره إليه أنّ تعبير(مولى)فى مثل هذه الموارد كان يرتبط بالعبيد المحرّرين من جهه أنّهم كانوا يحتفظون بعلاقاتهم مع مالكيهم بعد تحرّرهم، تلك العلاقات التى كانت تنوب عن اولى الأرحام فى بعض الجهات من الناحيه الحقوقيه،و كانوا يعبّرون عن ذلك ب(ولاء العتق)و لذلك نقرأ فى الروايات الإسلاميه أنّ«زيد بن حارثه»بعد أن أعتقه النّبى كان يدّعى زيد بن محمّد،حتّى نزل القرآن بالأمر أعلاه،فمن ذلك الحين

قال له النّبى صلّى اللّه عليه و آله: «أنت زيد بن حارثه»، و كان الناس يدعونه بعد ذلك:مولى رسول اللّه (۱) .

و قالوا أيضا:كان لأبى حذيفه غلام يدعى«سالما»فأعتقه و ادّعاه،فلمّا نزلت هذه الآيه كانوا يسمّونه:سالما مولى أبى حذيفه (۲) .

و لكن ربّما يدعو الشخص إنسانا لغير أبيه لاعتياده ذلك سابقا،أو لسبق لسانه، أو لاشتباهه فى تشخيص نسب الأفراد،و هذا خارج عن حدود إختيار الإنسان، فإنّ اللّه العادل الحكيم لا يعاقب مثل هذا الإنسان،و لذا أردفت الآيه: وَ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنٰاحٌ فِيمٰا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَ لٰكِنْ مٰا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ (۳) وَ كٰانَ اللّٰهُ غَفُوراً رَحِيماً .

إنّه تعالى يغفر لكم ما سبق،و يعفو عن السهو و النسيان و الاشتباه،أمّا بعد نزول هذا الحكم فإنّ اللّه عزّ و جلّ سوف لا يغفر لكم مخالفتكم إن صدرت عن عمد و قصد،فتدعون أفرادا بغير أسماء آبائهم،و تستمرّون على اتّباع هذا العرف السيء بالدعوه لغير الأب.

و قال بعض المفسّرين:إنّ موضوع الخطأ يشمل الموارد التى يقول فيها

۱- ۱) روح المعانى،المجلّد ۲۱،صفحه ۱۳۱ ذيل الآيه مورد البحث.

۲- ۲) روح البيان،ذيل الآيه مورد البحث.

۳- ۳) قال المفسّرون:إنّ كلمه(ما)هنا موصوله،و هى من ناحيه الإعراب مبتدأ،و خبرها محذوف،و تقدير الجمله:لكن ما تعمّدت قلوبكم فإنّكم تؤاخذون عليه.

الإنسان لآخر تحبّبا:ولدی،أو یا بنیّ،أو یقول فیها لآخر احتراما:یا أبت! و هذا الکلام صحیح-طبعا-و هذه التعبیرات لا تعدّ ذنبا،لکن لا لأجل عنوان الخطأ،بل لأنّ لهذه التعبیرات صفه الکنایه و المجاز،و قرینتها معها عاده،و القرآن ینفی التعبیرات الحقیقیه فی هذا الباب،لا المجازیه.

ثمّ تتطرّق الآیه التالیه إلی مسأله مهمّه اخری،أی إبطال نظام«المؤاخاه» بینهم.

و توضیح ذلک:أنّ المسلمین لمّا هاجروا من مکّه إلی المدینه و قطع الإسلام کلّ روابطهم و علاقاتهم بأقاربهم و أقوامهم المشرکین الذین کانوا فی مکّه تماما،فقد أجری النّبی صلّی اللّه علیه و آله بأمر اللّه عقد المؤاخاه بینهم و عقد عهد المؤاخاه بین «المهاجرین»و«الأنصار»،و کان یرث أحدهم الآخر کالأخوین الحقیقیین،إلاّ أنّ هذا الحکم کان مؤقّتا و خاصّا بحاله استثنائیه جدّا،فلمّا اتّسع الإسلام و عادت العلاقات السابقه تدریجیّا لم تکن هناک ضروره لاستمرار هذا الحکم،فنزلت الآیه أعلاه و ألغت نظام المؤاخاه الذی کان یحلّ محلّ النسب،و جعل حکم الإرث و أمثاله مختّصا بأولی الأرحام الحقیقیین.

و بالرغم من أنّ نظام المؤاخاه کان نظاما إسلامیا-علی خلاف نظام التبنّی الذی کان نظاما جاهلیا-و لکن کان من الواجب أن یلغی بعد ارتفاع الحاله الموجبه له،و هکذا حصل،غایه ما فی الأمر أنّ الآیه قبل أن تذکر هذا الحکم ذکرت حکمین آخرین- أی کون النّبی صلّی اللّه علیه و آله أولی بالمؤمنین من أنفسهم،و کون نساء النّبی صلّی اللّه علیه و آله کامّهاتهم- کمقدّمه،فقالت: اَلنَّبِیُّ أَوْلیٰ بِالْمُؤْمِنِینَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ أَزْوٰاجُهُ أُمَّهٰاتُهُمْ .

و مع أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله بمنزله الأب،و أزواجه بمنزله امّهات المؤمنین إلاّ أنّهم لا یرثون منهم مطلقا،فکیف ینتظر أن یرث الابن المتبنّی؟! ثمّ تضیف الآیه: وَ أُولُوا الْأَرْحٰامِ بَعْضُهُمْ أَوْلیٰ بِبَعْضٍ فِی کِتٰابِ اللّٰهِ مِنَ الْمُؤْمِنِینَ

وَ الْمُهاجِرِينَ

و لكن مع ذلك،و من أجل أن لا تغلق الأبواب بوجه المسلمين تماما و ليكون بإمكان المؤمنين تعيين شيئا من الإرث لإخوانهم-و إن كان بأن يوصوا بثلث المال-فإنّ الآيه تضيف فى النهايه: إِلاّ أَنْ تَفْعَلُوا إِلىٰ أَوْلِيائِكُمْ مَعْرُوفاً .

و تقول فى آخر جمله تأكيدا لكلّ الأحكام السابقه،أو الحكم الأخير: كانَ ذٰلِكَ فِي الْكِتابِ مَسْطُوراً -فى اللوح المحفوظ أو فى القرآن الكريم-.

كان هذا خلاصه تفسير الآيه أعلاه،و الآن يجب أن نتطرّق إلى تفصيل كلّ واحد من الأحكام الأربعه التى وردت فى هذه الآيه:

۱-ما هو المراد من كون النّبى أولى بالمؤمنين؟ لقد ذكر القرآن فى هذه الآيه أولويه النّبى صلّى اللّه عليه و آله بالمسلمين بصوره مطلقه، و معنى ذلك أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله أولى بالإنسان المسلم من نفسه فى جميع الصلاحيات التى يمتلكها الإنسان فى حقّ نفسه.

و مع أنّ بعض المفسّرين فسّروها بمسأله«تدبير الأمور الاجتماعيه»،أو «الأولويه فى مسأله القضاء»،أو«طاعه الأمر»،إلاّ أنّنا فى الواقع لا نمتلك أى دليل على انحصار الآيه فى أحد هذه الأمور الثلاث.

و إذا لاحظنا فى بعض الروايات الإسلاميه تفسير الأولويه ب«الحكومه»،فهو فى الحقيقه بيان لأحد فروع هذه الأولويه (۱) .

لذلك يجب أن يقال:إنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله أولى من كلّ إنسان مسلم فى المسائل الاجتماعيه و الفرديه،و كذلك فى المسائل المتعلّقه بالحكومه و القضاء و الدعوه، و إنّ إرادته و رأيه مقدّم على إراده أى مسلم و رأيه.

و لا ينبغى العجب من هذه المسأله،لأنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله معصوم و وكيل للّه سبحانه، و لا يفكّر و يقرّر إلاّ فى صالح المجتمع و الفرد،و لا يتّبع الهوى أبدا،و لا يعتبر

۱- ۱) وردت هذه الروايات فى اصول الكافى،و كتاب علل الشرائع.راجع تفسير نور الثقلين،المجلّد ۴،صفحه ۲۳۸-۲۳۹.

مصالحه مقدّمه على مصالح الآخرين و أهمّ منها،بل على العكس من ذلك،فهو يؤثّر و يقدّم مصالح الامّه على مصالحه دائما عند تعارض المصلحتين.

إنّ هذه الأولويه فرع من أولويه المشيئه الإلهيّه،لأنّ كلّ ما لدينا من اللّه سبحانه.إضافه إلى أنّ الإنسان لا يصل إلى أوج الإيمان إلّا عند ما يضحّي بأقوى العلائق و الدوافع فيه،و هو عشقه لذاته في طريق عشقه لذات اللّه و خلفائه،و لذلك نقرأ

في حديث: «لا يؤمن أحدكم حتّى يكون هواه تبعا لما جئت به» (۱) .

و

جاء في حديث آخر: «و الذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتّى أكون أحبّ إليه من نفسه و ماله و ولده و الناس أجمعين» (۲) .

و كذلك

روي عنه صلّى اللّه عليه و آله: «ما من مؤمن إلّا و أنا أولى الناس به في الدنيا و الآخره» (۳) .

و يقول القرآن الكريم في الآيه(۳۶)من سوره الأحزاب هذه: مٰا كٰانَ لِمُؤْمِنٍ وَ لاٰ مُؤْمِنَهٍ إِذٰا قَضَى اللّٰهُ وَ رَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَهُ مِنْ أَمْرِهِمْ .

و نؤكّد مرّه اخرى على أنّ هذا الكلام لا يعني أنّ اللّه قد جعل أمر الناس تبعا لأهواء و رغبات شخص ما،بل من جهه أنّ للنّبي صلّى اللّه عليه و آله مقام العصمه،و بمصداق: مٰا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوىٰ إِنْ هُوَ إِلاّٰ وَحْيٌ يُوحىٰ فإنّ كلّ ما يقوله هو كلام اللّه و من اللّه، و هو أحرص و أرحم حتّى من الأب بهذه الامّه.

إنّ هذه الأولويه في الحقيقه تقع في مسير منافع الناس في جوانب الحكومه و تدبير المجتمع الإسلامي،و كذلك في المسائل الشخصيه و الفرديه.

و يتبيّن من هذه الأدلّه أنّ هذه الأولويه تضع على عاتق النّبي صلّى اللّه عليه و آله مسئوليات ثقيله ضخمه،و لذلك نقرأ في الروايه المشهوره الوارده في مصادر الشيعه و السنّه،

۱- ۱) تفسير في ظلال القرآن،ذيل الآيات مورد البحث.

۲- ۲) المصدر السابق.

۳- ۳) صحيح البخاري،المجلّد ۶،صفحه ۱۴۵ تفسير سوره الأحزاب،و مسند أحمد،الجزء ۲،صفحه ۳۳۴.

أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله قال: «أنا أولى بكلّ مؤمن من نفسه،و من ترك مالا فللوارث،و من ترك دينا أو ضياعا فإلىّ و علىّ» (۱) .

ينبغى الالتفات إلى أنّ«الضياع»هنا بمعنى الأولاد أو العيال الذين بقوا بدون معيل،و التعبير ب«الدّين»قبلها قرينه واضحه على هذا المعنى،لأنّ المراد بقاء الدّين بدون مال يسدّد به.

۲-الحكم الثّانى فى هذا الباب يتعلّق بأزواج النّبى حيث يعتبرن كامّهات لكلّ المؤمنين،و هى طبعا أمومه معنويه و روحيه،كما أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله أب روحى و معنوى للأمّه.

إنّ تأثير هذا الارتباط المعنوى كان منحصرا فى مسأله حفظ احترام أزواج النّبى و حرمه الزواج منهنّ،كما جاء الحكم الصريح بتحريم الزواج منهنّ بعد وفاه النّبى صلّى اللّه عليه و آله فى آيات هذه السوره،و إلاّ فليس لهذه العلاقه أدنى أثر من ناحيه الإرث و سائر المحرّمات النسبيه و السببيه،أى إنّ المسلمين كان من حقّهم أن يتزوّجوا بنات النّبى،فى حين أنّ أىّ أحد لا يستطيع الزواج من ابنه امّه.و كذلك مسأله كونهنّ أجنبيات،و عدم جواز النظر إليهن إلاّ للمحارم.

فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام: «إنّ امرأه قالت لعائشه:يا امّه!فقالت:

لست لك لامّ إنّما أنا أمّ رجالكم» (۲) و هو إشاره إلى أنّ الهدف من هذا التعبير هو حرمه التزويج،و هذا صادق فى رجال الامّه فقط.

و ثمّه مسأله مطروحه،و هى احترامهنّ و تعظيمهنّ-كما قلنا-إضافه إلى قضيّه عدم الزواج،و لذلك فإنّ نساء المسلمين كنّ قادرات على مخاطبه نساء النّبى

ص:۱۶۹

۱- ۱) نقل هذا الحديث عن الإمام الصادق عليه السّلام عن النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله فى وسائل الشيعه،الجزء ۷،صفحه ۵۵۱،و ورد هذا المضمون بتفاوت يسير فى تفسير القرطبى،و روح المعانى فى ذيل الآيات مورد البحث،و ورد أيضا فى صحيح البخارى، المجلّد ۶،صفحه ۱۴۵ تفسير سوره الأحزاب.
۲- ۲) مجمع البيان،و روح المعانى،ذيل الآيات مورد البحث.

بالامّ بعنوان احترامهنّ.

و الشاهد لهذا القول،أنّ القرآن الكريم يقول: اَلنَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ و هذا يعنى أولويه النّبى بكلّ النساء و الرجال،و ضمير الجمله التاليه يعود إلى هذا العنوان الواسع المعنى،و لذلك نقرأ فى العباره التى نقلت عن«امّ سلمه»- و هى من أزواج النّبى صلّى اللّه عليه و آله-أنّها قالت:أنا امّ الرجال منكم و النساء (۱) .

و هنا يطرح سؤال،و هو:هل أنّ تعبير وَ أَزْواجُهُ أُمَّهاتُهُمْ يتناقض مع ما ورد فى الآيه(۲)من سوره المجادله: اَلَّذِينَ يُظاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسائِهِمْ ما هُنَّ أُمَّهاتِهِمْ إِنْ أُمَّهاتُهُمْ إِلاَّ اللاّئِي وَلَدْنَهُمْ وَ إِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَراً مِنَ الْقَوْلِ وَ زُوراً فكيف تعتبر نساء النّبى-و الحال هذه-امّهات المسلمين و لم يولدوا منهنّ؟ و ينبغى فى الإجابه على هذا السؤال الالتفات إلى أنّ مخاطبه امرأه ما بالامّ إمّا أن تكون من الناحيه الجسميه أو الروحيه..

فأمّا من الناحيه الجسميه:فإنّ هذه المخاطبه تكون واقعيه فى حاله كون الإنسان مولودا منها فقط،و هذا هو الذى جاء فى الآيات السابقه بأنّ الامّ الجسميه للإنسان هى التى تلده فقط.

و أمّا الأب أو الامّ الروحيين،فهو الذى له حقّ معنوىّ على الإنسان كالنّبى صلّى اللّه عليه و آله الذى يعتبر الأب الروحى للامّه،و لأجله اكتسبت أزواجه منزله و احترام الامّ.

و الإشكال الذى كان يوجّه إلى عرب الجاهليه فى مورد«الظهار»أنّهم عند ما كانوا يخاطبون أزواجهم بخطاب الامّ فمن المسلّم أنّ مرادهم ليس الامّ المعنويه، بل المقصود أنّهنّ كالامّ الجسميه،و لذلك كانوا يعدّونه نوعا من الطلاق،و نعلم أنّ الامّ الجسميه لا تتحقّق بمجرّد الألفاظ،بل إنّ شرط ذلك الولاده الجسميه،و بناء على هذا فإنّ كلامهم كان منكرا و زورا.

۱- ۱) روح المعانى،ذيل الآيات مورد البحث.

أمّا فی مورد أزواج النّبی صلّی اللّه علیه و آله،فبالرغم من أنّهنّ لسن امّهات جسمیا،إلاّ أنّهنّ امّهات روحیات اکتسابا من مقام و احترام النّبی صلّی اللّه علیه و آله و لهنّ وجوب الاحترام کأمّهات.و إذا رأینا القرآن قد حرّم الزواج من أزواج النّبی صلّی اللّه علیه و آله فی الآیات القادمه،فإنّ ذلک شأن آخر من شؤون احترامهنّ و احترام النّبی صلّی اللّه علیه و آله کما سیأتی توضیح ذلک بصوره مفصّله إن شاء اللّه تعالی.

و هناک نوع ثالث من الامّهات فی الإسلام و هی الامّ المرضعه،و التی أشیر إلیها فی الآیه(۲۳)من سوره النساء: وَ أُمَّهاتُکُمُ اللاّتِی أَرْضَعْنَکُمْ إلاّ أنّها فی الحقیقه فرع من فروع الامّ الجسمیه.

۳-الحکم الثالث:مسأله أولویه أولی الأرحام فی الإرث بالنسبه إلی الآخرین،لأنّ قانون الإرث فی بدایه الإسلام-حیث قطع المسلمون علاقتهم بأقوامهم و أقاربهم علی أثر الهجره-نظّم علی أساس الهجره و المؤاخاه،أی أنّ المهاجرین کانوا یرثون بعضهم من بعض أو مع الأنصار الذین تآخوا معهم و لکن لم تکن هناک ضروره للاستمرار علیه بعد توسّع الإسلام و إعاده کثیر من العلاقات القومیه و الرحمیه السابقه نتیجه إسلام أقوامهم-(و ینبغی الالتفات إلی أنّ سوره الأحزاب قد نزلت فی السنه الخامسه للهجره،و هی سنه«حرب الأحزاب»)لذلک ثبّتت أولویه أولی الأرحام بالنسبه إلی الآخرین.

و هناک قرائن علی أنّ المراد من الأولویه هنا هی الأولویه الإلزامیه لا الاستحبابیه،لأنّ إجماع علماء الإسلام علی هذا المعنی،إضافه إلی الروایات الکثیره الوارده فی المصادر الإسلامیه،و التی تثبت هذا الموضوع.

و یجب هنا الالتفات إلی هذه المسأله بدقّه،و هی:أنّ هذه الآیه بصدد بیان أولویه اولی الأرحام فی مقابل الأجانب،لا بیان أولویه طبقات الإرث الثلاث بالنسبه إلی بعضها البعض،و بتعبیر آخر،فإنّ المفضّل علیهم هنا هم المؤمنون و المهاجرون الذین ورد ذکرهم فی متن القرآن: مِنَ الْمُؤْمِنِینَ وَ الْمُهاجِرِینَ .

بنـاء على هـذا فإنّ مفهوم الآيه يصبح:إنّ أولى الأرحام أولى من الأجانب من ناحيه الإرث،أمّا كيف يرث هؤلاء الأرحام؟و على أى أساس و معيار؟فإنّ القرآن سكت عن ذلك فى هذا الموضع،مع أنّه بحث الموضوع مفصّلا فى آيات سوره النساء (١) .

۴-الحكم الرّابع الـذى ورد فى الآـيه أعلاـه كاسـتثناء،هو اسـتفاده و انتفاع الأصـدقاء و الأفراد المعينين الـذين يخصّـهم الأمر من الأـموال الـتى يتركهـا الإنسـان كـذكرى،و الـذى بيّن بجمله: إِلاّـ أَنْ تَفْعَلُـوا إِلىٰ أَوْلِيـٰائِكُمْ مَعْرُوفاً و مصـداقه الواضـح هـو حكم الوصيّه،حيث يستطيع الإنسان أن يتصرّف فى ثلث أمواله و يضعه حيث يشاء،أو يوصى به لمن يشاء.

و بهذا فإنّ الإسـلام عند ما وضع أساس الإرث على دعامه القرابه و الرحم بدل الروابط و العلاقات السابقه،لم يقطع وشائج الصله بين الإنسان و رفقائه الذين يعزّهم و باقى إخوته المسـلمين تماما،فالإنسان حرّ فى التصرّف فى ماله من ناحيه الكميّه و الكيفيّه،إلاّ أنّ هـذه الحريه مشروطه بأن لا تزيـد على الثلث،و من الطبيعى أنّ الإنسان إذا لم يوص بشـىء فإنّ كلّ أمواله تقسّم بين أقاربه و ذوى رحمه طبقا لقانون الإرث،و لا يترك له ثلث فى هذه الحاله (٢) .

---

١ – ١) بنـاء على هـذا،فـإنّ اسـتدلال بعض الفقهـاء بهـذا التعبير على أولويه طبقـات الإـرث بالنسـبه إلى بعضـها البعض لاـ يبـدو صحيحـا،و ربّما سبّب حرف الباء فى(أولى ببعض)مثل هـذا الاشـتباه،فظنّوا أنّ المفضّل عليهم هنا هم البعض،فى حين أنّ القرآن الكريم ذكر صـريحا أنّ المفضّل عليهم هم من المؤمنين و المهاجرين. نعم..إنّ تعبير(أولو الأرحام)لا يستطيع أن يشعر بمفرده أنّ المعيار هو الرحم و القرابه،و أنّ درجه القرابه كلّما قويت و ارتفعت فستكون أحقّ بالتقدّم-لاحظوا ذلك-.

٢ – ٢) يعتقد جمع من المفسّـرين أنّ الاسـتثناء فى جمله(إلاّ أن تفعلوا..)استثناء منقطع،لأنّ حكم الوصيّه غير حكم الإرث، و لكنّا نعتقد أن لا مانع من أن يكون الاسـتثناء هنا متّصـلا،لأنّ جمله(و أولو الأرحام...)دليل على أن الأقارب أولى من الأجانب بالنسـبه إلى الأموال التى يتركها الميّت،إلاّ أن يكون قد أوصـى،فإنّ الموصـى له يكون حينئذ أولى من الأرحام فى إطار الثلث،و هذا فى الحقيقه شبيه بالاستثناءات التى وردت فى آيات الإرث بصيغه(من بعد وصيّه...).

ملاحظه

وردت روایات کثیره عن أئمّه أهل البیت علیهم السّلام فی تفسیر الآیه أعلاه فیما یتعلّق بأولی الأرحام،حیث فسّرت هذه الآیه فی بعض منها بمسأله«إرث الأموال»،کما هو المعروف بین المفسّرین،فی حین فسّرت فی البعض الآخر بمسأله«إرث الخلافه و الحکومه»فی آل النّبی صلّی اللّه علیه و آله و أئمّه أهل البیت علیهم السّلام.

و من جملتها ما نقرؤه

فی حدیث عن الإمام الصادق علیه السّلام حینما سئل عن تفسیر هذه الآیه،أنّه قال:«نزلت فی ولد الحسین علیه السّلام»..قیل:فی المواریث؟قال:«لا، نزلت فی الإمره» (1) .

من البدیهی أنّه لیس المراد من هذه الأحادیث نفی مسأله إرث الأموال،بل المراد لفت الانتباه إلی أنّ للإرث معنی واسعا یشمل إرث الأموال و إرث الولایه و الخلافه.

و لیس لهذا التوارث أی وجه شبه مع مسأله توارث السلطنه فی سلسله الملوک و السلاطین،فإنّ التوارث هنا نتیجه للأهلیه و اللیاقه،و لذلک فإنّه یشمل من بین أولاد الأئمّه من کانت له هذه الأهلیه،و یشبه تماما ما یریده إبراهیم علیه السّلام من اللّه سبحانه لذریّته،فیقول اللّه له:إنّ الإمامه و الولایه لا تنال الظالمین،بل هی خاصّه بالطاهرین لاٰ یَنٰالُ عَهْدِی الظّٰالِمِینَ .

و یشبه أیضا ما نقوله فی الزیارات أمام قبور الشهداء فی سبیل اللّه،و من جملتها ما نقوله أمام قبر الإمام الحسین علیه السّلام:

السّلام علیک یا وارث آدم،و وارث نوح،و وارث إبراهیم،و وارث موسی و عیسی و محمّد... فإنّ هذا الإرث فی الجوانب العقائدیه و الأخلاقیه و المعنویه و الروحیه.

۱- ۱) أخرج هذه الأحادیث العلاّمه السیّد هاشم البحرانی فی تفسیر البرهان،المجلّد ۳،صفحه ۲۹۲-۲۹۳،و من جملتها الحدیث أعلاه،و الحدیث(۱۶)من سلسله الأحادیث هذه.

الآيتان [سوره الأحزاب (۳۳): الآيات ۷ الى ۸]

اشاره

وَ إِذْ أَخَذْنا مِنَ اَلنَّبِيِّينَ مِيثاقَهُمْ وَ مِنْكَ وَ مِنْ نُوحٍ وَ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى وَ عِيسَى اِبْنِ مَرْيَمَ وَ أَخَذْنا مِنْهُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً (۷) لِيَسْئَلَ اَلصّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَ أَعَدَّ لِلْكافِرِينَ عَذاباً أَلِيماً (۸)

التّفسير

اشاره

ميثاق اللّه الغليظ:

لمّا كانت الآيات السابقه قد بيّنت الصلاحيات الواسعه للرسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله تحت عنوان(النّبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم)فإنّ هذه الآيات تبيّن واجبات النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سائر الأنبياء العظام الثقيله العظيمه،لأنّا نعلم أنّ الصلاحيات تقترن دائما بالمسؤوليات،و حيثما وجد«حقّ»كان إلى جانبه«تكليف»و مسئوليه،فإنّ هذين الأمرين لا يفترقان أبدا.بناء على هذا فإنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله إن كان له حقّ و صلاحيه واسعه،فإنّ عليه فى المقابل مسئوليات ضخمه.

تقول الآيه الأولى: وَ إِذْ أَخَذْنا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثاقَهُمْ وَ مِنْكَ وَ مِنْ نُوحٍ وَ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى وَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَ أَخَذْنا مِنْهُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً و على هذا فإنّها تذكر أوّلا جميع الأنبياء فى مسأله الميثاق،ثمّ تخصّ بالذكر منهم خمسه أنبياء هم أولو

العزم،و على رأسهم نبىّ الإسلام صلّى اللّه عليه و آله لعظمته و جلالته و شرفه،و بعده الأنبياء الأربعه من أولى العزم حسب ترتيب ظهورهم،و هم:«نوح و إبراهيم و موسى و عيسى»عليهم السّلام.

و هذا يوحى بأنّ الميثاق المذكور كان ميثاقا عامّا أخذ من جميع الأنبياء،و إن كان أولو العزم متعهّدين بذلك الميثاق و مسئولين عنه بصوره أشدّ.ذلك الميثاق الذى بيّن بتأكيد شديد جدّا بجمله: وَ أَخَذْنا مِنْهُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً (۱) .

المهمّ أن نعلم أىّ ميثاق هذا الذى أخذ من كلّ الأنبياء؟!للمفسّرين هنا أقوال مختلفه يمكن القول أنّها جميعا فروع مختلفه لأصل واحد،و هو تأديه مسئوليه التبليغ و الرساله و القياده و هدايه الناس فى كلّ الأبعاد و المجالات.

إنّ الأنبياء كانوا مكلّفين جميعا بدعوه كلّ البشر إلى التوحيد قبل كلّ شىء،و كانوا مكلّفين أيضا بأن يؤيّد بعضهم بعضا،كما أنّ الأنبياء اللاحقين يصدّقون و يؤكّدون صحّه دعوه الأنبياء السابقين. و الخلاصه:أن تكون الدعوه إلى جهه واحده،و أن يبلغ الجميع حقيقه واحده،و يوحّدوا الأمم تحت رايه واحده.

و يمكن ملاحظه الشاهد على هذا الكلام فى سائر آيات القرآن أيضا،فنقرأ فى الآيه(۸۱)من سوره آل عمران: وَ إِذْ أَخَذَ اللّٰهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ لَما آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتابٍ وَ حِكْمَهٍ ثُمَّ جاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِما مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَ لَتَنْصُرُنَّهُ قالَ أَ أَقْرَرْتُمْ وَ أَخَذْتُمْ عَلىٰ ذٰلِكُمْ إِصْرِى قالُوا أَقْرَرْنا قالَ فَاشْهَدُوا وَ أَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشّاهِدِينَ .

و ورد نظير هذا المعنى فى الآيه(۱۸۷)من سوره آل عمران،حيث تقول بصراحه: وَ إِذْ أَخَذَ اللّٰهُ مِيثاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنّاسِ وَ لا تَكْتُمُونَهُ و على هذا فإنّ اللّه سبحانه قد أخذ الميثاق المؤكّد من الأنبياء بأن يدعوا الناس إلى توحيد اللّه،و توحيد دين الحقّ و الأديان السماويه،و كذلك أخذه من علماء أهل

۱- ۱) الميثاق-كما يقول الراغب فى مفرداته-هو العقد المؤكّد بيمين و عهد،و بناء على هذا فإن ذكر(غليظا)فى الآيه تأكيد يضاف على هذا المعنى.

الكتاب بأن لا يقصّروا فى تبيان الدين الإلهى بكلّ ما فى وسعهم،و أن لا يكتموا ذلك أبدا.

و تبين الآيه التاليه الهدف من بعثه الأنبياء و الميثاق الغليظ الذى أخذ منهم، فتقول: لِيَسْئَلَ الصّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَ أَعَدَّ لِلْكافِرِينَ عَذاباً أَلِيماً .

للمفسّرين تفسيرات كثيره لكلمه«الصادقين»،و من هم المقصودون بها؟و أىّ سؤال هذا السؤال؟إلاّ أنّ الذى يبدو منسجما مع آيات هذه السوره و آيات القرآن الاخرى،هو:أنّ المراد منهم المؤمنون الذين صدّقوا ادّعاءهم بالعمل،و أثبتوا صدقه بترجمته عمليّا،و بتعبير آخر:فإنّهم خرجوا من ساحه الاختبار و الامتحان الإلهى مرفوعى الرؤوس.

و الشاهد لهذا القول:

أوّلا:إنّ«الصادقين»هنا وضعوا فى مقابل الكافرين،فيستفاد هذا المعنى بوضوح من قرينه المقابله.

ثانيا:نقرأ فى الآيه(٢٣)من هذه السوره: مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللّهَ عَلَيْهِ ثمّ تقول الآيه(٢۴)مباشره: لِيَجْزِيَ اللّهُ الصّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَ يُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ إِنْ شاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ .

ثالثا:عرّفت الآيه(١۵)من سوره الحجرات،و الآيه(٨)من سوره الحشر (الصادقين)جيّدا،ففى آيه الحجرات نقرأ: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللّهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتابُوا وَ جاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أُولئِكَ هُمُ الصّادِقُونَ .

و تقول آيه الحشر: لِلْفُقَراءِ الْمُهاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَ أَمْوالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللّهِ وَ رِضْواناً وَ يَنْصُرُونَ اللّهَ وَ رَسُولَهُ أُولئِكَ هُمُ الصّادِقُونَ .

و بهذا يتّضح أنّ المراد من الصادقين:هم الذين أثبتوا صدقهم و إخلاصهم فى ميادين حمايه دين اللّه و الجهاد و الثبات و الصمود أمام المشاكل و بذل الأرواح

و الأموال (۱) .

أمّا ما هو المراد من سؤال الصادقين عن صدقهم؟فيتّضح بملاحظه ما قلناه آنفا أنّ المراد هو:هل يثبتون إخلاص نيّتهم فى أعمالهم و يصدقون فى ادّعائهم..فى الإنفاق و الجهاد و الثبات أمام الصعاب و المشاكل،و خاصّه صعوبات ميدان الحرب،أم لا؟ و أين سأل هذا السؤال؟ظاهر الآيه أنّه فى القيامه،فى محكمه العدل الإلهيّه، و آيات القرآن العديده أيضا تخبر عن وقوع مثل هذا السؤال فى القيامه بصوره عامّه.

إلاّ أنّه يحتمل أيضا أن يكون لهذا السؤال جانب عملى و يقع فى الدنيا،حيث يخضع كلّ من يدّعى الإيمان للسؤال عن بعثه الأنبياء،و عمله هو الجواب على هذا السؤال،لأنّه سيقرّر فيما إذا كان صادقا فى ادّعائه.

۱- ۱) احتمل جمع من المفسّرين احتمالا آخر فى معنى هذه الآيه،و هو أنّ المراد من«الصادقين»هنا هم الأنبياء،حيث يسألون يوم القيامه عن مدى قيامهم و وفائهم بعهدهم و ميثاقهم؟إلاّ أنّ الشواهد الثلاثه التى ذكرناها أعلاه تنفى هذا التّفسير. و احتمل أيضا أن يكون المراد أعمّ من الأنبياء و المؤمنين،إلاّ أنّ التّفسير الذى ذكر أعلاه أكثر انسجاما مع آيات هذه السوره و سائر آيات القرآن.

الآيات [سوره الأحزاب (٣٣): الآيات ٩ الى ١١]

اشاره

يا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا اُذْكُرُوا نِعْمَهَ اَللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْها وَ كانَ اَللّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً (٩) إِذْ جاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَ مِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَ إِذْ زاغَتِ اَلْأَبْصارُ وَ بَلَغَتِ اَلْقُلُوبُ اَلْحَناجِرَ وَ تَظُنُّونَ بِاللّهِ اَلظُّنُونَا (١٠) هُنالِكَ اُبْتُلِيَ اَلْمُؤْمِنُونَ وَ زُلْزِلُوا زِلْزالاً شَدِيداً (١١)

التّفسير

اشاره

الامتحان الإلهى العظيم فى مواجهه الأحزاب:

تتحدّث هذه الآيات و الآيات الاخرى التاليه،و التى تشكّل بمجموعها سبع عشره آيه،عن أعسر الامتحانات و الاختبارات الإلهيه للمؤمنين و المنافقين، و اختبار مدى صدقهم فى العمل،الذى بحث فى الآيات السابقه.

إنّ هذه الآيات تبحث أحد أهمّ حوادث تاريخ الإسلام،أى عن«معركه الأحزاب»،تلك المعركه التى كانت فى الواقع نقطه انعطاف فى تاريخ الإسلام، و قلبت موازين القوى بين الإسلام و الكفر لصالح المسلمين،و كان ذلك النصر مفتاحا للانتصارات المستقبليه العظيمه،فقد انقصم ظهر الأعداء فى هذه الغزوه،

و لم يقدروا بعد ذلك على القيام بأىّ عمل مهمّ.

إنّ حرب الأحزاب-و كما يـدلّ عليها اسـمها-كانت مجابهه شامله من قبل عامّه أعـداء الإسـلام و الفئات المختلفه التى تعرّضـت مصالحها و منافعها اللامشروعه للخطر نتيجه توسّع و انتشار هذا الدين.

لقد اشعلت أوّل شراره للحرب من قبل يهود«بنى النظير»الذين جاؤوا إلى مكّه و أغروا«قريش»بحرب النّبى صلّى اللّه عليه و آله،و وعدوهم بأن يساندوهم و يقفوا إلى جانبهم حتّى النفس الأخير،ثمّ أتوا قبيله«غطفان»و هيّئوهم لهذا الأمر أيضا.

ثمّ دعت هـذه القبائل حلفاءها كقبيله«بنى أسـد»و«بنى سـليم»،و لمّا كان الجميع قـد أحسّ بالخطر فإنّهم اتّحدوا و اتّفقوا على أن يقضوا على الإسـلام إلى الأبد،و يقتلوا النّبى صـلّى اللّه عليه و آله،و يقضوا على المسـلمين،و يغيروا على المدينه و يطفئوا مشـعل الإسلام و نوره.

أمّا المسـلمون الذين رأوا أنفسهم أمام هذا الجحفل الجرّار،فإنّهم اجتمعوا للتشاور بأمر النّبى صلّى اللّه عليه و آله،و قبل كلّ شىء أخذوا برأى«سلمان الفارسى»و حفروا حول المدينه خندقا حتّى لا يستطيع العدو عبوره بسهوله و يهجم على المدينه، و لهذا كان أحد أسماء هذه المعركه«معركه الخندق».

لقـد مرّت لحظات صـعبه و خطره جـدّا على المسـلمين،و كـانت القلوب قـد بلغت الحنـاجر،و كان المنافقون من جهه أخرى قد شمّروا عن السواعـد و جـدّوا فى تآمرهم على الإسـلام،و كـذلك ضـخامه عـدد الأعـداء و قلّه عـدد المسـلمين-(ذكروا أنّ عدد الكفّـار كـان عشـره آلاـف،أمّـا المسـلمون فكـانوا ثلاـثه آلاـف)و اسـتعداد الكفّـار مـن نـاحيه المعـدّات الحربيـه و تهيئـه كـافّه المستلزمات،كلّ ذلك قد رسم صوره كالحه للمصير المجهول فى أعين المسلمين.

إلاّ أنّ اللّه سـبحانه أراد أن ينزل هنا آخر ضـربه بالكفر،و يميّز صفّ المنافقين عن صـفوف المسلمين،و يفضح المتآمرين،و يضع المسلمين الحقيقيين فى موضع

الاختبار العسير.

و أخيرا انتهت هذه الغزوه بانتصار المسلمين-كما سيأتى تفصيل ذلك-فقد هبّت بأمر اللّه عاصفه هو جاء اقتلعت خيام الكفّار و أتلفت وسائلهم،و ألقت فى قلوبهم الرعب الشديد،و أرسل سبحانه قوى الملائكه الغيبيه لعون المسلمين.

و قد أضيف إلى ذلك تجلّى قدره و عظمه أمير المؤمنين على عليه السّلام أمام عمرو بن عبد ودّ،فلاذ المشركون بالفرار من دون القدره على القيام بأىّ عمل.

نزلت الآيات السبع عشره من هذه السوره،و استطاعت بتحليلاتها الدقيقه و الفاضحه أن تستفيد من هذه الحادثه المهمّه من أجل انتصار الإسلام النهائى و قمع المنافقين بأفضل وجه.

كان هذا عرضا لمعركه الأحزاب التى وقعت فى السنه الخامسه للهجره (۱) ،و من هنا نتوجّه إلى تفسير الآيات و نؤجّل سائر جزئيات هذه الغزوه إلى بحث الملاحظات.

يلخّص القرآن الكريم هذه الحادثه فى آيه واحده أوّلا،ثمّ يتناول تبيان خصوصياتها فى الستّ عشره آيه الاخرى،فيقول: يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللّٰهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جٰاءَتْكُمْ جُنُودٌ (كثيره جدا) فَأَرْسَلْنٰا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهٰا وَ كٰانَ اللّٰهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ بَصِيراً و يعلم أعمال كلّ جماعه و ما قامت به فى هذا الميدان الكبير.

و هنا جمله مطالب تستحقّ الدقّه:

۱-إنّ تعبير(اذكروا)يوحى بأنّ هذه الآيات نزلت بعد انتهاء الحرب و مضى فتره من الزمن أتاحت للمسلمين أن يحلّلوا فى عقولهم و أفكارهم ما كانوا قد رأوه ليكون التأثير أعمق.

۱- ۱) ما ذكرناه أعلاه كان اختصارا لبحث مفصّل أورده المؤرخّون،و من جملتهم ابن الأثير فى الكامل.

۲-إنّ التعبير ب«الجنود»إشاره إلى مختلف الأحزاب الجاهليه كقريش و غطفان و بنى سليم و بنى أسد و بنى فزاره و بنى أشجع و بنى مرّه،و كذلك إلى طائفه اليهود فى داخل المدينه.

۳-إنّ المراد من جُنُوداً لَمْ تَرَوْهٰا و التى نزلت لنصره المسلمين،هو «الملائكه»التى ورد نصرها للمؤمنين فى غزوه بدر فى القرآن المجيد بصراحه، و لكن كما بيّنا فى ذيل الآيه(۹)من سوره الأنفال،فإنّا لا نمتلك الدليل على أنّ هذه الجنود الإلهيه اللامرئيه نزلت إلى الميدان و حاربت،بل إنّ القرائن الموجوده تبيّن أنّ الملائكه نزلت لرفع معنويات المؤمنين و شدّ عزيمتهم و إثاره حماسهم (۱) .

و تقول الآيه التاليه تجسيدا للوضع المضطرب فى تلك المعركه،و قوّه الأعداء الحربيه الرهيبه،و القلق الشديد لكثير من المسلمين: إِذْ جٰاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَ مِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَ إِذْ زٰاغَتِ الْأَبْصٰارُ وَ بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنٰاجِرَ وَ تَظُنُّونَ بِاللّٰهِ الظُّنُونَا .

يعتقد كثير من المفسّرين أنّ كلمه(فوق)فى هذه الآيه إشاره إلى الجانب الشرقى للمدينه،و هو المكان الذى دخلت منه قبيله غطفان،و(أسفل)إشاره إلى غربها حيث دخلت منه قريش و من معها.

إذا لا حظنا أنّ«مكّه»تقع فى جنوب المدينه تماما،فمن الطبيعى أنّ قبائل المشركين أتت من الجنوب،لكن ربّما كان وضع الطريق و مدخل المدينه فى حاله بحيث إنّ هؤلاء قد داروا قليلا حول المدينه و دخلوا من الغرب.و على كلّ حال فإنّ الجمله أعلاه إشاره إلى محاصره هذه المدينه من قبل مختلف أعداء الإسلام.

إنّ جمله زٰاغَتِ الْأَبْصٰارُ -بملاحظه أن«زاغت»من مادّه الزيغ، أى الميل إلى جانب واحد-إشاره إلى الحاله التى يشعر بها الإنسان عند الخوف و الاضطراب،حيث تميل عيناه إلى جهه واحده،و تتسمّر و تثبت على نقطه معيّنه،

۱- ۱) لمزيد الإيضاح فى هذا الباب راجع التّفسير الأمثل ذيل الآيه(۹)من سوره الأنفال.

و يبقى متحيّرا حينذاك.

و جمله بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنٰاجِرَ كنايه جميله عن حاله القلق و الاضطراب،و إلاّ فإنّ القلب المادّى لا يتحرّك من مكانه مطلقا،و لا يصل فى أى وقت إلى الحنجره.

و جمله وَ تَظُنُّونَ بِاللّٰهِ الظُّنُونَا إشاره إلى أنّ بعض المسلمين كانوا قد خطرت على أفكارهم ظنون خاطئه،لأنّهم لم يكونوا قد وصلوا بعد إلى مرحله الكمال فى الإيمان،و هؤلاء هم الذين تقول عنهم الآيه التاليه:إنّهم زلزلوا زلزالا شديدا.

ربّما كان بعضهم يفكّر و يظنّ بأنّنا سننهزم فى نهايه المطاف،و ينتصر جيش العدوّ بهذه القوّه و العظمه،و قد حانت نهايه عمر الإسلام،و أنّ و عود النّبى صلّى اللّه عليه و آله بالنصر سوف لا تتحقّق مطلقا.

من الطبيعى أنّ هذه الأفكار لم تكن عقيده راسخه،بل كانت وساوس حدثت فى أعماق قلوب البعض،و هذا شبيه بما ذكره القرآن فى معركه أحد،حيث يقول:

وَ طٰائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللّٰهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجٰاهِلِيَّةِ . (۱)

و لا شكّ أنّ المخاطب فى هذه الآيه محل البحث هم المؤمنون،و جمله يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا التى وردت فى الآيه السابقه دليل واضح على هذا المعنى،و ربّما لم يلتفت الذين اعتبروا المنافقين هم المخاطبون هنا إلى هذه المسأله،أو لعلّهم ظنّوا أنّ مثل هذه الظنون لا تتناسب مع الإيمان و الإسلام،فى حين أنّ ظهور مثل هذه الأفكار لا يتعدّى كونها وسوسه شيطانيه،خاصّه فى تلك الظروف الصعبه المضطربه جدّا،و هذا أمر طبيعى بالنسبه لضعفاء الإيمان،و الحديثى العهد بالإسلام (۲) .

هنا كان الامتحان الإلهى قد بلغ أشدّه كما تقول الآيه التاليه:

۱- ۱) آل عمران،الآيه ۱۵۴.

۲- ۲) فسر جمع من المفسرين(الظنون)هنا بالمعنى الأعم من الظن السىء و الحسن؛إلا أن القرائن الموجوده فى هذه الآيه و الآيه التاليه تبين أن المراد من الظنون هنا السيئه منها.

هُنالِکَ ابْتُلِیَ الْمُؤْمِنُونَ وَ زُلْزِلُوا زِلْزالاً شَدِیداً

.

من الطبیعی أنّ الإنسان إذا احیط بالعواصف الفکریه،فإنّ جسمه لا یبقی بمعزل عن هذا الابتلاء،بل ستظهر علیه آثار الاضطراب و التزلزل،و کثیرا ما نری أنّ الأشخاص المضطربین فکریا لا یستطیعون الاستقرار فی مجلسهم و تنعکس و بشکل واضح اضطراباتهم الفکریه من خلال حرکاتهم و صفقهم یدا بید.

و أحد شواهد هذا القلق و الاضطراب الشدید ما نقلوه من أنّ خمسه من أبطال العرب المعروفین-و کان علی رأسهم«عمرو بن عبد ودّ»-نزلوا إلی المیدان بغطرسه متمیّزه و اعتداد بالنفس کبیر،فقالوا:هل من مبارز؟سیّما عمرو بن عبد ودّ الذی کان یرتجز و یسخر من المسلمین و یستهزئ بالجنّه و الآخره،و کان یقول:

أیّها المسلمون ألم تزعموا أنّ قتلاکم فی الجنّه؟فهل فیکم من یشتاق إلی الجنّه؟ إلاّ أنّ السکوت ساد علی معسکر المسلمین أمام سخریته و استهزائه و دعوته للبراز،و لم یجرأ أحد علی مناجزته،إلاّ علی بن أبی طالب علیه السّلام الذی هبّ لمبارزته،و حقّق نصرا کبیرا للمسلمین،و سیأتی ذلک مفصّلا فی البحوث.

نعم...إنّ الحدید یزداد صلابه و جوده إذا عرض علی النار،و المسلمون الأوائل کان یجب أن یوضعوا فی بوتقه الحوادث الصعبه المرّه،و خاصّه فی غزوات کغزوه الأحزاب،لیصبحوا أشدّ مقاومه و صلابه.

ص:۱۸۳

الآيات [سوره الأحزاب (٣٣): الآيات ١٢ الی ١٧]

اشاره

وَ إِذْ يَقُولُ اَلْمُنافِقُونَ وَ اَلَّذِينَ فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ما وَعَدَنَا اَللّهُ وَ رَسُولُهُ إِلاّ غُرُوراً (١٢) وَ إِذْ قالَتْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ يا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَ يَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ اَلنَّبِیَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنا عَوْرَةٌ وَ ما هِیَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلاّ فِراراً (١٣) وَ لَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطارِها ثُمَّ سُئِلُوا اَلْفِتْنَةَ لَآتَوْها وَ ما تَلَبَّثُوا بِها إِلاّ يَسِيراً (١٤) وَ لَقَدْ كانُوا عاهَدُوا اَللّهَ مِنْ قَبْلُ لا يُوَلُّونَ اَلْأَدْبارَ وَ كانَ عَهْدُ اَللّهِ مَسْؤُلاً (١٥) قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ اَلْفِرارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ اَلْمَوْتِ أَوِ اَلْقَتْلِ وَ إِذاً لا تُمَتَّعُونَ إِلاّ قَلِيلاً (١٦) قُلْ مَنْ ذَا اَلَّذِی يَعْصِمُكُمْ مِنَ اَللّهِ إِنْ أَرادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَ لا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اَللّهِ وَلِيًّا وَ لا نَصِيراً (١٧)

التّفسير

اشاره

المنافقون فی عرصه الأحزاب:

فار تنّور إمتحان حرب الأحزاب،و ابتلی الجميع بهذا الامتحان الكبير العسير،

ص :١٨٤

و من الواضح أنّ الناس الذين يقفون ظاهرا فى صفّ واحد فى الظروف العاديه، ينقسمون إلى صفوف مختلفه فى مثل هذه الموارد المضطربه الصعبه،و هنا أيضا انقسم المسلمون إلى فئات مختلفه:فمنهم المؤمنون الحقيقيون،و فئه خواصّ المؤمنين،و جماعه ضعاف الإيمان،و فرقه المنافقين،و جمع المنافقين العنودين المتعصّبين،و بعضهم كان يفكّر فى بيته و حياته و الفرار،و جماعه كانوا يسعون إلى صرف الآخرين عن الجهاد،و البعض الآخر كان يسعى إلى تحكيم أواصر الودّ مع المنافقين.

و الخلاصه:فإنّ كلّ واحد قد أظهر أسراره الباطنيه و ما ينطوى عليه فى هذه القيامه العجيبه،و فى يوم البروز هذا.

كان الكلام فى الآيات السابقه عن جماعه المسلمين ضعفاء الإيمان،و الذين وقعوا تحت تأثير الوساوس الشيطانيه و الظنون السيّئه،و تعكس اولى الآيات مورد البحث مقاله المنافقين و مرضى القلوب،فتقول: إِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ما وَعَدَنَا اللّهُ وَ رَسُولُهُ إِلاّ غُرُوراً .

جاء فى تأريخ حرب الأحزاب:أنّه خلال حفر الخندق،و بينما كان المسلمون مشغولين بحفر من الخندق،اصطدموا بقطعه حجر كبيره صلده لم يؤثّر فيها أى معول،فأخبروا النّبى صلّى اللّه عليه و آله بذلك،فأتى بنفسه إلى الخندق و وقف إلى جنب الصخره، و أخذ المعول،فضرب الحجر أوّل ضربه قويّه فانصدع قسم منه و سطع منه برق، فكبّر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و كبّر المسلمون.

ثمّ ضرب الحجر ضربه أخرى فتهشّم قسم آخر و ظهر منها برق،فكبّر النّبى و كبّر المسلمون،و أخيرا ضرب النّبى ضربته الثالثه،فتحطّم الباقى من الحجر و سطع برق،فكبّر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و رفع المسلمون أصواتهم بالتكبير،فسأل سلمان النّبى عن ذلك

فقال صلّى اللّه عليه و آله «أضاءت الحيره و قصور كسرى فى البرقه الاولى،و أخبرنى جبرئيل أنّ امّتى ظاهره عليها،و أضاء لى فى الثّانيه القصور الحمر من أرض الشام

و الروم،و أخبرنی أنّ امّتی ظاهره علیها،و أضاء لی فی الثالثه قصور صنعاء، و أخبرنی أنّ أمّتی ظاهره علیها،فأبشروا»فاستبشر المسلمون.

فنظر المنافقون إلی بعضهم و قالوا:أ لا تعجبون؟یعدکم الباطل و یخبرکم أنّه ینظر من یثرب إلی الحیره و مدائن کسری و أنّها تفتح لکم،و أنتم لا تستطیعون أن تبرزوا؟فأنزل اللّه: وَ إِذْ یَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَ الَّذِینَ فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ما وَعَدَنَا اللّٰهُ وَ رَسُولُهُ إِلاّٰ غُرُوراً (۱) .

و الحقّ أنّ مثل هذه الأخبار و البشارات اعتبرها المنافقون فی ذلک الیوم خدعه و غرورا،إلاّ أنّ عین النّبی صلّی اللّه علیه و آله الملکوتیه کانت قادره علی رؤیه فتح أبواب قصور ملوک ایران و الروم و الیمن من خلال الشرر المتطایر من ذلک الحجر، و یبشّر هذه الامّه المضحّیه التی حملت القلوب علی الأکفّ،و یزیح الستار عن أسرار المستقبل.

و ربّما لا نحتاج إلی التذکیر بأنّ المراد من اَلَّذِینَ فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ هم المنافقون،و ذکر هذه الجمله توضیح فی الواقع لکلمه«المنافقین»التی وردت من قبل،و أیّ مرض أسوأ و أضرّ من مرض النفاق؟!لأنّ الإنسان السلیم الذی له فطره إلهیّه سلیمه لیس له إلاّ وجه واحد،أمّا أولئک الذین لهم وجهان أو وجوه متلوّنه عدیده فإنّهم مرضی،حیث إنّهم مبتلون دائما بالاضطراب و التناقض فی الأقوال و الأفعال.

و الشاهد لهذا الأمر ما ورد فی بدایه سوره البقره فی وصف المنافقین،حیث تقول: فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزٰادَهُمُ اللّٰهُ مَرَضاً . (۲)

۱- ۱) الکامل لابن الأثیر،الجزء ۲،صفحه ۱۷۹.و ورد هذا الحادث بتفاوت یسیر فی سیره ابن هشام، و هو أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله قال:أمّا الاولی فإنّ اللّه فتح علی بها الیمن،و أمّا الثّانیه فإنّ اللّه فتح علیّ بها الشام و المغرب،و أمّا الثالثه فإنّ اللّه فتح علیّ بها المشرق».و هذا الترتیب ینسجم مع التسلسل التاریخی لفتح هذه المناطق الثلاث.

۲- ۲) البقره،الآیه ۱۰.

ثـمّ تتطرّق الآـيه الاـخرى إلى بيـان حـال طـائفه اخرى مـن هؤلاـء المنـافقين مرضـى القلـوب،و الـذين كـانوا أخبث و أفسـق من الباقين،فمن جانب تقول الآيه عنهم:و اذكر إذ قالت مجموعه منهم للأنصار:يا أهل المدينه(يثرب)ليس لكم فى هذا المكان موقع فلا تتوقّفوا هنا و ارجعوا إلى بيوتكم: وَ إِذْ قالَتْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ يا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا .

و خلاصه الأمر أنّكم لا تقـدرون على عمل أىّ شـىء فى مقابل جحفل الأعداء اللجب،فانسـحبوا من المعركه و لا تلقوا بأيديكم إلى التهلكه و بنسائكم و أطفالكم إلى ذلّ الأسر،و بذلك كانوا يريدون أن يعزلوا الأنصار عن جيش الإسلام.

و من جانب آخر: وَ يَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنا عَوْرَةٌ وَ ما هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلاّ فِراراً .

كلمه(عوره)مأخوذه من مادّه(عار)،و تقال للشىء الذى يوجب ظهوره العار، و تقال أيضا للشقوق و الثقوب التى تظهر فى اللباس أو جدران البيت،و كذلك للثغور الضعيفه و النقاط الحدوديه التى يمكن اختراقها و تدميرها،و على ما يخافه الإنسان و يحذره،و المراد هنا البيوت التى ليس لها جدار مطمئن و باب محكم، و يخشى عليها من هجوم العدوّ.

و المنافقين بتقديمهم هذه الأعذار كانوا يريدون الفرار من ساحه الحرب و اعتزال القتال،و اللجوء إلى بيوتهم.

و جاء فى روايه:أنّ طائفه«بنى حارثه»أرسلوا رسولا منهم إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و قالوا:إنّ بيوتنا غير مأمونه،و ليس هناك بيت من بيوت الأنصـار يشـبه بيوتنـا،و لا مانع بيننا و بين«غطفان»الـذين هجموا من شـرق المـدينه،فائـذن لنا أن نرجع إلى بيوتنا و ندافع عن نسائنا و أولادنا،فأذن لهم النّبى.

فبلغ ذلك«سعد بن معاذ»كبير الأنصار،فقال للنبى صلّى اللّه عليه و آله:لا تأذن لهم،فإنّى اقسم باللّه أنّ هؤلاء القوم تعذّروا بذلك كلّما عرضت لنا مشكله،إنّهم يكذبون،

فأمر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله أن يرجعوا.

و«يثرب»هو الاسم القديم للمدينه قبل أن يهاجر إليها النّبى صلّى اللّه عليه و آله،و بعد هجرته أصبح اسمها تدريجيا«مدينه الرّسول»،و مخفّفها المدينه.

و لهذه المدينه أسماء عديده،ذكر لها الشريف المرتضى(رحمه اللّه عليه)أحد عشر اسما آخر إضافه إلى هذين الاسمين،و من جملتها:طيبه،و طابه،و سكينه، و المحبوبه،و المرحومه،و القاصمه.و يعتقد البعض أنّ«يثرب»اسم لأرض هذه المدينه (۱) .

و

جاء فى بعض الروايات أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله قال: «لا تسمّوا هذه المدينه يثرب» و ربّما كان ذلك بسبب أنّ يثرب فى الأصل من مادّه«ثرب»(على وزن حرب) أى اللوم،و لم يكن النّبى صلّى اللّه عليه و آله ليرضى مثل هذا الاسم لهذه المدينه المباركه.

و على كلّ حال فإنّ خطاب المنافقين لأهل المدينه ب(يا أهل يثرب)لم يكن خطابا عشوائيا،و ربّما كان الباعث لخطابهم بهذا الاسم أنّهم كانوا يعلمون أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله يشمئز من هذا الاسم،أو أنّهم كانوا يريدون إعلان عدم اعترافهم بالإسلام و اسم مدينه الرّسول،أو أن يعودوا بأهلها إلى مرحله الجاهليه! و تشير الآيه التاليه إلى ضعف إيمان هذه الفئه،فتقول:إنّ هؤلاء بلغ بهم ضعف الإيمان إلى درجه أنّ جيش الكفر لو دخل المدينه من كلّ جانب و صوب، و استولى عليها،ثمّ دعاهم إلى الشرك و الكفر فسوف يقبلون ذلك و يسارعون إليه:

وَ لَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطارِها ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَهَ لَآتَوْها وَ ما تَلَبَّثُوا بِها إِلاّ يَسِيراً

.

من المعلوم أنّ أناسا بهذا الضعف و التزلزل و عدم الثبات غير مستعدّين للقاء العدوّ و محاربته،و لا هم متأهّبون لتقبّل الشهاده فى سبيل اللّه،بل يستسلمون بسرعه و يغيّرون مسيرهم،و بناء على هذا،فإنّ المراد من كلمه«الفتنه»هنا هى

۱- ۱) مجمع البيان،المجلّد ۸،صفحه ۳۴۶.

الشرک و الکفر،کما جاء فی آیات القرآن الاخری،کالآیه(۱۹۳)من سوره البقره:

غیر أنّ بعض المفسرین احتملوا أن یکون المراد من«الفتنه»هنا:الحرب ضدّ المسلمین،بحیث إنّها لو عرضت علی هؤلاء المنافقین لأجابوا إلیها بسرعه، و یعینوا أصحاب الفتنه!إلاّ أنّ هذا التّفسیر لا یتلاءم مع ظاهر جمله: وَ لَوْ دُخِلَتْ عَلَیْهِمْ مِنْ أَقْطارِها و ربّما اختار أکثر المفسّرین المعنی الأوّل لهذا السبب.

ثمّ یستدعی القرآن الکریم فئه المنافقین إلی المحاکمه،فیقول: وَ لَقَدْ کانُوا عاهَدُوا اللّهَ مِنْ قَبْلُ لا یُوَلُّونَ الْأَدْبارَ وَ کانَ عَهْدُ اللّهِ مَسْؤُلاً و علیه فإنّهم مسئولون أمام تعهّدهم.

و قال البعض:أنّ المراد من هذا العهد و المیثاق هو ذلک العهد الذی عاهد«بنو حارثه»علیه اللّه و رسوله یوم احد حینما قرّروا الرجوع عن میدان القتال ثمّ ندموا بعد ذلک،فقطعوا العهد علی أنفسهم أن لا یرتکبوا مثل هذه الأمور،إلاّ أنّهم فکّروا مرّه ثانیه فی معرکه الأحزاب فی نقض عهدهم و میثاقهم (۱) .

و یعتقد البعض أنّه إشاره إلی العهد الذی عاهدوا به رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله فی غزوه بدر،أو فی العقبه قبل هجره النّبی (۲) .

و لکن یبدو أنّ للآیه أعلاه مفهوما واسعا یشمل هذه العهود و المواثیق،و کلّ عهودهم الاخری.

إنّ کلّ من یؤمن و یبایع النّبی صلّی اللّه علیه و آله یعاهده علی أن یدافع عن الإسلام و القرآن و لو کلّفه ذلک حیاته.

و التأکید علی العهد و المیثاق هنا من أجل أنّه حتّی عرب الجاهلیه کانوا یحترمون مسأله العهد،فکیف یمکن أن ینقض إنسان عهده و یضعه تحت قدمیه بعد ادّعائه الإسلام؟

ص: ۱۸۹

۱- ۱) تفسیر القرطبی،و تفسیر فی ظلال القرآن،ذیل الآیات مورد البحث.

۲- ۲) نقل هذا القول الآلوسی فی روح المعانی.

و بعد أن أفشى اللّه سبحانه نيّه المنافقين و بيّن أنّ مرادهم لم يكن حفظ بيوتهم، بل الفرار من ميدان الحرب،يجيبهم بأمرين:

الأوّل:أنّه يقول للنّبى صلّى اللّه عليه و آله: قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرٰارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَ إِذاً لاٰ تُمَتَّعُونَ إِلاّٰ قَلِيلاً .

فافرضوا أنّكم استطعتم الفرار،فلا يعدو الأمر حالين:إمّا أن يكون أجلكم الحتمىّ و موتكم قد حان،فأينما تكونوا يأخذ الموت بتلابيبكم،حتّى و إن كنتم فى بيوتكم و بين زوجاتكم و أولادكم.

و إن لم يكن أجلكم قد حان فستعمّرون فى هذه الدنيا أيّاما قليله اخرى تكون مقترنه بالذلّ و الهوان،و ستصبحون تحت رحمه الأعداء و فى قبضتهم،و بعدها ستلقون العذاب الإلهى.

إنّ هذا البيان يشبه ما ورد فى غزوه أحد،حيث أشار القرآن إلى فئه اخرى من المنافقين المثبّطين للعزائم،و المفرّقين لوحده الصفّ: قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلىٰ مَضٰاجِعِهِمْ . (۱)

و الثّانى:ألم تعلموا أنّ كلّ مصائركم بيد اللّه،و لن تقدروا أن تفرّوا من حدود حكومه اللّه و قدرته و مشيئته: قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللّٰهِ إِنْ أَرٰادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرٰادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَ لاٰ يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللّٰهِ وَلِيًّا وَ لاٰ نَصِيراً .

بناء على هذا،فإنّكم إذا علمتم أنّ كلّ مقدّراتكم بيده سبحانه،فأطيعوا أمره فى الجهاد الذى هو أساس العزّه و الكرامه و الشموخ فى الدنيا و عند اللّه،و حتّى إذا تقرّر أن تنالوا و سام الشهاده فعليكم أن تستقبلوا ذلك برحابه صدر.

ص:۱۹۰

۱- ۱) آل عمران-۱۵۴.

الآيات [سوره الأحزاب (٣٣): الآيات ١٨ الی ٢٠]

اشاره

قَدْ يَعْلَمُ اَللّٰهُ اَلْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَ اَلْقٰائِلِينَ لِإِخْوٰانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنٰا وَ لاٰ يَأْتُونَ اَلْبَأْسَ إِلاّٰ قَلِيلاً (١٨) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذٰا جٰاءَ اَلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشىٰ عَلَيْهِ مِنَ اَلْمَوْتِ فَإِذٰا ذَهَبَ اَلْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدٰادٍ أَشِحَّةً عَلَى اَلْخَيْرِ أُولٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اَللّٰهُ أَعْمٰالَهُمْ وَ كٰانَ ذٰلِكَ عَلَى اَللّٰهِ يَسِيراً (١٩) يَحْسَبُونَ اَلْأَحْزٰابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَ إِنْ يَأْتِ اَلْأَحْزٰابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بٰادُونَ فِي اَلْأَعْرٰابِ يَسْئَلُونَ عَنْ أَنْبٰائِكُمْ وَ لَوْ كٰانُوا فِيكُمْ مٰا قٰاتَلُوا إِلاّٰ قَلِيلاً (٢٠)

التّفسير

اشاره

فئه المعوّقين:

أشارت هذه الآيات إلى وضع فئه اخرى من المنافقين الذين اعتزلوا حرب الأحزاب،و كانوا يدعون الآخرين أيضا إلى اعتزال القتال،فقالت: قَدْ يَعْلَمُ اللّٰهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَ الْقٰائِلِينَ لِإِخْوٰانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنٰا وَ لاٰ يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاّٰ قَلِيلاً .

«المعوّقين»من مادّه(عوق)على زنه(شوق)تعنى منع الشىء و محاوله صرف الآخرين عنه،و«البأس»فى الأصل يعنى(الشدّه)،و المراد منه هنا الحرب.

و يحتمل أن تكون الآيه أعلاه مشيره إلى فئتين:فئه من المنافقين الـذين كانوا بين صـفوف المسـلمين-و تعبير(منكم)شاهـد على هذا-و كانوا يسعون إلى صرف ضعاف الإيمان من المسلمين عن الحرب،و هؤلاء هم«المعوّقون».

و الفئه الاـخرى هم(المنـافقون أو اليهـود)الـذين تنحّوا جانبـا،و عنـد مـا كـانوا يلتقـون بجنـود النّبى صـلّى اللّه عليه و آله كـانوا يقولون:هلمّ إلينا و تنحّوا عن القتال،و هؤلاء هم الذين أشارت إليهم الجمله الثّانيه.

و يحتمل أن تكون هـذه الآيه بيانا لحالتين مختلفتين لفئه واحـده،و هم الـذين يعوّقون الناس عن الحرب عنـد ما يكونون بينهم،و عند ما يعتزلونهم يدعون الناس إليهم.

و نقرأ فى روايه:أنّ أحد أصـحاب النّبى صلّى اللّه عليه و آله جاء من ميدان حرب الأحزاب إلى داخل المدينه لحاجه،فرأى أخاه قد وضع أمامه الخبز و اللحم المشوى و الشـراب،فقال له:أنت فى هذه الحال تلتذّ و رسول اللّه مشغول بالحرب،و هو بين الأسنّه و السيوف؟!فقال أخوه:يا أحمق!ابق معنا و شاركنا مجلسنا،فو الذى يحلف به محمّد إنّه لن يرجع من هذه المعركه!و سوف لن يدع هـذا الجيش العظيم الـذى اجتمع عليه محمّـدا و أصـحابه أحيـاء! فقـال له الأوّل:أنت تكـذب،و اقسم باللّه لأذهبنّ إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و أخبره بما قلت،فجاء إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و أخبره بما جرى،فنزلت الآيه.

و بنـاء على سـبب النّزول هـذا،فـإنّ كلمه(إخوانهم)وردت هنا بمعنى الإخوه الحقيقيين،أو بمعنى أصـحاب المـذهب و المسـلك الواحد،كما سمّت الآيه(٢٧) سوره الإسراء المبذّرين إخوان الشياطين: إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كانُوا إِخْوانَ الشَّياطِينِ .

و تضيف الآيه التاليه:إنّ الدافع لكلّ تلك العراقيل التى وضعوها أمامكم هو

أنّهم بخلاء: أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ (۱) لا-فى بذل الأرواح فى ساحه الحرب،بل هم بخلاء حتّى فى المعونات الماديّه لتهيئه مستلزمات الحرب،و فى المعونه البدنيه فى حفر الخندق،بل و يبخلون حتّى فى المساعده الفكريه،بخلا يقترن بالحرص المتزايد يوميا! و بعد تبيان بخل هؤلاء و امتناعهم عن أىّ نوع من المساعده و الإيثار،تتطرّق الآيه إلى بيان صفات اخرى لهم،و التى لها صفه العموم فى كلّ المنافقين،و فى كلّ العصور و القرون،فتقول: فَإِذا جاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِى يُغْشى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ .

فلأنّهم لما لم يذوقوا طعم الإيمان الحقيقى،و لم يستندوا إلى عماد قوىّ فى الحياه،فإنّهم يفقدون السيطره على أنفسهم تماما عند ما يواجهون حادثا صعبا و مأزقا حرجا،و كأنّهم يواجهون الموت.

ثمّ تضيف الآيه: فَإِذا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَهٍ حِدادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ فيأتون إليكم كأنّهم هم الفاتحون الأصليون و المتحمّلون أعباء الحرب،فيعربدون و يطلبون سهمهم من الغنائم،و هم كانوا أبخل من الجميع فى المشاركه فى الحرب و الثبات فيها.

«سلقوكم»من مادّه(سلق)،و هى فى الأصل بمعنى فتح الشىء بعصبيه و غضب، سواء كان هذا الفتح باليد أو اللسان،و هذا التعبير يستعمل فى شأن من يطلب الشىء بالزجر و أسلوب الأمر.و«الألسنه الحداد»تعنى الألسنه الجارحه المؤذيه، و هى هنا كنايه عن الخشونه فى الكلام.

و تشير الآيه فى النهايه إلى آخر صفه لهؤلاء،و التى هى فى الواقع أساس كلّ شقائهم و تعاستهم،فقالت: أُولئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللّهُ أَعْمالَهُمْ لأنّها لم تكن

---

۱ - ۱) «أشحّه»جمع شحيح،من مادّه(الشحّ)،أى البخل المقترن بالحرص،و محلّ الكلمه من الإعراب هنا برأى أكثر المفسّرين(حال)،لكن ذلك لا ينافى أن تكون حالا فى مقام بيان العلّه.تأمّلوا ذلك.

منبعثه عن الإخلاص و الدافع الدینی الإلهی: وَ کٰانَ ذٰلِکَ عَلَی اللّٰهِ یَسِیراً .

و ممّا مرّ نخلص إلی هذه النتیجه،و هی:أنّ المعوّقین کانوا منافقین یتمیّزون بالصفات التالیه:

۱-أنّهم لم یکونوا أهل حرب أبدا،إلاّ بنسبه قلیله جدّا.

۲-لم یکونوا من أهل التضحیه و الإیثار سواء بالمال و النفس،و لم یکونوا یتحمّلون أقلّ المصاعب و المتاعب.

۳-کانوا یفقدون توازنهم و شخصیتهم فی اللحظات الحرجه العاصفه من شدّه الخوف.

۴-یظنّون أنّهم سبب کلّ الانتصارات،و لهم کلّ الفخر عند الإنتصار.

۵-أنّهم کانوا أناسا بلا إیمان،و لم یکن لأعمالهم أیّه قیمه عند اللّه تعالی.

و هذه الصفات هی التی تعرفنا بالمنافقین فی کلّ عصر و زمان،و فی کلّ مجتمع و فئه.

و هذا الوصف الدقیق الذی وصفهم القرآن به یمکن من خلاله معرفه من یشارکهم فی الفکر و السلوک،و کم نری بأمّ أعیننا فی عصرنا من أمثالهم!! و تجسّد الآیه التالیه بتصویر أبلغ جبن و خوف هذه الفئه،فتقول: یَحْسَبُونَ الْأَحْزٰابَ لَمْ یَذْهَبُوا من شدّه خوفهم و رعبهم،فقد خیّم علیهم کابوس مخیف، فکأنّ جنود الکفر یمرّون دائما أمام أعینهم و قد سلّوا السیوف و مالوا علیهم بالرماح! إنّ هؤلاء المحاربین الجبناء،و المنافقین خائری القلوب و القوی یخافون حتّی من ظلالهم،و ینطوون علی أنفسهم من الخوف لدی سماع صهیل الخیل و رغاء البعیر،ظنّا أنّ جیوش الأحزاب قد عادت! ثمّ تضیف الآیه: وَ إِنْ یَأْتِ الْأَحْزٰابُ یَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بٰادُونَ فِی الْأَعْرٰابِ أی منتشرون فی الصحراء بین أعراب البادیه،فیختفون هناک و یتتبعون أخبارکم و

يَسْئَلُونَ عَنْ أَنْبٰائِكَمْ

فيسألون لحظه بلحظه من كلّ مسافر آخر الأخبار لئلاّ تكون الأحزاب قد اقتربت منهم،و هم مع ذلك يمنّون عليكم بأنّهم كانوا يتابعون أخباركم دائما!! و تضيف الآيه فى آخر جمله:و على فرض أنّهم لم ينهزموا و يفرّوا من الميدان، بل بقوا معكم: وَ لَوْ كٰانُوا فِيكُمْ مٰا قٰاتَلُوا إِلاّٰ قَلِيلاً .

فلا تحزنوا و تقلقوا لذهابهم،و لا تفرحوا بوجودهم بينكم،فإنّهم أناس لا قيمه لهم و لا صفه تحمد،و عدمهم أفضل من وجودهم! و حتّى هذا القدر المختصر من العمل لم يكن للّه أيضا،بل هو نتيجه الخوف من ملامه و تقريع الناس،و للتظاهر و الرياء،لأنّه لو كان للّه لكانوا يقفون و يثبتون فى ساحه الحرب ما دام فيهم عرق ينبض.

ص:١٩٥

الآيات [سوره الأحزاب (۳۳): الآيات ۲۱ الی ۲۵]

اشاره

لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اَللّٰهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اَللّٰهَ وَ اَلْيَوْمَ اَلْآخِرَ وَ ذَكَرَ اَللّٰهَ كَثِيراً (۲۱) وَ لَمّٰا رَأَ اَلْمُؤْمِنُونَ اَلْأَحْزٰابَ قٰالُوا هٰذٰا مٰا وَعَدَنَا اَللّٰهُ وَ رَسُولُهُ وَ صَدَقَ اَللّٰهُ وَ رَسُولُهُ وَ مٰا زٰادَهُمْ إِلاّٰ إِيمٰاناً وَ تَسْلِيماً (۲۲) مِنَ اَلْمُؤْمِنِينَ رِجٰالٌ صَدَقُوا مٰا عٰاهَدُوا اَللّٰهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضىٰ نَحْبَهُ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَ مٰا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (۲۳) لِيَجْزِيَ اَللّٰهُ اَلصّٰادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَ يُعَذِّبَ اَلْمُنٰافِقِينَ إِنْ شٰاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اَللّٰهَ كٰانَ غَفُوراً رَحِيماً (۲۴) وَ رَدَّ اَللّٰهُ اَلَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنٰالُوا خَيْراً وَ كَفَى اَللّٰهُ اَلْمُؤْمِنِينَ اَلْقِتٰالَ وَ كٰانَ اَللّٰهُ قَوِيًّا عَزِيزاً (۲۵)

التّفسیر

اشاره

دور المؤمنین المخلصین فی معرکه الأحزاب:

یستمرّ الکلام إلی الآن عن الفئات المختلفه و مخطّطاتهم و أدوارهم فی غزوه الأحزاب،و قد تقدّم الکلام عن ضعفاء الإیمان و المنافقین و رؤوس الکفر و النفاق

ص: ۱۹۶

و المعوّقين عن الجهاد.

و يتحدّث القرآن المجيد فى نهايه المطاف عن المؤمنين الحقيقيين،و معنوياتهم العاليه و رجولتهم و ثباتهم و سائر خصائصهم فى الجهاد الكبير.

و يبدأ مقدّمه هذا البحث بالحديث عن النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله،حيث كان إمامهم و قدوتهم،فيقول: لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللّهِ أُسْوَهٌ حَسَنَهٌ لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللّهَ وَ الْيَوْمَ الْآخِرَ وَ ذَكَرَ اللّهَ كَثِيراً .

فإنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله خير نموذج لكم،لا فى هذا المجال و حسب،بل و فى كلّ مجالات الحياه،فإنّ كلّا من معنوياته العاليه،و صبره و استقامته و صموده،و ذكائه و درايته،و إخلاصه و توجّهه إلى اللّه،و تسلّطه و سيطرته على الحوادث،و عدم خضوعه و ركوعه أمام الصعاب و المشاكل،نموذج يحتذى به كلّ المسلمين.

إنّ هذا القائد العظيم لا يدع للضعف و العجله إلى نفسه سبيلا عند ما تحيط بسفينته أشدّ العواصف،و تعصف بها الأمواج المتلاطمه،فهو ربّان السفينه، و مرساها المطمئن الثابت،و هو مصباح الهدايه،و مبعث الراحه و الهدوء و الاطمئنان الروحى لركابها.

إنّه يأخذ المعول بيده ليحفر الخندق مع بقيّه المؤمنين،فيجمع ترابه بمسحاه و يخرجه بوعاء معه،و يمزح مع أصحابه لحفظ معنوياتهم و التخفيف عنهم، و يرغّبهم فى إنشاد الشعر الحماسى لإلهاب مشاعرهم و تقويه قلوبهم،و يدفعهم دائما نحو ذكر اللّه تعالى و يبشّرهم بالمستقبل الزاهر و الفتوحات العظيمه.

يحذّرهم من مؤامرات المنافقين،و يمنحهم الوعى و الاستعداد اللازم.

و لا يغفل لحظه عن التجهيز و التسلّح الحربى الصحيح،و انتخاب أفضل الأساليب العسكريه،و لا يتوانى فى الوقت نفسه عن اكتشاف الطرق المختلفه التى تؤدّى إلى بثّ التفرقه و إيجاد التصدّع فى صفوف الأعداء.

نعم إنّه أسمى مقتدى،و أحسن أسوه للمؤمنين فى هذا الميدان،و فى كلّ

المیادین.

«الاسوه»تعنی فی الأصل الحاله التی یتلبّسـها الإنسان لدی اتّباعه لآخر، و بتعبیر آخر:هی التأسّی و الاقتداء،و بناء علی هذا فإنّ لها معنی المصدر لا الصفه، و معنی جمله: لَقَدْ کانَ لَکُمْ فِی رَسُولِ اللّهِ أُسْوَهٌ حَسَنَهٌ هو أنّ لکم فی النّبی صلّی اللّه علیه و آله تأسّیا و اقتداء جیّدا،فإنّکم تستطیعون بالاقتداء به و اتباعه أن تصلحوا أمورکم و تسیروا علی الصراط المستقیم.

و الطریف أنّ القرآن الکریم یعتبر هـذه الاسوه الحسـنه فی الآیه أعلاه مختّصه بمن لهم ثلاث خصائص:الثقه باللّه،و الإیمان بالمعاد،و أنّهم یذکرون اللّه کثیرا.

إنّ الإیمان بالمبدأ و المعاد هو سبب و باعث هـذه الحرکه فی الحقیقه،و ذکر اللّه یعمل علی استمراره،إذ لا شکّ أنّ من لم یمتلئ قلبه بهکذا إیمان لا یقدر أن یضع قدمه موضع قدم النّبی،و إذا لم یدم ذکر اللّه و یعمّر قلبه به أثناء استمراره فی هـذا الطریق،و یبعد الشیاطین عنه،فسوف لا یکون قادرا علی إدامه التأسّی و الاقتداء.

و تجدر الإشاره إلی أنّ علیا علیه السّلام مع شهامته و شجاعته فی کلّ میادین الحرب، و التی تمثّل معرکه الأحزاب نموذجا منها،و سیشار إلیها فیما بعد،

یقول فی نهج البلاغه فیما روی عنه: «کنّا إذا احمرّ البأس اتّقینا برسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله فلم یکن أحد منّا أقرب إلی العدوّ منه» (۱) .

بعد ذکر هـذه المقدّمه تطرّقت الآیه التالیه إلی بیان حال المؤمنین الحقیقیین، فقالت: وَ لَمّا رَأَ الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزابَ قالُوا هذا ما وَعَدَنَا اللّهُ وَ رَسُولُهُ وَ صَدَقَ اللّهُ وَ رَسُولُهُ وَ ما زادَهُمْ إِلاّ إِیماناً وَ تَسْلِیماً .

و لکن ما هـذا الوعد الذی کان اللّه و رسوله قد وعدهم به؟ قال البعض:إنّه إشاره إلی الکلام الذی کان رسول اللّه قد تکلّم به من قبل بأنّ

۱- ۱) نهج البلاغه،الکلمات القصار،فصل الغرائب جمله ۹.

قبائل العرب و مختلف أعـدائكم سـيتّحدون ضـدّكم قريبا و يأتون إليكم،لكن اعلموا أنّ النصـر سـيكون حليفكم فى النهايه،فلمّا رأى المؤمنون هجوم الأحزاب أيقنوا أنّ هذا ما وعدهم به رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و قالوا:ما دام الجزء الأوّل من الوعد قد تحقّق، فمن المسلّم أنّ جزأه الثّانى-أى النصر-سيتحقّق بعده،و لذلك زاد إيمانهم و تسليمهم.

و قال البعض الآخر:إنّ هذا الوعد هو ما ذكره اللّه سبحانه فى الآيه(٢١۴)من سوره البقره حيث قال: أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَ لَمّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْساءُ وَ الضَّرّاءُ وَ زُلْزِلُوا حَتّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتى نَصْرُ اللّهِ .

أى إنّهم قيـل لهم من قبـل:إنّكم ستخضـعون لامتحان عسير،فلمّا رأوا الأحزاب تيقّنوا صـدق إخبار اللّه و رسوله،و زاد إيمانهم و تسليمهم.

و من الطبيعى أنّ هـذين التّفسـيرين لا يتنافيان،خاصّه بملاحظه أنّ أحـد الوعدين كان فى الأساس وعد اللّه،و الآخر وعد الرّسول صلّى اللّه عليه و آله،و قد جاءا معا فى الآيه مورد البحث،و يبدو أنّ الجمع بينهما مناسب تماما.

و تشـير الآيه التاليه إلى فئه خاصّه من المؤمنين،و هم الـذين كانوا أكثر تأسّـيا بالنّبى صـلّى اللّه عليه و آله من الجميع،و ثبتوا على عهـدهم الـذى عاهـدوا اللّه به،و هو التضـحيه فى سبيـل دينه حتّى النفس الأـخير،و إلى آخر قطره دم،فتقول: مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضـى نَحْبَهُ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ من دون أن يتزلزل أو ينحرف و يبـدّل العهـد و يغيّر الميثاق الذى قطعه على نفسه وَ ما بَدَّلُوا تَبْدِيلاً .

إنّهم لم ينحرفوا قيد أنمله عن خطّهم،و لم يألوا جهدا فى سبيل اللّه،و لم يتزلزلوا لحظه،بعكس المنافقين أو ضعاف الإيمان الذين بعثرتهم عاصفه الحوادث هنا و هناك و أفرزت الشدائد فى أدمغتهم الخاويه أفكارا جوفاء خبيثه...إنّ المؤمنين

وقفوا كالجبل الأشمّ و أثبتوا أنّ العهد الذى عاهدوا به لا يقبل النقض أو التراجع عنه.

إنّ لفظه(نحب)على زنه(عهد)تعنى العهد و النذر و الميثاق،و وردت أحيانا بمعنى الموت،أو الخطر،أو سرعه السير،أو البكاء بصوت مرتفع (۱) .

و هناک اختلاف بين المفسّرين فى المعنىّ بهذه الآيه.

يروى العالم المعروف(الحاكم أبو القاسم الحسكانى)-و هو من علماء السنّه- بسند عن على عليه السّلام أنّه قال: «فينا نزلت رِجٰالٌ صَدَقُوا مٰا عٰاهَدُوا اللّٰهَ عَلَيْهِ فأنا- و اللّه-المنتظر و ما بدّلت تبديلا،و منّا رجال قد استشهدوا من قبل كحمزه سيّد الشهداء» (۲) .

و قال آخرون:إنّ جمله مَنْ قَضىٰ نَحْبَهُ إشاره إلى شهداء بدر و أحد،و جمله:

وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ

إشاره إلى المسلمين الصادقين الآخرين الذين كانوا بانتظار إحدى الحسنيين:النصر،أو الشهاده.

و روى عن«أنس بن مالک»أيضا:أنّ عمّه«أنس بن النضر»لم يكن حاضرا فى غزوه بدر،فلمّا علم فيما بعد،و كانت الحرب قد وضعت أوزارها،أسف لعدم اشتراكه فى الجهاد،فعاهد اللّه على أن يشارک فى الجهاد إن وقعت معركه اخرى و يثبت فيها و إن زهقت روحه،و لذلک فقد شارک فى معركه احد،و حينما فرّ جماعه لم يفرّ معهم،و قاوم و صمد حتّى جرح ثم استشهد (۳) .

و روى عن«ابن عبّاس»أنّه قال:إنّ جمله: فَمِنْهُمْ مَنْ قَضىٰ نَحْبَهُ إشاره إلى حمزه بن عبد المطّلب و باقى شهداء احد،و أنس بن النضر و أصحابه (۴) .

۱- ۱) -مفردات الراغب،و مجمع البيان،و لسان العرب مادّه نحب.

۲- ۲) مجمع البيان،ذيل الآيه مورد البحث.

۳- ۳) أورد هذه الرّوايات بتفاوت يسير أصحاب تفاسير القرطبى و فى ظلال القرآن،و مجمع البيان فى كتبهم.

۴- ۴) مجمع البيان،ذيل الآيه مورد البحث.

و لا منافاه بین هذه التفاسیر مطلقا،لأنّ للآیه مفهوما واسعا یشمل کلّ شهداء الإسلام الذین استشهدوا قبل معرکه الأحزاب،و کلّ من کان منتظرا للنصر أو الشهاده،و کان علی رأسهم رجال کحمزه سیّد الشهداء و علی علیهما السّلام،و لذلک ورد فی تفسیر الصافی:أنّ أصحاب الحسین بکربلاء کانوا کلّ من أراد الخروج للقتال ودّع الحسین علیه السّلام و قال:السلام علیک یا ابن رسول اللّه،فیجیبه:و علیک السلام و نحن خلفک،و یقرأ: فَمِنْهُمْ مَنْ قَضیٰ نَحْبَهُ وَ مِنْهُمْ مَنْ یَنْتَظِرُ (1) .

و یستفاد من کتب المقاتل أنّ الإمام الحسین علیه السّلام تلا هذه الآیه عند أجساد شهداء آخرین کمسلم بن عوسجه،و حین بلغه خبر شهاده«عبد اللّه بن یقطر» (2) .

و من هنا یتّضح أنّ للآیه مفهوما واسعا یشمل کلّ المؤمنین المخلصین الصادقین فی کلّ عصر و زمان،سواء من ارتدی منهم ثوب الشهاده فی سبیل اللّه، أم من ثبت علی عهده مع ربّه و لم یتزعزع،و کان مستعدّا للجهاد و الشهاده.

و تبیّن الآیه التالیه النتیجه النهائیه لأعمال المؤمنین و المنافقین فی جمله قصیره،فتقول: لِیَجْزِیَ اللّٰهُ الصّٰادِقِینَ بِصِدْقِهِمْ وَ یُعَذِّبَ الْمُنٰافِقِینَ إِنْ شٰاءَ فلا یبقی صدق و إخلاص و وفاء المؤمنین بدون ثواب،و لا ضعف و إعاقات المنافقین بدون عقاب.

و مع ذلک،و لکی لا یغلق طریق العوده و الإنابه بوجه هؤلاء المنافقین العنودین،فإنّ اللّه سبحانه قد فتح أبواب التوبه أمامهم بجمله: أَوْ یَتُوبَ عَلَیْهِمْ - إذا تابوا-و وصف نفسه بالغفور و الرحیم إِنَّ اللّٰهَ کٰانَ غَفُوراً رَحِیماً لیحیی فیهم الحرکه نحو الإیمان و الصدق و الإخلاص و الوفاء بالتزاماتهم أمام اللّه و العمل بمقتضاها.

و لمّا کانت هذه الجمله قد ذکرت کنتیجه لأعمال المنافقین القبیحه،فإنّ بعض

1- 1) تفسیر الصافی ذیل الآیه مورد البحث.

2- 2) نور الثقلین،المجلّد 4،صفحه 259.

کبار المفسّرین رأی علی أساسها بأنّ الذنب الکبیر فی القلوب التی لها قابلیه الهدایه ربّما کان دفعا للحرکه المضادّه و الرجوع إلی الحقّ و الحقیقه،و قد یکون الشرّ مفتاحا للخیر و الرشاد (۱) .

و تطرح الآیه الأخیره من هذه الآیات-و التی تتحدّث عن غزوه الأحزاب و تنهی هذا البحث-خلاصه واضحه لهذه الواقعه فی عباره مختصره،فتقول فی الجمله الاولی: وَ رَدَّ اللّٰهُ الَّذِینَ کَفَرُوا بِغَیْظِهِمْ لَمْ یَنٰالُوا خَیْراً .

«الغیظ»یعنی(الغضب)و یأتی أحیانا بمعنی(الغمّ)،و هنا جاء مزیجا من المعنیین،فإنّ جیوش الأحزاب قد بذلت قصاری جهدها للانتصار علی جیش الإسلام،لکنّها خابت،و رجع جنود الکفر إلی أوطانهم یعلوهم الغمّ و الغضب.

و المراد من«الخیر»هنا الإنتصار فی الحرب،و لم یکن انتصار جیش الکفر خیرا أبدا،بل إنّه شرّ،و لمّا کان القرآن یتحدّث من وجهه نظرهم الفکریه عبّر عنه بالخیر،و هو إشاره إلی أنّهم لم ینالوا أیّ نصر فی هذا المجال.

و قال البعض:إنّ المراد من«الخیر»هنا(المال)لأنّ هذه الکلمه أطلقت فی مواضع اخری بهذا المعنی،و من جملتها ما فی آیه الوصیه(۱۸۰)من سوره البقره:

إِنْ تَرَکَ خَیْراً الْوَصِیَّهُ لِلْوٰالِدَیْنِ .

و مع أنّ أحد الأهداف الأصلیّه لمعسکر الکفر کان الحصول علی غنائم المدینه و الإغاره علی هذه الأرض،و هذا الباعث کان أهمّ البواعث فی عصر الجاهلیه، لکنّنا لا نمتلک الدلیل علی حصر معنی(الخیر)هنا بالمال،بل یشمل کلّ الانتصارات التی کانوا یطمحون إلیها،و کان المال أحدها لکنّهم حرموا من الجمیع.

و تضیف فی الجمله التالیه: وَ کَفَی اللّٰهُ الْمُؤْمِنِینَ الْقِتٰالَ فقد هیّأ عوامل بحیث

ص :۲۰۲

۱- ۱) تفسیر المیزان،ذیل الآیه مورد البحث.

انتهت الحرب من دون حاجه إلى التحام واسع بين الجيشين،و من دون أن يتحمّل المؤمنون خسائر فادحه،لأنّ العواصف الهوجاء القارصه قد مزّقت أوضاع المشركين من جهه،و من جهه اخرى فإنّ اللّه تعالى قد ألقى الرعب و الخوف فى قلوبهم من جنود اللّه التى لا ـ ترى،و من جهه ثالثه فإنّ الضربه التى أنزلها على بن أبى طالب عليه السّلام بأعظم بطل من أبطالهم،و هو«عمرو بن عبد ودّ»،قد تسبّبت فى تبدّد أحلامهم و آمالهم،و دفعتهم إلى أن يلملموا أمتعتهم و يتركوا محاصره المدينه و يرجعوا إلى قبائلهم تقدمهم الخيبه و الخسران.

و تقول الآيه فى آخر جمله: وَ كٰانَ اللّٰهُ قَوِيًّا عَزِيزاً فمن الممكن أن يوجد أناس أقوياء،لكنّهم ليسوا بأعزّاء لا يقهرون،بل هناك من يقهرهم و من هو أقوى منهم،إلاّ ـ أنّ القوى العزيز الوحيد فى العالم هو اللّه عزّ و جلّ الذى لا ـ حدّ لقدرته و قوّته و لا انتهاء،فهو الذى أنزل على المؤمنين النصر فى مثل هذا الموقف العسير و الخطير جدّا بحيث لم يحتاجوا حتّى إلى النزال و تقديم التضحيات!

بحوث

اشاره

۱-ملاحظات هامّه فى معركه الأحزاب

أ-إنّ معركه الأحزاب-و كما هو معلوم من اسمها-كانت حربا اتّحدت فيها كلّ القبائل و الفئات المختلفه التى تعادى الإسلام،للقضاء على الإسلام اليافع.

لقد كانت«حرب الأحزاب»آخر سعى للكفر،و آخر سعى للكفر،و آخر سهم فى كنانته،و آخر استعراض لقوى الشرك،و لهذا

قال النّبى صلّى اللّه عليه و آله: «برز الإيمان كلّه إلى الشرك كلّه» (۱) عند ما تقابل أعظم أبطال العدوّ،و هو عمرو بن عبد ودّ،و بطل الإسلام الأوحد أمير

۱- ۱) بحار الأنوار،المجلّد ۲۰،صفحه ۲۱۵،و نقل هذا الحديث عن الكراجكى.

المؤمنين على بن أبى طالب عليه السّلام،لأنّ انتصار أحدهما على الآخر كان يعنى انتصار الكفر على الإيمان،أو الإيمان على الكفر،و بتعبير آخر:كان عملا مصيريا يحدّد مستقبل الإسلام و الشرك،و لذلك فإنّ المشركين لم تقم لهم قائمه بعد انهزامهم فى هذه المواجهه العظيمه،و كانت المبادره و زمامها بيد المسلمين بعدها دائما.

لقد أفل نجم الأعداء،و انهدمت قواعد قوّتهم، و لذلك نقرأ فى حديث

أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله قال بعد نهايه غزوه الأحزاب: «الآن تغزوهم و لا يغزوننا» (۱) .

ب-ذكر بعض المؤرّخين أنّ عدد أفراد جيوش الكفر كان أكثر من عشره آلاف محارب،و يقول«المقريزى»فى«الإمتاع»:إنّ قريشا أتت لوحدها بأربعه آلاف رجل،و ألف و ثلاثمائه فرس،و ألف و خمسمائه من الإبل،و نزلت عند حافّه الخندق،و جاءت قبيله بنى سليم بسبعمائه رجل و التقوا بهم فى مرّ الظهران،و جاء «بنو فزاره»بألف،و كلّ من«بنى أشجع»و«بنى مرّه»بأربعمائه،و القبائل الاخرى أرسلت عددا من الرجال،فتجاوز مجموع كلّ من حضر عشره آلاف رجل.

فى حين أنّ عدد المسلمين لم يكن يتجاوز الثلاثه آلاف رجل،و كانوا قد جعلوا مخيّمهم الأصلى أسفل جبل سلع،و كانت نقطه مرتفعه جنب المدينه مشرفه على الخندق،و كانوا يستطيعون عن طريق رماتهم السيطره على حركه المرور من الخندق.

على كلّ حال،فإنّ جيش الكفّار قد حاصر المسلمين من جميع الجهات، و طالت هذه المحاصره عشرين يوما،و قيل خمسه و عشرين يوما،و على بعض الرّوايات شهرا (۲) .

و مع أنّ العدوّ كان متفوقا على المسلمين من جهات مختلفه،إلاّ أنّه خاب فى النهايه كما قلنا،و رجع إلى دياره خالى الوفاض.

۱- ۱) التاريخ الكامل لابن الأثير الجزء ۲ صفحه ۱۸۴.

۲- ۲) بحار الأنوار،الجزء ۲۰،صفحه ۲۲۸.

ج-إنّ مسأله حفر الخندق قد تمّت-كما نعلم-بمشوره«سلمان الفارسى»، و كانت هذه المسأله أسلوبا دفاعيا معتادا فى بلاد فارس آنـذاك،و لم يكن معروفا فى جزيره العرب إلى ذلك اليوم،و كان يعتبر ظاهره جديده،و كانت لإقامته فى أطراف المدينه أهميّه عظيمه،سواء من الناحيه العسكريه،أم من جهه إضعاف معنويات العدوّ و رفع معنويات المسلمين.

و لا توجد لـدينا معلومات دقيقه عن صفات الخنـدق و دقائقه،فقد ذكر المؤرخّون أنّه كان من العرض بحيث لا يستطيع فرسان العدو عبوره بالقفز،و من المحتّم أنّ عمقه أيضا كان بالقدر الذى إذا سقط فيه أحد لم يكن يستطيع أن يخرج من الطرف المقابل بسهوله.

إضافه إلى أنّ سيطره رماه المسلمين على منطقه الخندق كان يمكّنهم من جعل كلّ من يحاول العبور هدفا و غرضا لسهامهم فى وسط الخندق و قبل عبوره.

و أمّا من ناحيه الطول فإنّ البعض قد قدّره باثنى عشر ألف ذراع(ستّه آلاف متر)استنادا إلى الروايه المعروفه التى تقول بأنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله كان قد أمر أن يحفر كلّ عشره رجال أربعين ذراعا من الخندق،و بملاحظه أنّ عدد جنود المسلمين-طبقا للمشهور-بلغ ثلاثه آلاف رجل.

و لا بدّ من الاعتراف بأنّ حفر مثل هذا الخندق،و بالآلات البدائيه المستعمله فى ذلك اليوم كان أمرا مضنيا و جهدا،خاصّه و أنّ المسلمين كانوا فى ضيق شديد و حاجه ملحّه من ناحيه الزاد و الوسائل الاخرى.

و من المسلّم أنّ حفر الخندق قد استغرق مدّه لا يستهان بها،و هذا يوحى بأنّ جيش المسلمين كان قد قدّر و خمّن و توقّع التوقّعات اللازمه بدقّه كامله قبل أن يهجم العدوّ بحيث أنّ حفر الخندق كان قد تمّ قبل ثلاثه أيّام من وصول جيش الكفّار.

ص:٢٠٥

د-ساحه إمتحان عظيمه إنّ غزوه«الأحزاب»كانت محكّا و امتحانا عجيبا لكلّ المسلمين،و لمن كانوا يدّعون الإسلام،و كذلك لأولئك الذين كانوا يدّعون الحياد أحيانا،و كان لهم فى الباطن ارتباط و تعامل مع أعداء الإسلام و يتعاونون معهم ضدّ دين اللّه.

لقد تبيّن بوضوح تامّ موقع الفئات الثلاث-المؤمنون الصادقون،و ضعفاء الإيمان،و المنافقون-من خلال عملهم،و اتّضحت تماما القيم و المفاهيم الإسلاميه،فقد عكست كلّ من الفئات الثلاث فى أتون الحرب الملتهبه حسن إيمانها أو قبحه،و إخلاص نيّاتها أو عدمه.

لقد كانت العاصفه هو جاء شديده لم تدع المجال لأىّ شخص أن يخفى ما فى قلبه،و ظهرت امور فى أقلّ من شهر،و كان يحتاج كشفها إلى سنين ربّما تكون طويله فى الظروف الطبيعيّه.

و هنا مسأله تستحقّ الانتباه،و هى أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله أثبت عمليّا إيمانه الكامل بما جاء به من التعليمات الإلهيّه و وفاءه التامّ لها من خلال مقاومته و صلابته،و رباطه جأشه،و توكّله على اللّه،و اعتماده على نفسه،و كذلك أثبت للناس أنّه يطبّق قبل الآخرين ما يأمرهم به من خلال مواساته للمسلمين و مساعدتهم فى حفر الخندق،و تحمّله لمصاعب الحرب و مشاكلها.

ه-نزال على عليه السّلام التاريخى لعمرو بن عبد ودّ من المواقف الحسّاسه و التاريخيه لهذه الحرب مبارزه على عليه السّلام لبطل معسكر العدوّ العظيم«عمرو بن عبد ودّ»،فقد جاء فى التواريخ أنّ جيش الأحزاب كان قد دعا أشدّاء شجعان العرب للاشتراك و المساهمه فى هذه الحرب،و كان الأشهر من بين هؤلاء خمسه:عمرو بن عبد ودّ،و عكرمه بن أبى جهل،و هبيره،و نوفل، و ضرار.

ص:٢٠٦

لقد استعدّ هؤلاء فى أحد أيّام الحرب للمبارزه الفرديه،و لبسوا عدّه الحرب، و استطاعوا اختراق الخندق و العبور بخيولهم إلى الجانب الآخر من خلال نقطه ضيّقه فيه،كانت بعيده نسبيا عن مرمى الرماه المسلمين،و أن يقفوا أمام جيش المسلمين،و كان أشهرهم«عمرو بن عبد ودّ».

فتقدّم و قد ركبه الغرور و الاعتداد بالنفس،و كانت له خبره طويله فى الحرب، و رفع صوته طالبا من يبارزه.

لقد دوّى نداؤه(هل من مبارز)فى ميدان الأحزاب،و لمّا لم يجرأ أحد من المسلمين على قتاله اشتدّت جرأته و بدأ يسخر من معتقدات المسلمين،فقال:أين جنّتكم التى تزعمون أنّ من قتل منكم دخلها؟هل فيكم من أرسله إلى الجنّه،أو يدفعنى إلى النار؟ و هنا أنشد أبياته المعروفه:

و لقد بححت من النداء بجمعكم هل من مبارز

و وقفت إذ جبن المشجّع موقف البطل المناجز

إنّ السماحه و الشجاعه فى الفتى خير الغرائز

فأمر النّبى صلّى اللّه عليه و آله عند ذلك أن يخرج إليه رجل و يبعد شرّه عن المسلمين،إلاّ أنّ أحدا لم يجب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله إلاّ على بن أبى طالب عليه السّلام،

فقال النّبى صلّى اللّه عليه و آله: «إنّه عمرو»فقال على عليه السّلام: «و إن كان عمروا»فدعاه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و عمّمه،و قلّده سيفه الخاصّ ذا الفقار،ثمّ دعا له فقال:«اللهمّ احفظه من بين يديه و من خلفه و عن يمينه و عن شماله و من فوقه و من تحته».

فمشى على عليه السّلام إلى الحرب و هو يرتجز:

لا تعجلنّ فقد أتاك مجيب صوتك غير عاجز

ذو نيّه و بصيره و الصدق منجى كلّ فائز

إنّى لأرجو أن أقيم عليك نائحه الجنائز

من ضربه نجلاء يبقى صوتها بعد الهزاهز

و هنا

قال النّبى صلّى اللّه عليه و آله كلمته المعروفه: «برز الإيمان كلّه إلى الشرك كلّه» (۱) .

فلمّا التقيا دعاه أمير المؤمنين على عليه السّلام إلى الإسلام أوّلا،فأبى،ثمّ دعاه إلى اعتزال الحرب،فرفض ذلك،و اعتبره عارا عليه،و فى الثالثه دعاه إلى أن ينزل عن ظهر جواده و يقاتله راجلا، فغضب عمرو قال:ما كنت أحسب أحدا من العرب يدعونى إلى مثل ذلك،فنزل من على ظهر فرسه و ضرب عليا عليه السّلام على رأسه،فتلقّاها على عليه السّلام بمهاره خاصّه بدرعه،إلاّ أنّ السيف قدّه و شجّ رأس على عليه السّلام.

هنا استعمل على عليه السّلام أسلوبا خاصّا،فقال لعمرو:أنت بطل العرب،و أنا أقاتلك، فعلام حضر من خلفك؟فلمّا التفت عمرو،ضربه على عليه السّلام على ساقه بالسيف، فسقط عمرو إلى الأرض،فثارت غبره ظنّ معها المنافقون أنّ عليا عليه السّلام قد قتل بسيف عمرو،غير أنّهم لمّا سمعوا التكبير قد علا علموا بانتصار على،و رأوا فجأه عليا عليه السّلام يرجع إلى معسكره رويدا رويدا و الدم ينزم من رأسه،و على شفتيه ابتسامه النصر،و كانت جثّه عمرو قد سقطت فى جانب من الميدان.

لقد أنزل مقتل بطل العرب المعروف ضربه قاصمه بجيش الأحزاب بدّدت آمالهم و حطّمت معنوياتهم،و هزمتهم نفسيا هزيمه منكره،و خابت آمالهم فى النصر و الظفر،و لذلك

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله فى حقّها: «لو وزن اليوم عملك بعمل جميع امّه محمّد لرجح عملك على عملهم،و ذاك أنّه لم يبق بيت من المشركين إلاّ و قد دخله ذلّ بقتل عمرو،و لم يبق بيت من المسلمين،إلاّ و قد دخله عزّ بقتل عمرو» (۲) .

ص:۲۰۸

---

۱ - ۱) بحار الأنوار،المجلّد ۲۰، صفحه ۲۱۵،ابن أبى الحديد فى شرح نهج البلاغه،المجلّد ۴، صفحه ۳۴۴ طبقا لنقل إحقاق الحقّ،الجزء ۶،صفحه ۹.

۲- ۲) بحار الأنوار الجزء ۲۰ صفحه ۲۱۶.

و قد أورد العالم السنّى المعروف«الحاكم النيسابورى»هذا القول،لكن بتعبير آخر:

«لمبارزه على بن أبى طالب لعمرو بن عبد ودّ يوم الخندق أفضل من أعمال امّتى إلى يوم القيامه» (۱) .

و الغايه من هذا الكلام واضحه،لأنّ كلاّ من الإسلام و القرآن كان على حافّه الهاويه ظاهرا،و كان يمرّ بأحرج لحظاته و أصعبها،و لذلك كانت التضحيه فى هذه الحرب أعظم التضحيات بعد تضحيات النّبى صلّى اللّه عليه و آله،حيث حفظت الإسلام من السقوط و درأت عنه الخطر،و ضمنت بقاءه إلى يوم القيامه،و ببركه تضحيه الإمام عليه السّلام تجذّر الإسلام و تأصّل و شملت غصونه و أوراقه العالمين،و بناء على هذا فإنّ عباده الجميع مرهونه بعمله.

و ذكر البعض:أنّ المشركين أرسلوا رسولا منهم ليشترى جثّه عمرو بعشره آلاف درهم-و ربّما كانوا يتصوّرون أنّ المسلمين سيفعلون بجثّه عمرو ما فعله قساه القلوب بجسد حمزه يوم أحد-

فقال النّبى صلّى اللّه عليه و آله: «هو لكم،لا نأكل ثمن الموتى»! و هناك موقف يستحقّ الذكر و الانتباه،و هو:أنّ اخت عمرو لمّا وصلت إلى جسد أخيها،و رأت أنّ عليا عليه السّلام لم يسلبه درعه الثمينه قالت:ما قتله إلاّ كفؤ كريم (۲) .

و-إجراءات النبى العسكريه و السياسيه فى هذه الحرب كانت هناك مجموعه من العوامل المختلفه،و الأساليب العسكريه و السياسيه، و كذلك عامل العقيده و الإيمان،ساهمت فى انتصار النّبى صلّى اللّه عليه و آله و المسلمين فى معركه الأحزاب،إضافه إلى التأييد الإلهى.عن طريق الرياح و العواصف الهوجاء

۱- ۱) مستدرك الحاكم،الجزء ۳،صفحه ۳۲.

۲- ۲) اعتمدنا فى هذا الجانب على كتب:إحقاق الحقّ،بحار الأنوار،المجلّد ۶،بحار الأنوار،المجلّد ۲۰،تفسير الميزان،المجلّد ۱۶.

التی مزّقت جیوش الأحزاب شرّ ممزّق،و کذلک جنود اللّه الغیبیین،و من جمله هذه العوامل و الإجراءات:

۱-أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله أدخل بقبوله اقتراح حفر الخندق أسلوبا جدیدا لم یکن موجودا و معروفا بین العرب إلی ذلک الیوم،و کان عاملا مهمّا فی رفع معنویات المسلمین و کسر شوکه الکفّار.

۲-المواقف و الحسابات الدقیقه للمسلمین،و الأسالیب و المناورات العسکریه کانت عاملا مؤثّرا فی عدم نفوذ العدوّ إلی داخل المدینه.

۳-قتل عمرو بن عبد ودّ علی ید بطل الإسلام العظیم علی بن أبی طالب علیه الصلاه و السّلام،و تبدید آمال الأحزاب بقتله یعدّ عاملا مؤثّرا آخر.

۴-الإیمان باللّه،و التوکّل علیه،و الذی غرسه النّبی صلّی اللّه علیه و آله فی قلوب المسلمین، و سقاه المسلمون علی امتداد الحرب بتلاوه القرآن و کلمات النّبی صلّی اللّه علیه و آله المؤثّره.

۵-أسلوب النّبی صلّی اللّه علیه و آله و روحه الکبیره،و اعتماده علی نفسه الذی یمنح المسلمین قوّه و اطمئنانا.

۶-إضافه إلی ذلک،فإنّ عمل«نعیم بن مسعود»کان أحد العوامل المهمّه فی إیجاد الفرقه بین جیوش الأحزاب.

ز-نعیم بن مسعود و بثّ الفرقه فی جیش العدوّ! جاء«نعیم»إلی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و کان قد أسلم لتوّه،و لم تعلم قبیلته(غطفان) بإسلامه،فقال:أسلمت و لم یعلم بی أحد من قومی فمرنی بأمرک،

فقال له النّبی صلّی اللّه علیه و آله: «إنّما أنت فینا رجل واحد،فخذل عنّا ما استطعت،فإنّما الحرب خدعه».

فانطلق نعیم بخطّه رائعه،و أتی یهود بنی قریظه،و کانت له معهم صداقه فی الجاهلیه،فقال لهم:إنّی لکم صدیق،و أنتم تعلمون ذلک،فقالوا:صدقت،و نحن لا نتّهمک أبدا،فقال:إنّ البلد بلدکم و به أموالکم و أبناؤکم و نساؤکم،و إنّما قریش

و غطفـان بلاـدهم غيرهـا،و إنّمـا جاءوا حتّى نزلوا معكم فإن رأوا فرصه انتهزوها، و إن رأوا غير ذلک رجعوا إلى بلادهم و خلوا بينكم و بين الرجـل،و لاـ طاقه لكم به، فلاـ تقـاتلوا حتّى تأخـذوا رهنـا من أشـرافهم تسـتوثقون به أن لاـ يـبرحوا حتّى ينـاجزوا محمّدا،فقالوا:قد أشرت برأى،فقبل بنو قريظه قوله.

ثمّ أتى أبـا سـفيان و أشـراف قريش متخفّيـا،فقـال:يا معشـر قريش، إنّكم قـد عرفتم ودّى إيّاكم و فراقى محمّـدا و دينه،و إنّى قد جئتكم بنصـيحه فاكتموا علىّ، فقالوا:نفعل،قال:تعلمون أنّ بنى قريظه قـد ندموا على ما صـنعوا بينهم و بين محمّد فبعثوا إليه:أنّه لا يرضـيک عنّا إلاّ أن نأخذ من القوم رهنا من أشـرافهم و ندفعهم إليک فتضرب أعناقهم،ثمّ نكون معک عليهم حتّى نخرجهم من بلادک،فقالوا:بلى،فإن بعثوا إليكم يسألونكم نفرا من رجالكم فلا تعطوهم رجلا واحدا و احذروا.

ثمّ جـاء إلى غطفـان قبيلته،فقال:تعلمون حسبى و نسبى،و أنا أودّكم،و لا أظنّكم تشكّون فى صـدقى،فقالوا:نعلم ذلک،فقال:لكم عندى خبر فاكتموه علىّ، فقالوا:نفعل،فقال لهم ما قال لقريش.و كان ذلک ليله السبت من شوّال سنه خمس من الهجره.

فأرسـل أبو سـفيان و رؤساء غطفان جماعه إلى بنى قريظه فقالوا:إنّ الكراع و الخفّ قـد هلكا،و إنّا لسـنا بـدار مقام،فاخرجوا إلى محمّد حتّى نناجزه.

فأجابهم اليهود:إنّ غدا السبت،و هو يوم لا نعمل فيه،و لسـنا مع ذلک بالذين نقاتل معكم حتّى تعطونا رهنا من رجالكم نسـتوثق بهم لا تذهبوا و تدعونا حتّى نناجز محمّدا.

فلمّا بلغ ذلک قريشا و غطفان قالوا:و اللّه لقـد حـذّرنا هـذا نعيم،فبعث إليهم أبو سـفيان:إنّا لا نعطيكم رجلا واحـدا فإن شـئتم أن تخرجوا و تقاتلوا،و إن شئتم فاقعدوا.

و لمّا علمت اليهود بذلک قالوا:هذا و اللّه الذى قال لنا نعيم،فإنّ فى الأمر حيله،

و هؤلاء لا يريدون القتال،و يريدون أن يغيروا و يرجعوا إلى ديارهم و يذروكم و محمّدا.

فأرسلوا إلى قريش و غطفان:إنّا و اللّه لا نقاتل حتّى تعطونا رهنا،فأصرّت قريش و غطفان على قولهما فوقع الاختلاف بينهم،و بعث اللّه سبحانه عليهم الريح فى ليال شاتيه قارصه البرد،قلعت خيامهم،و كفأت قدورهم.

لقد اتّحدت هذه العوامل،فحزم الجميع أمتعتهم و رجّحوا الفرار على القرار،و لم يبق منهم رجل فى ساحه الحرب (1) .

ح-قصّه حذيفه جاء فى كثير من التواريخ أنّ«حذيفه اليمانى»قال:و اللّه،لقد رأيتنا يوم الخندق و بنا من الجهد و الجوع و الخوف ما لا يعلمه إلاّ اللّه،و فى ليله من الليالى- بعد أن وقع الاختلاف بين جيش الأحزاب-

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله: «ألا رجل يأتينا بخبر القوم يجعله اللّه رفيقى فى الجنّه».

قال حذيفه:فو اللّه ما قام منّا أحد ممّا بنا من الخوف و الجوع،فلمّا رأى النّبى صلّى اللّه عليه و آله ذلك دعانى،فقلت:لبّيك،

قال: «اذهب فجئنى بخبر القوم و لا تحدثنّ شيئا حتّى ترجع» ،فأتيت القوم فإذا ريح اللّه و جنوده تفعل بهم ما تفعل،ما يستمسك لهم بناء،و لا تثبت لهم نار،و لا يطمئن لهم قدر،فإنّى لكذلك إذ خرج أبو سفيان من رحله،ثمّ قال:يا معشر قريش،لينظر أحدكم من جليسه لئلاّ يكون هنا غريب، فبدأت بالذى عن يمينى،فقلت:من أنت؟قال:أنا فلان،فقلت:حسنا.

ثمّ عاد أبو سفيان براحلته،فقال:يا معشر قريش-و اللّه-ما أنتم بدار مقام، هلك الخفّ و الحافر،و أخلفتنا بنو قريظه،و هذه الريح لا يستمسك لنا معها شىء،

١- ١) سيره ابن هشام،المجلّد ٣،صفحه ٢٤٠ باختصار.

ثمّ عجّل فركب راحلته و إنّها لمعقوله ما حلّ عقالها إلاّ بعد ما ركبها.

فقلت فى نفسى:لو رميت عدوّ اللّه و قتلته كنت قد صنعت شيئا،فوترت قوسى ثمّ وضعت السهم فى كبد القوس،فلمّا أردت أن أطلقه ذكرت

قول رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله:

«لا تحدثنّ شيئا حتّى ترجع» و إنّه طلب منّى أن آتيه بالخبر و حسب،حططت القوس ثمّ رجعت إلى رسول اللّه فأخبرته الخبر،

فقال النّبى صلّى اللّه عليه و آله: «اللهمّ أنت منزل الكتاب،سريع الحساب،أهزم الأحزاب،اللهمّ أهزمهم و زلزلهم» (۱) .

ط-نتائج حرب الأحزاب لقد كانت حرب الأحزاب نقطه انعطاف فى تاريخ الإسلام،قلبت كفّه التوازن العسكرى و السياسى لصالح المسلمين إلى الأبد.و يمكن تلخيص النتائج المثمره لهذه المعركه فى عدّه نقاط:

أ-فشل مساعى العدو،و تحطّم قواه.

ب-كشف المنافقين،و فضح الأعداء الداخليين الخطرين.

ج-جبران الذكرى الأليمه لهزيمه أحد.

د-قوّه المسلمين،و ازدياد هيبتهم فى قلوب الأعداء.

ه-ارتفاع معنويات المسلمين نتيجه للمعجزات العظيمه التى رأوها فى هذه المعركه.

و-تثبيت مركز النّبى صلّى اللّه عليه و آله فى داخل المدينه و خارجها.

ر-تهيؤ الأرضيه لتصفيه المدينه و إنقاذها من شرّ بنى قريظه.

۲-النّبى أسوه و قدوه

نعلم أنّ إختيار رسول اللّه من بين البشر إنّما هو من أجل أن يكونوا قدوه عمليه

۱- ۱) بحار الأنوار،ج ۲۰،صفحه ۲۰۸.

للأمم،لأنّ أهمّ جانب من جوانب دعوه الأنبياء و أكثرها تأثيرا هى الدعوه العمليه،و لذلك فإنّ علماء الإسلام اعتبروا العصمه شرطا لمقام النبوّه،و إحدى أدلّتها و براهينها هى أنّهم يجب أن يكونوا«قدوه»للناس،و«أسوه»للبشر.

و ممّا يسترعى الانتباه أنّ التأسّي بالنّبى صلّى اللّه عليه و آله الوارد فى هذه الآيه قد جاء بصوره مطلقه،و هذا يشمل التأسّي فى كافّه المجالات بالرغم من أنّ سبب نزول هذه الآيات هى معركه الأحزاب،و نعلم أنّ أسباب النّزول لا تحدّد مفاهيم الآيات بها مطلقا،و لذلك نرى فى الأحاديث الشريفه أنّ أهمّ المسائل و أبسطها قد طرحت فى مسأله التأسّى.

ففى حديث عن أمير المؤمنين على عليه السّلام: «إنّ الصبر على ولاه الأمر مفروض لقول اللّه عزّ و جلّ لنبيّه: فَاصْبِرْ كَمٰا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ و إيجابه مثل ذلك على أوليائه و أهل طاعته لقوله: لَقَدْ كٰانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللّٰهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ (۱) .

و

فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال: «إنّ رسول اللّه كان إذا صلّى العشاء الآخره أمر بوضوئه و سواكه فوضع عند رأسه مخمرا» ثمّ يبيّن كيفيه صلاه الليل التى كان يصلّيها النّبى صلّى اللّه عليه و آله، و يقول فى آخر الحديث: لَقَدْ كٰانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللّٰهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ (۲) .

و إذا ما اتّخذنا النّبى صلّى اللّه عليه و آله أسوه لنا فى حياتنا حقّا،فى إيمانه و توكّله،فى إخلاصه و شجاعته،فى تنظيم أمره و نظافته،و فى زهده و تقواه،فإن أسلوب حياتنا سيختلف تماما،و سيعمّ الضياء و السعاده كلّ زوايا حياتنا و نواحيها.

يجب اليوم على كلّ المسلمين،و خاصّه الشباب المؤمن،أن يقرءوا سيره نبيّنا الأكرم صلّى اللّه عليه و آله،بدقّه متناهيه و يحفظوها،و يجعلوه قدوه و أسوه لهم فى كلّ شيء،فإنّ هذا التأسّى و الاقتداء به سبيل السعاده،و مفتاح النصر و العزّه.

۱- ۱) إحتجاج الطبرسى طبقا لنقل نور الثقلين،ج ۴،ص ۲۵۵.

۲- ۲) وسائل الشيعه،المجلّد ۱،صفحه ۳۵۶.

۳-اذکروا اللّه کثیرا

لقد وردت الوصیّه بذکر اللّه-و خاصّه الذکر الکثیر-مرارا فی الآیات القرآنیه، و قد أولته الروایات الإسلامیه اهتماما کبیرا أیضا،حتّی أنّنا نقرأ

فی حدیث عن أبی ذرّ أنّه قال: دخلت المسجد فأتیت النّبی صلّی اللّه علیه و آله...فقال لی:«علیک بتلاوه کتاب اللّه و ذکر اللّه کثیرا فإنّه ذکر لک فی السماء و نور لک فی الأرض» (۱) .

و

جاء فی حدیث آخر عن الإمام الصادق علیه السّلام: «إذا ذکر العبد ربّه فی الیوم مائه مرّه کان ذلک کثیرا» (۲) .

و

فی حدیث آخر عن النّبی الأکرم صلّی اللّه علیه و آله أنّه قال لأصحابه: «أ لا أخبرکم بخیر أعمالکم و أزکاها عند ملیککم،و أرفعها فی درجاتکم،و خیر لکم من الدینار و الدرهم،و خیر لکم من أن تلقوا عدوّکم فتقتلونهم و یقتلونکم؟قالوا:بلی یا رسول اللّه،قال:ذکر اللّه کثیرا» (۳) .

لکن لا ینبغی أن یتصوّر أنّ المراد من ذکر اللّه بکلّ هذه الفضیله هو الذکر اللسانی فقط،بل قد صرّحت الروایات الإسلامیه أنّ المراد منه إضافه لما مرّ هو الذکر القلبی و العملی،أی أنّ الإنسان یذکر اللّه عند ما یواجه حراما فیترکه.

إنّ الهدف أن یجعل الإنسان اللّه نصب عینیه دائما،و یشعر بحضوره و شهادته الدائمه،و أن یغمر نور اللّه کلّ حیاته،فیفکّر فیه و یذکره دائما،و لا یغفل عن أوامره بل یطیعها.

إنّ مجالس الذکر لیست تلک المجالس التی یجتمع فیها جماعه من المغفّلین و یشرعون فی الطعام و الشراب،و تتخلّل مجالسهم تلک مجموعه من الأذکار

۱- ۱) الخصال،طبقا لنقل نور الثقلین،المجلّد ۴،ص ۲۵۷.

۲- ۲) سفینه البحار،المجلّد ۱،صفحه ۴۸۴.

۳- ۳) المصدر السابق.

المخترعه،و البدع التی یروجونها،

فقـد ورد فی حدیث أنّ النّبی صـلّی اللّه علیه و آله قال: «بادروا إلی ریاض الجنّه،قالوا:و ما ریاض الجنّه؟قال:حلق الذکر» (1) ، و المراد منهـا الحلقات التی تحیا فیها العلوم الإسـلامیه،و تطرح البحوث التربویه التی تؤدّی إلی تهـذیب الناس و تطهیر المـذنبین و تدفعهم إلی سبیل اللّه (2) .

1- 1) سفینه البحار،المجلّد 1،ص 486.

2- 2) کان لنا بحث آخر حول أهمیّه ذکر اللّه و مفهومه ذیل الآیه(120)من سوره الرعد.

الآیتان [سوره الأحزاب (۳۳): الآیات ۲۶ الی ۲۷]

اشاره

وَ أَنْزَلَ اَلَّذِینَ ظٰاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ اَلْکِتٰابِ مِنْ صَیٰاصِیهِمْ وَ قَذَفَ فِی قُلُوبِهِمُ اَلرُّعْبَ فَرِیقاً تَقْتُلُونَ وَ تَأْسِرُونَ فَرِیقاً (۲۶) وَ أَوْرَثَکُمْ أَرْضَهُمْ وَ دِیٰارَهُمْ وَ أَمْوٰالَهُمْ وَ أَرْضاً لَمْ تَطَؤُهٰا وَ کٰانَ اَللّٰهُ عَلیٰ کُلِّ شَیْءٍ قَدِیراً (۲۷)

التّفسیر

غزوه بنی قریظه انتصار عظیم آخر:

کان فی المدینه ثلاث طوائف معروفه من الیهود،و هم:بنو قریظه،و بنو النضیر، و بنو قینقاع،و کانت هذه الطوائف قد عاهدت النّبی صلّی اللّه علیه و آله علی أن لا تعین عدوّا له و لا یتجسّسوا لذلک العدوّ،و أن یعیشوا مع المسلمین بسلام،إلاّ أنّ«بنی قینقاع» قد نقضوا عهدهم فی السنه الثّانیه للهجره،و«بنو النضیر»فی السنه الرّابعه للهجره بأعذار شتّی،و صمّموا علی مواجهه النّبی صلّی اللّه علیه و آله و انهارت مقاومتهم فی النهایه، و طردوا إلی خارج المدینه،فذهب«بنو قینقاع»إلی أذرعات الشام،و ذهب بعض

«بنی النضیر»إلی خیبر،و بعضهم الآخر إلی الشام (۱) .

بناء علی هذا فإنّ«بنی قریظه»کانوا آخر من بقی فی المدینه إلی السنه الخامسه للهجره حیث وقعت غزوه الأحزاب،و کما قلنا فی تفسیر الآیات السبع عشره المتعلّقه بمعرکه الأحزاب،فإنّهم نقضوا عهدهم فی هذه المعرکه،و اتّصلوا بمشرکی العرب،و شهروا السیوف بوجه المسلمین.

بعد انتهاء غزوه الأحزاب و التراجع المشین و المخزی لقریش و غطفان و سائر قبائل العرب عن المدینه،فإنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله-طبقا للرّوایات الإسلامیه-عاد إلی منزله و خلع لامه الحرب و ذهب یغتسل،فنزل علیه جبرئیل بأمر اللّه و قال:لماذا ألقیت سلاحک و هذه الملائکه قد استعدّت للحرب؟علیک أن تسیر الآن نحو بنی قریظه و تنهی أمرهم.

لم تکن هناک فرصه لتصفیه الحساب مع بنی قریظه أفضل من هذه الفرصه، حیث کان المسلمون فی حراره الإنتصار،و بنو قریظه یعیشون لوعه الهزیمه المرّه، و قد سیطر علیهم الرعب الشدید،و کان حلفاؤهم من قبائل العرب متعبین منهکی القوی خائری العزائم،و هم فی طریقهم إلی دیارهم یجرّون أذیال الخیبه،و لم یکن هناک من یحمیهم و یدافع عنهم.

هنا نادی مناد من قبل رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله بأن توجّهوا إلی بنی قریظه قبل أن تصلّوا العصر،فاستعدّ المسلمون بسرعه و تهیّئوا للمسیر إلی الحرب،و ما کادت الشمس تغرب إلاّ و کانت حصون بنی قریظه المحکمه محاصره تماما.

لقد استمرت هذه المحاصره خمسه و عشرین یوما،و أخیر سلّموا جمیعا-کما سیأتی فی البحوث-فقتل بعضهم،و أضیف إلی سجل انتصارات المسلمین انتصار عظیم آخر،و تطهّرت أرض المدینه من دنس هؤلاء المنافقین و الأعداء اللدودین

۱- ۱) الکامل لابن الأثیر،المجلّد ۲،صفحه ۱۳۷-۱۷۳.

إلى الأبد.

و قد أشارت الآيات-مورد البحث-إشاره مختصره و دقيقه إلى هذه الحادثه، و كما قلنا فإنّ هذه الآيات نزلت بعد الإنتصار،و أوضحت أنّ هذه الحادثه كانت نعمه و موهبه إلهيّه عظيمه،فتقول الآيه أوّلا: وَ أَنْزَلَ الَّذِينَ ظٰاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتٰابِ مِنْ صَيٰاصِيهِمْ .

«الصياصى»جمع(صيصيه)،أي:القلعه المحكمه،ثمّ أطلقت على كلّ وسيله دفاعيه،كقرون البقر،و مخالب الديك.و يتّضح هنا أنّ اليهود كانوا قد بنوا قلاعهم و حصونهم إلى جانب المدينه فى نقطه مرتفعه،و التعبير ب(أنزل)يدلّ على هذا المعنى.

ثمّ تضيف الآيه: وَ قَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ و أخيرا بلغ أمرهم أنّكم فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَ تَأْسِرُونَ فَرِيقاً وَ أَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَ دِيٰارَهُمْ .

إنّ هذه الجمل تمثّل مختصرا و جانبا من نتائج غزوه بنى قريظه،حيث قتل جمع من أولئك الخائنين على يد المسلمين،و أسر آخرون،و غنم المسلمون منهم غنائم كثيره من جملتها أراضيهم و ديارهم و أموالهم.

و التعبير عن هذه الغنائم ب«الإرث»لأنّ المسلمين لم يبذلوا كثير جهد للحصول عليها،و سقطت فى أيديهم بسهوله كلّ تلك الغنائم التى كانت حصيله سنين طويله من ظلم و جور اليهود و استثماراتهم فى المدينه.

و تقول الآيه فى النهايه: وَ أَرْضاً لَمْ تَطَؤُهٰا وَ كٰانَ اللّٰهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً .

هناك اختلاف بين المفسّرين فى المقصود من أَرْضاً لَمْ تَطَؤُهٰا و أيّ أرض هى؟ فاعتبرها البعض إشاره إلى أرض خيبر التى فتحت على أيدى المسلمين فيما بعد.

و اعتبرها آخرون إشاره إلى أرض مكّه.

و آخرون يعتقدون أنّها إشاره إلى أرض الروم و فارس.

و يرى البعض أنّها إشاره إلى جميع الأراضى و البلدان التى وقعت فى يد المسلمين من ذلك اليوم و ما بعده إلى يوم القيامه.

إلّا أنّ أيّا من هذه الاحتمالات لا يناسب ظاهر الآيه،لأنّ الآيه-بقرينه الفعل الماضى الذى جاء فيها(أورثكم)-شاهده على أنّ هذه الأرض قد أصبحت تحت تصرّف المسلمين فى حادثه غزوه بنى قريظه،إضافه إلى أنّ أرض مكّه-و هى إحدى التفاسير السابقه-لم تكن أرضا لم يطأها المسلمون،فى حين أنّ القرآن الكريم يقول: وَ أَرْضاً لَمْ تَطَؤُها .

و الظاهر أنّ هذه الجمله إشاره إلى البساتين و الأراضى الخاصّه ببنى قريظه، و التى لم يكن لأحد الحقّ فى دخولها،لأنّ اليهود كانوا يبذلون قصارى جهودهم فى سبيل الحفاظ على أموالهم و حصرها فيما بينهم.

و لو أغمضنا،فإنّها تتناسب كثيرا مع أرض«خيبر»التى أخذت من اليهود بعد مدّه ليست بالبعيده،و أصبحت فى حوزه المسلمين،حيث إنّ معركه«خيبر»وقعت فى السنه السابعه للهجره.

بحوث

اشاره

۱-غزوه بنى قريظه و دوافعها

إنّ القرآن الكريم يشهد بأنّ الدافع الأساس لهذه الحرب هو دعم يهود بنى قريظه لمشركى العرب و مساندتهم فى حرب الأحزاب،لأنّه يقول: اَلَّذِينَ ظاهَرُوهُمْ .

إضافه إلى أنّ اليهود فى المدينه كانوا يعتبرون الطابور الخامس لأعداء الإسلام،و كانوا مجدّين فى الإعلام المضادّ للإسلام،و يغتنمون كلّ فرصه مناسبه

للبطش بالمسلمين و الفتک بهم.

و کما قلنا سابقا،فإنّ هـذه الطائفه هی الوحیـده من الطوائف الثلاث(بنو القینقاع،و بنو النضـیر،و بنو قریظه)التی بقیت فی المـدینه عنـد نشوب معرکه الأحزاب،فقـد طردت الطائفتان الأوّلیان فی السـنه الثّانیه و الرّابعه للهجره،و کان یجب أن تعاقب هـذه الطائفه علی أعمالها الخبیثه و جرائمها،لأنّها کانت أوقح من الجمیع و أکثر علانیه فی نقضها لمیثاقها و اتّصالها بأعداء الإسلام.

۲-أحداث غزوه بنی قریظه

قلنـا:إنّ النّبی صـلّی اللّه علیه و آله قـد امر بعـد انتهـاء معرکه الأـحزاب مباشـره أن یحـاسب بنی قریظه علی أعمـالهم،و یقـال:إنّ المسـلمین قد تعجّلوا الوصول إلی حصون بنی قریظه بحیث إنّ البعض قد غفل عن صـلاه العصـر فاضـطّروا إلی قضائها فیما بعد، فقـد أمر النّبی صـلّی اللّه علیه و آله أن تحاصـر حصونهم،و دام الحصـار خمسه و عشـرین یومـا،و قـد ألقی اللّه عزّ و جلّ الرعب الشدید فی قلوب الیهود،کما یتحدّث القرآن عن ذلک.

فقال«کعب بن أسـد»-و کان من زعماء الیهود-:إنّی علی یقین من أنّ محمّدا لن یترکنا حتّی یقاتلنا،و أنا أقترح علیکم ثلاثه امور اختاروا أحدها:

إمّا أن نبایع هـذا الرجل و نؤمن به و نتّبعه،فإنّه قـد ثبت لکم أنّه نبی اللّه،و أنتم تجـدون علاماته فی کتبکم،و عند ذلک سـتصان أرواحکم و أموالکم و أبناؤکم و نساؤکم،فقالوا:لا نرجع عن حکم التوراه أبدا،و لا نقبل بدلها شیئا.

قال:فإذا رفضتم ذلک،فتعالوا نقتل نساءنا و أبناءنا بأیدینا حتّی یطمئن بالنا من قبلهم،ثمّ نسلّ السیوف و نقاتل محمّدا و أصحابه و نری مـا یریـده اللّه،فـإن قتلنـا لم نقلق علی أبنائنـا و نسائنـا،و إن انتصـرنا فمـا أکثر النسـاء و الأولاد.فقـالوا:أ نقتل هؤلاء المساکین بأیدینا؟!إذن لا خیر فی حیاتنا بعدهم.

قال کعب بن أسد:فإن أبیتم هذا أیضا فإنّ اللیله لیله السبت،و أنّ محمّدا

و أصحابه يظنون أنّنا لا نهجم عليهم الليله،فهلمّوا نبيّتهم و نباغتهم و نحمل عليهم لعلّنا ننتصر عليهم.فقالوا:و لا نفعل ذلك،لأنّا لا نهتك حرمه السبت أبدا.

فقال كعب:ليس فيكم رجل يعقل ليله واحده منذ ولدته امّه.

بعد هذه الحادثه طلبوا من النّبى صلّى اللّه عليه و آله أن يرسل إليهم«أبا لبابه»ليتشاوروا معه، فلمّا أتاهم و رأى أطفال اليهود يبكون أمامه رقّ قلبه،فقال الرجال:أ ترى لنا أن نخضع لحكم محمّد صلّى اللّه عليه و آله؟فقال أبو لبابه:نعم،و أشار إلى نحره،أى إنّه سيقتلكم جميعا! يقول أبو لبابه:ما إن تركتهم حتّى انتبهت لخيانتى،فلم آت النّبى صلّى اللّه عليه و آله مباشره، بل ذهبت إلى المسجد و أوثقت نفسى بعمود فيه و قلت:لن أبرح مكانى حتّى يقبل اللّه توبتى،فقبل اللّه توبته لصدقه و غفر ذنبه و أنزل وَ آخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ . (۱)

و أخيرا اضطرّ بنو قريظه إلى أن يستسلموا بدون قيد أو شرط،

فقال النّبى صلّى اللّه عليه و آله:

«أ لا ترضون أن يحكم فيكم سعد بن معاذ»؟قالوا:بلى، فقال سعد:قد آن لسعد أن لا تأخذه فى اللّه لومه لائم.

ثمّ أخذ سعد الإقرار من اليهود مجدّدا بأنّهم يقبلون بما يحكم،و بعدها التفت إلى حيث كان النّبى صلّى اللّه عليه و آله واقفا فقال:حكمى فيهم نافذ؟قال:نعم،فقال:انّنى أحكم بقتل رجالهم المحاربين،و سبى نسائهم و ذراريهم،و تقسيم أموالهم.

و قد أسلم جمع من هؤلاء فنجوا (۲) .

۳-نتائج غزوه بنى قريظه

إنّ الإنتصار على أولئك القوم الظالمين العنودين قد حمل معه نتائج مثمره للمسلمين،و من جملتها:

۱- ۱) سوره التوبه،الآيه ۱۰۲.

۲- ۲) سيره ابن هشام،المجلّد ۳،صفحه ۲۴۴ و ما بعدها،و الكامل لابن الأثير،ج ۲،ص ۱۸۵ و ما بعدها بتلخيص.

أ-تطهير الجبهه الداخليه للمدينه،و اطمئنان المسلمين و تخلّصهم من جواسيس اليهود.

ب-سقوط آخر دعامه لمشركى العرب فى المدينه،و قطع أملهم من إثاره القلاقل و الفتن داخليا.

ج-تقويه بنيه المسلمين الماليه بواسطه غنائم هذه الغزوه.

د-فتح آفاق جديده للانتصارات المستقبليه،و خاصه فتح«خيبر».

ه-تثبيت مكانه الحكومه الإسلاميه و هيبتها فى نظر العدوّ و الصديق،فى داخل المدينه و خارجها.

۴-الآيات و تعبيراتها العميقه!

إنّ من جمله التعبيرات التى تلاحظ فى الآيات أعلاه أنّها تقول فى مورد قتلى هذه الحرب: فَرِيقاً تَقْتُلُونَ أى أنّها قدّمت(فريقا)على(تقتلون)فى حين أنّها أخّرت(فريقا)عن الفعل«تأسرون»! و قال بعض المفسّرين فى تفسير ذلك:إنّ سبب هذا التعبير هو التأكيد على الأشخاص فى مسأله القتلى،لأنّ رؤساءهم كانوا فى جمله القتلى،أمّا الأسرى فإنّهم لم يكونوا أناسا معروفين ليأتى التأكيد عليهم.إضافه إلى أنّ هذا التقديم و التأخير أدّى إلى أن يقترن«القتل و الأسر»-و هما عاملا الإنتصار على العدو- و يكون أحدهما إلى جنب الآخر،مراعاه للانسجام بين الأمرين أكثر.

و كذلك ورد إنزال اليهود من«صياصيهم»قبل جمله: وَ قَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فى حين أنّ الترتيب الطبيعى على خلاف ذلك،أى أنّ الخطوه الاولى هى إيجاد الرعب،ثمّ إنزالهم من الحصون المنيعه.و سبب هذا التقديم و التأخير هو أنّ المهمّ بالنسبه للمسلمين،و المفرّح لهم،و الذى كان يشكّل الهدف الأصلى هو تحطيم هذه القلاع المحصّنه جدّا.

و التعبير ب أَوْرَثَكَمْ أَرْضَهُمْ وَ دِيَارَهُمْ يبيّن حقيقه أنّ اللّه سبحانه قد سلّطكم على أراضيهم و ديارهم و أموالهم دون أن تبذلوا كثير جهد فى هذه الغزوه.

و أخيرا فإنّ التأكيد على قدره اللّه عزّ و جلّ فى آخر آيه: وَ كَانَ اللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً إشاره إلى أنّه سبحانه قد هزم الأحزاب بالرياح و العواصف و الجنود الغيبيين يوما،و هزم ناصريهم-أى يهود بنى قريظه-بجيش الرعب و الخوف يوما آخر.

الآيات [سوره الأحزاب (۳۳): الآيات ۲۸ الى ۳۱]

اشاره

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَياةَ الدُّنْيا وَ زِينَتَها فَتَعالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَ أُسَرِّحْكُنَّ سَراحاً جَمِيلاً (۲۸) وَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللّهَ وَ رَسُولَهُ وَ الدّارَ الْآخِرَهَ فَإِنَّ اللّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِناتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً (۲۹) يا نِساءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفاحِشَهٍ مُبَيِّنَهٍ يُضاعَفْ لَهَا الْعَذابُ ضِعْفَيْنِ وَ كانَ ذلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيراً (۳۰) وَ مَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تَعْمَلْ صالِحاً نُؤْتِها أَجْرَها مَرَّتَيْنِ وَ أَعْتَدْنا لَها رِزْقاً كَرِيماً (۳۱)

سبب النّزول

ذكر المفسّرون أسباب نزول عديده للآيات أعلاه،و هى لا تختلف عن بعضها كثيرا من جهه النتيجه.

و يستفاد من أسباب النّزول هذه أنّ نساء النّبى قد طلبن منه طلبات مختلفه فيما يتعلّق بزياده النفقه،أو لوازم الحياه المختلفه،بعد بعض الغزوات التى و فّرت للمسلمين غنائم كثيره.

ص: ۲۲۵

و طبقا لنقل بعض التفاسير فإنّ«أمّ سلمه»طلبت من النّبی صلّی اللّه علیه و آله خادما لها، و طلبت«میمونه»حلّه،و أرادت«زینب بنت جحش»قماشا یمنیا خاصّا،و «حفصه»لباسا مصریا،و«جویریه»لباسا خاصّا،و«سوده»بساطا خیبریا! و النتیجه أنّ کلا منهنّ طلبت شیئا.فامتنع النّبی صلّی اللّه علیه و آله عن تلبیه طلباتهنّ،و هو یعلم أنّ الاستسلام أمام هذه الطلبات التی لا تنتهی سیحمل معه عواقب وخیمه، و اعتزلهنّ شهرا،فنزلت الآیات أعلاه و خاطبتهنّ بنبره التهدید و الحزم الممتزج بالرأفه و الرحمه،بأنکنّ إن کنتنّ تردن حیاه مملوءه بزخارف الدنیا و زبارجها فبإمکانکن الانفصال عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و الذهاب إلی حیث تردن،و إن فضّلتنّ علاقتکنّ باللّه و رسوله و الیوم الآخر،و اقتنعتنّ بحیاه النّبی صلّی اللّه علیه و آله البسیطه و الباعثه علی الفخر،فابقین معه،و تنعمنّ بمواهب اللّه العظیمه.

بهذا الجواب القاطع أجابت الآیات نساء النّبی اللائی کن یتوقّعن رفاهیه العیش،و خیّرتهنّ بین«البقاء»مع النّبی صلّی اللّه علیه و آله و«مفارقته».

التّفسیر

اشاره

أمّا السعاده الخالده أو زخارف الدنیا!

لم یعزب عن أذهانکم أنّ الآیات الاولی من هذه السوره قد توّجت نساء النّبی بتاج الفخر حیث سمّتهنّ ب(أمهات المؤمنین)و من البدیهی أنّ المناصب و المقامات الحسّاسه التی تبعث علی الفخر تصاحبها مسئولیات ثقیله،فکیف یمکن أن تکون نساء النّبی امّهات المؤمنین و قلوبهنّ و أفکارهنّ مشغوله بحبّ الدنیا و مغریاتها؟ و هکذا ظننّ،فإنّ الغنائم إذا سقطت فی أیدی المسلمین فلا شکّ أنّ نصیبهنّ سیکون أفخرها و أثمنها کبقیّه نساء الملوک و السلاطین،و یعطی لهنّ ما ناله

المسلمون بتضحيات الفدائيين الثائرين و دماء الشهداء الطاهره،فى الوقت الذى يعيش هنا و هناک أناس فى غايه العسره و الشظف.

و بغضّ النظر عن ذلک،فإنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله يجب أن لا يكون لوحده أسوه للناس بحكم الآيات السابقه،بل يجب أن تكون عائلته أسوه لباقى العوائل أيضا،و نساؤه قدوه للنساء المؤمنات حتّى تقوم القيامه،فليس النّبى صلّى اللّه عليه و آله ملكا و إمبراطورا ليكون له جناح خاصّ للنساء،و يغرق نساءه بالحلىّ و المجوهرات الثمينه النفيسه.

و ربّما كان هناک جماعه من المسلمين المهاجرين الذين وردوا المدينه لا يزالون يقضون ليلهم على الصفّه(و هى مكان خاصّ كان إلى جنب مسجد النّبى) حتّى الصباح،و لم يكن لهم فى تلک المدينه أهل و لا دار،و فى مثل هذه الأحوال لا يمكن أن يسمح النّبى صلّى اللّه عليه و آله لأزواجه أن يتوقّعن كلّ تلک الرفاهيه و التوقّعات الاخرى.

و يستفاد من بعض الرّوايات أنّ بعض أزواجه قد كلّمنه بكلام خشن جاف، حتّى أنّهنّ قلن:لعلّک تظنّ إن طلّقتنا لا نجد زوجا من قومنا غيرک (1) .هنا امر النّبى صلّى اللّه عليه و آله أن يواجه هذه المسأله بحزم تامّ،و يوضّح لهنّ حاله الدائمى،فخاطبت الآيه الاولى من الآيات أعلاه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و قالت: يٰا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوٰاجِکَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيٰاةَ الدُّنْيٰا وَ زِينَتَهٰا فَتَعٰالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَ أُسَرِّحْكُنَّ سَرٰاحاً جَمِيلاً .

«امتّعكن»من مادّه متعه،و كما قلنا فى الآيه(236)من سوره البقره،فإنّها تعنى الهديه التى تلائم أحوال المرأه.و المراد هنا المقدار المناسب الذى يضاف على المهر،و إن لم يكن المهر معيّنا فإنّه يعطيها هديه لائقه بحالها بحيث ترضيها و تسرّها،و يتمّ طلاقها و فراقها فى جوّ هادئ مفعم بالحبّ.

«السراح»فى الأصل من مادّه(سرح)أى الشجره التى لها ورق و ثمر،و

1- 1) كنز العرفان،المجلّد 2،ص 238.

«سرّحت الإبل»،أی:أطلقتها لتأکل من الأعشاب و أوراق الشجر،ثمّ أطلقت بمعنی أوسع علی کلّ نوع من السراح و لکلّ شیء و شخص،و تأتی أحیانا کنایه عن الطلاق،و یطلق(تسریح الشعر)علی تمشیط الشعر و ترجیله،و فیه معنی الإطلاق أیضا.و علی کلّ حال فإنّ المراد من«السراح الجمیل»فی الآیه طلاق النساء و فراقهنّ فراقا مقترنا بالإحسان،و لیس فیه جبر و قهر.

و للمفسّرین و فقهاء المسلمین هنا بحث مفصّل فی أنّه هل المراد من هذا الکلام أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله قد خیّر نساءه بین البقاء و الفراق،و إذا ما انتخبن الفراق فإنّه یعتبر طلاقا بحدّ ذاته فلا یحتاج إلی إجراء صیغه الطلاق؟أم أنّ المراد هو أنّهنّ یخترن أحد السبیلین،فإن أردن الفراق أجری النّبی صلّی اللّه علیه و آله صیغه الطلاق،و إلاّ یبقین علی حالهنّ؟ و لا شکّ أنّ الآیه لا تدلّ علی أیّ من هذین الأمرین،و ما تصوّره البعض من أنّ الآیه شاهد علی تخییر نساء النّبی،و عدّوا هذا الحکم من مختصّات النّبی صلّی اللّه علیه و آله، لأنّه لا یجری فی سائر الناس،لا یبدو صحیحا،بل إنّ الجمع بین الآیه أعلاه و آیات الطلاق یوجب أن یکون المراد الفراق عن طریق الطلاق.

و هذه المسأله مورد نقاش بین فقهاء الشیعه و السنّه،إلاّ أنّ القول الثّانی-أی الفراق عن طریق الطلاق-یبدو أقرب لظواهر الآیات،إضافه إلی أنّ لتعبیر (أسرحکنّ)ظهورا فی أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله کان یقدّم علی تسریحهنّ،خاصّه و أنّ مادّه «التسریح»قد استعملت بمعنی الطلاق فی موضع آخر من القرآن الکریم(سوره البقره/الآیه ۲۲۹) (۱) .

و تضیف الآیه التالیه: وَ إِنْ کُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللّٰهَ وَ رَسُولَهُ وَ الدّٰارَ الْآخِرَهَ فَإِنَّ اللّٰهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنٰاتِ مِنْکُنَّ أَجْراً عَظِیماً .

۱- ۱) طالع التوضیح الأکثر فی هذا الباب فی الکتب الفقهیه،و خاصه کتاب الجواهر،المجلّد ۲۹،صفحه ۱۲۲ و ما بعدها.

لقد جمعت هذه الآيه كلّ أسس الإيمان و سلوكيات المؤمن،فمن جهه عنصر الإيمان و الإعتقاد باللّه و الرّسول و اليوم الآخر،و من جهه اخرى البرنامج العملى و كون الإنسان فى صفّ المحسنين و المحسنات،و بناء على هذا فإنّ إظهار عشق اللّه و حبّه،و التعلّق بالنّبى و اليوم الآخر لا يكفى لوحده،بل يجب أن تنسجم البرامج العمليه مع هذا الحبّ و العشق.

و بهذا فقد بيّن اللّه سبحانه تكليف نساء النّبى و واجبهنّ فى أن يكنّ قدوه و أسوه للمؤمنات على الدوام،فإن هنّ تحلين بالزهد و عدم الاهتمام بزخارف الدنيا و زينتها،و اهتممن بالإيمان و العمل الصالح و تسامى الروح،فإنّهن يبقين أزواجا للنبى و يستحقّنّ هذا الفخر،و إلاّ فعليهنّ مفارقته و البون منه.

و مع أنّ المخاطب فى هذه الآيه هو نساء النّبى إلاّ أنّ محتوى الآيات و نتيجتها تشمل الجميع،و خاصّه من كان فى مقام قياده الناس و إمامتهم و أسوه لهم،فإنّ هؤلاء على مفترق الطرق دائما،فإمّا أن يستغلّوا المنصب الظاهرى للوصول إلى الحياه الماديه المرفّهه،أو البقاء على حرمانهم لنوال رضى اللّه سبحانه و هدايه خلقه.

ثمّ تتناول الآيه التاليه بيان موقع نساء النّبى أمام الأعمال الصالحه و الطالحه، و كذلك مقامهنّ الممتاز،و مسئولياتهنّ الضخمه بعبارات واضحه،فتقول: يا نِسٰاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفٰاحِشَهٍ مُبَيِّنَهٍ يُضٰاعَفْ لَهَا الْعَذٰابُ ضِعْفَيْنِ وَ كٰانَ ذٰلِكَ عَلَى اللّٰهِ يَسِيراً .

فأنتنّ تعشن فى بيت الوحى و مركز النبوّه،و علمكنّ بالمسائل الإسلاميه أكثر من عامّه الناس لارتباطكنّ المستمر بالنّبى صلّى اللّه عليه و آله و لقائه،إضافه إلى أنّ الآخرين ينظرون إليكنّ و يتّخذون أعمالكنّ نموذجا و قدوه لهم.بناء على هذا فإنّ ذنبكنّ أعظم عند اللّه،لأنّ الثواب و العقاب يقوم على أساس المعرفه،و معيار العلم، و كذلك مدى تأثير ذلك العمل فى البيئه،فإنّ لكنّ حظّا أعظم من العلم،و لكنّ موقع

حسّاس له تأثيره فى المجتمع.

و يضاف إلى ذلك أنّ مخالفتكنّ تؤذى النّبى صلّى اللّه عليه و آله من جهه،و من جهه اخرى توجّه ضربه إلى كيانه و مركزه،و يعتبر هذا بحدّ ذاته ذنبا آخر،و يستوجب عذابا آخر.

و المراد من«الفاحشه المبيّنه»الذنوب العلنيه،و نعلم أنّ المفاسد التى تنجم عن الذنوب التى يقترفها أناس مرموقون تكون أكثر حينما تكون علنيه.

و لنا بحث فى مورد«الضعف»و«المضاعف»سيأتى فى البحوث.

أمّا قوله عزّ و جلّ: وَ كٰانَ ذٰلِكَ عَلَى اللّٰهِ يَسِيراً فهو إشاره إلى أن لا تظنّن أنّ عذابكنّ و عقابكنّ عسير على اللّه تعالى،و أنّ علاقتكنّ بالنّبى صلّى اللّه عليه و آله ستكون مانعه منه،كما هو المتعارف بين الناس حيث يغضّون النظر عن ذنوب الأصدقاء و الأقرباء،أو يعيرونها أهميّه قليله..كلاّ،فإنّ هذا الحكم سيجرى فى حقّكنّ بكلّ صرامه.

أمّا فى الطرف المقابل،فتقول الآيه: وَ مَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلّٰهِ وَ رَسُولِهِ وَ تَعْمَلْ صٰالِحاً نُؤْتِهٰا أَجْرَهٰا مَرَّتَيْنِ وَ أَعْتَدْنٰا لَهٰا رِزْقاً كَرِيماً .

«يقنت»من القنوت،و هو يعنى الطاعه المقرونه بالخضوع و الأدب (۱) ،و القرآن يريد بهذا التعبير أن يأمرهنّ بأن يطعن اللّه و رسوله،و يراعين الأدب مع ذلك تماما.

و نواجه هنا هذه المسأله مرّه اخرى،و هى أنّ مجرّد ادّعاء الإيمان و الطاعه لا يكفى لوحده،بل يجب أن تلمس آثاره بمقتضى وَ تَعْمَلْ صٰالِحاً .

«الرزق الكريم»له معنى واسع يتضمّن كلّ المواهب الماديه و المعنويه، و تفسيره بالجنّه باعتبارها مجمعا لكلّ هذه المواهب.

۱- ۱) المفردات للراغب،مادّه قنوت.

بحث

اشاره

لما ذا يضاعف ثواب و عقاب المرموقين؟

قلنا:إنّ هذه الآيات و إن كانت تتحدّث عن نساء النّبى بأنّهنّ إن أطعن اللّه فلهنّ أجر مضاعف،و إن ارتكبن ذنبا مبيّنا فلهنّ عذاب الضعف بما اكتسبن،إلاّ أنّ الملاك و المعيار الأصلى لما كان امتلاك المقام و المكانه المرموقه،و الشخصيه الاجتماعيه البارزه،فإنّ هذا الحكم صادق فى حقّ الأفراد الآخرين الذين لهم مكانه و مركز اجتماعى مهمّ.

إنّ مثل هؤلاء الأفراد لا يرتبط سلوكهم و تصرفاتهم بهم خاصّه،بل إنّ لوجودهم بعدين:بعد يتعلّق بهم،و بعد يرتبط بالمجتمع،و يمكن أن يكون نمط حياتهم سببا لهدايه جماعه من الناس،أو ضلال اخرى.

بناء على هذا فإنّ لأعمالهم أثرين:أحدهما فردى،و الآخر اجتماعى،و لكلّ منهما ثواب و عقاب بهذا اللحاظ،و لذلك نقرأ

فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال: «يغفر للجاهل سبعون ذنبا قبل أن يغفر للعالم ذنب واحد» (۱) ! و مضافا إلى ذلك،فإنّ العلاقه وثيقه بين مستوى العلميه و مقدار الثواب و العقاب،كما ورد ذلك فى بعض الأحاديث الشريفه،حيث نقرأ:

«إنّ الثواب على قدر العقل» (۲) .

و

جاء فى حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السّلام: «إنّما يداقّ اللّه العباد فى الحساب يوم القيامه على قدر ما آتاهم من العقول فى الدنيا» (۳) .

بل

ورد فى روايه عن الإمام الصادق عليه السّلام: إذا بلغت النفس هاهنا-و أشار بيده إلى حلقه-لم يكن للعالم توبه،ثمّ قرأ: إِنَّمَا التَّوْبَهُ عَلَى اللّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهالَهٍ

۱- ۱) اصول الكافى،المجلد الأول،ص ۳۷ باب لزوم الحجه على العالم.

۲- ۲) اصول الكافى،الجزء الأول،صفحه ۹ كتاب العقل و الجهل.

۳- ۳) المصدر السابق.

(۱)

.

و من هنا يتّضح أنّه ربّما كان معنى المضاعف و المرتين هنا هو الزياده،فقد تكون ضعفين حينا،و تكون أضعافا مضاعفه حينا آخر،تماما كما فى الأعداد التى لها صفه التكثير،خاصّه و أنّ الراغب يقول فى مفرداته فى معنى الضعف:

ضاعفته:ضممت إليه مثله فصاعدا-تأمّلوا بدقّه- و الروايه التى ذكرناها قبل قليل حول التفاوت بين ذنب العالم و الجاهل إلى سبعين ضعفا شاهد آخر على هذا الادّعاء.

إنّ تعدّد مراتب الأشخاص و اختلاف تأثيرهم فى المجتمع نتيجه اختلاف مكاناتهم الاجتماعيه،و كونهم أسوه يوجب أن يكون الثواب و العقاب الإلهى بتلك النسبه.

و ننهى هذا البحث بحديث

عن الإمام السجّاد علىّ بن الحسين عليهما السّلام، و ذلك أنّ رجلا قال له:إنّكم أهل بيت مغفور لكم،فغضب الإمام و قال:«نحن أحرى أن يجرى فينا ما أجرى اللّه فى أزواج النّبى صلّى اللّه عليه و آله من أن نكون كما تقول،إنّا نرى لمحسننا ضعفين من الأجر،و لمسيئنا ضعفين من العذاب،ثمّ قرأ الآيتين» (۲) .

۱- ۱) اصول الكافى،المجلّد الأوّل،صفحه ۳۸ باب لزوم الحجّه على العالم،و الآيه(۱۷)من سوره النساء.

۲- ۲) مجمع البيان،المجلّد ۸،صفحه ۳۵۴ ذيل الآيه مورد البحث.

الآیات [سوره الأحزاب (۳۳): الآیات ۳۲ الی ۳۴]

اشاره

یا نِساءَ اَلنَّبِیِّ لَسْتُنَّ کَأَحَدٍ مِنَ اَلنِّساءِ إِنِ اِتَّقَیْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَیَطْمَعَ اَلَّذِی فِی قَلْبِهِ مَرَضٌ وَ قُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً (۳۲) وَ قَرْنَ فِی بُیُوتِکُنَّ وَ لا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ اَلْجاهِلِیَّهِ اَلْأُولی وَ أَقِمْنَ اَلصَّلاهَ وَ آتِینَ اَلزَّکاهَ وَ أَطِعْنَ اَللّهَ وَ رَسُولَهُ إِنَّما یُرِیدُ اَللّهُ لِیُذْهِبَ عَنْکُمُ اَلرِّجْسَ أَهْلَ اَلْبَیْتِ وَ یُطَهِّرَکُمْ تَطْهِیراً (۳۳) وَ اُذْکُرْنَ ما یُتْلی فِی بُیُوتِکُنَّ مِنْ آیاتِ اَللّهِ وَ اَلْحِکْمَهِ إِنَّ اَللّهَ کانَ لَطِیفاً خَبِیراً (۳۴)

التّفسیر

اشاره

هکذا یجب أن تکون نساء النّبی!

کان الکلام فی الآیات السابقه عن موقع نساء النّبی و مسئولیاتهنّ الخطیره، و یستمرّ هذا الحدیث فی هذه الآیات،و تأمر الآیات نساء النّبی صلّی اللّه علیه و آله بسبعه أوامر مهمّه.

فیقول سبحانه فی مقدّمه قصیره: یا-نِساءَ النَّبِیِّ لَسْتُنَّ کَأَحَدٍ مِنَ النِّساءِ إِنِ

اتَّقَيْتُنَّ

فـإنّ انتسـابكنّ إلى النّبى من جـانب،و وجودكنّ فى منزل الوحى و سـماع آيـات القرآن و تعليمـات الإسـلام من جانب آخر،قد منحكن موقعا خاصّا بحيث تقدرن على أن تكن نموذجا و قدوه لكلّ النساء،سواء كان ذلك فى مسير التقوى أم مسير المعصيه،و بناء على هـذا ينبغى أن تـدركن موقعكنّ،و لا تنسـين مسـئولياتكنّ الملقاه على عاتقكنّ،و اعلمن أنّكنّ إن اتقيتنّ فلكنّ عنـد اللّه المقام المحمود.

و بعـد هذه المقدّمه التى هيّأتهنّ لتقبّل المسؤوليات و تحمّلها،فإنّه تعالى أصدر أوّل أمر فى مجال العفّه،و يؤكّد على مسأله دقيقه لتتّضح المسائل الاخرى فى هذا المجال تلقائيا، فيقول:

فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِى فِى قَلْبِهِ مَرَضٌ

بـل تكلّمن عنـد تحـدثكنّ بجـدّ و بأسـلوب عـادىّ،لاـ كالنسـاء المتميّعـات اللاـئى يسـعين من خلال حـديثهنّ الملىء بالعبارات المحرّكـه للشـهوه،و الـتى قـد تقـترن بـترخيم الصـوت و أداء بعض الحركـات المهيّجه،أن يـدفعن ذوى الشـهوات إلى الفسـاد و ارتكاب المعاصى.

إنّ التعبير ب اَلَّذِى فِى قَلْبِهِ مَرَضٌ تعبير بليغ جدّا،و مؤدّ لحقيقه أنّ الغريزه الجنسيه عند ما تكون فى حدود الاعتدال و المشروعيه فهى عين السـلامه،أمّـا عنـد مـا تتعـدّى هـذا الحـدّ فإنّهـا سـتكون مرضـا قـد يصل إلى حـدّ الجنون،و الـذى يعبّرون عنه بالجنون الجنسـى،و قد فصّل العلماء اليوم أنواعا و أقساما من هذا المرض النفسـى الذى يتولّد من طغيان هذه الغريزه،و الخضوع للمفاسـد الجنسيه و البيئات المنحطّه الملوّثه.

و يبيّن الأمر الثّانى فى نهايه الآيه فيقول عزّ و جلّ:يجب عليكنّ التحـدّث مع الآخرين بشـكل لائق و مرضـى للّه و رسوله،و مقترنا مع الحقّ و العدل: وَ قُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً .

إنّ جمله فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ إشاره إلى طريقه التحدّث،و جمله: وَ قُلْنَ قَوْلاً

مَعْرُوفاً

إشاره إلى محتوى الحديث.

«القول المعروف»له معنى واسع يتضمّن كلّ ما قيل،إضافه إلى أنّه ينفى كلّ قول باطل لا فائده فيه و لا هدف من ورائه،و كذلك ينفى المعصيه و كلّ ما خالف الحقّ.

ثمّ إنّ الجمله الأخيره قد تكون توضيحا للجمله الأولى لئلّا يتصوّر أحد أنّ تعامل نساء النّبى مع الأجانب يجب أن يكون مؤذيا و بعيدا عن الأدب الإسلامى، بل يجب أن يتعاملن بأدب يليق بهنّ،و فى الوقت نفسه يكون خاليا من كلّ صفه مهيّجه.

ثمّ يصدر الأمر الثالث فى باب رعايه العفّه،فيقول: وَ قَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَ لاٰ تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجٰاهِلِيَّهِ الْأُولىٰ .

«قرن»من مادّه الوقار،أى الثقل،و هو كنايه عن التزام البيوت.و احتمل البعض أن تكون من مادّه(القرار)،و هى لا تختلف عن المعنى الأوّل كثيرا (١) .

و«التبرّج»يعنى الظهور أمام الناس،و هو مأخوذ من مادّه(برج)،حيث يبدو و يظهر لأنظار الجميع.

لكن ما هو المراد من«الجاهليه»؟ الظاهر أنّها الجاهليه التى كانت فى زمان النّبى صلّى اللّه عليه و آله،و لم تكن النساء محجّبات حينها كما ورد فى التواريخ،و كنّ يلقين أطراف خمرهن على ظهورهنّ مع إظهار نحورهنّ و جزء من صدورهنّ و أقراطهنّ و قد منع القرآن الكريم أزواج النّبى من مثل هذه الأعمال.

و لا شكّ أنّ هذا الحكم عامّ،و التركيز على نساء النّبى من باب التأكيد الأشدّ، تماما كما نقول لعالم:أنت عالم فلا تكذب،فلا يعنى هذا أنّ الكذب مجاز و مباح

١- ١) طبعا يكون فعل الأمر(أقررن)فى صوره كونها من مادّه القرار،و حذفت الراء الاولى للتخفيف،و انتقلت فتحه الراء إلى القاف،و مع وجودها لا نحتاج إلى الهمزه،و تصبح(قرن)-تأمّلوا جيّدا-

للآخرين،بل المراد أنّ العالم ينبغی أن يتّقی هذا العمل بصوره آكد.

إنّ هـذا التعبير يبيّن أنّ جـاهليه اخری سـتأتی كالجـاهليه الاولی التی ذكرها القرآن،و نحن نری اليوم آثار هـذا التنبّؤ القرآنی فی عالم التمـدّن المادّی،إلاّ أنّ المفسّـرين القـدامی لم يتنبّؤوا و يعلموا بمثل هـذا الأمر،لـذلك فقد جهدوا فی تفسـير هذه الكلمه،و لذلك اعتبر البعض منهم الجاهليه الاولی هی الفاصـله بين«آدم»و «نوح»،أو الفاصـله بين عصر«داود»و«سليمان»حيث كانت النساء تخرج بثيـاب يتّضـح منهـا البـدن،و فسّـروا الجـاهليه العربيه قبل الإسـلام بالجاهليه الثّانيه! و لكن لا حاجه إلی هـذه الكلمات كما قلنـا،بـل الظـاهر أنّ الجـاهليه الاـولی هی الجـاهليه قبـل الإسـلام،و الـتی أشـير إليهـا فی موضـع آخر مـن القرآن الكريـم-فی الآيه(١۴٣)من سـوره آل عمران،و الآـيه(۵٠)من سوره المائـده،و الآيه(٢۶)من سوره الفتـح-و الجـاهليه الثّـانيه هی الجاهليه التی ستكون فيما بعد،كجاهليه عصرنا.و سنبسط الكلام حول هذا الموضوع فی بحث الملاحظات.

و أخير يصدر الأمر الرابع و الخامس و السادس،فيقول سبحانه: وَ أَقِمْنَ الصَّلاٰهَ وَ آتِينَ الزَّكٰاهَ وَ أَطِعْنَ اللّٰهَ وَ رَسُولَهُ .

إذا كـانت الآـيه قـد أكّـدت علی الصـلاه و الزكـاه من بين العبـادات،فإنّمـا ذلـك لكون الصـلاه أهمّ وسائل الاتّصال و الارتباط بالخـالق عزّ و جـلّ،و تعتبر الزكـاه علاـقه متينه بخلق اللّه،و هی فی الوقت نفسه عبـاده عظيمه.و أمّا جمله: أَطِعْنَ اللّٰهَ وَ رَسُولَهُ فإنّه حكم كلّی يشمل كلّ البرامج الإلهيه.

إنّ هذه الأوامر الثلاثه تشير إلی أنّ الأحكام المذكوره ليست مختّصه بنساء النّبی،بل هی للجميع،و إن أكّدت عليهنّ.

و يضيف اللّه سبحانه فی نهايه الآيه: إِنَّمٰا يُرِيدُ اللّٰهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً .

إنّ التعبير ب(إنّما)و الذی يدلّ علی الحصر عاده-دليل علی أنّ هذه المنقبه

خاصّه بأهل بيت النّبى صلّى اللّه عليه و آله.و جمله(يريد)إشاره إلى إراده اللّه التكوينيه،و إلاّ فإنّ الإراده التشريعيه-و بتعبير آخر لزوم تطهير أنفسهم-لا تنحصر بأهل بيت النّبى صلّى اللّه عليه و آله،فإنّ كلّ الناس مكلّفون بأن يتطهّروا من كلّ ذنب و معصيه.

من الممكن أن يقال:إنّ الإراده التكوينيه توجب أن يكون ذلك جبرا،إلاّ أنّ جواب ذلك يتّضح من ملاحظه البحوث التى أوردناها فى مسأله كون الأنبياء و الأئمّه معصومين،و يمكن تلخيص ذلك هنا بأنّ للمعصومين أهليه اكتسابيه عن طريق أعمالهم،و لهم لياقه ذاتيه موهوبه لهم من قبل اللّه سبحانه،ليستطيعوا أن يكونوا أسوه للناس.

و بتعبير آخر فإنّ المعصومين نتيجه للرعايه الإلهيه و أعمالهم الطاهره،لا يقدمون على المعصيه مع امتلاكهم القدره و الإختيار فى إتيانها،تماما كما لا نرى عاقلا يرفع جمره من النار و يضعها فى فمّه،مع أنّه غير مجبر و لا مكره على الامتناع عن هذا العمل،فهذه الحاله تنبعث من أعماق وجود الإنسان نتيجه المعلومات و الاطلاع،و المبادئ الفطريه و الطبيعيه،من دون أن يكون فى الأمر جبر و إكراه.

و لفظه«الرجس»تعنى الشىء القذر،سواء كان نجسا و قذرا من ناحيه طبع الإنسان،أو بحكم العقل أو الشرع،أو جميعها (1) .و ما ورد فى بعض الأحيان من تفسير«الرجس»بالذنب أو الشرك أو البخل و الحسد،أو الإعتقاد بالباطل، و أمثال ذلك،فإنّه فى الحقيقه بيان لمصاديقه،و إلاّ فإنّ مفهوم هذه الكلمه عامّ و شامل لكلّ أنواع الحماقات بحكم(الألف و اللام)التى وردت هنا،و التى تسمّى بألف و لام الجنس.

و«التطهير»الذى يعنى إزاله النجس،هو تأكيد على مسأله إذهاب الرجس

۱- ۱) ذكر الراغب فى مفرداته،فى مادّه(رجس)المعنى المذكور أعلاه،و أربعه أنواع كمصاديق له.

و نفی السیّئات،و یعتبر ذکره هنا بصیغه المفعول المطلق تأکیدا آخر علی هذا المعنی.

و أمّا تعبیر أَهْلَ الْبَیْتِ فإنّه إشاره إلی أهل بیت النّبی صلّی اللّه علیه و آله باتّفاق علماء الإسلام و المفسّرین،و هو الشیء الذی یفهم من ظاهر الآیه،لأنّ البیت و إن ذکر هنا بصیغه مطلقه،إلاّ أنّ المراد منه بیت النّبی صلّی اللّه علیه و آله بقرینه الآیات السابقه و اللاحقه (۱) .

إلاّ أنّ هناک اختلافا فی المقصود بأهل بیت النّبی هنا؟ اعتقد البعض أنّ هذا التعبیر مختصّ بنساء النّبی،لأنّ الآیات السابقه و اللاحقه تتحدّث حول أزواج رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله،فاعتبروا ذلک قرینه علی مدّعاهم.

غیر أنّ الانتباه إلی مسأله فی الآیه ینفی هذا الادّعاء،و هی:أنّ الضمائر التی وردت فی الآیات السابقه و اللاحقه،جاءت بصیغه ضمیر النسوه،فی حین أنّ ضمائر هذه القطعه من الآیه قد وردت بصیغه جمع المذکر،و هذا یوحی بأنّ هناک معنی آخر هو المراد،و لذلک خطا جمع آخر من المفسّرین خطوه أوسع و اعتبر الآیه شامله لکلّ أفراد بیت النّبی صلّی اللّه علیه و آله رجالا و نساء.

و من جهه اخری فإنّ الرّوایات الکثیره جدّا الوارده فی کتب الفریقین تنفی شمول الآیه لکلّ أهل بیت النّبی صلّی اللّه علیه و آله،و تقول:إنّ المخاطبین فی الآیه هم خمسه أفراد فقط،و هم:محمّد صلّی اللّه علیه و آله و علی و فاطمه و الحسن و الحسین علیهم السّلام و مع وجود النصوص الکثیره التی تعتبر قرینه علی تفسیر الآیه،فإنّ التّفسیر الذی یمکن قبوله هو التّفسیر الثالث فقط،أی اختصاص الآیه بالخمسه الطیّبه.

و السؤال الوحید الذی یبقی هنا هو:کیف یمکن أن یطرح مطلب فی طیّات البحث فی واجبات نساء النّبی و لا یشملهنّ هذا المطلب؟

۱- ۱) ما ذکره البعض من أنّ«البیت»هنا إشاره الی بیت اللّه الحرام،و أهله هم«المتّقون»لا یتناسب مطلقا مع سیاق الآیات. لأنّ الکلام فی هذه الآیات عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و أزواجه،لا عن بیت اللّه الحرام،و لا یوجد أیّ دلیل علی قولهم.

و قد أجاب المفسّر الكبير العلاّمه«الطبرسی»فی مجمع البیان عن هذا السؤال فقال:لیست هذه المرّه الاولی التی نری فیها فی آیات القرآن أن تتّصل مع بعضها و تتحدّث عن مواضیع مختلفه،فإنّ القرآن ملیء بمثل هذه البحوث،و کذلک توجد شواهد کثیره علی هذا الموضوع فی کلام فصحاء العرب و أشعارهم.

و أضاف المفسّر الکبیر صاحب المیزان جوابا آخر ملخّصه:لا دلیل لدینا علی أنّ جمله: إِنَّما یُرِیدُ اللّهُ لِیُذْهِبَ عَنْکُمُ الرِّجْسَ... قد نزلت مع هذه الآیات،بل یستفاد جیّدا من الرّوایات أنّ هذه القطعه قد نزلت منفصله،و قد وضعها الإمام مع هذه الآیات لدی جمعه آیات القرآن فی عصر النّبی صلّی اللّه علیه و آله أو بعده.

و الجواب الثالث الذی یمکن أن یجاب به عن هذا السؤال هو:أنّ القرآن یرید أن یقول لزوجات النّبی:إنکنّ بین عائله بعضها معصومون،و الذی یعیش فی ظلّ العصمه و منزل المعصومین فإنّه ینبغی له أن یراقب نفسه أکثر من الآخرین،و لا تنسین أنّ انتسابکنّ إلی بیت فیه خمسه معصومین یلقی علی عاتقکنّ مسئولیات ثقیله،و ینتظر منه اللّه و عباده انتظارات کثیره.

و سنبحث فی الملاحظات القادمه-إن شاء اللّه تعالی-روایات السنّه و الشیعه الوارده فی تفسیر هذه الآیه.

و بیّنت الآیه الأخیره-من الآیات مورد البحث-سابع وظیفه و آخرها من وظائف نساء النّبی،و نبّهتهن علی ضروره استغلال أفضل الفرص التی تتاح لهنّ فی سبیل الإحاطه بحقائق الإسلام و العلم بها و بأبعادها،فتقول: وَ اذْکُرْنَ ما یُتْلی فِی بُیُوتِکُنَّ مِنْ آیاتِ اللّهِ وَ الْحِکْمَهِ .

فإنکنّ فی مهبط الوحی،و فی مرکز نور القرآن،فحتّی إذا جلستن فی البیوت فأنتنّ قادرات علی أن تستفدن جیّدا من الآیات التی تدوّی فی فضاء بیتکنّ، و من تعلیمات الإسلام و حدیث النّبی صلّی اللّه علیه و آله الذی کان یتحدّث به،فإنّ کل نفس من أنفاسه درس،و کلّ لفظ من کلامه برنامج حیاه! و فیما هو الفرق بین«آیات اللّه»و«الحکمه»؟قال بعض المفسّرین:إنّ کلیهما

إشاره إلى القرآن،غايه ما فى الأمر أنّ التعبير ب(الآيات)يبيّن الجانب الإعجازى للقرآن،و التعبير ب(الحكمه)يتحدّث عن المحتوى العميق و العلم المخفى فيه.

و قال البعض الآخر:إنّ«آيات اللّه»إشاره إلى آيات القرآن،و«الحكمه» إشاره إلى سنّه النّبى صلّى اللّه عليه و آله مواعظه و إرشاداته الحكيمه.

و مع أنّ كلا التّفسيرين يناسب مقام و ألفاظ الآيه،إلاّ أنّ التّفسير الأوّل يبدو أقرب،لأنّ التعبير بالتلاوه يناسب آيات اللّه أكثر،إضافه إلى أنّ تعبير النّزول قد ورد فى آيات متعدّده من القرآن فى مورد الآيات و الحكمه،كالآيه(۲۳۱)من سوره البقره: وَ مٰا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتٰابِ وَ الْحِكْمَهِ و يشبهه ما جاء فى الآيه (۱۱۳)من سوره النساء.

و أخيرا تقول الآيه: إِنَّ اللّٰهَ كٰانَ لَطِيفاً خَبِيراً و هى إشاره إلى أنّه سبحانه مطّلع على أدقّ الأعمال و أخفاها،و يعلم نيّاتكم تماما،و هو خبير بأسراركم الدفينه فى صدوركم.

هذا إذا فسّرنا«اللطيف»بالمطّلع على الدقائق و الخفيات،و أمّا إذا فسّر بصاحب اللطف،فهو إشاره إلى أنّ اللّه سبحانه لطيف و رحيم بكنّ يا نساء النّبى، و هو خبير بأعمالكنّ أيضا.

و يحتمل أيضا أن يكون التأكيد على«اللطيف»من جانب إعجاز القرآن، و على«الخبير»باعتبار محتواه الحكمى.و فى الوقت نفسه لا منافاه بين هذه المعانى و يمكن جمعها.

بحوث

اشاره

۱-آيه التطهير برهان واضح على العصمه:

اعتبر بعض المفسّرين«الرجس»فى الآيه المذكوره إشاره إلى الشرك أو الكبائر-كالزنا-فقط،فى حين لا يوجد دليل على هذا التحديد،بل إنّ إطلاق

الرجس-و خاصّه بملاحظه ألفه و لامه،و هی ألف لام الجنس-یشمل کلّ أنواع الذنوب و المعاصی،لأنّ کلّ المعاصی رجس،و لذلک فإنّ هذه الکلمه أطلقت فی القرآن علی الشرک و الخمور و القمار و النفاق و اللحوم المحرّمه و النجسه و أمثال ذلک.

انظر الآیات:الحجّ-۳۰،المائده-۹۰،التوبه-۱۲۵،الأنعام-۱۴۵.

و بملاحظه أنّ الإراده الإلهیّه حتمیه التنفیذ و الوقوع،و أنّ جمله: إِنَّما یُرِیدُ اللّهُ لِیُذْهِبَ عَنْکُمُ الرِّجْسَ دلیل علی إرادته الحتمیه،و خاصّه بوجود کلمه(إنّما) الدالّه علی الحصر و التأکید،سیتّضح أنّ إراده اللّه سبحانه قد قطعت بأن یکون أهل البیت منزّهین عن کلّ رجس و خطأ،و هذا هو مقام العصمه.

و ثمّه مسأله تستحقّ الانتباه،و هی أنّه لیس المراد من الإراده الإلهیّه فی هذه الآیه الأوامر و الأحکام الإلهیّه فی مسائل الحلال و الحرام،لأنّ هذه الأحکام تشمل الجمیع،و لا تختّص بأهل البیت،و بناء علی هذا فإنّها لا تتناسب مع مفهوم (إنّما).

إذن،فهذه الإراده المستمرّه نوع من الإمداد الإلهی الذی یعیّن أهل أهل البیت علی العصمه و الاستمرار فیها،و هی فی الوقت نفسه لا تنافی حریه الإراده و الإختیار، کما فصّلنا ذلک سابقا.

إنّ مفهوم هذه الآیه فی الحقیقه هو عین ما

جاء فی الزیاره الجامعه: «عصمکم اللّه من الزلل،و آمنکم من الفتن،و طهّرکم من الدنس و أذهب عنکم الرجس و طهّرکم تطهیرا».

و ینبغی أن لا نشکّ بعد هذا الإیضاح فی دلاله الآیه المذکوره علی عصمه أهل البیت علیهم السّلام.

۲-فیمن نزلت آیه التطهیر؟

قلنا:إنّ هذه الآیه بالرغم من أنّها وردت ضمن الآیات المتعلّقه بنساء النّبی،إلاّ

أنّ تغيير سياقها-حيث تبدّل ضمير الجمع المؤنث إلى ضمير الجمع المذكّر-دليل على أنّ لهذه الآيه معنى و محتوى مستقلا عن تلك الآيات،و لهذا فحتّى أولئك الذين لم يعتبروا الآيه مختّصه بمحمّد صلّى اللّه عليه و آله و على و فاطمه و الحسن و الحسين عليهم السّلام، فإنّهم اعتقدوا أنّ لها معنى واسعا يشمل هؤلاء العظام و نساء النّبى صلّى اللّه عليه و آله.

إلاّ أنّ الرّوايات الكثيره التى بين أيدينا تبيّن أنّ هذه الآيه خاصّه بهؤلاء الأجلاّء،و لا تدخل الزوجات ضمن الآيه،بالرغم من أنهنّ يتمتّعن باحترام خاصّ،و نضع بين أيديكم بعضا من هذه الروايات:

أ:الرّوايات التى رويت عن أزواج النّبى صلّى اللّه عليه و آله أنفسهنّ،و التى حدثن فيها:إنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله عند ما كل يتحدّث عن هذه الآيه الشريفه سألناه:أ نحن من أصحاب هذه الآيه؟فكان يجيب:بأنكنّ إلى خير،و لكن لستنّ من أصحابها.

و من جملتها الروايه التى

رواها«الثعلبى»عن«امّ سلمه»فى تفسيره،و ذلك أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله كان فى بيتها إذ أتته فاطمه عليها السّلام بقطعه حرير،فقال النّبى صلّى اللّه عليه و آله:«ادعى لى زوجك و ابنيك-الحسن و الحسين-» فأتت به فطعموا،ثمّ ألقى عليهم النّبى صلّى اللّه عليه و آله كساء له خيبريا و قال:«اللهمّ هؤلاء أهل بيتى و عترتى فأذهب عنهم الرجس و طهّرهم تطهيرا»فنزلت آيه التطهير،فقلت:يا رسول اللّه و أنا معهم؟قال:«إنّك إلى خير»و لكنّك لست منهم (1) .

و يروى«الثعلبى»أيضا عن«عائشه»أنّها عند ما سئلت عن حرب الجمل و تدخّلها فى تلك الحرب المدمّره الطاحنه،قالت بأسف:كان ذلك قضاء اللّه.

و

عند ما سئلت عن على عليه السّلام قالت:تسألينى عن أحبّ الناس كان إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله،و زوج أحبّ الناس كان إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله؟لقد رأيت عليا و فاطمه و حسنا و حسينا عليهم السّلام،و جمع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله بثوب عليهم ثمّ قال:«اللهمّ هؤلاء أهل

1- 1) روى الطبرسى فى مجمع البيان ذيل الآيه مورد البحث،هذا الحديث بهذا المضمون بطرق متعدّده عن أمّ سلمه.راجع شواهد التنزيل،للحاكم الحسكانى،المجلّد 2،صفحه 56 و ما بعدها.

بیتی و حامتی فأذهب عنهم الرجس و طهّرهم تطهیرا»قالت:فقلت:یا رسول اللّه، أنا من أهلک!قال:«تنحّی فإنّک إلی خیر» (1) - إلاّ أنّک لست جزءا منهم-.

إنّ هذه الرّوایات تصرّح أنّ زوجات النّبی صلّی اللّه علیه و آله لسن جزءا من أهل البیت فی هذه الآیه.

ب:لقد

وردت روایات کثیره جدّا بصوره مجمله فی شأن حدیث الکساء، یستفاد منها جمیعا أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله دعا علیا و فاطمه و الحسن و الحسین علیهم السّلام-أو أنّهم أتوا إلیه-فألقی علیهم عباءه و قال:«اللهمّ هؤلاء أهل بیتی فأذهب عنهم الرجس و طهّرهم تطهیرا»،فنزلت الآیه: إِنَّما یُرِیدُ اللّهُ لِیُذْهِبَ عَنْکُمُ الرِّجْسَ... .

و قد روی العالم المعروف«الحاکم الحسکانی النیسابوری»هذه الروایات فی (شواهد التنزیل)بطرق مختلفه عن رواه مختلفین (2) .

و هنا سؤال یلفت النظر،و هو:ماذا کان الهدف من جمعهم تحت الکساء؟ کأنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله کان یرید أن یحدّد هؤلاء و یعرّفهم تماما،و یقول:إنّ الآیه أعلاه فی حقّ هؤلاء خاصّه،لئلاّ یری أحد أو یظنّ ظانّ أنّ المخاطب فی هذه الآیه کلّ من تربطه بالنّبی صلّی اللّه علیه و آله قرابه،و کلّ من یعدّ جزءا من أهله،حتّی جاء فی بعض الرّوایات أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله قد کرّر هذه الجمله ثلاث مرّات:

«اللهمّ هؤلاء أهل بیتی و خاصّتی فأذهب عنهم الرجس و طهّرهم تطهیرا» (3) .

ج:نقرأ فی روایات عدیده اخری أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله بقی ستّه أشهر بعد نزول هذه الآیه ینادی عند مروره من جنب بیت فاطمه سلام اللّه علیها و هو ذاهب إلی صلاه الصبح:

«الصلاه یا أهل البیت!إنّما یرید اللّه لیذهب عنکم الرجس أهل البیت و یطهّرکم تطهیرا». و قد روی الحاکم الحسکانی هذا الحدیث عن أنس بن

ص: ۲۴۳

۱- ۱) مجمع البیان ذیل الآیه مورد البحث.

۲- ۲) شواهد التنزیل،المجلّد ۲،صفحه ۳۱ و ما بعدها.

۳- ۳) الدرّ المنثور ذیل الآیه مورد البحث.

مالک (۱) .

و روی ابن عبّاس أیضا هذا الحدیث عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله (۲) .

و هنا مسأله تستحقّ الانتباه،و هی أنّ تکرار هذه الأمر ستّه أشهر أو ثمانیه أو تسعه أشهر بصوره مستمرّه جنب بیت فاطمه إنّما هو لبیان هذه المسأله تماما لئلاّ یبقی مجال للشکّ لدی أیّ شخص بأنّ هذه الآیه قد نزلت فی شأن هؤلاء النفر فقط،خاصّه و أنّ الدار الوحیده التی بقی بابها مفتوحا إلی داخل المسجد بعد أن أمر اللّه نبیّه بأن تغلق جمیع أبواب بیوت الآخرین،هی دار فاطمه علیها السّلام،و لا شکّ أنّ جماعه من الناس کانوا یسمعون ذلک القول من النّبی صلّی اللّه علیه و آله حین الصلاه هناک- تأمّلوا ذلک-.

و مع ذلک،فإنّ ممّا یثیر العجب أنّ بعض المفسّرین یصرّون علی أنّ للآیه معنی عامّا تدخل فیه أزواج النّبی،بالرغم من أنّ أکثر علماء الإسلام،السنّه منهم و الشیعه،قد حدّدوها بهؤلاء الخمسه.

و ممّا یستحقّ الالتفات أنّ عائشه-زوجه النّبی لم تکن تدع شیئا فی ذکر فضائلها،و دقائق علاقتها بالنّبی صلّی اللّه علیه و آله بشهاده الروایات الإسلامیه،فإذا کانت هذه الآیه تشملها فلا بدّ أنّها کانت ستتحدّث بها فی المناسبات المختلفه،فی حین لم یرو شیء من ذلک عنها مطلقا.

د:رویت روایات عدیده عن الصحابی المعروف«أبی سعید الخدری»تشهد بصراحه بأنّ هذه الآیه قد نزلت فی شأن هؤلاء الخمسه الأطهار:«نزلت فی خمسه:فی رسول اللّه،و علی،و فاطمه،و الحسن،و الحسین» (۳) .و هذه الرّوایات کثیره بحیث عدّها بعض المحقّقین متواتره.

۱- ۱) شواهد التنزیل،المجلّد ۲،صفحه ۱۱.

۲- ۲) الدرّ المنثور،ذیل الآیه مورد البحث.

۳- ۳) شواهد التنزیل،الجزء ۲،صفحه ۲۵.

و ممّا قلناه نستنتج أنّ المصادر و رواه الأحاديث التى تدلّ على اختصاص الآيه بالخمسه المطهّره و حصرها بهم كثيره بحيث لا تدع لأحد المجال للشكّ فى هذه الدلاله،حتّى أنّه ذكر فى شرح(إحقاق الحقّ)أكثر من سبعين مصدرا من مصادر العامّه المعروفه،و أمّا مصادر الشيعه فى هذا الباب فتربو على الألف [(۱)](#).و قد روى صاحب كتاب(شواهد التنزيل)-و هو من علماء الإخوه السنّه المشهورين- أكثر من(۱۳۰)حديثا فى هذا الموضوع [(۲)](#).

و بغضّ النظر عن كلّ ذلك،فإنّ بعض أزواج النّبى قد قمن بأعمال طوال حياتهنّ تخالف مقام العصمه،و لا تناسب كونهنّ معصومات،كحادثه«حرب الجمل»التى كانت ثوره و خروجا على إمام الزمان،و التى تسبّبت فى إراقه دماء كثيره،فقد بلغ عدد القتلى فى هذه الحرب-عند بعض المؤرخّين-سبعه عشر ألف قتيل.

و لا شكّ أنّ هذه المعركه لا يمكن توجيهها،بل إنّنا نرى أنّ عائشه نفسها قد أظهرت الندم بعدها،و قد مرّ نموذج من هذا الندم فى البحوث السابقه.

إنّ انتقاص عائشه من خديجه-و التى هى من أعظم نساء المسلمين،و أكثر هنّ تضحيه و إيثارا،و أجلّهنّ فضيله و قدرا-مشهور فى تاريخ الإسلام،و قد آلم هذا الكلام رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله حتّى ظهرت على وجهه الشريف آثار الغضب و

قال: «لا و اللّه ما أبدلنى اللّه خيرا منها،آمنت بى إذ كفر الناس،و صدّقتنى إذ كذّبنى الناس، و واستنى فى مالها إذ حرمنى الناس» [(۳)](#).

۳-هل أن الإراده الإلهيه هنا تكوينيه أم تشريعيه؟

مرّت الإشاره فى طيّات تفسير هذه الآيه إلى هذا الموضوع،و قلنا:إنّ الإراده

۱- ۱) يراجع الجزء الثّانى،من إحقاق الحقّ و هوامشه.

۲- ۲) يراجع المجلّد الثّانى،من شواهد التنزيل،صفحه ۱۰-۹۲.

۳- ۳) الإستيعاب،و صحيح البخارى،و صحيح مسلم.طبقا لنقل المراجعات صفحه ۲۲۹ الرساله ۷۲.

فی جمله: إِنَّمٰا یُرِیدُ اللّٰهُ لِیُذْهِبَ عَنْکَمُ الرِّجْسَ إراده تکوینیه لا تشریعیه.

و لمزید التوضیح ینبغی أن نذکّر بأنّ المراد من«الإراده التشریعیه»هی أوامر اللّه و نواهیه،فنعلم مثلا أنّ اللّه سبحانه یرید منّا أداء الصلاه و الصوم و الحجّ و الجهاد،و هذه إراده تشریعیه.و من المعلوم أنّ الإراده التشریعیه تتعلّق بأفعالنا لا بأفعال اللّه عزّ و جلّ.فی حین أنّ الآیه أعلاه تتعلّق بأفعال اللّه سبحانه،فهی تقول:

إنّ اللّه أراد أن یذهب عنکم الرجس،و بناء علی هذا فإنّ مثل هذه الإراده یجب أن تکون تکوینیه،و مرتبطه بإراده اللّه سبحانه فی عالم التکوین.

إضافه إلی ذلک،فإنّ مسأله الإراده التشریعیه فیما یتعلّق بالتقوی و العفّه لا تنحصر بأهل البیت علیهم السّلام،لأنّ اللّه قد أمر الجمیع بالتقوی و التطهّر من الذنوب، و بذلک لا تکون لهم مزیّه و خاصیّه،لأنّ کلّ المکلّفین مشمولون بهذا الأمر.

و علی أیّه حال،فإنّ هذا الموضوع-أی الإراده التشریعیّه-مضافا إلی أنّه لا یناسب ظاهر الآیه،فانّه لا یتناسب مع الأحادیث السابقه بأیّ وجه من الوجوه، لأنّ کلّ تلک الأحادیث تتحدّث عن فضیله سامیه و هبه مهمّه خاصّه بأهل البیت علیهم السّلام.

و من المسلّم أیضا أنّ«الرجس»هنا لا یعنی الرجس الظاهری،بل هو إشاره إلی الأرجاس الباطنیه،و إطلاق هذه الکلمه ینفی انحصارها و کونها محدوده بالشرک و الکفر و الأعمال المنافیه للعفّه و أمثال ذلک،فإنّها تشمل کلّ الذنوب و المعاصی و المفاسد العقائدیه و الأخلاقیه و العملیه.

و المسأله الاخری التی ینبغی الالتفات إلیها بدقّه هی أنّ الإراده التکوینیه التی تعنی الخلقه و الإیجاد،تعنی هنا«المقتضی»لا العلّه التامّه لتکون موجبه للجبر و سلب الإختیار.

و توضیح ذلک،إنّ مقام العصمه یعنی حاله تقوی اللّه التی توجد عند الأنبیاء و الأئمّه بمعونه اللّه سبحانه،لکن وجود هذه الحاله لا یعنی أنّهم غیر قادرین علی

ارتكـاب المعصـيه،بـل إنّهم قـادرون على إتيانها،غير أنّهم يعفّون أنفسـهم و يجلّونها عن التلوّث بها باختيارهم،و يغضّون الطرف عنها طوعا،تماما كالطبيب الحاذق الـذى لا يتناول مطلقا مادّه سـمّيه جدّا و هو يعلم الأخطار التى تنجم عن تناولها، و مع أنّه قادر على تناولها،إلّا أنّ علومه و اطلاعه و مبادئه الفكريه و الروحيه تدفعه إلى الامتناع إراديا و اختيارا عن هذا العمل.

و يجب التـذكير بهـذه المسـأله،و هى أنّ هـذه التقوى موهبه خاصّه منحت للأنبياء لا للآخرين،لكن اللّه سـبحانه قـد منحهم إيّاها للمسؤوليـات الثقيله الخطيره الملقـاه على عـاتقهم فى قياده الناس و إرشادهم،و بناء على هـذا فإنّه امتياز يعود نفعه على الجميع،و هـذه عين العـداله،تماما كالامتيـاز الخاصّ الـذى منحه اللّه لطبقات العين و أغشـيتها الرقيقه و الحسّاسه جـدّا،و التى يسـتفيد منها جميع البدن.

إضـافه إلى أنّ الأنبياء تعظم مسئولياتهم و واجباتهم بنفس المقـدار الـذى يتمتّعون بهـذا المواهب الإلهيه و الامتيازات،فإنّ ترك الاولى من قبلهم يعادل ذنبا كبيرا يصدر من الناس العاديين،و هذا معيار و تشخيص لخطّ العداله.

و النتيجه أنّ هذه الإراده إراده تكوينيه فى حدود المقتضـى-و ليست علّه تامّه- و هى فى الوقت نفسه لا توجب الجبر و لا تسلب الإختيار و الإراده الإنسانيه.

۴-جاهليه القرن العشرين!

مرّت الإشاره إلى أنّ جمعا من المفسّـِرين تورّطوا فى تفسير(الجاهليه الاولى) و كأنّهم لم يقدروا أن يصدّقوا ظهور جاهليه اخرى فى العالم بعـد ظهور الإسـلام، و أنّ جاهليه العرب قبل الإسـلام ضـئيله تجاه الجاهليه الجديـده،إلّا أنّ هذا الأمر قد تجلّى للجميع اليوم،حيث نرى مظاهر جاهليه القرن العشرين المرعبه،و يجب أن تعدّ تلك إحدى تنبؤات القرآن الإعجازيه.

إذا كان العرب فى زمان الجاهليه يغيرون و يحاربون،و إذا كان سوق عكاظ-

مثلا-ساحه لسفک الدماء لأسباب تافهه عدّه مرّات،و قتل علی أثرها أفراد معدودون،فقد وقعت فی جاهلیه عصرنا حروب ذهب ضحیّتها عشرون ملیون إنسان،و جرح و تعوّق أکثر من هذا العدد! و إذا کانت النساء«تتبرّج»فی زمن الجاهلیه و یلقین خمرهنّ عن رؤوسهن بحیث کان یظهر جزء من صدورهنّ و نحورهنّ،و قلائدهنّ و أقراطهنّ،ففی عصرنا تشکّل نواد تسمّی بنوادی العراه-و نموذجها مشهور فی بریطانیا-حیث یتعرّی أفرادها کما ولدتهم امّهاتهم،و فضائح البلاجات علی سواحل البحار و المسابح، بل و حتّی فی الأماکن العامّه و علی قارعه الطریق یخجل القلم من ذکرها.

و إذا کانت فی الجاهلیه«زانیات من ذوات الأعلام»،حیث کنّ یرفعن أعلاما فوق بیوتهنّ لیدعین الناس إلی أنفسهنّ،فی جاهلیه قرننا أناس یطرحون أمورا و مطالب فی هذا المجال عبر صحف خاصّه،یندی لها الجبین،و لجاهلیه العرب مائه مرتبه من الشرف علی هذه الجاهلیه.

و الخلاصه:ماذا نقول عن وضع المفاسد التی توجد فی عصرنا الحاضر..عصر التمدّن المادّی الآلی الخالی من الإیمان،فعدم الحدیث عنها أولی،و لا ینبغی أن نلوّث هذا التّفسیر بذکرها.

إنّ ما قلناه کان جانبا من العبء الملقی علی عاتقنا لبیان حیاه الذین یبتعدون عن اللّه تعالی،فإنّهم و إن امتلکوا آلاف الجامعات و المراکز العلمیه و العلماء المعروفین،فهم غارقون فی و حل الفساد و مستنقع الرذیله،بل إنّهم قد یضعون هذه المراکز العلمیه و علماءها فی خدمه هذه الفجائع و المفاسد أحیانا.

الآیه [سوره الأحزاب (۳۳): آیه ۳۵]

اشاره

إِنَّ اَلْمُسْلِمِينَ وَ اَلْمُسْلِمٰاتِ وَ اَلْمُؤْمِنِينَ وَ اَلْمُؤْمِنٰاتِ وَ اَلْقٰانِتِينَ وَ اَلْقٰانِتٰاتِ وَ اَلصّٰادِقِينَ وَ اَلصّٰادِقٰاتِ وَ اَلصّٰابِرِينَ وَ اَلصّٰابِرٰاتِ وَ اَلْخٰاشِعِينَ وَ اَلْخٰاشِعٰاتِ وَ اَلْمُتَصَدِّقِينَ وَ اَلْمُتَصَدِّقٰاتِ وَ اَلصّٰائِمِينَ وَ اَلصّٰائِمٰاتِ وَ اَلْحٰافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَ اَلْحٰافِظٰاتِ وَ اَلذّٰاكِرِينَ اَللّٰهَ كَثِيراً وَ اَلذّٰاكِرٰاتِ أَعَدَّ اَللّٰهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَ أَجْراً عَظِيماً (۳۵)

سبب النّزول

أورد جمع من المفسّرین فی سبب نزول هذه الآیه انّه عند ما رجعت«أسماء بنت عمیس»زوجه«جعفر بن أبی طالب»من الحبشه مع زوجها،جاءت إلی زوجات النّبی،فسألتهن:هل نزل فینا شیء من القرآن؟فقلن:لا،فأتت رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله فقالت:

«یا رسول اللّه إنّ النساء لفی خیبه و خسار.فقال:و ممّ ذلک؟قالت:لأنّهنّ لا یذکرن بخیر کما یذکر الرجال.فأنزل اللّه تعالی هذه الآیه (التی طمأنت النساء بأنّ

لهنّ درجه عند اللّه مساويه للرجال،و أكّدت على أنّ المعيار هو العقيده و العمل و الأخلاق الإسلاميه).

التّفسير

اشاره

شخصيه المرأه و مكانتها فى الإسلام:

بعد البحوث التى ذكرت فى الآيات السابقه حول واجبات أزواج النّبى صلّى اللّه عليه و آله، فقد ورد فى هذه الآيه كلام جامع عميق المحتوى فى شأن كلّ النساء و الرجال و صفاتهم،و بعد أن ذكرت عشر صفات من صفاتهم العقائديه و الأخلاقيه و العمليه، بيّنت الثواب العظيم المعدّ لهم فى نهايتها.

إنّ بعض هذه الصفات العشر تتحدّث عن مراحل الإيمان(الإقرار باللسان، و التصديق بالقلب و الجنان،و العمل بالأركان).

و القسم الآخر يبحث فى التحكّم باللسان و البطن و الشهوه الجنسيه،و التى تشكّل ثلاثه عوامل مصيريه فى حياه البشر و أخلاقهم.

و تحدّثت فى جانب آخر عن مسأله الدفاع عن المحرومين،و الاستقامه أمام الحوادث الصعبه،أى الصبر الذى هو أساس الإيمان.

و أخيرا تتحدّث عن عامل استمرار هذه الصفات،أى«ذكر اللّه تعالى».

تقول الآيه: إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَ الْمُسْلِمٰاتِ وَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنٰاتِ وَ الْقٰانِتِينَ وَ الْقٰانِتٰاتِ .أى المطيعين لأوامر اللّه و المطيعات.

و بالرغم من أنّ بعض المفسّرين قد اعتبر الإسلام و الإيمان فى الآيه بمعنى واحد،إلاّ أنّ من الواضح أنّ هذا التكرار يوحى بأنّ المراد منهما شيئان مختلفان، و هو إشاره إلى المطلب الذى ورد فى الآيه(۱۴)من سوره الحجرات: قٰالَتِ الْأَعْرٰابُ آمَنّٰا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَ لٰكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنٰا وَ لَمّٰا يَدْخُلِ الْإِيمٰانُ فِى قُلُوبِكُمْ ! و هو إشاره إلى أنّ«الإسلام»هو الإقرار باللسان الذى يجعل الإنسان فى صفّ

المسلمين،و يصبح مشمولا بأحكامهم،إلاّ أنّ«الإيمان»هو التصديق بالقلب و الجنان.

و قد أشارت الرّوايات الإسلاميه إلى هذا التفاوت فى المعنى،

ففى روايه أنّ أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السّلام سأله عن الإسلام و الإيمان،و هل أنّهما مختلفان؟ فقال الإمام عليه السّلام:«إنّ الإيمان يشارك الإسلام،و الإسلام لا يشارك الإيمان»، فاستوضح الرجل الإمام أكثر فقال عليه السّلام:«الإسلام شهاده أن لا إله إلاّ اللّه و التصديق برسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله،به حقنت الدماء،و عليه جرت المناكح و المواريث،و على ظاهره جماعه الناس،و الإيمان الهدى و ما يثبت فى القلوب،و ما ظهر من العمل به» (1) .

«قانت»من مادّه(القنوت)،و هى-كما قلنا سابقا-الطاعه المقترنه بالخضوع، الطاعه التى تنبع من الإيمان و الإعتقاد،و هذه إشاره إلى الجوانب العمليه للإيمان و آثاره.

ثمّ تطرقت إلى أحد أهمّ صفات المؤمنين الحقيقيين،أى حفظ اللسان،فتقول:

وَ الصّادِقِينَ وَ الصّادِقاتِ

.

و يستفاد من الرّوايات أنّ استقامه إيمان الإنسان و صدقه باستقامه لسانه و صدقه:

«لا يستقيم إيمان امرئ حتّى يستقيم قلبه،و لا يستقيم قلبه حتّى يستقيم لسانه» (2) .

و لمّا كان الصبر و التحمّل و الصلابه أمام المشاكل و العقبات هو أساس الإيمان، و دوره و منزلته فى معنويات الإنسان بمنزله الرأس من الجسد،فقد وصفتهم الآيه بصفتهم الخامسه،فقالت: وَ الصّابِرِينَ وَ الصّابِراتِ .

و نعلم أنّ أحد أسوأ الآفات الأخلاقيه هو الكبر و الغرور و حبّ الجاه، و النقطه التى تقع فى مقابله هى«الخشوع»،لذلك كانت الصفه السادسه:

1- 1) اصول الكافى،المجلد الثانى،صفحه 21 باب أن الإيمان يشرك الإسلام.

2- 2) المحجه البيضاء،المجلد 5،ص 193.

وَ الْخٰاشِعِينَ وَ الْخٰاشِعٰاتِ

.

و إذا تجاوزنا حبّ الجاه،فإنّ حبّ المال أيضا آفه كبرى،و عبادته و التعلّق به ذلّه خطيره مرّه،و يقابله الإنفاق و مساعده المحتاجين،لذلك كانت صفتهم السابعه: وَ الْمُتَصَدِّقِينَ وَ الْمُتَصَدِّقٰاتِ .

قلنا:إنّ ثلاثه أشياء إذا تخلّص الإنسان من شرّها،فإنّه سيبقى فى مأمن من كثير من الآفات و الشرور الأخلاقيه،و هى:اللسان و البطن و الشهوه الجنسيه،و قد أشير إلى الأوّل فى الصفه الرّابعه،أمّا الشىء الثّانى و الثالث فقد أشارت إليهما الآيه فى الصفتين الثامنه و التاسعه،فقالت: وَ الصّٰائِمِينَ وَ الصّٰائِمٰاتِ وَ الْحٰافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَ الْحٰافِظٰاتِ .

و أخيرا تطرّقت الآيه إلى الصفه العاشره التى يرتبط بها الاستمرار فى كلّ الصفات السابقه و المحافظه عليها،فقالت: وَ الذّٰاكِرِينَ اللّٰهَ كَثِيراً وَ الذّٰاكِرٰاتِ .

أجل..إنّ هؤلاء يجب أن يكونوا مع اللّه و يذكروه فى كلّ حال،و فى كلّ الظروف،و أن يزيحوا عن قلوبهم حجب الغفله و الجهل،و يبعدون عن أنفسهم همزات الشياطين و وساوسهم،و إذا ما بدرت منهم عثره فإنّهم يهبون لجبرانها فى الحال لئلا يحيدوا عن الصراط المستقيم.

و قد ذكرت تفاسير مختلفه ل«الذكر الكثير»فى الرّوايات و كلمات المفسّرين، و كلّها من قبيل ذكر المصداق ظاهرا،و يشملها جميعا معنى الكلمه الواسع. و من جملتها ما نقرؤه

فى حديث عن النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله: «إذا أيقظ الرجل أهله من الليل فتوضّئا و صلّيا كتبا من الذاكرين اللّه كثيرا و الذاكرات» (۱) .

و

فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام: «من بات على تسبيح فاطمه عليها السّلام كان من الذاكرين اللّه كثيرا و الذاكرات» . (۲)

۱- ۱) تفسير مجمع البيان و تفسير القرطبى،ذيل الآيه مورد البحث.

۲- ۲) مجمع البيان،ذيل الآيه مورد البحث.

و قال بعض المفسّرين:إنّ«الذكر الكثير»هو الذكر حال القيام و القعود،و ذكر اللّه عند ما يأوى المرء إلى فراشه.

و على أى تقدير،فإنّ الذكر علامه الفكر،و الفكر مقدّمه للعمل،فليس الهدف هو الذكر الخالى من الفكر و العمل مطلقا.

ثمّ تبيّن الآيه فى النهايه الأجر الجزيل لهذه الفئه من الرجال و النساء الذين يتمتّعون بهذه الخصائص العشره بأنّهم قد أَعَدَّ اللّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَ أَجْراً عَظِيماً فإنّه تعالى قد غسل ذنوبهم التى كانت سببا فى تلوّث أرواحهم،بماء المغفره،ثمّ كتب لهم الثواب العظيم الذى لا يعرف مقداره إلّا هو.

و الواقع إنّ أحد هذين الأمرين يطرد كلّ المنغّصات،و الآخر يجلب كلّ الخيرات.

إنّ التعبير ب«أجرا»دليل بنفسه على عظمته،و وصفه ب«العظيم»تأكيد على هذه العظمه،و كون هذه العظمه مطلقه دليل آخر على سعه أطرافها و تراميها،و من البديهى،أنّ الشىء الذى يعده اللّه عظيما يكون خارقا فى عظمته.

و ثمّه مسأله تستحقّ الانتباه،و هى أنّ جمله أَعَدَّ قد وردت بصيغه الماضى، و هو بيان لحتميه هذا الأجر و الجزاء و عدم إمكان خلفه و عدم الوفاء به،أو أنّه إشاره إلى أنّ الجنّه و نعمها معدّه منذ الآن للمؤمنين.

بحث

اشاره

مساواه الرجل و المرأه عند اللّه:

يتصوّر البعض أحيانا أنّ الإسلام قد رجّح كفّه شخصيه الرجال،و لا مكانه مهمّه للنساء فى برامج الإسلام،و ربّما كان منشأ هذا الاشتباه هو بعض الاختلافات الحقوقيه،و التى لكلّ منها فلسفه خاصّه.

و مع غضّ النظر عن مثل هـذه الاختلافـات التی لها علاقه بالمکانات و المراکز الاجتماعیه و ظروفها الطبیعیه-فلا شکّ فی عـدم وجود أی فرق بین الرجل و المرأه فی تعلیمات الإسـلام من الناحیه الإنسانیه و المقامات المعنویه،و الآیه المـذکوره دلیل واضـح علی هـذه الحقیقه،لأنّهـا وضـعت المرأه و الرجـل فی مرتبه واحـده ککفّتی میزان لـدی تبیانها خصائص المؤمنین،و أهمّ المسائل العقائدیه و الأخلاقیه و العملیه،و وعدت الإثنین بمکافاه متکافئه و ثواب متساو بدون أی تفاوت و اختلاف.

و بتعبیر آخر:لاـ یمکن إنکـار التفـاوت الجسـمی بین الرجـل و المرأه،کمـا لاـ یمکن إنکـار التفـاوت النفسـی بینهمـا أیضا،و من البـدیهی أنّ هـذا التفاوت ضـروری لإدامه نظام المجتمع الإنسانی،کما أنّه یفرز آثارا و نتائج فی بعض القوانین الحقوقیه للمرأه و الرجل،إلّا أنّ الإسلام لم یطرح شخصیه المرأه الإنسانیه للمناقشه-کما فعل ذلک بعض القساوسه المسیحیین فی القرون الماضیه-بـأنّ المرأه هـل هی إنسـان فی الواقع؟و هـل لهـا روح إنسـانیه أم لا؟! و لم یکتف بـذلک فحسب،بل أکّـد علی عـدم الفرق بین الجنسـین من نـاحیه الروح الإنسانیه،و لـذلک نقرأ فی الآیه(۹۷)من سـوره النحـل مَنْ عَمِـلَ صالِحـاً مِنْ ذَکَرٍ أَوْ أُنْثی وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْیِیَنَّهُ حَیاهً طَیِّبَهً وَ لَنَجْزِیَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما کانُوا یَعْمَلُونَ .

لقد أقرّ الإسـلام للمرأه نفس الاستقلال الاقتصادی الذی أقرّه للرجل،علی عکس کثیر من قوانین العالم السابقه،بل و حتّی قوانین عالم الیوم التی لم تبح للمرأه الاستقلال الاقتصادی مطلقا.

من هنـا،فإنّنـا نلاحـظ فی علم الرجـال الإسـلامی جانبا خاصّا یتعلّق بالنساء العالمات اللواتی کنّ فی مصافّ الرواه و الفقهاء،و قد ذکرن کشخصیات مؤثّره و فاعله فی التاریخ الإسلامی.

و إذا رجعنا إلى تاريخ العرب قبل الإسلام،و حقّقنا فى وضع النساء فى ذلك المجتمع،و رأينا كيف أنهنّ كنّ محرومات من أبسط حقوق الإنسان،بل لم يكن المشركون يعتقدون بأنّ لهنّ حقّ الحياه أحيانا،و لذلك كانوا يئدونهنّ و هنّ أحياء بعد ولادتهنّ!! و كذلك إذا نظرنا إلى وضع المرأه فى عالمنا المعاصر حيث أصبحت العوبه لا- إختيار لها و لا- إراده فى أيدى مجموعه من المتلبّسين بلباس الإنسانيه و يدعون التمدّن،فسوف ندرك جيدا بأنّ الإسلام قد خدم المرأه أيّما خدمه،و له حقّ عظيم عليهنّ (۱) ؟!

ص :۲۵۵

۱- ۱) كان لنا بحث آخر فى هذا المجال فى ذيل الآيه(۲۲۸)من سوره البقره،و كذلك ورد بحث آخر فى ذيل الآيه(۹۷) من سوره النحل.

الآيات [سوره الأحزاب (۳۳): الآيات ۳۶ الی ۳۸]

اشاره

وَ مٰا كٰانَ لِمُؤْمِنٍ وَ لاٰ مُؤْمِنَةٍ إِذٰا قَضَى اَللّٰهُ وَ رَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ اَلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَ مَنْ يَعْصِ اَللّٰهَ وَ رَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاٰلاً مُبِيناً (۳۶) وَ إِذْ تَقُولُ لِلَّذِی أَنْعَمَ اَللّٰهُ عَلَيْهِ وَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَ اِتَّقِ اَللّٰهَ وَ تُخْفِی فِی نَفْسِكَ مَا اَللّٰهُ مُبْدِيهِ وَ تَخْشَى اَلنّٰاسَ وَ اَللّٰهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشٰاهُ فَلَمّٰا قَضىٰ زَيْدٌ مِنْهٰا وَطَراً زَوَّجْنٰاكَهٰا لِكَیْ لاٰ يَكُونَ عَلَى اَلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِی أَزْوٰاجِ أَدْعِيٰائِهِمْ إِذٰا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَ كٰانَ أَمْرُ اَللّٰهِ مَفْعُولاً (۳۷) مٰا كٰانَ عَلَى اَلنَّبِیِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمٰا فَرَضَ اَللّٰهُ لَهُ سُنَّةَ اَللّٰهِ فِی اَلَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَ كٰانَ أَمْرُ اَللّٰهِ قَدَراً مَقْدُوراً (۳۸)

سبب النّزول

نزلت هذه الآيات-علی قول أغلب المفسّرين-فی قضيّه زواج«زينب بنت جحش»-بنت عمّه الرّسول الأكرم-بزيد بن حارثه مولی النّبی صلّی اللّه عليه و آله المعتق، و كانت القصّه كما يلی:

ص :۲۵۶

کانت خدیجه قد اشترت قبل البعثه و بعد زواجها بالنّبی صلّی اللّه علیه و آله عبدا اسمه زید،ثمّ و هبته للنّبی صلّی اللّه علیه و آله فأعتقه رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله،فلمّا طردته عشیرته و تبرّأت منه تبنّاه النّبی صلّی اللّه علیه و آله.

و بعد ظهور الإسلام أصبح زید مسلما مخلصا متفانیا،و أصبح له موقع ممتاز فی الإسلام،و کما نعلم فإنّه أصبح فی النهایه أحد قوّاد جیش الإسلام فی معرکه مؤته و استشهد فیها.

و عند ما صمّم النّبی صلّی اللّه علیه و آله علی أن ینتخب زوجه لزید،خطب له«زینب بنت جحش»-و التی کانت بنت«أمیّه بنت عبد المطلّب»،أی بنت عمّته-فکانت زینب تظنّ أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله یرید أن یخطبها لنفسه،فسرّت و رضیت،و لکنّها لمّا علمت فیما بعد أن خطبته کانت لزید تأثّرت تأثّرا شدیدا و امتنعت،و کذلک خالف أخوها عبد اللّه هذه الخطبه أشدّ مخالفه.

هنا نزلت الآیه الاولی من الآیات مورد البحث و حذّرت زینب و عبد اللّه و أمثالهما بأنّهم لا یقدرون علی مخالفه أمر یراه اللّه و رسوله ضروریا،فلمّا سمعا ذلک سلّما لأمر اللّه.

إنّ هذا الزواج لم یکن زواجا بسیطا-کما سنری ذلک-بل کان مقدّمه لتحطیم سنّه جاهلیه مغلوطه،حیث لم تکن أیّه امرأه لها مکانتها و شخصیتها فی المجتمع مستعدّه للاقتران بعبد فی زمن الجاهلیه،حتّی و إن کان متمتّعا بقیم إنسانیه عالیه.

غیر أنّ هذا الزواج لم یدم طویلا،بل انتهی إلی الطلاق نتیجه عدم الانسجام و اختلاف أخلاق الزوجین،بالرغم من أنّ النّبی الأکرم صلّی اللّه علیه و آله کان مصرّا علی أن لا یتمّ هذا الطلاق.

بعد ذلک اتّخذ النّبی صلّی اللّه علیه و آله بأمر اللّه«زینب»زوجه له لتعوّض بذلک فشلها فی زواجها،فانتهت المسأله هنا،إلاّ أنّ همهمات و أقاویل قد ظهرت بین الناس،و قد اقتلعها القرآن و عالجها فی هذه الآیات التی نبحثها، و سیأتی تفصیل ذلک،إن

شاء اللّه تعالى (۱) .

التّفسير

اشاره

تمرّد عظيم على العرف:

نعلم أنّ روح الإسلام التسليم،و يجب أن يكون تسليما لأمر اللّه تعالى بدون قيد أو شرط،و قد ورد هذا المعنى فى آيات مختلفه من القرآن الكريم،و بعبارات مختلفه،و من جملتها الآيه أعلاه،و التى تقول: وَ مٰا كٰانَ لِمُؤْمِنٍ وَ لاٰ مُؤْمِنَهٍ إِذٰا قَضَى اللّٰهُ وَ رَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَهُ مِنْ أَمْرِهِمْ بل يجب أن يجعلوا إرادتهم تبعا لإراده اللّه تعالى،كما أنّ كلّ وجودهم من الشعر حتّى أخمص القدمين مرتبط به و مذعن له.

(قضى)هنا تعنى القضاء التشريعى،و القانون و الأمر و الحكم و القضاء،و من البديهى أنّ اللّه تعالى غنى عن طاعه الناس و تسليمهم،و لم يكن النّبى صلّى اللّه عليه و آله ينظر بعين الطمع لهذه الطاعه،بل هى فى الحقيقه لمصلحتهم و منفعتهم،فإنّهم قد يجهلونها لكون علمهم و آفاتهم محدوده،إلاّ أنّ اللّه تعالى يعلمها فيأمر نبيّه بإبلاغها.

إنّ هذه الحاله تشبه تماما حاله الطبيب الماهر الذى يقول للمريض:إنّنى أبدا بعلاجك إذا أذعنت لأوامرى تماما،و لم تبد أى مخالفه تجاهها،و هذه الكلمات تبيّن غايه حرص الطبيب على علاج مريضه،و اللّه تعالى أسمى و أرحم بعباده من مثل هذا الطبيب، و لذلك أشارت الآيه إلى هذه المسأله فى نهايتها،حيث تقول:

وَ مَنْ يَعْصِ اللّٰهَ وَ رَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاٰلاً مُبِيناً

.

فسوف يضلّ طريق السعاده،و يسلك طريق الضلال و الضياع،لأنّه لم يعبأ بأمر

۱- ۱) اقتباس من تفسير مجمع البيان،و القرطبى،و الميزان،و الفخر الرازى،و فى ظلال القرآن،و تفاسير اخرى فى ذيل الآيات مورد البحث،و كذلك سيره ابن هشام،المجلّد الأوّل،صفحه ۲۶۴،و الكامل لابن الأثير،المجلّد الثّانى،صفحه ۱۷۷.

ربّ الكون الرحيم،و بأمر رسوله،ذلك الأمر الضامن لخيره و سعادته،و أيّه ضلاله أوضح من هذه؟! ثمّ تناولت الآيه التاليه قصّه«زيد»و زوجته«زينب»المعروفه،و التی هی إحدی المسائل الحسّاسه فی حیاه النّبی صلّی اللّه علیه و آله،و لها ارتباط بمسأله أزواج النّبی صلّی اللّه علیه و آله التی مرّت فی الآیات السابقه،فتقول: وَ إِذْ تَقُولُ لِلَّذِی أَنْعَمَ اللّٰهُ عَلَیْهِ وَ أَنْعَمْتَ عَلَیْهِ أَمْسِکْ عَلَیْکَ زَوْجَکَ وَ اتَّقِ اللّٰهَ .

و المراد من نعمه اللّه تعالی هی نعمه الهدایه و الإیمان التی منحها لزید بن حارثه،و من نعمه النّبی صلّی اللّه علیه و آله أنّه کان قد أعتقه و کان یعامله کولده الحبیب العزیز.

و یستفاد من هذه الآیه أنّ شجارا قد وقع بین زید و زینب،و قد استمرّ هذا الشجار حتّی بلغ أعتاب الطلاق،و بملاحظه جمله تَقُولُ حیث إنّ فعلها مضارع،یستفاد أنّ النّبی کان ینصحه دائما و یمنعه من الطلاق.

هل أنّ هذا الشجار کان نتیجه عدم تکافؤ الحاله الاجتماعیه بین زینب و زید، حیث کانت من قبیله معروفه،و کان هو عبدا معتق؟ أم کان ناتجا عن بعض الخشونه فی أخلاق زید؟ أو لا هذا و لا ذاک،بل لعدم وجود انسجام روحی و أخلاقی بینهما،فإنّ من الممکن أن یکون شخصان جیدین،إلاّ أنّهما یختلفان من ناحیه السلوک و الفکر و الطباع بحیث لا یستطیعان أن یستمرا فی حیاه مشترکه؟ و مهما یکن الأمر فإنّ المسأله إلی هنا لیست بذلک التعقید.

ثمّ تضیف الآیه: وَ تُخْفِی فِی نَفْسِکَ مَا اللّٰهُ مُبْدِیهِ وَ تَخْشَی النّٰاسَ وَ اللّٰهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشٰاهُ .

لقد أسهب المفسّرون هنا فی الکلام،و کان تسامح بعضهم فی التعبیرات قد منح الأعداء حربه للطعن،فی حین یفهم من القرائن الموجوده فی نفس الآیه،و سبب نزول الآیات،و التأریخ،أنّ معنی الآیه لیس مطلبا و مبحثا معقّدا،و ذلک:

إنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله كان قد قرّر أن يتّخذ«زينب»زوجه له إذا ما فشل الصلح بين الزوجين و وصل أمرهم إلى الطلاق لجبران هذه النكسه الروحيه التى نزلت بابنه عمّته زينب من جرّاء طلاقها من عبده المعتق،إلاّ أنّه كان قلقا و خائفا من أن يعيبه الناس و يثير مخالفيه ضجّه و ضوضاء،من جهتين:

الاولى:أنّ زيدا كان ابن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله بالتبنّى،و كان الابن المتبنّى-طبقا لسنّه جاهليه-يتمتّع بكلّ أحكام الابن الحقيقى،و من جملتها أنّهم كانوا يعتقدون حرمه الزواج من زوجه الابن المتبنّى المطلّقه.

و الاخرى:هى كيف يمكن للنبى صلّى اللّه عليه و آله أن يتزوّج مطلّقه عبده المعتق و هو فى تلك المنزله الرفيعه و المكانه الساميه؟ و يظهر من بعض الروايات أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله قد صمّم على أن يقدم على هذا الأمر بأمر اللّه سبحانه رغم كلّ الملابسات و الظروف،و فى الجزء التالى من الآيه قرينه على هذا المعنى.

بناء على هذا،فإنّ هذه المسأله كانت مسأله أخلاقيه و إنسانيه،و كذلك كانت وسيله مؤثّره لكسر سنّتين جاهليتين خاطئتين،و هما:الاقتران بمطلّقه الابن المتبنّى،و الزواج من مطلّقه عبد معتق.

من المسلّم أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله لا ينبغى أن يخاف الناس فى مثل هذه المسائل،و لا يدع للضعف و التزلزل و الخشيه من تأليب الأعداء و شايعاتهم إلى نفسه سبيلا،إلاّ أنّ من الطبيعى أن يبتلى الإنسان بالخوف و التردّد فى مثل هذه المواقف،خاصّه و أنّ أساس هذه المسائل كان إختيار الزوجه،و أنّه كان من الممكن أن تؤثّر هذه الأقاويل و الضجيج على انتشار أهدافه المقدّسه و توسّع الإسلام،و بالتالى ستؤثّر على ضعفاء الإيمان،و تغرس فى قلوبهم الشكّ و التردّد.

لهذا تقول الآيه فى متابعه المسأله:إنّ زيد لمّا أنهى حاجته منها و طلّقها زوجناها لك: فَلَمّا قَضىٰ زَيْدٌ مِنْها وَطَراً زَوَّجْناكَها لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ

حَرَجٌ فِی أَزْوٰاجِ أَدْعِیٰائِهِمْ إِذٰا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً

و کان لا بدّ أن یتمّ هذا الأمر وَ کٰانَ أَمْرُ اللّٰهِ مَفْعُولاً .

«الأدعیاء»جمع«دعی»،أی الابن المتبنّی،و«الوطر»هو الحاجه المهمّه، و إختیار هذا التعبیر فی مورد طلاق زینب للطف البیان،لئلّا یصرّح بالطلاق الذی یعدّ عیبا للنساء،بل و حتّی للرجال،فکأنّ کلا من هذین الشخصین کان محتاجا للآخر لیحیا حیاه مشترکه لمدّه معیّنه،و افتراقهما کان نتیجه لانتفاء هذه الحاجه و نهایتها.

و التعبیر ب زَوَّجْنٰاکَهٰا دلیل علی أنّ هذا الزواج کان زواجا بأمر اللّه،و لذلک ورد فی التواریخ أنّ زینب کانت تفتخر بهذا الأمر علی سائر زوجات النّبی صلّی اللّه علیه و آله، و کانت تقول:زوّجکنّ أهلوکنّ و زوّجنی اللّه من السماء (۱) .

و ممّا یستحقّ الانتباه أنّ القرآن الکریم یبیّن بمنتهی الصراحه الهدف الأصلی من هذا الزواج،و هو إلغاء سنّه جاهلیه کانت تقضی بمنع الزواج من مطلّقات الأدعیاء،و هذا بنفسه إشاره إلی مسأله کلّیه،و هی أنّ تعدّد زواج النّبی صلّی اللّه علیه و آله لم یکن أمرا عادیا بسیطا،بل کان یرمی إلی أهداف کان لها أثرها فی مصیر دینه.

و جمله کٰانَ أَمْرُ اللّٰهِ مَفْعُولاً إشاره إلی وجوب الحزم فی مثل هذه المسائل، و کلّ عمل ینبغی فعله یجب أن ینجز و یتحقّق،حیث لا معنی للاستسلام أمام الضجیج و الصخب فی المسائل التی تتعلّق بالأهداف العامّه و الأساسیه.

و یتّضح من التّفسیر الواضح الذی أوردناه فی بحث الآیه أعلاه أنّ الادّعاءات التی أراد الأعداء أو الجهلاء إسنادها لهذه الآیه لا أساس لها مطلقا،و سنعطی فی بحث الملاحظات توضیحا أکثر فی هذا الباب إن شاء اللّه تعالی.

و تقول الآیه الأخیره فی تکمیل المباحث السابقه:

ص:۲۶۱

۱- ۱) الکامل لابن الأثیر،المجلد ۲،ص ۱۷۷.و مما یستحق الالتفات أن زواج النبی صلی الله علیه و آله من زینب قد تم فی السنه الخامسه للهجره،المصدر السابق.

مٰا كٰانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمٰا فَرَضَ اللّٰهُ

فحيث يأمره اللّه سبحانه لا تجوز المداهنه فى مقابل أمره تعالى، و يجب تنفيذه بدون أىّ تردّد.

إنّ القـاده الربـانيين يجب أن لا يصـغوا إلى كلام هـذا و ذاك لـدى تنفيـذ الأوامر الإلهيّه،أو يراعوا الأجواء السياسـيه و الآداب و الأعراف الخاطئه السائده فى المحيط،و ربّما كان هذا الأمر قد صدر لتمزيق هذه الأعراف المغلوطه،و لتحطيم البدع القبيحه.

إنّ القاده الإلهيين يجب أن ينفّذوا أمر اللّه بدون خوف من الملامه و العتاب و الضجّه و الغوغاء،و أن كونوا مصداق وَ لاٰ يَخٰافُونَ لَوْمَهَ لاٰئِمٍ . (۱)

إنّنا إذا أردنا أن نجلس و ننتظر رضا الجميع و سـرورهم ثمّ ننفّـذ أمر اللّه سـبحانه، فلنعلم أنّ هذا الأمر لا يمكن تحقّقه،لأنّ بعض الفئـات لاـ ترضـى حتّى نستسـلم لمـا تريـد و نتّبع دينهـا و فكرها،كما يقول القرآن الكريم ذلك: وَ لَنْ تَرْضىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَ لاَ النَّصٰارىٰ حَتّٰى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ . (۲)

و كذلك كان الأمر فى مورد الآيه التى نبحثها،لأنّ زواج النّبى صلّى اللّه عليه و آله من زينب كان يكتنفه فى أفكار الناس العامّه إشكالان كما قلنا:

الأوّل:أنّ الزواج بمطلّقه المدّعى كان فى نظر أولئك كالزواج بزوجه الابن الحقيقى،و كانت هذه بدعه يجب أن تلغى.

و الآخر:أنّ زواج رجل مرموق له مكانته فى المجتمع كالنّبى صلّى اللّه عليه و آله من مطلّقه غلام محرّر كان يعدّ عيبا و عارا،لأنّه يجعل النّبى و العبد فى مرتبه واحده،و هذه الثقافه الخاطئه كان يجب أن تقلع و تجتث من الجذور لتزرع مكانها القيم الإنسانيه،و كون الزوجين كفؤين لبعضهما إنّما يستقيم و يقاس على أساس الإسلام و الإيمان و التقوى و حسب.

۱- ۱) المائده،۵۴.

۲- ۲) البقره،۱۲۰.

و أساسا فانّ مخالفه السنن و الأعراف،و اقتلاع الآداب و العادات الخرافيه و غير الإنسانيه يقترن عاده بالضجيج و الغوغاء و الصخب،و ينبغى أن لا يهتمّ الأنبياء بهذا الضجيج و الصخب مطلقا، و لذلك تعقب الجمله التاليه فتقول: سُنَّةَ اللّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ .

فلست الوحيد المبتلى بهذه المشكله،بل إنّ الأنبياء جميعا كانوا يعانون هذه المصاعب عند مخالفتهم سنن مجتمعاتهم،و عند سعيهم لاجتثاث اصول الأعراف الفاسده منها.

و لم تكن المشكله الكبرى منحصره فى محاربه هاتين السنّتين الجاهليتين،بل إنّ هذا الزواج لمّا كان مرتبطا بالنّبى صلّى اللّه عليه و آله فإنّه يمكن أن يعطى الأعداء حربه اخرى ليعيبوا على النّبى صلّى اللّه عليه و آله فعله،و يطعنوا فى دينه،و سيأتى تفصيل ذلك.

و يقول اللّه سبحانه فى نهايه الآيه تثبيتا لاتّباع الحزم فى مثل هذه المسائل الأساسيه: وَ كانَ أَمْرُ اللّهِ قَدَراً مَقْدُوراً .

إنّ التعبير ب قَدَراً مَقْدُوراً قد يكون إشاره إلى كون الأمر الإلهى حتميا، و يمكن أن يكون دالا على رعايه الحكمه و المصلحه فيه،إلاّ أنّ الأنسب فى مورد الآيه أن يراد منه كلا المعنيين،أى أنّ أمر اللّه تعالى يصدر على أساس الحساب الدقيق و المصلحه،و كذلك لا بدّ من تنفيذه بدون استفهام أو تلكّؤ.

و الطريف أنّنا نقرأ فى التواريخ أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله قد أولم للناس و وليمه عامّه لم يكن لها نظير فيما سبق اقترانه بزوجاته (1) ،فكأنّه أراد بهذا العمل أن يبيّن للناس أنّه غير قلق و لا خائف من السنن الخرافيه التى كانت سائده فى تلك البيئه،بل إنّه يفتخر بتنفيذ هذا الأمر الإلهى،إضافه إلى أنّه كان يطمح إلى أن يصل صوت إلغاء هذه السنّه الجاهليه إلى آذان جميع من فى جزيره العرب عن هذا الطريق.

1- 1) يروى المفسّر الكبير المرحوم الطبرسى فى مجمع البيان:فتزوّجها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله...و ما أولم على امرأه من نسائه ما أولم عليها،ذبح شاه،و أطعم الناس الخبز و اللحم حتّى امتدّ النهار.مجمع البيان،ج 8،ص 361.

بحثان

اشاره

١-أساطير كاذبه

مع أنّ القرآن الكريم كان غايه فى الصراحه فى قصّه زواج النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله من زينب،و فى تبيان هذه المسأله،و الهدف من هذا الزواج،و أعلن أنّ الهدف هو محاربه سنّه جاهليه فيما يتعلّق بالزواج من مطلّقه الابن المدّعى،إلاّ أنّها ظلّت مورد استغلال جمع من أعداء الإسلام،فحاولوا اختلاق قصّه غراميه منها ليشوّهوا بها صوره النّبى المقدّسه،و اتّخذوا من الأحاديث المشكوك فيها أو الموضوعه فى هذا الباب آله و حربه يلوّحون بها.

و من جمله ذلک ما كتبوه من أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله جاء إلى دار زيد ليسأل عن حاله، فما إن فتح الباب حتّى وقعت عينه على جمال زينب،فقال:«سبحان اللّه خالق النور!تبارک اللّه أحسن الخالقين»و اتّخذوا هذه الجمله دليلا على تعلّق النّبى صلّى اللّه عليه و آله بزينب.

فى حين أنّ هناک دلائل واضحه-بغضّ النظر عن مسأله العصمه و النبوّه- تكذّب هذه الأساطير:

الاولى:أنّ زينب كانت بنت عمّه النّبى صلّى اللّه عليه و آله،و قد تربيّا و كبرا معا فى محيط عائلى تقريبا،و النّبى صلّى اللّه عليه و آله هو الذى خطبها بنفسه لزيد،و إذا كان لزينب ذلک الجمال الخارق،و على فرض أنّه استرعى انتباهه،فلم يكن جمالها أمرا خافيا عليه،و لم يكن زواجه منها قبل هذه الحادثه أمرا عسيرا،بل إنّ زينب لم تبد أى رغبه فى الاقتران بزيد، بل أعلنت مخالفتها صراحه،و كانت ترجّح تماما أن تكون زوجه للنبى صلّى اللّه عليه و آله،بحيث أنّها سرّت و فرحت عند ما ذهب النّبى صلّى اللّه عليه و آله لخطبتها ظنّا منها بأنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله يخطبها لنفسه،إلاّ أنّها رضخت لأمر اللّه و رسوله بعد نزول هذه الآيه القرآنيه و تزوّجت زيدا.

مع هذه المقدّمات هل يبقى مجال لهذا الوهم بأنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله لم يكن عالما بحال

زینب و جمالها؟و أیّ مجال لهذا الظنّ الخاطئ بأن یکون راغبا فی الزواج منها و لا یستطیع الإقدام علیه؟ و الثّانیه:أنّ زیدا عند ما کان یراجع النّبی صلّی اللّه علیه و آله لطلاق زوجته زینب،کان النّبی ینصحه مرارا بصرف النظر عن هذا الأمر،و هذا بنفسه شاهد آخر علی بطلان هذه الادّعاءات و الأساطیر.

و من جهه اخری فإنّ القرآن الکریم قد أوضح الهدف من هذا الزواج بصراحه لئلّا یبقی مجال لأقاویل اخری.

و من جهه رابعه قرأنا فی الآیات المذکوره أعلاه أنّ اللّه تعالی یقول:قد کان فی حادثه زواج النّبی بمطلّقه زید أمر کان النّبی یخشی الناس فیه،فی حین أنّ خشیته من اللّه أحقّ من الخشیه من الناس.

إنّ مسأله خشیه اللّه سبحانه توحی بأنّ هذا الزواج قد تمّ کتنفیذ لواجب شرعی، یجب عنده طرح کلّ الاعتبارات الشخصیه جانبا من أجل اللّه تعالی لیتحقّق هدف مقدّس من أهداف الرساله،حتّی و إن کان ثمن ذلک جراحات اللسان التی یلقیها جماعه المنافقین فی اتّهاماتهم للنبی،و کان هذا هو الثمن الباهض الذی دفعه النّبی صلّی اللّه علیه و آله-و لا زال یدفعه إلی الآن-فی مقابل طاعه أمر اللّه سبحانه،و إلغاء عرف خاطئ و سنّه مبتدعه.

إلاّ أنّ هناک لحظات حرجه فی حیاه القاده المخلصین تحتّم علیهم أن یضحّوا و یعرّضوا أنفسهم فیها الاتّهام أمثال هؤلاء الأفراد لیتحقّق هدفهم! أجل..لو کان النّبی صلّی اللّه علیه و آله لم یر زینب من قبل مطلقا،و لم یکن یعرفها،و لم یکن لدی زینب الرغبه فی الاقتران به،و لم یکن زید مستعدّا لطلاقها-و بغضّ النظر عن مسأله النبوّه و العصمه-لکان هناک مجال لمثل هذه الأقاویل و التخرّصات،لکن بملاحظه انتفاء کلّ هذه الظروف یتّضح کون هذه الأکاذیب مختلفه.

إضافه إلی أنّ تاریخ النّبی صلّی اللّه علیه و آله لم یعکس أی دلیل أو صوره تدلّ علی وجود

رغبه خاصّه لديه صلّى اللّه عليه و آله فى الزواج من زينب،بل هى كسائر الزوجات،بل ربّما كانت أقل من بعض الزوجات من بعض الجهات،و هذا شاهد تأريخى آخر على نفى هذه الأساطير.

و نرى فى نهايه المطاف ضروره الإشاره إلى احتمال أن يقول شخص:إنّ محاربه مثل هذه السنّه الخاطئه واجب،و لكن أيّه ضروره تدعو إلى أن يقتحم النّبى صلّى اللّه عليه و آله هذا الميدان بنفسه؟فقد كان بإمكانه أن يطرح هذه المسأله و يبيّنها كقانون،و يرغب الآخرين فى الزواج من مطلّقه المتبنّى.

غير أنّ مخالفه سنّه جاهليه خاطئه-خاصّه و أنّها تتعلّق بالزواج من أفرادهم دون شأن المقابل ظاهرا-قد تكون غير مقبوله بالكلام و التقنين أحيانا،إذ يقول الناس:إذا كان هذا الأمر حسنا فلما ذا لم يفعله هو؟لم لم يتزوّج بمطلّقه عبده المعتق و ابنه المتبنى؟ فى مثل هذه الموارد ينهى الإقدام و الإجراء العملى كلّ هذه الأسئله و الإشكالات،و عندها ستتكسّر و تتلاشى تلك السنّه الخاطئه.إضافه إلى أنّ هذا العمل كان بنفسه تضحيه و إيثارا.

۲-روح الإسلام التسليم أمام اللّه

لا شكّ أنّ استقلال الإنسان الفكرى و الروحى لا يسمح له أن يستسلم لأحد بدون قيد أو شرط،لأنّه إنسان مثله،و من الممكن أن تكون له أخطاء و اشتباهات فى المسائل.

أمّا إذا انتهت المسأله إلى اللّه العالم و الحكيم،و النّبى الذى يتحدّث عنه و يسير بأمره،فإنّ عدم التسليم المطلق دليل على الضلال و الانحراف،حيث لا يوجد أدنى اشتباه فى أوامره سبحانه.إضافه إلى أنّ أمره حافظ لمنافع الإنسان نفسه، و لا يعود شىء على ذاته المقدّسه،فهل يوجد إنسان عاقل يسحق مصالحه برجله

بعـد تشـخيص هذه الحقيقه؟ و مضافا إلى ذلک فإنّنا منه تعالى،و كلّ ما لدينا منه،و لا يمكن أن يكون لنا أمر و قرار إلّا التسـليم لإرادته و أمره،و لذلک ترى بين دفّتى القرآن آيات كثيره تشير إلى هذه المسأله:

فمرّه تقول آيه: إِنَّما كانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذا دُعُوا إِلَى اللّهِ وَ رَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنا وَ أَطَعْنا وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . (۱)

و تقول اخرى: فَلا وَ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِى أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمّا قَضَيْتَ وَ يُسَلِّمُوا تَسْلِيماً . (۲)

و يقول القرآن فى موضع آخر: وَ مَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ . (۳)

إنّ«الإسلام»أخذ من مادّه«التسليم»،و هو يشير إلى هذه الحقيقه،و بناء على هذا فإنّ كلّ إنسان يتمتّع بروح الإسلام بمقدار تسليمه للّه سبحانه.

ينقسم النـاس عـدّه أقسـام من هـذه النـاحيه:فقسم يسـلّمون لأـمر اللّه فى الموارد التى تنفعهم فقط،و هؤلاء فى الحقيقه مشـركون انتحلـوا اسـم الإسـلام،و عملهم تجزئه لأحكـام اللّه تعـالى،فهم مصـداق نُـؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَ نَكْفُرُ بِبَعْضٍ فإيمـانهم فى الحقيقه إيمـان بمصالحهم لا باللّه تعالى.

و آخرون جعلوا إرادتهم تبعا لإراده اللّه،و إذا تعارضت منافعهم الزائله مع أمر اللّه سـبحانه،فإنّهم يغضّون الطرف عنها و يسـلّمون لأمر اللّه،و هؤلاء هم المؤمنون و المسلمون الحقيقيون.

و القسم الثالث أسمى من هؤلاء،فهم لا يريدون إلّا ما أراد اللّه،و ليس فى

ص: ۲۶۷

۱- ۱) النور،۵۱.

۲- ۲) النساء،۶۵.

۳- ۳) النساء،۱۲۵.

قلوبهم إلّا ما يشاؤه سبحانه،فقد بلغوا مرتبه من التسامی لا يحبّون معها إلّا ما يحبّه اللّه،و لا يبغضون إلّا ما أبغضه اللّه عزّ و جلّ.

هؤلاء هم الخاصّه و المخلصون و المقرّبون لديه،فقد صبغ التوحيد كلّ وجودهم،و غرقوا فی حبّه،و فنوا فی جماله (۱) .

۱- ۱) لقد أوردنا بحثا آخر فی هذا الباب فی ذيل الآيه(۶۵)من سوره النساء.

الآیه [سوره الأحزاب (۳۳): آیه ۳۹]

اشاره

اَلَّذِینَ یُبَلِّغُونَ رِسالاٰتِ اَللّهِ وَ یَخْشَوْنَهُ وَ لاٰ یَخْشَوْنَ أَحداً إِلاَّ اَللّهَ وَ کَفیٰ بِاللّهِ حَسِیباً (۳۹)

التّفسیر

اشاره

من هم المبلّغون الحقیقیون؟

تشیر الآیه مورد البحث،و مناسبه للبحث الذی مرّ حول الأنبیاء السابقین فی آخر آیه من الآیات السابقه،إلی أحد أهم برامج الأنبیاء العامّه،فتقول: اَلَّذِینَ یُبَلِّغُونَ رِسالاٰتِ اللّهِ وَ یَخْشَوْنَهُ وَ لاٰ یَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ اللّهَ .

و کذلک الحال بالنسبه إلیک،فینبغی أن لا تخش أحدا فی تبلیغ رسالات اللّه، و عند ما یأمرک اللّه سبحانه أن حطّم سنّه جاهلیه خاطئه فی مسأله زواج مطلّقه المتبنّی،و تزوّج بزینب مطلّقه زید،فیجب أن لا تدع لأدنی قلق و خوف من قول هذا و ذاک فی تأدیه هذا التکلیف إلی نفسک سبیلا،فإنّ هذه سنّه جمیع الأنبیاء علیهم السّلام.

إنّ عمل الأنبیاء علیهم السّلام فی کثیر من المراحل هو کسر مثل هذه السنن و الأعراف عاده،و لو أنّهم سمحوا لأقلّ خوف و تردّد أن ینفذ إلی نفوسهم فسوف یفشلون فی

أداء رسالاتهم، فيجب على هذا أن يسيروا بحزم و ثبات،و يستوعبوا كلمات المسيئين الجارحه غير المتزنه،و يستمرّوا فى طريقهم دون أن يهتّموا باصطناع الأجواء ضدّهم،و ضجيج العوام،و تآمر الفاسدين و المفسدين و تواطئهم،لأنّ كلّ الحسابات بيد اللّه سبحانه،و لذلك تقول الآيه فى النهايه: وَ كَفىٰ بِاللّٰهِ حَسِيباً .

إنّه يحسب إيثار الأنبياء و تضحياتهم فى هذا الطريق و يجزيهم عليها،كما يحفظ كلمات الأعداء البذيئه و ثرثرتهم ليحاسبهم عليها و يجازيهم.

إنّ جمله: وَ كَفىٰ بِاللّٰهِ حَسِيباً دليل فى الحقيقه على أنّ القاده الإلهيين يجب أن لا يخشوا شيئا أو أحدا فى إبلاغ الرسالات،لأنّ اللّه سبحانه هم المحصى لجهودهم،و هو المثيب عليها.

ملاحظات

اشاره

[1-المراد من«التبليغ»]

المراد من«التبليغ»هنا هو الإبلاغ و الإيصال،و عند ما يرتبط الأمر ب«رسالات اللّه»فإنّه يعنى أن يعلّم الأنبياء الناس ما علّمهم اللّه عن طريق الوحى، و أن ينفذوه إلى القلوب عن طريق الاستدلال و الإنذار و التبشير و الموعظه و النصيحه.

[2-المراد من«الخشيه»]

«الخشيه»تعنى الخوف المقترن بالتعظيم و الاحترام،و يختلف عن الخوف المجرّد من هذه الخاصيه من هذه الجهه.و قد تستعمل أحيانا بمعنى مطلق الخوف.

و قد ورد فى مؤلّفات المحقّق«الطوسى»كلام فى الفرق بين هذين اللفظين، و هو فى الحقيقه يشير إلى المعنى العرفانى لا اللغوى،فانّه يقول:إنّ الخشيه و الخوف و إن كانا فى اللغه بمعنى واحد-أو يقربان من معنى واحد-إلاّ أنّ بينهما فرقا لدى أهل البصائر،و هو:إنّ«الخوف» يعنى القلق و الاضطراب الداخلى من العواقب التى ينتظرها الإنسان نتيجه ارتكابه المعاصى و الذنوب،أو تقصيره فى

الطاعه،و هذه الحاله تحصل لأغلب الناس و إن اختلفت درجاتها،أمّا أعلى مراتبها فلا تحصل إلّا لفئه قليله منهم.

أمّا«الخشيه»فهى الحاله التى تحصل للإنسان لدى إدراكه عظمه اللّه و هيبته، و الخوف من بقائه مبعدا عن أنوار فيضه،و هذه الحاله لا تحصل إلّا لأولئك الذين وقفوا على عظمه ذاته المقدّسه و جلال كبريائه،و تذوّقوا طعم قربه،و لذلك عدّ القرآن هذه الحاله خاصّه بعباد اللّه العلماء فقال: إِنَّمٰا يَخْشَى اللّٰهَ مِنْ عِبٰادِهِ الْعُلَمٰاءُ (1) .

٣-جواب عن سؤال؟

قد يقال:إنّ هذه الآيه تتناقض مع ما مرّ فى الآيات السابقه،فهى تقول هنا:إنّ أنبياء اللّه لا يخشون إلّا اللّه،و لا يخشون أحدا غيره،إلاّ أنّه قد ورد فى الآيات السابقه: وَ تُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللّٰهُ مُبْدِيهِ وَ تَخْشَى النّٰاسَ وَ اللّٰهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشٰاهُ ؟ إلّا أنّ الإجابه على هذا السؤال تتّضح بتأمّل النقطتين التاليتين:

الاولى:أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله إنّما كان خائفا من عدم تحمّل عدد كبير من الناس لنقض هذه السنّه،و من عدم استيعابهم للمسأله،و بذلك ستتزعزع أسس إيمانهم من هذه الجهه،و مثل هذه الخشيه ترجع فى الحقيقه إلى خشيه اللّه سبحانه.

و الاخرى:أنّ الأنبياء لا يعيشون حاله الخوف و القلق من شخص ما فى تبليغهم رسالات اللّه،أمّا فى ما يتعلّق بأمور الحياه الشخصيه و الخاصّه فلا مانع من أن يخافوا من أمر خطير كاتّهام و طعن الناس،أو أن يكونوا كموسى عليه السّلام إذ خاف-حسب الطبيعه البشريه-عند ما ألقى العصا و تحوّلت إلى ثعبان عظيم،فإنّ مثل هذا الخوف و الاضطراب إذا لم يكن مفرطا لا يعدّ عيبا و نقصا،بل قد يواجه هذه

١- ١) مجمع البحرين مادّه خشى.

المسأله أشجع الناس أحيانا،إنّما العيب و النقص هو الخوف من أداء التكليف الإلهى فى الحياه الاجتماعيه.

۴-هل كان الأنبياء يستعملون التقيّه؟

استفاد جماعه من هذه الآيه أنّ التقيّه حرام مطلقا للأنبياء فى تبليغ الرساله، لأنّ القرآن يقول: وَ لاٰ يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ اللّٰهَ .

غير أنّه يجب الانتباه إلى أنّ للتقيّه أنواعا،و لم تنف الآيه فى مورد دعوه الأنبياء و إبلاغ الرساله إلاّ نوعا واحدا،و هو التقيّه خوفا،فى حين أنّ للتقيّه أنواعا منها التقيّه مداراه و توريه.

و المراد من التقيّه المداراتيه أن يكتم الإنسان عقيدته أحيانا لجلب محبّه الطرف المقابل ليقوى على استمالته للتعاون فى الأهداف المشتركه.

و المراد من تقيّه«التوريه»و الإخفاء هو أنّه يجب أن تخفى المقدّمات و الخطط للوصول إلى الهدف،فإنّها إن أفشيت و انتشرت بين الناس و أصبحت علنيه،و أطلع العدوّ عليها فمن الممكن أن يقوم باجهاضها.

إنّ حياه الأنبياء-و خاصّه نبى الإسلام صلّى اللّه عليه و آله-مليئه بموارد التقيّه هذه،لأنّا نعلم أنّه صلّى اللّه عليه و آله كان كثيرا ما يخفى أهدافه و مقاصده عند ما كان يتوجّه إلى ميدان الحرب، و كان يرسم خططه الحربيه بخفاء تامّ،و كان يستخدم أسلوب الاستتار و التخفّى- و الذى هو نوع من التقيّه-فى جميع المراحل.

و كان يتّبع أحيانا أسلوب«المراحل»-و هو نوع من التقيّه-لبيان حكم ما، فمثلا نرى أنّ مسأله تحريم الربا أو شرب الخمر لم تبيّن فى مرحله واحده،بل تمت فى مراحل متعدّده بأمر اللّه سبحانه،أى أنّها تبدأ من المراحل الأبسط و الأسهل حتّى تنتهى بالحكم النهائى الأساسى.

و على أيّه حال،فإنّ للتقيّه معنى واسعا،و هو:(إخفاء الحقائق و الواقع للحفاظ

على الأهـداف من التعرّض للخطر و الانهيـار)و هـذا الشـيء متعـارف بين عقلاء العالم،و القاده الربّانيون يفعلون ذلك فى بعض المراحل للوصول إلى أهـدافهم المقـدّسه،كما نقرأ ذلك فى قصّه«إبراهيم»عليه السّلام بطل التوحيد،حيث أخفى هدفه من البقاء فى المدينه فى اليوم الذى يخرج فيه عبده الأصـنام خارج المدينه لإجراء مراسم العيد ليستغلّ فرصه مناسبه فينهال على الأصنام و يحطّمها.

و كـذلك أخفى«مؤمن آل فرعون»إيمانه ليسـتطيع أن يعيّن موسـى عليه السّلام فى اللحظات الحسّاسه و ينقـذه من القتل،و لهذا السبب ذكر القرآن له تسعه مواقف و صفات عظيمه.

و من هنا نعلم أنّ التقيّه خوفا فقط غير جائزه على الأنبياء،لا الأنواع الاخرى للتقيّه.

و بالرغم من أنّ الكلام فى هذا الباب كثير،إلّا أنّنا ننهى هذا البحث بحديث جامع غنىّ المحتوى

عن الإمـام الصـادق عليه السّلام،أنّه قـال: «التقيّه دينى و دين آبـائى، و لا دين لمن لا تقيّه له،و التقيّه ترس اللّه فى الأرض،لأنّ مؤمن آل فرعون لو أظهر الإسلام لقتل» (1) .

و كان لنا بحث مفصّل حول التقيّه فى ذيل الآيه(١٠۶)من سوره النحل.

۵-شرط الإنتصار فى التبليغ:

إنّ الآيه المـذكوره دليل واضح على أنّ الحزم و الإخلاص و عدم الخوف من أى أحد إلّا اللّه تعالى،شـرط أساسـى فى التقدّم و الرقى فى مجال الإعلام و التبليغ.

الأشـخاص الـذين يراعون رغبات و ميول هذا و ذاك فى مقابل أمر اللّه، و يوجّهون الحقّ و العداله بما يناسب أهواءهم،سوف لا يحصلون على نتيجه

١- ١) مجمع البيان،المجلّد ٨،صفحه ۵٢١ ذيل الآيه(٢٨)من سوره المؤمن.

مطلقا،فلا نعمه أسمى من نعمه الهدایه،و لا خدمه أنفع من إهداء هذه النعمه للبشریه،و لذلک کان جزاء و ثواب هذا العمل أعظم من کلّ ثواب و عطاء،و من هنا نقرأ

فی حدیث عن أمیر المؤمنین علیه السّلام أنّه قال: «بعثنی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله إلی الیمن و قال لی:یا علی لا تقاتلن أحدا حتّی تدعوه،و أیم اللّه لئن یهدی اللّه علی یدیک رجلا خیر ممّا طلعت الشمس و غربت» (۱) .

و لهذا السبب أیضا یجب أن یستغنی المبلّغون الحقیقیون عن الناس،و لا یخافون أی مقام و منصب،فإنّ تلک الحاجه و الخوف سیترکان أثرا علی أفکارهم و إرادتهم شاءوا أم أبوا.

إنّ المبلّغ الإلهی یفکّر فقط-بمقتضی وَ کَفیٰ بِاللّهِ حَسِیباً -بأنّ محصی الأعمال و المحاسب علیها هو اللّه تعالی،و بیده جزاؤه و ثوابه،و هذا الوعی و العرفان هو الذی یمدّه و یعینه فی هذا الطریق الملیء بالعقبات.

ص:۲۷۴

۱- ۱) الکافی،طبقا لنقل البحار،الجزء ۲۱،صفحه ۳۶۱.

الآیه [سوره الأحزاب (۳۳): آیه ۴۰]

اشاره

مٰا كٰانَ مُحَمَّدٌ أَبٰا أَحَدٍ مِنْ رِجٰالِكُمْ وَ لٰكِنْ رَسُولَ اَللّٰهِ وَ خٰاتَمَ اَلنَّبِيِّينَ وَ كٰانَ اَللّٰهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (۴۰)

التّفسیر

مسأله الخاتمیه:

هذه الآیه هی آخر ما بیّنه اللّه سبحانه فیما یتعلّق بمسأله زواج النّبی صلّی اللّه علیه و آله بمطلّقه زید لکسر عرف جاهلی خاطئ،و هی جواب مختصر کآخر جواب یقال هنا،و تبیّن فی نهایتها حقیقه مهمّه اخری-و هی مسأله الخاتمیه-بمناسبه خاصّه.

تقول أوّلا: مٰا كٰانَ مُحَمَّدٌ أَبٰا أَحَدٍ مِنْ رِجٰالِكُمْ لا زید و لا غیره،و إذا ما أطلقوا علیه یوما انّه«ابن محمّد»فإنّما هو مجرّد عاده و عرف لیس إلاّ،و ما إن جاء الإسلام حتّی اجتثّت جذوره،و لیس هو رابطه طبیعیّه عائلیه.

طبعا کان للنبی صلّی اللّه علیه و آله أولاد حقیقیون،و أسماؤهم«القاسم»و«الطیّب»و «الطاهر»و«إبراهیم»،إلاّ أنّهم-طبقا لنقل المؤرخّین-جمیعا قد و دّعوا هذه الدنیا و ارتحلوا عنها قبل البلوغ،و لذلک لم یطلق علیهم أنّهم«رجال» (۱) .

۱- ۱) تفسیر القرطبی،و تفسیر المیزان ذیل الآیه مورد البحث.

و الإمامان الحسن و الحسین علیهما السّلام اللذان کانوا یسمّونهم أولاد النّبی رغم أنّهما بلغا سنین متقدّمه فی العمر،إلاّ أنّهما کانا لا یزالان صغیرین عند نزول هذه الآیه.

بناء علی هذا فإنّ جمله: مٰا کٰانَ مُحَمَّدٌ أَبٰا أَحَدٍ مِنْ رِجٰالِکُمْ و التی وردت بصیغه الماضی،کانت صادقه فی حقّ الجمیع قطعا.

و إذا ما رأینا فی بعض تعبیرات النّبی صلّی اللّه علیه و آله نفسه أنّه یقول:«أنا و علی أبوا هذه الامّه»فمن المسلّم أنّ المراد لم یکن الابوّه النسبیه،بل الابوّه الناشئه من التعلیم و التربیه و القیاده و الإرشاد.

مع هذه الحال،فإنّ الزواج من مطلقّه زید-و الذی بیّن القرآن فلسفته بصراحه بأنّه إلغاء للسنن الخاطئه-لم یکن شیئا یبعث علی البحث و الجدال بین هذا و ذاک، أو أنّهم یریدون أن یتّخذوه وسیله للوصول إلی نوایاهم السیّئه.

ثمّ تضیف:بأنّ علاقه النّبی صلّی اللّه علیه و آله معکم إنّما هی من جهه الرساله و الخاتمیه فقط وَ لٰکِنْ رَسُولَ اللّٰهِ وَ خٰاتَمَ النَّبِیِّینَ و بهذا قطع صدر الآیه الارتباط و العلاقه النسبیه بشکل تامّ و قطعی،و أثبت ذیلها العلاقه المعنویه الناشئه من الرساله و الخاتمیه، و من هنا یتّضح ترابط صدر الآیه و ذیلها.

هذا إضافه إلی أنّ الآیه تشیر إلی حقیقه هی:أنّ علاقته معکم فی الوقت نفسه أشدّ و أسمی من علاقه والد بولده،لأنّ علاقته علاقه الرّسول بالامّه،و یعلم أنّ سوف لا یأتی رسول بعده،فکان یجب علیه أن یبیّن لهذه الامّه و یطرح لها کلّ ما تحتاجه إلی یوم القیامه فی منتهی الدقّه و غایه الحرص علیها.

و لا شکّ أنّ اللّه العلیم الخبیر قد وضع تحت تصرّفه کلّ ما کان لازما فی هذا الباب،من الأصول و الفروع،و الکلیّات و الجزئیات فی جمیع المجالات،و لذلک یقول سبحانه فی نهایه الآیه: وَ کٰانَ اللّٰهُ بِکُلِّ شَیْءٍ عَلِیماً .

و ینبغی الالتفات إلی أنّ کونه«خاتم الأنبیاء»یعنی أیضا أنّه خاتم المرسلین، و ما ألصقه بعض مبتدعی الأدیان لخدش کون مسأله الخاتمیه بهذا المعنی،من أنّ

القرآن قد اعتبر النّبى صلّى اللّه عليه و آله خاتم الأنبياء لا خاتم المرسلين،إنّما هو اشتباه كبير، لأنّ من كان خاتما للأنبياء يكون خاتما للرسل بطريق أولى،لأنّ مرحله «الرساله»أسمى من مرحله«النبوّه»-تأمّلوا ذلك-.

إنّ هـذا الكلام يشبه تماما أن نقول:إنّ فلانا ليس فى بلاد الحجاز،فمن المسلّم أنّ هـذا الشخص سوف لا يكون موجودا فى مكّه،أمّا إذا قلنا:إنّه ليس فى مكّه، فمن الممكن أن يكون فى مكان آخر من الحجاز.

بناء على هـذا،فإنّه تعالى لو كان قد سمّى النّبى خاتم المرسلين،فمن الممكن أن لا يكون خاتم الأنبياء،أمّا و قد سمّاه«خاتم الأنبياء»فمن المسلّم أنّه سيكون خاتم الرسل أيضا،و بتعبير المصطلحات فإنّ النسبه بين النّبى و الرّسول نسبه العموم و الخصوص المطلق.

بحوث

اشاره

١-ما هو الخاتم؟

«الخاتم»-على زنه حاتم-لدى أرباب اللغه:هو الشىء الذى تنهى به الأمور، و كذلك جاء بمعنى الشىء الذى تختم به الأوراق و ما شابهها.

و كان هـذا الأمر متداولا فيما مضى-و لا يزال إلى اليوم-حينما يريدون إغلاق الرساله أو غطاء الوعاء أو باب المنزل لئلّا يفتحها أحد،فإنّهم كانوا يضعون مادّه لاصقه على الباب أو القفل و يختمون عليها.و يكون هذا الخاتم من الصلابه بحيث إنّه لا بدّ من كسره إذا ما أريد فتح الباب، و هذه المادّه التى توضع على مثل هذه الأشياء تسمّى«خاتما».

و لمّا كانوا فى السابق يستعملون لهذا الأمر الطين الصلب الذى يلصق،فإنّنا نقرأ

فى متون بعض كتب اللغه المعروفه أنّ معنى الخاتم هو«ما يوضع على الطينه» (۱) .

كلّ ذلك بسبب أنّ هـذه الكلمه مأخوذه من مادّه«الختم»أى النهايه،و لمّا كان هذا العمل-أى الختم-يجرى فى الخاتمه و النهايه فقد اطلق عليه اسم الخاتم لذلك.

و إذا مـا رأينـا أنّ أحـد معـانى الخـاتم هـو الخـاتم الـذى يوضع فى اليـد،فبسـبب أنّهم كـانوا يضـعون إمضـاءهم و توقيعهم على خواتيمهم و يختمون الرسائـل بها،و لـذلك فإنّ من جمله الأمور التى تـذكر فى أحوال النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و أئمّه الهـدى عليهم السّلام و الشخصيات الاخرى هو نقش خاتمهم.

و

يروى«الكلينى»-رحمه اللّه-فى الكافى حديثا عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال:

«إنّ خاتم رسول اللّه كان من فضّه نقشه محمّد رسول اللّه» (۲) .

و جاء فى بعض التواريـخ أنّ إحدى حوادث السـنه السادسه للهجره أنّ النّبى صـلّى اللّه عليه و آله اختار لنفسه خاتما نقش فيها،و ذلك أنّهم أخبروه أنّ الملوک لا يقرءون الرسائل إذا لم تكن مختومه (۳) .

و جـاء فى كتـاب«الطبقـات»:أنّ النّبى صـلّى اللّه عليه و آله لمّـا صـمّم أن ينشـر دعوته فى الآفـاق، و يكتب الرسائـل إلى ملوک الأرض و سلاطينها أمر أن يصنعوا له خاتما كتب عليه (محمّد رسول اللّه) و كان يختم به رسائله (۴) .

بهـذا البيان يتّضـح جيـدا أنّ الخاتم و إن اطلق اليوم على خاتم الزينه أيضا،إلاّ أنّ أصـله مأخوذ من الختم،أى النهايه،و كان يطلق ذلک اليوم على الخواتيم التى كانوا يختمون بها الرسائل.

۱- ۱) لسان العرب،و قاموس اللغه مادّه ختم:الخاتم ما يوضع على الطينه.

۲- ۲) أورد هذا الخبر أيضا البيهقى فى سننه،المجلّد ۱۰،ص ۱۲۸.

۳- ۳) سفينه البحار،المجلّد ۱،صفحه ۳۸۶.

۴- ۴) الطبقات الكبرى،المجلّد ۱،صفحه ۲۵۸.

إضافه إلى أنّ هـذه المادّه قـد اسـتعملت فى القرآن فى موارد متعـدّده،و كلّها تعنى الإنهاء أو الختم و الغلق،مثل: اَلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلى أَفْواهِهِمْ وَ تُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ . (١)

خَتَمَ اللّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ،وَ عَلى سَمْعِهِمْ وَ عَلى أَبْصارِهِمْ غِشاوَةٌ

(٢)

.

و من هنـا يعلم أنّ الـذين شـكّكوا فى دلالـه هـذه الآيه على كون نبى الإسـلام صـلّى اللّه عليه و آله خاتم الأنبياء،و انتهاء سلسـله الأنبياء به،غير مطّلعين على معنى هـذه الكلمه تماما، أو أنّهم تظاهروا بعـدم الإحاطه و الاطلاع عليها،و إلاّ فإنّ من له أدنى إحاطه بآداب العرب يعلم أنّ كلمه«خاتم النّبيين»تدلّ على الخاتميه.

و إذا قيـل-عنـد ذاك-فى تفسـير هـذه الآيه غير هـذا التّفسـير فإنّه تفسـير متطفّل غير متّزن،كأن نقول:إنّ نبى الإسـلام كان خاتم الأنبيـاء،أى أنّه زينه الأنبيـاء،لأنّ الخـاتم آله زينه للإنسان،و لا يمكن أن يوازى الإنسان فى المرتبه مطلقا،و إذا فسّرنا الآيه بهـذا التّفسـير فسـنكون قـد حططنـا من مقـام النّبى صـلّى اللّه عليه و آله،و أنزلنـا منزلته إلى أدنى المسـتويات،مع إنّه لاـ يناسب المعنى اللغوى،و لذلك فإنّ هذه الكلمه حيثما استعملت فى القرآن الكريم-فى ثمانيه موارد-فإنّها أعطت معنى الإنهاء و الإغلاق.

٢-أدلّه كون نبىّ الإسلام خاتما للأنبياء:

بالرغم من أنّ الآيه المـذكوره كافيه لوحـدها فى إثبات هـذا المطلب،إلاّ أنّ الـدليل على كون نبى الإسـلام صـلّى اللّه عليه و آله خاتما للأنبياء لا ينحصر بها،فإنّ آيات اخرى فى القرآن الكريم تشير إلى هذا المعنى،إضافه إلى الروايات الكثيره الوارده فى هذا الباب:

فمن جملتها فى الآيه(١٩)من سوره الأنعام:

١- ١) سوره يس،٦٥.

٢- ٢) سوره البقره،٧.

وَ أُوحِیَ إِلَیَّ هٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَکُمْ بِهِ وَ مَنْ بَلَغَ فـإنّ سـعه مفهوم تعبیر وَ مَنْ بَلَغَ توضّـح رساله القرآن و نبی الإسـلام العالمیه من جهه،و مسأله الخاتمیه من جهه اخری.

و هناک آیات اخری تثبت عمومیه دعوه نبی الإسـلام لکلّ البشر،مثل: تَبٰارَکَ الَّذِی نَزَّلَ الْفُرْقٰانَ عَلیٰ عَبْدِهِ لِیَکُونَ لِلْعٰالَمِینَ نَذِیراً (۱) .

و کقوله تعالی: وَ مٰا أَرْسَلْنٰاکَ إِلاّٰ کَافَّهً لِلنّٰاسِ بَشِیراً وَ نَذِیراً . (۲)

و الآیه: قُلْ یٰا أَیُّهَا النّٰاسُ إِنِّی رَسُولُ اللّٰهِ إِلَیْکُمْ جَمِیعاً . (۳)

إنّ ملاحظه سعه مفهوم«العالمین»و«الناس»و«الکافّه»تؤیّـد هـذا المعنی أیضا.إضافه إلی أنّ إجماع علماء الإسـلام من جهه،و کون هذه المسأله ضروریه لدی المسلمین من جانب آخر،و الروایات الکثیره الوارده عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و باقی أئمّه الهدی علیهم السّلام من جانب ثالث توضّح هذا المطلب،و نکتفی هنا بذکر بعضها من باب الشاهد و المثال:

-۱

ورد فی الحدیث المعروف عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله: «حلالی حلال إلی یوم القیامه، و حرامی حرام إلی یوم القیامه» (۴) .

إنّ هذا التعبیر مبیّن لاستمرار هذه الشریعه حتّی نهایه العالم و فنائه.

و

قـد روی هـذا الحدیث بهذه الصـیغه أحیانا: «حلال محمّد حلال أبدا إلی یوم القیامه،و حرامه حرام أبدا إلی یوم القیامه،لا یکون غیره،و لا یجیء غیره» (۵) .

۲-حدیث المنزله المعروف،و الذی ورد فی مختلف کتب الشیعه و السنّه،و هو فی شأن علی علیه السّلام و بقائه مکان النّبی فی المدینه عند ما توجّه صلّی اللّه علیه و آله إلی غزوه تبوک.

فإنّه یوضّح مسأله الخاتمیه تماما،لأنّا نقرأ فی هذا الحدیث

أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله قال

۱- ۱) سوره الفرقان-۱.

۲- ۲) سوره سبأ،۲۸.

۳- ۳) سوره الأعراف،۱۵۸.

۴- ۴) بحار الأنوار،المجلّد الثّانی،صفحه ۲۶۰ باب ۳۱ حدیث ۱۷.

۵- ۵) اصول الکافی،المجلّد الأوّل،باب البدع و الرأی و المقاییس حدیث ۱۹.

لعلی علیه السّلام: «أنت منّی بمنزله هارون من موسی إلاّ أنّه لا نبی بعدی» (1) .

۳-و ثمّه حدیث مشهور أیضا،و قد روی فی کثیر من مصادر العامّه،و ذلک

أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله قال: «مثلی و مثل الأنبیاء کمثل رجل بنی بنیانا فأحسنه و أجمله،فجعل الناس یطیفون به یقولون ما رأینا بنیانا أحسن من هذا إلاّ هذه اللبنه،فکنت أنا تلک اللبنه».

لقد ورد هذا الحدیث فی صحیح مسلم بعبارات مختلفه،و روی عن رواه عدیدین،و قد وردت هذه الجمله«و أنا خاتم النّبیین»فی ذیل الحدیث الآنف الذکر فی أحد الموارد.

و نری فی نهایه حدیث آخر:«جئت فختمت الأنبیاء» (2) .

و قد ورد هذا الحدیث أیضا فی صحیح البخاری-کتاب المناقب-و مسند أحمد بن حنبل،و سنن الترمذی و النسائی و کتب اخری،و هو من الأحادیث المعروفه و المشهوره جدّا،و قد أورده مفسّر و الفریقین کالطبرسی فی مجمع البیان، و القرطبی فی تفسیره،فی ذیل الآیه مورد البحث.

۴-لقد ورد کون نبیّ الإسلام صلّی اللّه علیه و آله خاتما للنبیین صریحا فی کثیر من خطب نهج البلاغه،و من جمله ذلک ما نراه

فی الخطبه ۱۷۳ فی وصف نبیّ الإسلام صلّی اللّه علیه و آله، حیث یقول علیه السّلام: «أمین وحیه،و خاتم رسله،و بشیر رحمته،و نذیر نقمته».

و

جاء فی الخطبه ۱۳۳: «أرسله علی حین فتره من الرسل،و تنازع من الألسن.

فقفّی به الرسل،و ختم به الوحی».

و

قال علیه السّلام فی الخطبه الاولی من نهج البلاغه ،بعد أن عدّد تعلیمات الأنبیاء

۱- ۱) روی هذا الحدیث محبّ الدین الطبری فی ذخائر العقبی:ص ۷۹ طبعه مکتبه القدس،و ابن حجر فی الصواعق المحرقه،ص ۱۷۷ طبعه مکتبه القاهره،و فی تاریخ بغداد،المجلّد ۷،ص ۴۵۲ طبعه السعاده،و کتب اخری ککنز العمّال، و منتخب کنز العمال،و ینابیع الموده. لمزید الإیضاح حول حدیث المنزله راجع هذا التّفسیر ذیل الآیه(۱۴۴)من سوره الأعراف.

۲- ۲) صحیح مسلم،الجزء ۴،ص ۱۷۹۰-۱۷۹۱ باب ذکر کونه صلّی اللّه علیه و آله خاتم النبیّین من کتاب الفضائل.

الماضين:«إلى أن بعث اللّه سبحانه محمّدا رسول لإنجاز عدته،و إتمام نبوّته».

۵-و قد وردت مسأله الخاتميه فی ختام خطبه الوداع،تلك الخطبه التی ألقاها نبیّ الإسلام صلّی اللّه علیه و آله فی آخر حجّه له،و فی آخر سنه من عمره المبارک،کوصیّه جامعه للناس،حیث

قال: «ألا فلیبلّغ شاهدکم غائبکم لا نبیّ بعدی،و لا امّه بعدکم»ثمّ رفع یدیه إلی السماء حتّی بان بیاض إبطیه،فقال:«اللهمّ اشهد أنّی قد بلّغت» (۱) .

۶-و

جاء فی حدیث آخر ورد فی«الکافی»عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّه قال:

«إنّ اللّه ختم بنبیّکم النبیّین فلا نبیّ بعده أبدا،و ختم بکتابکم الکتب فلا کتاب بعده أبدا» (۲) .

إنّ الأحادیث الوارده فی هذا الباب کثیره جدّا،بحیث جمع منها فی کتاب (معالم النبوّه)۱۳۵ حدیثا من کتب علماء الإسلام عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و أئمّه الإسلام العظام (۳) .

۳-إجابه عن عدّه أسئله:

اشاره

۱-کیف تتناسب الخاتمیه مع سیر الإنسان التکاملی؟

السوال الأوّل الذی یطرح فی هذا البحث هو:هل یمکن أن یتوقّف المجتمع الإنسانی؟أ تری یوجد لسیر البشر التکاملی حدّ محدود؟أ لسنا نری بامّ أعیننا أنّ بشر الیوم قد وصلوا فی العلم و الثقافه إلی مرحله تفوّق مستوی سابقیهم؟فمع هذا الحال کیف یمکن أن یغلق سجل النبوّه مطلقا،فیحرم الإنسان من قیاده أنبیاء جدد فی سیره التکاملی؟ إنّ الإجابه عن هذا السؤال تتّضح بالالتفات إلی مسأله واحده،و هی أنّ

۱- ۱) بحار الأنوار،المجلّد ۲۱،ص ۳۸۱.

۲- ۲) اصول الکافی،المجلّد الأوّل.

۳- ۳) معالم النبوّه.فصل نصوص کونه صلّی اللّه علیه و آله خاتما.

الإنسـان يصـل أحيانـا إلى مرتبه من النضـج الفكرى و الثقافى بحيث يكون قادرا على الاسـتمرار فى طريقه بالاسـتعانه المسـتمره بالأصول و التعليمات التى تركها له النّبى الخاتم بصوره جامعه،دون أن يحتاج إلى شريعه جديده.

و هـذا الأـمر يشـبه تمامـا أن يكون الإنسـان محتاجا لمعلّم جديـد و مربّ آخر فى كلّ مرحله من مراحل الـدراسه المختلفه،حتّى يقضـى المراحـل المختلفه،أمّا إذا حصل على الـدكتوراه،أو أصـبح مجتهـدا له رأيه فى العلم أو العلوم المختلفه فإنّه لا يحتاج فى دراسته إلى أسـتاذ جديـد،بـل يباشـر البحث و المطالعه و التحقيق اسـتنادا إلى ما اكتسـبه من الأساتـذه السابقين،و خاصّه اسـتاذه الأخير.

و بتعبير آخر،فإنّه يحلّ المشاكل و العقبات التى تعترضه بالاستعانه بتلك الأصول الكليّه التى تعلّمها من استاذه الأخير، و بناء على هذا فلا حاجه لأنّ يظهر دين جديد على مرّ الزمان(تأمّلوا ذلك).

و ببيان آخر،فإنّ كلّ واحـد من الأنبياء السابقين قـد مهّـد جانبا من مسـير التكامل ليكون الإنسان قادرا على سـلوك هـذا الطريق الصعب نحو التكامل و ينال الأهليه لاستقبال منهج كامل و جامع لهذا الطريق على يد آخر نبى أرسل من قبل اللّه تعالى.

من البـديهى أنّه مع اسـتلام الخريطه الكـامله و المخطّط الجامع سوف لا تكون هناك حاجه إلى مخطّط آخر،و هـذا فى الحقيقه هو التعبير الـذى ورد فى الرّوايات الداله على كونه صـلّى اللّه عليه و آله خاتما،و التى عدّت نبيّ الإسـلام آخر لبنه،أو واضع آخر لبنه فى قصر الرساله البديع المحكم.و كلّ ذلك يؤكّد عدم الحاجه إلى دين جديد و شريعه مستحدثه.

أمّـا فيمـا يتعلّق بمسأله القيـاده و الإمـامه،و التى تعنى الإشـراف التـامّ على تنفيـذ هـذه الأـصول،و الأخـذ بأيـدى النـاس فى هـذا الطريق،فهى مسأله اخرى لا يمكن أن يستغنى الإنسان عنها فى أىّ حين،و لذلك فإنّ ختام سلسله النبوّه لا يعنى أبدا

نهـايه سلسـله الإمامه،لأنّ«تبيين»و«توضـيح»هـذه الأصول و«تحقّقها فی الخارج»لا يمكن أن يتمّ من دون الاسـتعانه بوجود قائـد و إمام معصوم.

۲-كيف تتلاءم القوانين الثابته مع الحاجات المتغيّره؟

بغضّ النظر عن مسـأله السـير التكـاملی للبشـر،فـإنّ هنـاك سؤالا آخر يطرح هنا، و هو:أنّنا نعلم أنّ مقتضـيات الأزمنه و الأمكنه و متطلباتهـا متفـاوته،و بتعبير آخر فـإنّ حاجات الإنسان فی تغيّر مسـتمر،فی حين أنّ للشـريعه الخاتمه قوانين ثابته، فهل تقوى هـذه القوانين الثابته على أن تؤمّن حاجات الإنسان المتغيّره على مدى الزمان؟ و يمكن الإجابه على هذا السؤال جيدا بملاحظه المسأله التـاليه،و هی:أنّه لو كانت لكلّ قوانين الإسـلام صـفه الجزئيه،و أنّها قـد عيّنت لكلّ موضوع حكما جزئيا معينا لكان هناك مجال لهـذا السؤال،أمّا إذا عرفنا بأنّ فی تعليمات الإسـلام سلسـله من الأصول الكليه الواسـعه جدّا،و التی تقدر على أن تطابق الحاجات المتغيّره و تؤمّنها،فلا يبقی مجال لهذا الإشكال.

إنّنـا نرى اسـتحداث سلسـله مـن الاتّفاقيـات الجديـده و الروابـط الحقـوقيه بيـن البشـر لم يكن لهـا وجـود فی عصـر نزول القرآن بتاتا،فمثلا لم يكن فی ذلك العصر شیء اسمه«الضمان»بفروعه المتعدّده (۱) ،و كذلك أنواع الشركات التی ظهرت فی عصرنا و زماننا حسب الاحتياج اليومی،لكن يوجـد لـدينا فی الإسـلام أصل عامّ ورد فی بـدايه سوره«المائـده»بعنوان«لزوم الوفاء بالعهـد و العقد»: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ و هو قادر على احتواء كلّ هذه الاتفاقيات.

و طبعا هناك قيود و شروط بصوره عامّه وضعت لهذا الأصل العامّ فی الإسلام،

۱- ۱) طبعا يوجـد فی الإسـلام موضوعات تشبه الضـمان فی حـدود خاصّه،كمسأله ضـمان الجريره،أو تعلّق ديّه الخطأ المحض بالعاقله،إلّا أنّ لها مجرّد شبه بالمسأله كما قلنا.

يجب أن تؤخذ بنظر الإعتبار أيضا.

بناء على هذا فالقانون الكلّى ثابت فى هذا الباب بالرغم من أنّ مصاديقه متغيّره،فلا مانع من أن يظهر مصداق جديد له فى كلّ يوم.

و نضرب مثالا آخر،و هو:لدينا فى الإسلام قانون مسلّم به،و هو قانون(لا ضرر) يمكن من خلاله تحديد أىّ حكم يكون منبعا و مصدرا للضرر و الخساره فى المجتمع،و عن هذا الطريق ترفع كثير من الاحتياجات.إضافه إلى أنّ مسائل «لزوم حفظ المجتمع»،و«وجوب مقدّمه الواجب»،و«تقديم الأهمّ على المهمّ» يمكن أن تكون حلا للمشاكل فى كثير من الموارد.

و علاوه على كلّ ذلك فإنّ الصلاحيات التى تمنح للحكومه الإسلاميه عن طريق«ولايه الفقيه»تضع تحت تصرفها إمكانيات واسعه لحلّ المشاكل فى إطار اصول الإسلام العامّه.

إنّ بيان كلّ واحد من هذه الأمور،مع الأخذ بنظر الإعتبار كون باب الاجتهاد- أى استنباط الأحكام الإلهيه من المصادر الإسلاميه-يحتاج إلى بحث واسع يبعدنا تناوله عن الموضوع و لكن مع ذلك فإنّ ما أوردناه هنا من باب الإشاره يمكن أن يكون جوابا للإشكال المذكور.

٣-كيف يحرم البشر من فيض الارتباط بعالم الغيب؟

السؤال الآخر هو:إنّ نزول الوحى و الاتّصال بعالم الغيب و ما وراء الطبيعه يعتبر نافذه أمل لكلّ المؤمنين الحقيقيين،إضافه إلى أنّه موهبه و فخر لعالم البشريه،ألا يعتبر قطع طريق الاتّصال هذا،و غلق نافذه الأمل هذه حرمانا عظيما للبشر الذين يعيشون بعد وفاه خاتم الأنبياء؟ إنّ الإجابه على هذا السؤال تتّضح بملاحظه النقطتين أدناه،و هما:

الاولى:إنّ الوحى و الارتباط بعالم الغيب وسيله لإدراك الحقائق و لمّا بيّنت كلّ

الاحتیاجات و الحقائق إلی یوم القیامه فی الأصول العامّه و التعلیمات الجامعه التی وضعها خاتم النّبیین،و لذلک فإنّ قطع طریق الاتّصال هذا لا یوجد مشکله.

الثّانیه:إنّ ما یقطع إلی الأبد بعد ختم النبوّه هو الوحی لشریعه جدیده،أو لتکمیل شریعه سابقه،لا کلّ أنواع الاتّصال بما وراء عالم الطبیعه،لأنّ للأئمّه ارتباطا بعالم الغیب،و کذلک المؤمنون الحقیقیون الذین أزالوا الحجب عن قلوبهم و وصلوا إلی مقام المکاشفه و الشهاده نتیجه تهذیبهم أنفسهم.

یقول الفیلسوف الشهیر«صدر المتألّهین الشیرازی»فی مفاتیح الغیب:

«و اعلم،أنّ الوحی إذا انقطع،و باب الرساله إذا انسدّ استغنی الناس عن الرسل و إظهار الدعوه بعد تصحیح الحجّه و إکمال الدین،کما قال اللّه تعالی: اَلْیَوْمَ أَکْمَلْتُ لَکُمْ دِینَکُمْ و أمّا باب الإلهام فلا ینسدّ،و مدد نور الهدایه لا ینقطع لاحتیاج الناس لاستغراقهم فی هذه الوساوس إلی التنبیه و التذکیر،و اللّه تعالی غلق باب الوحی و فتح باب الإلهام رحمه منه علی عباده» (۱) .

إنّ هذا الارتباط یتولّد عاده من سموّ النفس و ارتقاء الروح و تصفیتها و صفاء الباطن،و لا علاقه لها بمسأله النبوّه و الرساله،و بناء علی هذا فمتی ما تحقّقت مقدّماته و شروطه وجدت هذه الرابطه المعنویه،و بذلک فلم یکن أیّ بشر محروما من هذا الفیض العظیم،و لن یکون-تأمّلوا ذلک-.

۱- ۱) مفاتیح الغیب،ص ۴۱-۴۲.

الآيات [سوره الأحزاب (٣٣): الآيات ۴۱ الى ۴۴]

اشاره

يا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا اُذْكُرُوا اَللّهَ ذِكْراً كَثِيراً (۴۱) وَ سَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَ أَصِيلاً (۴۲) هُوَ اَلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَ مَلاٰئِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ اَلظُّلُمٰاتِ إِلَى اَلنُّورِ وَ كٰانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً (۴۳) تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلاٰمٌ وَ أَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً (۴۴)

التّفسير

اشاره

تحيّه اللّه و الملائكه فرج للمؤمنين:

لمّا كان الكلام فى الآيات السابقه عن مسئوليات نبىّ الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و واجباته الثقيله الملقاه على عاتقه،فإنّ الآيات مورد البحث تبيّن جانبا من وظائف المؤمنين من أجل تهيئه الأرضيه اللازمه لهذا التبليغ،و توسعه أطرافه فى جميع الأبعاد، فوجّهت الخطاب إليهم جميعا و قالت: يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللّٰهَ ذِكْراً كَثِيراً و نزّهوه صباحا و مساء وَ سَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَ أَصِيلاً .

أجل..لمّا كانت عوامل الغفله فى الحياه الماديه كثيره جدّا،و سهام وسوسه الشياطين ترمى من كلّ جانب صوب الإنسان،فلا طريق لمحاربتها إلاّ بذكر اللّه الكثير.

إنّ«الذكر الكثير»-بالمعنى الواقعى للكلمه-يعنى التوجّه إلى اللّه سبحانه بكلّ الوجود،لا بلقلقه اللسان و حسب.

«الـذكر الكثير»هو الذى يقذف النور فى كلّ أعمال الإنسان،و يغمرها بالضـياء، و لهذا فإنّ القرآن أمر كلّ المؤمنين فى هذه الآيه أن يذكروا اللّه على كلّ حال:

فاذكروه أثناء العباده،فاحضروا قلوبكم و أخلصوا فيها.

و اذكروه عند إقدامكم على المعصيه و تجنّبوها و إذا ما بدرت منكم عثره و هفوه فبادروا إلى التوبه،و ارجعوا إلى طريق الحقّ.

و اذكروه عند النعم و اشكروه عليها.

و اذكروه عند البلايا و المصائب و اصبروا عليها و تحمّلوها.

و الخلاصه:لا تنسوا ذكره فى كلّ مشهد من مشاهد الحياه و الابتعاد عن سخطه،و التقرّب لما يجلب رضاه.

و نطالع

فى حديث مروى فى«سنن الترمذى»و«مسند أحمد»عن أبى سعيد الخدرى عن النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله: أنّه سئل:أى العباد أفضل درجه عند اللّه يوم القيامه؟ فقال:«الذاكرون اللّه كثيرا».

قال أبو سعيد: فقلت:يا رسول اللّه،و من الغازى فى سبيل اللّه؟!قال:«لو ضرب بسيفه فى الكفّار و المشركين حتّى ينكسر و يختضب دما لكان الذاكرون أفضل درجه منه» (1) ، و ذلك لأنّ الجهاد المخلص لا يمكن أن يتمّ بدون ذكر اللّه الكثير.

و من هنا يعلم أنّ للذكر الكثير معنى واسعا،و إذا ما فسّر فى بعض الرّوايات بتسبيح فاطمه عليها السّلام-و هو ۳۴ مرّه(اللّه أكبر)و ۳۳ مرّه(الحمد للّه)و ۳۳ مرّه(سبحان اللّه)-و فى كلمات بعض المفسّرين بذكر الصفات العليا و الأسماء الحسنى،و تنزيه اللّه سبحانه عمّا لا يليق به،فإنّ كلّ ذلك من باب ذكر المصداق الواضح،لا تحديد

۱- ۱) الدرّ المنثور،طبقا لنقل الميزان،المجلّد ۱۶،صفحه ۳۵۳.

المعنى بخصوص هذه المصاديق.

و كما يظهر بوضوح من سياق الآيات،فإنّ المراد من«تسبيح اللّه»فى كلّ غداه و عشى هو استمرار التسبيح،و ذكر هذين الوقتين بالخصوص باعتبارهما بدايه اليوم و نهايته،و ما فسّرهما به البعض من أنّ المراد صلاتى الصبح و العصر،أو أمثال ذلك،فهو من قبيل ذكر المصداق أيضا.

لهذا فإنّ ذكر اللّه الكثير،و تسبيحه بكره و أصيلا لا يحصل إلاّ باستمرار التوجّه إلى اللّه،و تنزيهه عن كلّ عيب و نقص،و تقديسه المتّصل،فذكر اللّه غذاء لروح الإنسان كما أنّ الطعام و الشراب غذاء للبدن.

و جاء فى الآيه(۲۸)من سوره الرعد أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ و نتيجه هذا الاطمئنان القلبى هو ما ورد فى الآيات ۲۷-۳۰ من سوره الفجر،حيث تقول:

يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّهُ ارْجِعِى إِلىٰ رَبِّكِ رٰاضِيَهً مَرْضِيَّهً فَادْخُلِى فِى عِبٰادِى وَ ادْخُلِى جَنَّتِى .

و الآيه التاليه بمثابه نتيجه و علّه غائيّه للتسبيح فى الواقع،فهى تقول: هُوَ الَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَ مَلاٰئِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمٰاتِ إِلَى النُّورِ أى من ظلمات الشرك و الكفر و الجهل إلى نور الإيمان و العلم و التقوى وَ كٰانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً و بسبب هذه الرحمه كتب على نفسه هدايه البشر و إرشادهم،و أمر ملائكته أن تعينهم فى ذلك.

«يصلّى»من ماده(صلاه)و هى هنا تعنى الرعايه و العنايه الخاصّه،و هذه العنايه بالنسبه للّه تعنى نزول الرحمه،و بالنسبه للملائكه تعنى الاستغفار و طلب الرحمه، كما نقرأ ذلك فى الآيه(۷)من سوره غافر: وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا .

و على أيّه حال،فإنّ هذه الآيه تتضمّن بشاره عظيمه للمؤمنين الذاكرين اللّه على الدوام،فهى تقول بصراحه:إنّ هؤلاء ليسوا وحدهم فى سيرهم إلى اللّه،بل إنّهم-بمقتضى(يصلّى)و هو فعل مضارع يدلّ على الاستمرار-يسيرون فى ظلّ

رحمه اللّه و ملائكته،و فى ظلّ هذه الرحمه تزاح حجب الظلمه،و يغمر قلوبهم و أرواحهم نور العلم و الحكمه و الإيمان و التقوى.

نعم..إنّ هذه الآيه بشاره كبرى لكلّ سالكى طريق الحقّ بأنّ هناك جاذبيه قويه من جانب المعشوق تجذب العاشق إليها لينتهى سعى هذا العاشق الصبّ إلى نتيجه و لا يذهب سدى! إنّ هذه الآيه ضمان لكلّ المجاهدين فى سبيل اللّه أن لا ينالهم قسم الشيطان على إغواء بنى آدم،لأنّهم فى زمره المخلصين المخلصين،و قد أظهر الشيطان عجزه عن إضلال هذه الزمره منذ الوهله الاولى فقال: فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلاّ عِبٰادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ . (١)

إنّ جمله وَ كٰانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً و بملاحظه أنّ(كان)فعل ماض يدلّ على أنّ اللّه كان رحيما بالمؤمنين رحمه خاصّه على الدوام،تأكيد مجدّد على ما جاء فى بدايه السوره.

أجل..هذه هى رحمه اللّه الخاصّه التى تخرج المؤمنين من ظلمات الأوهام و الشهوات و الوساوس الشيطانيه،و تهديهم إلى نور اليقين و الاطمئنان و السيطره على النفس،و لو لا رحمته سبحانه فإنّ هذا الطريق الملىء بالمنعطفات و العراقيل لا يكون سالكا.

و تجسّد الآيه الأخيره من الآيات مورد البحث مقام المؤمنين و ثوابهم بأروع تجسيد و أقصر عباره،فتقول: تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلاٰمٌ .

«التحيّه»من مادّه«حياه»،و هى تعنى الدعاء لسلامه و حياه اخرى. و لمزيد التوضيح راجع التّفسير الأمثل ذيل الآيه(٨٥)من سوره النساء.

هذا السّلام يعنى السلامه من العذاب،و من كلّ أنواع الألم و العذاب و المشقّه،

١- ١) سوره ص-٨٣،٨٢.

سلام ممتزج بالهدوء و الاطمئنان.

و مع أنّ بعض المفسّرين يعتقد أنّ«تحيتهم»إشاره إلى سلام المؤمنين و تحيه بعضهم بعضا،إلاّ أنّ ملاحظه الآيات السابقه التى كان الكلام فيها عن الصلاه و رحمه اللّه و الملائكه فى هذه الدنيا،تظهر أنّ هذه التحيه أيضا من الملائكه فى الآخره،كما نقرأ ذلك فى الآيه(٢٣)من سوره الرعد: وَ الْمَلاٰئِكَهُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بٰابٍ سَلاٰمٌ عَلَيْكُمْ بِمٰا صَبَرْتُمْ .

ممّا قلناه اتّضح بصوره ضمنيه أنّ المراد من جمله يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ هو يوم القيامه الذى سمّى بيوم«لقاء اللّه»،و هذا التعبير يستعمل عاده فى القرآن بهذا المعنى.

بعد هذه التحيّه،التى ترتبط ببدايه الأمر،أشارت الآيه إلى نهايته فقالت:

وَ أَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً

.

إنّها جمله جمع فيها كلّ شيء على اختصارها،و أخفيت فيها كلّ النعم و المواهب.

بحوث

اشاره

١-ذكر اللّه على كلّ حال:

عند ما يذكر اسم اللّه تعالى يتجلّى فى قلب الإنسان عالم من العظمه و القدره و العلم و الحكمه،لأنّ له الأسماء الحسنى و الصفات العليا، و ربّ كلّ الكمالات، و منزّه عن كلّ عيب و نقص.

إنّ التوجّه المستمر لمثل هذه الحقيقه التى لها تلك الصفات،يسوق روح الإنسان إلى الخيرات و الأعمال الصالحه و الطهارات،و يبعده عن السيّئات و القبائح،و بعباره اخرى فإنّ نور صفاته عزّ و جلّ يتجلّى فى روح الإنسان.

إنّ التوجّه إلى هكذا معبود عظيم يبعث على الإحساس الدائم بحضوره بين

يديه تعالى،و هذا الإحساس يؤدّى إلى زياده الفاصله كثيرا بين الإنسان و بين الذنب و المعصيه.

ذكر اللّه يعنى تذكر مراقبته..ذكر حسابه و جزائه..ذكر محكمته العادله..نعيمه و جحيمه..و هذا هو الذكر الذى يصفّى الروح،و يغمر القلب نورا و حيويه.

لهذا ورد فى الروايات الإسلاميه أنّ لكلّ شيء حدّا،إلاّ ذكر اللّه فإنّه لا حدّ له!

يقول الإمام الصادق عليه السّلام فى الروايه التى وردت فى اصول الكافى: «ما من شيء إلاّ و له حدّ ينتهى إليه،إلاّ الذكر فليس له حدّ ينتهى إليه».

ثمّ يضيف:«فرض اللّه عزّ و جلّ الفرائض،فمن أدّاهنّ فهو حدّهنّ،و شهر رمضان فمن صامه فهو،و الحجّ فمن حجّ حدّه،إلاّ الذكر،فإنّ اللّه عزّ و جلّ لم يرض منه بالقليل،و لم يجعل له حدّا ينتهى إليه،ثمّ تلا: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللّٰهَ ذِكْراً كَثِيراً وَ سَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَ أَصِيلاً (1) .

و

يقول الإمام الصادق عليه السّلام فى ذيل هذه الروايه، «و كان أبى كثير الذكر،لقد كنت أمشى معه و إنّه ليذكر اللّه،و آكل معه الطعام و إنّه ليذكر اللّه،و لقد كان يحدث القوم و ما يشغله ذلك عن ذكر اللّه».

و أخيرا ينتهى هذا الحديث الغنى المحتوى بهذه الجمله:

«و البيت الذى يقرأ فيه القرآن،و يذكر اللّه عزّ و جلّ فيه تكثر بركته،و تحضره الملائكه،و تهجره الشياطين، و يضيء لأهل السماء كما يضيء الكوكب الدرّى لأهل الأرض» (2) .

إنّ هذا الموضوع من الأهميّه بمكان بحيث عدّ«ذكر اللّه»فى حديث يعدل خير الدنيا و الآخره،

فقد روى عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله أنّه قال: «من أعطى لسانا ذاكرا فقد اعطى خير الدنيا و الآخره» (3)

1- 1) الكافى،المجلّد الثّانى،كتاب الدعاء.باب ذكر اللّه عزّ و جلّ كثيرا.

2- 2) المصدر السابق.

3- 3) -المصدر السابق.

و الروايات الوارده فى أهميّه«ذكر اللّه»تبلغ من الكثره حدّا بحيث أنّا لو أردنا إيرادها جميعا هنا لخرجنا عن وضع الكتاب وحدّه،و لذلک نختم هذا الحديث بحديث آخر قصير عميق المعنى

عن الإمام الصادق عليه السّلام حيث يقول: «من أكثر ذكر اللّه عزّ و جلّ أظلّه اللّه فى جنّته» (۱) .

و لمزيد الاطلاع فى هذا المجال يراجع المجلّد الثّانى من اصول الكافى- الأبواب التى تتعلّق بذكر اللّه،و خاصّه الأبواب التى تقول:إنّ الآفات و البلايا و المصائب لا تحيط بمن يذكرون اللّه).

و هناک مطلب ينبغى التأكيد عليه،و هو أنّ كلّ هذه البركات و الخيرات لا ترتبط قطعا بالذكر اللفظى و حركه اللسان الخاليه من الفكر و العمل،بل الهدف هو الذكر الذى يكون مصدرا و منبعا للفكر..ذلک الفكر الذى يتجلّى نوره فى أعمال الإنسان،كما صرّحت الروايات بهذا المعنى (۲) .

۲-توضيح حول«لقاء اللّه»:

قلنا:إنّ هذا التعبير فى القرآن المجيد يشير إلى القيامه عاده،و لمّا كان اللقاء الحسّى لا يصدق فى شأن اللّه،إذ ليس هو بجسم،و ليس له العوارض الجسميه، و لذلک اضطر بعض المفسّرين إلى تقدير شىء هنا،فقالوا:إن المراد هو«لقاء ثواب اللّه»،أو«لقاء ملائكه اللّه».

غير أنّ«اللقاء»يمكن أن يؤخذ هنا بمعنى اللقاء الحقيقى بعين القلب،حيث أنّ الحجب تزال فى القيامه و تتجلّى عظمه اللّه و آياته أكثر من أىّ وقت مضى،و يصل الإنسان إلى مقام المشاهده الباطنيه و الرؤيه القلبيه،و ينال كلّ شخص من هذه المشاهده مرتبه تتناسب مع مقدار معرفته و عمله الصالح.

۱- ۱) المصدر السابق.

۲- ۲) خصال الصدوق،طبقا لنقل تفسير الميزان،المجلّد ۱۶،صفحه ۳۵۳.

و للفخر الرازى فى تفسيره هنا بيان جميل يمكن جمعه مع ما قلناه،فهو يقول:

إنّ الإنسان يغفل فى هـذه الدنيا عن اللّه غالبا نتيجه لغرقه فى الأمور الماديه، و السعى لتحصيل المعاش،إلاّ أنّه يتوجّه يوم القيامه بكلّ وجوده إلى ربّ العالمين، لأنّ كلّ هذه المشاغل الفكريه ستزول،و هذا هو معنى لقاء اللّه (۱) .

ثمّ إنّه اتّضح ممّا قلناه أنّ قول بعض المفسّرين بأنّ هـذا التعبير إشاره إلى لحظه الموت و اللقاء بملك الموت لا يناسب الآيات مورد البحث،و لا التعبيرات المشابهه الوارده فى آيات القرآن الاخرى،و خاصّه و أنّ ضـمير المفعول الـذى فى جمله«يلقونه»جاء بصيغه المفرد،و هو إشاره إلى ذات اللّه المقدّسه فى حين أنّ الملائكه التى تقبض الأرواح جمع،و جاءت كلمه«الملائكه»بصيغه الجمع فى الآيه السابقه أيضا(إلاّ اللهمّ أن تقدّر كلمه ما).

۳-أجور المؤمنين معدّه منذ الآن!

إنّ جمله أَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً توحى بـأنّ الجنّه و نعمها قـد خلقت،و هى بانتظـار المؤمنين.و يمكن أن يتبادر هـذا السؤال إلى الأذهان:إنّ التهيئه و الإعداد يليقان بالشخص المحدود القدره،حيث أنّه ربّما لا يستطيع فى بعض الأحيان أن يهيء وقت الحاجه ما يريـد،إلاّ أنّ مثل هذه الحاجه إلى الاستعداد لا تصدق فى شأن اللّه سبحانه،إذ أنّ قدرته لا تحدّ،و إذا أراد شيئا فى أيّه لحظه فإنّه يقول له:كن فيكون، فما هو المراد من التأكيد على التهيئه و الإعداد فى هذه الآيه و سائر آيات القرآن الاخرى؟! و بملاحظه نقطه واحـده يحلّ هـذا الإشكال،و هى أنّ تهيئه الشـىء ليس نابعا من كون القـدره محـدوده دائما،بل قـد يكون أحيانا من أجل تهدئه الخاطر و اطمئنان

۱- ۱) التّفسير الكبير للفخر الرازى ذيل الآيه مورد البحث.

النفس أكثر،و قد يكون أحيانا من أجل زياده الاحترام و الإكرام،و لذلك فإنّنا إذا دعونا ضيفا،و بدأنا بتهيئه وسائل استقباله و ضيافته،فسنكون قد اهتممنا به و احترمناه أكثر،على عكس ما إذا قمنا بهذا الاستعداد لاستقباله يوم مجيئه،و فى ساعه وصوله،فإنّ هذا كاف لوحده فى الدلاله على عدم اهتمامنا و قلّه احترامنا لهذا الضيف.

و فى الوقت نفسه،لا يمنع هذا الكلام من تعاظم الأجر و الثواب و زيادته وفق العمل،و أنّ المؤمنين كلّما اجتهدوا أكثر فى تهذيب أنفسهم و تطهيرها،فإنّ الأجور الإلهيّه المعدّه لهم تتكامل أكثر و تعظّم،و تسير نحو الكمال بنفس النسبه التى يتكاملون فيها.

الآيات [سوره الأحزاب (۳۳): الآيات ۴۵ الی ۴۸]

اشاره

يا أَيُّهَا اَلنَّبِيُّ إِنّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَ مُبَشِّراً وَ نَذِيراً (۴۵) وَ داعِياً إِلَى اَللّهِ بِإِذْنِهِ وَ سِراجاً مُنِيراً (۴۶) وَ بَشِّرِ اَلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اَللّهِ فَضْلاً كَبِيراً (۴۷) وَ لا تُطِعِ اَلْكافِرِينَ وَ اَلْمُنافِقِينَ وَ دَعْ أَذاهُمْ وَ تَوَكَّلْ عَلَى اَللّهِ وَ كَفى بِاللّهِ وَكِيلاً (۴۸)

التّفسير

اشاره

السّراج المنير!

الخطاب فی هـذه الآيات موجّه إلی النّبی صـلّی اللّه عليه و آله،إلّا أنّ نتيجته لكلّ المؤمنين، و بـذلك فإنّها تكمل الآيات السابقه التی كانت تبحث فی بعض وظائف المؤمنين و واجباتهم.

لقد جاءت فی الآيتين الأولیين من هذه الآيات الأربع«خمس صـفات» للنبی صـلّی اللّه عليه و آله و جاء فی الآيتين الأخريين بيان خمس واجبات يرتبط بعضها ببعض، و تكمل إحداها الاخری.

تقول الآيه أوّلا: إِنّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً فهو من جانب شاهد علی أعمال أمّته، لأنّه يری أعمالهم كما نقرأ ذلك فی موضع آخر: وَ قُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ

وَ رَسُولُهُ وَ الْمُؤْمِنُونَ . (۱) و هذا العلم یمکن تحقّقه عن طریق عرض أعمال الامّه علی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و الأئمّه علیهم السّلام،و قد مرّ تفصیل ذلک فی ذیل الآیه المذکوره(۱۰۵ من سوره التوبه).

و هو من جانب آخر شاهد علی الأنبیاء الماضین الذین کانوا شهودا علی أممهم: فَکَیْفَ إِذٰا جِئْنٰا مِنْ کُلِّ أُمَّهٍ بِشَهِیدٍ وَ جِئْنٰا بِکَ عَلیٰ هٰؤُلاٰءِ شَهِیداً . (۲)

و من جهه ثالثه فإنّ وجودک بما لک من الصفات و الأخلاق و البرامج و التعلیمات البنّاءه،إضافه إلی تاریخک المشرق و أعمالک المشرفه،شاهد علی أحقّیه دینک،و شاهد علی عظمه اللّه و قدرته.

ثمّ تطرّقت الآیه إلی الصفتین الثّانیه و الثالثه فقالت: وَ مُبَشِّراً وَ نَذِیراً فهو مبشّر للمحسنین بثواب اللّه اللامتناهی..بالسلامه و السعاده الخالده..بالظفر و التوفیق الملیء بالفخر و الاعتزاز..و نذیر للکافرین و المنافقین من عذاب اللّه الألیم..من خسران کلّ رأسمال الوجود،و من السقوط فی شراک التعاسه فی الدنیا و الآخره.

و کما قلنا سابقا،فإنّ البشاره و الإنذار یجب أن یقترنا فی کلّ مکان،و أن یکون أحدهما معادل للآخر،لأنّ نصف وجود الإنسان عباره عن حبّه لجلب المنفعه، و نصفه الآخر سعیه لدفع المضرّه عنه،فالبشاره تشکّل الدافع علی القسم الأوّل، و الإنذار علی النصف الثانی،فالمناهج التی تعتمد علی جانب واحد لم تدرک حقیقه الإنسان،و لم تدرک دوافعه و میوله (۳) .

و أشارت الآیه التالیه إلی الصفه الرّابعه و الخامسه،فقالت: وَ دٰاعِیاً إِلَی اللّٰهِ بِإِذْنِهِ وَ سِرٰاجاً مُنِیراً .

ص: ۲۹۷

۱- ۱) التوبه،۱۰۵.

۲- ۲) النساء،۴۱.

۳- ۳) لقد أوردنا بحثا مفصّلا فی هذا الباب تحت عنوان أصلان تربویان مهمّان،فی ذیل الآیه(۱۱۹)من سوره البقره.

ملاحظات

اشاره

و هنا ینبغی الانتباه إلی عدّه ملاحظات:

۱-لقـد ذکر مقام«الشـهاده»،و کون النّبی صـلّی اللّه علیه و آله شاهدا قبل جمیع صـفاته الاخری،و ذلک لأنّ هذا المقام لا یحتاج إلی مقـدّمه سوی وجود النّبی و رسالته، فعند ما یتمّ نصـبه فی هذا المقام یکون شاهدا من جمیع الجهات التی ذکرناها سابقا،غیر أنّ مقام«البشاره»و«الإنذار»أمر یتحقّق بعد ذلک.

۲-إنّ الدعوه إلی اللّه سبحانه مرحله تأتی بعد البشاره و الإنذار،لأنّ البشاره و الإنذار وسیله لتهیئه الأفراد لقبول الحقّ،فعند ما تتهیّأ هذه الأرضیه عن طریق الترغیب و الترهیب،تبدأ مرحله الدعوه إلی اللّه سبحانه،و ستکون مؤثّره فی هذه الحاله فقط.

۳-مع أنّ کلّ أعمال النّبی صـلّی اللّه علیه و آله بإذن اللّه و أمره، إلاّ أنّ الدعوه هی الوحیده التی قیّدت بإذن اللّه هنا،و ذلک لأنّ أشـقّ أعمـال الأنبیـاء و أهمّهـا هی الـدعوه إلی اللّـه سـبحانه،حیـث یجب علیهم أن یسوقـوا النـاس فی طریـق یخـالف میـولهم و شهواتهم، فیجب أن تستبطن إذن اللّه و أمره و نصرته فی هذه المرحله لیتمّ تنفیذها،و من هنا یتّضح أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله لا یملک شیئا من عند نفسه،بل کلّ ما یقوله بإذن اللّه (۱) .

۴-إنّ کون النّبی صـلّی اللّه علیه و آله(سـراجا منیرا)إشاره إلی المعجزات و أدلّه أحقّیه دعوه الرّسول،و علامه صدقها،فهو سـراج منیر شاهـد بنفسـه علی نفسـه،یزیـح الظلمـات و یلفت الأنظـار و یجـذب القلـوب إلیه،فکمـا أنّ بزوغ الشـمس دلیـل علی وجـود الشمس،فکذلک وجوده صلّی اللّه علیه و آله دلیل علی کونه حقّا،و دلیل علی أحقّیته.

و ممّا یسـتحقّ الانتباه أنّ لفظه«السـراج»قد وردت فی القرآن المجید أربع مرّات،ثلاث منها فی شأن الشمس،و من جملتها ما ورد فی الآیه(۱۶)من سوره

۱- ۱) یحتمل أیضا أنّ قیـد(بإذنه)یعود إلی جمیع الأوصاف السابقه،إلاّ أنّ ظاهر الآیه هو أنّ الضـمیر یعود إلی مسأله الدعوه إلی اللّه.

نوح حيث تقول: وَ جَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَ جَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً .

«السراج»في الأصل يعنى المصباح الذى يضاء سابقا بواسطه الفتيله و الزيت، و بواسطه الطاقه الكهربائيه و أمثالها فى العصر الحاضر،فينبعث ضياؤه و نوره،إلاّ أنّه اطلق-على قول الراغب فى مفرداته-على كلّ مصدر للنور فيما بعد،و إطلاقه على الشمس من أجل أنّ نورها ينبع من داخلها،و لا تكتسب نورها من مصدر آخر كالقمر.

إنّ وجود النّبى صلّى اللّه عليه و آله كالشمس المنيره التى تزيح ظلمات الجهل و الشرك و الكفر عن سماء روح البشر،لكن كما لا ينتفع العمى بنور الشمس،و كما تخفى الخفافيش أنفسها عنه حيث لا طاقه لعيونها برؤيه هذا النور،فإنّ عمى القلوب العنودين المتعصّبين لم يستفيدوا و لن يستفيدوا من هذا النور مطلقا،و كان أبو جهل و أمثاله يضعون أصابعهم فى آذانهم حتّى لا يسمعوا صوت قرأنه و نغمته.

إنّ الظلام يبعث على الخوف و الوحشه دائما،و النور يبعث الاطمئنان و الراحه، فالسرّاق و اللصوص يستغلّون ظلام الليل للسطو على الدور و نهب ما يقدرون عليه،و الحيوانات المفترسه تخرج من حجورها فى ظلمه الليل غالبا.

الظلام يسبّب الفرقه،و النور يسبّب الاجتماع،و لذلك فإنّنا إذا أسرجنا سراجا فى ليله مظلمه فستجتمع حوله أنواع الحشرات فى فتره قصيره.

إنّ النور و الضياء أساس نمو الأشجار،و نضج الفواكه و الأثمار،و الخلاصه:كلّ نشاطات الحياه،و تشبيه وجود النّبى صلّى اللّه عليه و آله بمصدر للنور يبعث على تداعى كلّ هذه المفاهيم فى الذهن.

إنّ وجود النّبى صلّى اللّه عليه و آله أساس الهدوء و الاطمئنان،و فرار لصوص الدين و الإيمان، و هرب الذئاب الضاريه الظالمه لمجتمعاتها،و يوجب هدوء الخاطر،و نمو روح الإيمان و الأخلاق،و الخلاصه:أساس الحياه و الحركه،و تأريخ حياته شاهد حى على هذا الموضوع.

و فی الآیتین الأخریین من الآیات مورد البحث بیانا لخمسه واجبات من واجبات النّبی الأکرم صلّی اللّه علیه و آله المهمّه بعد بیان صفاته الخمس،فتقول أوّلا: وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِینَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللّهِ فَضْلاً کَبِیراً و هی إشاره إلی أنّ مسأله تبشیر النّبی صلّی اللّه علیه و آله لا یحدّ بالثواب الإلهی بمقدار أعمال المؤمنین الصالحه،بل إنّ اللّه سبحانه یفیض علیهم من فضله بحیث تضطرب المعادله بین العمل و الجزاء تماما کما تشهد بذلک الآیات القرآنیه.

فتقول فی موضع: مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَهِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها . (۱)

و تقول فی موضع آخر: مَثَلُ الَّذِینَ یُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِی سَبِیلِ اللّهِ کَمَثَلِ حَبَّهٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ فِی کُلِّ سُنْبُلَهٍ مِائَهُ حَبَّهٍ وَ اللّهُ یُضاعِفُ لِمَنْ یَشاءُ . (۲)

و قد تذهب أبعد من ذلک فتقول: فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِیَ لَهُمْ مِنْ قُرَّهِ أَعْیُنٍ . (۳)

و بهذا فإنّ أبعاد الفضل الإلهی الکبیر أوسع و أسمی ممّا یخطر فی التصوّر و الأوهام.

ثمّ تناولت الواجب الثّانی و الثالث،فقالت: وَ لا تُطِعِ الْکافِرِینَ وَ الْمُنافِقِینَ .

لا شکّ أنّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله لم یطع الکافرین و المنافقین مطلقا،إلاّ أنّ هذا الموضوع من الأهمیّه بمکان،و لذلک أکّدت الآیه علی هذا الموضوع بالخصوص من باب التأکید علی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و التحذیر و القدوه للآخرین،فهی تحذّرهم من الأخطار و العقبات المهمّه التی تعترض طریق القاده المخلصین،و التی تجرّهم إلی المساومه و التسلیم أثناء المسیره،و تتهیّأ أرضیه هذا التسلیم عن طریق التهدید تاره،و عن طریق منح الامتیازات تاره اخری، حتّی أنّ الإنسان قد یشتبه أحیانا فیظنّ أنّ الخضوع و الامتثال لمثل لهذه المساومه و الاستسلام هو طریق الوصول

۱- ۱) الأنعام،۱۶۰.

۲- ۲) البقره،۲۶۱.

۳- ۳) الم السجده،۱۷.

إلى الهدف.فى حين أنّ نتيجه هذا الاستسلام هى إجهاض كلّ الجهود و المساعى، و إحباط كلّ جهاد و كفاح.

إنّ تأريخ الإسلام يبيّن أنّ الكافرين و المنافقين سعوا مرارا إلى جرّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله إلى هذا الموضع،فاقترحوا مرّه أن لا يذكر الأصنام بسوء و لا ينتقدها و ينتقصها، و قالوا مرّه اخرى:ائذن لنا أن نعبد ربّك سنه،و اعبد آلهتنا سنه،و كانوا يقولون أحيانا:أمهلنا سنه نقيم فيها على ديننا ثمّ نؤمن بك.و اقترحوا عليه مرّه أن أبعد عنك فقراء المؤمنين و مساكينهم لنضمّ صوتنا-نحن الأثرياء ذوى المكانه-إليك.

و كانوا يعلنون أحيانا استعدادهم لبذل الامتيازات الماليه و المركز و المنصب الحسّاس،و النساء الجميلات و أمثال ذلك.

من المسلّم أنّ كلّ هذه كانت شراك خطيره فى طريق انتشار الإسلام السريع، و اقتلاع جذور الكفر و النفاق،و لو كان النّبى صلّى اللّه عليه و آله قد أظهر الليونه و الميل إلى المساومه أمام واحد من هذه الاقتراحات فإنّ دعائم الثوره الإسلاميه كانت ستنهار،و لم تكن الجهود لتصل إلى نتيجه مطلقا.

ثمّ تقول فى الأمر الرابع و الخامس: وَ دَعْ أَذاهُمْ وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ وَ كَفى بِاللّهِ وَكِيلاً .

إنّ هذا الجزء من الآيه يوحى بأنّهم قد وضعوا النّبى صلّى اللّه عليه و آله تحت ضغط شديد لحمله على الاستسلام،و استخدموا ضدّه و ضدّ أصحابه كلّ أنواع الأذى،سواء كان عن طريق جرح اللسان و الكلام الفاحش و الإهانه،أم عن طريق الأذى الجسمى،أو عن طريق الحصار الاقتصادى.و كان لهذا الأذى صوره و أسلوبا فى مكّه،و أسلوبا آخر فى المدينه،لأنّ«الأذى»جاء مطلقا فى الآيه و يشمل كلّ أنواع الأذى.

و يرى«الراغب»فى المفردات أنّ«الأذى»هو كلّ ضرر يصيب الكائن الحى، سواء فى روحه،أو جسمه،أو يصيب من يرتبط به،سواء فى الدنيا أم الآخره.

و قد استعملت هذه الكلمه فى الآيات القرآنيه فى«الأذى اللسانى»تاره كالآيه(۶۱)من سوره التوبه،حيث تقول: وَ مِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَ يَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ .

و استعملت أيضا بمعنى«الأذى البدنى»فى آيات اخرى،كالآيه(۱۶)من سوره النساء: وَ الَّذانِ يَأْتِيانِها مِنْكُمْ فَآذُوهُما أى يرتكبان الفاحشه،فأقيموا عليهما الحدّ الشرعى.

يقول التاريخ:إنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و المؤمنين الأوائل قد وقفوا كالجبل الأشمّ أمام أنواع الأذى،و لم يقبلوا عار الاستسلام و الهزيمه قطّ،و أخيرا انتصروا فى حركتهم.

و كان أساس هذه المقاومه و معينها هو«التوكيل على اللّه»و الاعتماد على ذاته المقدّسه..اللّه الذى تتيسّر كلّ الصعاب و المشاكل أمام إرادته..أجل يكفى الإنسان أن يكون معينه و ناصره هذا الربّ الجليل.

و ممّا قلناه اتّضح أنّ محتوى الآيه المذكوره لم يكن نسخ لحكم الجهاد-كما يظنّ ذلك بعض المفسّرين-بل الظاهر أنّ هذه الآيات قد نزلت بعد مدّه من نزول حكم الجهاد،و هى فى مصافّ الحوادث المتعلّقه بسوره الأحزاب.

إنّ هذا حكم لكلّ العصور و القرون،بأن لا يصرف الأئمّه الإلهيون طاقاتهم الحيويه فى الاهتمام بإيذاء مخالفيهم،فإنّهم إن فعلوا ذلك و صرفوا قواهم و طاقاتهم فى هذا المجال،يكون عدوّهم قد حقّق هدفه،لأنّه يريد أن يشغل فكر من يقابله،و يهدر طاقاته عن هذا الطريق..هنا يكون أمر دَعْ أَذاهُمْ هو الحلّ الوحيد.

و هنا أمر يستحقّ الانتباه أيضا،و هو:أنّ الأوامر الخمسه المذكوره،التى وردت فى الآيتين الأخيرتين،يكمل بعضها بعضا،و يرتبط بعضها ببعض،فإنّ

تبشـير المؤمنين لجـذب القوى المؤمنه،و عـدم الاستسـلام للكفّـار و المنافقين،و عـدم الاهتمام بأذاهم،و التوكّل على اللّه تشـكّل مجموعه مبادئ تؤدّى إلى الهدف، و دستور عمل جامع لكلّ سالكى طريق الحقّ.

ص :۳۰۳

الآیه [سوره الأحزاب (۳۳): آیه ۴۹]

اشاره

یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا إِذا نَکَحْتُمُ الْمُؤْمِناتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَما لَکُمْ عَلَیْهِنَّ مِنْ عِدَّهٍ تَعْتَدُّونَها فَمَتِّعُوهُنَّ وَ سَرِّحُوهُنَّ سَراحاً جَمِیلاً (۴۹)

التّفسیر

اشاره

جانب من أحکام الطلاق:

إنّ آیات هذه السوره-الأحزاب-جاءت علی شکل مجموعات مختلفه، و الخطاب فی بعضها موجّه إلی النّبی صلّی اللّه علیه و آله،و فی بعضها الآخر إلی کلّ المؤمنین، و لذلک تقول أحیانا: یا أَیُّهَا النَّبِیُّ ،و أحیانا اخری: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا قد وردت فیها الأوامر اللازمه یوازی بعضها بعضا،و هذا یعنی أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله کان مرادا بهذه التعلیمات،کما أنّ عموم المؤمنین یرادون بها أیضا.

و الآیه التی نبحثها من الآیات التی توجّه خطابها إلی کلّ المؤمنین، و لذلک تقول أحیانا: یا أَیُّهَا النَّبِیُّ ،و أحیانا اخری: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا قد وردت فیها الأوامر اللازمه یوازی بعضها بعضا،و هذا یعنی أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله کان مرادا بهذه التعلیمات،کما أنّ عموم المؤمنین یرادون بها أیضا.

و الآیه التی نبحثها من الآیات التی توجّه خطابها إلی کلّ المؤمنین،فی حین أنّ الآیات السابقه خاطبت شخص النّبی صلّی اللّه علیه و آله ظاهرا،و یتوجّه الخطاب إلی النّبی صلّی اللّه علیه و آله فی الآیات القادمه مرّه اخری،و بهذا فإنّ قسما من هذه السوره یتّبع أسلوب «اللفّ و النشر المرتّب».

تقول الآیه: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا إِذا نَکَحْتُمُ الْمُؤْمِناتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَما لَکَمْ عَلَیْهِنَّ مِنْ عِدَّهٍ تَعْتَدُّونَها .

لقد بیّن اللّه سبحانه هنا حکما استثنائیا من حکم عدّه النساء المطلّقات،و هو أنّ الطلاق،إن وقع قبل الدخول فلا تلزم العدّه،و من هذا التعبیر یفهم أنّ حکم العدّه کان قد بیّن قبل هذه الآیه.

إنّ التعبیر ب«المؤمنات»لا یدلّ علی أنّ الزواج من غیر المسلمات ممنوع تماما،بل من الممکن أن یکون إشاره إلی أولویه المؤمنات،و بناء علی هذا فإنّه لا ینافی الروایات و مشهور فتاوی الفقهاء بجواز الزواج المؤقّت من الکتابیات.

ثمّ إنّه یستفاد من تعبیر(لکم)و کذلک جمله(تعتدونها)أنّ انتظار عدّه المرأه یعتبر حقّا للرجل،و یجب أن یکون هکذا،لأنّ من الممکن أن تکون المرأه حاملا فی الواقع،و ترکها العدّه و زواجها برجل آخر یجعل حال الولد غیر معلوم،و یؤدّی إلی ضیاع حقّ الرجل إضافه إلی أنّ انتظار العدّه یمنح الرجل و المرأه فرصه لتجدید النظر و الرجوع إلی بعضهما،فقد یقع الطلاق نتیجه انفعالات شدیده،و مثل هذه الفرصه و التفکیر حقّ للرجل و المرأه معا.

و أمّا ما أورده البعض علی هذا الحکم،بأنّ العدّه إن کانت حقّا للرجل،فبإمکانه أن یسقط حقّه،فلا یصحّ،لأنّ فی الفقه حقوقا کثیره لا یمکن إسقاطها،کالحقّ الذی لورثه المیّت فی أمواله،أو الحقّ الذی للفقراء فی الزکاه،إذ لا یقدر أی أحد علی إسقاط هذا الحقّ الشرعی.

ثمّ تتطرّق الآیه إلی حکم آخر من أحکام النساء اللاتی یطلقن قبل المباشره الجنسیه- و الذی سبقت الإشاره إلیه فی سوره البقره أیضا-فتقول: فَمَتِّعُوهُنَّ أی اعطوهنّ هدیه مناسبه.

و لا شکّ أنّ تقدیم هدیّه مناسبه إلی المرأه یکون واجبا فی حاله عدم تعیین المهر من قبل،کما جاء فی الآیه(۲۳۶)من سوره البقره لا جُناحَ عَلَیْکُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ

النِّسٰاءَ مٰا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَ مَتِّعُوهُنَّ .

بناء على هـذا،فإنّ الآيه مورد البحث و إن كانت مطلّقه،و تشـمل الموارد التى عين فيها المهر،و التى لم يعيّن فيها،إلاّ أنّنا نحدّدها بالمورد الذى لم يعيّن فيه المهر بقرينه آيه سوره البقره،لأنّه فى حاله تعيين المهر و عدم الدخول يجب دفع نصف المهر،كما جاء ذلك فى الآيه(٢٣٧)من سوره البقره.

و احتمل بعض المفسّرين و الفقهاء أنّ حكم تقديم هديّه مناسبه عام فى الآيه مورد البحث،و يشمل حتّى الموارد التى عيّن فيها المهر،غايه ما هناك أنّ له صـفه الاستحباب فى هذه الموارد،و له صفه الوجوب فى الموارد التى لم يعيّن فيها المهر.و تلاحظ فى بعض الآيات و الروايات إشاره إلى هذا المعنى أيضا (١) .

أمّـا كم هو مقـدار هـذه الهـديه؟فقـد بيّنه القرآن المجيـد فى سوره البقره إجمالا بقوله: مَتٰاعاً بِالْمَعْرُوفِ . (٢) و كـذلك قال فى نفس تلك الآيه: عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَ عَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ .

بناء على هـذا،فإن ذكرت فى الروايات الإسـلاميه موارد من قبيل البيت و الخادم و اللباس و أمثال ذلك،فإنّها من قبيل المصاديق لهذا الكلّى و هى تتفاوت بحسب إمكانيات الزوج و شؤون المرأه.

و آخر حكم فى الآيه مورد البحث هو: وَ سَرِّحُوهُنَّ سَرٰاحاً جَمِيلاً .

«السـراح الجميـل»هو الطلاـق المقترن بـالمحبّه و الاـحترام،و ترك كـلّ خشونه و ظلم و جور و احتقار،و الخلاصه هو ما ورد فى الآيه(٢٩)من سوره البقره:

فَإِمْسٰاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسٰانٍ فـإنّ الاسـتمرار فى الحيـاه الزوجيه يجب أن يكون قائمـا على أسـاس المعايير الإنسانيه،و الطلاق كذلك،فلا يجوز للرجل-إذا

١- ١) كالآيه(٢۴١)من سوره البقره،و وردت روايات متعدّده فى هذا الباب ذكرت فى وسائل الشـيعه،الجزء ١۵،ص ۵٩ الباب ۵٠ من أبواب المهور من كتاب النكاح،و من جملتها ما ورد عن على عليه السّلام «لكلّ مطلّقه متعه إلاّ المختلعه».
٢- ٢) البقره،٢٣۶.

صمّم على طلاق زوجته-هضم حقّ الزوجه و مهرها،و بذاءه الكلام و الخشونه معها،فإنّ هذا السلوك غير إسلامى قطعا،و لا يمتّ إلى الإسلام بصله.

و اعتبر بعض المفسّرين«السراح الجميل»بمعنى إجراء الطلاق طبقا للسنّه الإسلاميه،و جاء هذا المعنى فى الرّوايه الوارده فى تفسير على بن إبراهيم و عيون الأخبار.إلاّ أنّ من المسلّم أنّ«السراح الجميل»لا يتحدّد بهذا المعنى،بالرغم من أنّه أحد مصاديقه.

و اعتقد بعض آخر من المفسّرين أنّ السراح الجميل هنا يعنى إذن الخروج من المنزل،لأنّ المرأه ليست مكلّفه هنا بالعدّه،و بناء على هذا فيجب إطلاق سراحها لتذهب حيث شاءت.

إلاّ أنّ هذا المعنى يبدو بعيدا بملاحظه أنّ تعبير السراح الجميل،أو أمثاله فى الآيات القرآنيه الاخرى قد ورد حتّى فى شأن النساء اللاتى يجب أن يعتددن.

و قد كان لنا بحث مفصّل حول المعنى الأصلى للسراح،و أصله اللغوى،و لما ذا يستعمل فى الإطلاقات المتعارفه بمعنى الطلاق و الإطلاق فى ذيل الآيه(٢٨)من سوره الأحزاب هذه.

الآیه [سوره الأحزاب (۳۳): آیه ۵۰]

اشاره

يا أَيُّهَا اَلنَّبِيُّ إِنّا أَحْلَلْنا لَكَ أَزْواجَكَ اَللاّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَ ما مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمّا أَفاءَ اَللّهُ عَلَيْكَ وَ بَناتِ عَمِّكَ وَ بَناتِ عَمّاتِكَ وَ بَناتِ خالِكَ وَ بَناتِ خالاتِكَ اَللاّتِي هاجَرْنَ مَعَكَ وَ اِمْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَها لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرادَ اَلنَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَها خالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ اَلْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنا ما فَرَضْنا عَلَيْهِمْ فِي أَزْواجِهِمْ وَ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ لِكَيْلا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَ كانَ اَللّهُ غَفُوراً رَحِيماً (۵۰)

التّفسیر

اشاره

یمکنک الزواج من هذه النّسوه:

قلنا:إنّ بعض مقاطع هذه السوره تبحث واجبات النّبی صلّی اللّه علیه و آله و المؤمنین علی طریقه اللفّ و النشر المرتّب،و لذلک فبعد ذکر جانب من الأحکام المتعلّقه بطلاق النساء،وجّهت الخطاب هنا إلی النّبی صلّی اللّه علیه و آله،و فصّلت الموارد السبعه التی یجوز للنبی الزواج فیها من تلک النسوه:

ص :۳۰۸

۱-فقالت أوّلا: يٰا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنّٰا أَحْلَلْنٰا لَکَ أَزْوٰاجَکَ اللاّٰتِی آتَیْتَ أُجُورَهُنَّ .

و المراد من هؤلاء النساء-بقرينه الجمل التاليه-النساء اللاتى لم يكنّ يرتبطن بالنّبى صلّى اللّه عليه و آله برابطه قرابه و قد تزوّجنه،و ربّما كانت مسأله دفع المهر لهذا السبب، لأنّ العرف المتّبع آنذاك هو أنّهم كانوا يدفعون المهر نقدا عند زواجهم من الأجنبيات،إضافه إلى أفضليه التعجيل فى هذا الدفع،و خاصّه إذا كانت الزوجه بحاجه إليه.إلاّ أنّ هذا الأمر ليس من الواجبات على أى حال،إذ يمكن أن يبقى المهر دينا فى ذمّه الزوج إذا ما اتّفق الطرفان على ذلك.

۲- وَ مٰا مَلَكَتْ يَمِينُکَ مِمّٰا أَفٰاءَ اللّٰهُ عَلَيْکَ .

أَفٰاءَ اللّٰهُ

من مادّه(الفىء)،و تقال للأموال التى يحصل عليها الإنسان بدون جهد و مشقّه،و لذلك يطلق(الفىء)على الغنائم الحربيه،و كذلك الأنفال،و هى الثروات الطبيعيه التى تعود إلى الحكومه الإسلاميه و لا يملكها مالك بالخصوص.

يقول الراغب فى مفرداته:الفىء بمعنى الرجوع إلى حاله محموده،و منه فاء الظلّ.(لحاله رجوع الظلّ)ثمّ قال:و قيل للغنيمه من دون مشقّه فىء.قال بعضهم:

سمّى ذلك بالفىء تنبيها على أنّ أشرف أعراض الدنيا يجرى مجرى ظلّ زائل.

صحيح أنّ الغنائم الحربيه لا تنال فى بعض الأحيان إلاّ بشقّ الأنفس و بذل الجهد المضنى،إلاّ أنّ مشقّتها أقلّ من مشقّه تحصيل الأموال الاخرى.و قد يطلق «الفىء»أحيانا على الأموال الطائله التى يحصل عليها من خلال هجوم واحد.

لكن من من نساء النّبى يصدق عليها هذا الحكم؟ قال بعض المفسّرين:إنّ إحدى نساء النّبى و هى«ماريه القبطيه»-كانت من الغنائم،و كانت زوجتان أخريان-و هما«صفيّه»و«جويريه»-من الأنفال أعتقهما النّبى صلّى اللّه عليه و آله ثمّ تزوّجهما،و كان هذا الفعل بنفسه جزءا من خطّه الإسلام العامّه فى تحرير العبيد التدريجى،و إرجاع الشخصيه الإنسانيه لهم.

۳- وَ بَنٰاتِ عَمِّکَ وَ بَنٰاتِ عَمّٰاتِکَ وَ بَنٰاتِ خٰالِکَ وَ بَنٰاتِ خٰالاٰتِکَ اللاّٰتِی هٰاجَرْنَ

مَعَکَ

و بهـذا فـإنّ اللاّتی یحلّ للنّبی الزواج منهنّ من بین جمیع الأقارب:بنات العمّ و العمّه،و بنات الخال و الخاله،و بشـرط أن یکنّ قد هاجرن مع النّبی صلّی اللّه علیه و آله.

إنّ التحدیـد بهذه الفئات الأربع واضح،إلاّ أنّ شـرط الهجره من أجل أنّها کانت دلیلا علی الإیمان فی ذلک الیوم،و عدم الهجره دلیـل علی الکفر،أو لأنّ الهجره تمنحهنّ امتیـازا أکبر و فخرا أعظم،و الهـدف من الآیه هو بیان النساء الفاضـلات المؤهّلات لأن یصبحن زوجات للنّبی صلّی اللّه علیه و آله.

و هل لهـذه الفئات الأربع التی ذکرت کحکم کلّی فی الآیه، مصـداق خارجی من بین نساء النّبی أم لا؟إنّ المورد الوحیـد الذی یمکن ذکره کمصـداق هو زواجه صـلّی اللّه علیه و آله بزینب بنت جحش،الـذی مرّت قصّتـه المثیره فی طیّات هـذه السوره،لأنّ زینب کانت بنت عمّه النّبی و کان«جحش»زوج عمّته (۱) .

۴-وَ امْرَأَهً مُؤْمِنَهً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهٰا لِلنَّبِیِّ (من دون مهر) إِنْ أَرٰادَ النَّبِیُّ أَنْ یَسْتَنْکِحَهٰا خٰالِصَهً لَکَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِینَ أی أنّ هـذا الحکم خاص للنبی صـلّی اللّه علیه و آله و لا یشـمل سائر المؤمنین قَدْ عَلِمْنٰا مٰا فَرَضْنٰا عَلَیْهِمْ فِی أَزْوٰاجِهِمْ وَ مٰا مَلَکَتْ أَیْمٰانُهُمْ و بناء علی هذا فإذا کنّا قد حدّدنا بعض المسائل فیما یتعلّق بالزواج من هؤلاء النسوه،فقد کان ذلک استنادا إلی مصلحه حاکمه فی حیاتک و حیاتهن،و لم یکن أیّ من هذه الأحکام و المقرّرات اعتباطیا و بدون حساب.

ثمّ تضـیف الآیه لِکَیْلاٰ یَکُونَ عَلَیْکَ حَرَجٌ و بالتـالی سـتکون قـادرا علی أداء المسؤولیـات الملقاه علی عاتقک فی القیام بهـذا الواجب وَ کٰانَ اللّٰهُ غَفُوراً رَحِیماً .

و فی مورد القسم الأخیر-أی النساء اللاّتی لا مهر لهنّ-ینبغی الالتفات إلی

۱- ۱) ذکر بعض المفسّرین وجوها أوردها«الفاضل المقداد»فی کنز العرفان،فی أنّه لماذا ورد العمّ بصیغه المفرد و العمّات بصیغه الجمع،و کذلک الخال بصـیغه المفرد و الخالات بصـیغه الجمع،إلاّ أنّ أفضـلها هو أنّ العمّ و الخال یسـتعملان کاسم للجنس فی لغه العرب،و لیس کـذلک العمّات و الخالات،و قد ذکر ابن العربی عرف أهل اللغه هذا(کنز العرفان،المجلّد ۲، ص ۲۴۱). و قد رجّح الآلوسی هذا الاحتمال فی روح المعانی علی کلّ الوجوه الاخری.

النقاط أدناه:

۱-لاـ شكّ أنّ جواز اتّخاذ زوجه من دون مهر كان من مختصّات النّبى صلّى اللّه عليه و آله و الآيه صريحه فى هـذه المسأله،و لذلك فهى من مسلّمات الفقه الإسلامى،و بناء على هذا فلا يحقّ لأىّ امرئ أن يتزوّج امرأه بدون مهر،قلّ أم كثر،و حتّى إذا لم يرد ذكر المهر أثناء إجراء صيغه العقد،و لم تكن هناك قرينه تعيّنه،فيجب أن يدفع مهر المثل،و المراد من مهر المثل:المهر الذى تجعله النساء اللاتى تشابهها فى الأوصاف و الخصوصيات لأنفسهنّ عاده.

۲-هناك بحث بين المفسّرين فى أنّه هل لهـذا الحكم الكلّى مصداق فى مورد زوجات النّبى صلّى اللّه عليه و آله أم لا؟ يعتقد البعض-كابن عبّاس و بعض آخر من المفسّرين-أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله لم يتزوّج بأيّه امرأه على هـذه الحال،و بناء على هذا فإنّ الحكم أعلاه كان إذنا عاما للنّبى صلّى اللّه عليه و آله إلاّ أنّه لم يطبّق عمليا مطلقا.

فى حين أنّ آخرين ذكروا أسماء ثلاث أو أربع نسوه من زوجات النّبى صلّى اللّه عليه و آله اللاّتى تزوجهنّ بدون مهر،و هنّ:«ميمونه»بنت الحارث،و«زينب»بنت خزيمه، و كانتا من الأنصار،و امرأه من بنى أسد،و اسمها«امّ شريك»بنت جابر،و«خوله» بنت حكيم.

و من جمله ما ورد فى الروايات أنّ«خوله»عند ما وهبت نفسها للنبى صلّى اللّه عليه و آله اعترضت عائشه،فقالت:ما بال النساء يبذلن أنفسهنّ بلاـ مهر؟!فنزلت الآيه أعلاه،غير أنّ عائشه التفتت إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و قالت:أرى اللّه يسارع فى هواك- و كان هذا نوع من التعريض بالنّبى صلّى اللّه عليه و آله-

فقال لها النّبى صلّى اللّه عليه و آله: «و إنّك إن أطعت اللّه سارع فى هواك» (۱) .

۱- ۱) مجمع البيان ذيل الآيه مورد البحث،و فى تفسير القرطبى جمله:(و اللّه ما أرى بك إلاّ يسارع فى هواك).و أوردها

لا شكّ أنّ أمثال هؤلاء النسوه كنّ لا يطمعن إلاّ فی الفخر المعنوی عن طريق الاقتران بالنّبی صلّی اللّه عليه و آله،و لـذلک كنّ علی استعداد للزواج منه بدون أیّ مهر،إلاّ أنّ وجود مثل هذا المصداق للحكم أعلاه غير مسلّم من الناحيه التأريخيه كما قلنا، بل المسلّم أنّ اللّه سبحانه كان قد أذن لنبيّه بذلک للغايه التی سنشير إليها فيما بعد.

۳-يستفاد من هذه الآيه جيّدا أنّ إجراء صيغه عقد الزواج بلفظ«الهبه»كان مختّصا بالنّبی صلّی اللّه عليه و آله فقط،و لا يستطيع أیّ فرد آخر أن يجری عقـد الزواج بهـذا اللفـظ،و يجوز إجراء العقـد بلفـظ الزواج أو النكـاح،حتّی و إن لم يجر للمهر ذكر فيه، حيث يجب دفع مهر المثل عند عدم ذكر المهر كما قلنا آنفا،فكأنّه فی الحقيقه قد صرّح بمهر المثل.

بحث

اشاره

جانب من حكمه تعدّد زوجات النّبی:

إنّ الجمله الأخيره فی الآيه أعلاه إشاره فی الواقع إلی فلسفه هـذه الأحكام الخاصّه بنبيّنا الأكرم،حيث تقول:إنّ للنبی صلّی اللّه عليه و آله ظروفا لا يعيشها الآخرون،و هذا التفاوت فی الظروف أصبح سببا للتفاوت فی الأحكام.

و بتعبير أوضـح،إنّ الهـدف من هذه الأحكام رفع بعض المشاكل و الصـعوبات من كاهل النّبی صلّی اللّه عليه و آله.و هذا تعبير لطيف يبيّن أنّ زواج النّبی صلّی اللّه عليه و آله من عدّه نساء كان لحلّ سلسله من المشاكل الاجتماعيه و السياسيه فی حياته،لأنّا نعلم أنّ النّبی صلّی اللّه عليه و آله كان وحيـدا حينما صـدع بنداء الإسلام و رفع شعاره،و لم يؤمن به بعد مدّه طويله سوی عدّه معدوده،فإنّه ثار ضدّ كلّ معتقدات عصره و بيئته الخرافيه،و أعلن الحرب ضدّ

(۱)

الآلوسی فی روح المعانی أيضا فی ذيل الآيه مورد البحث.إنّ قبح هذا التعبير،و المعنی الذی اخفی فيه لا يخفی علی أحد،إلاّ أنّ النّبی صلّی اللّه عليه و آله يمرّ عليه و يتجاوزه بشكل رائع.

الجميع،فمن البديهى أن تتّحد كلّ الأقوام و القبائل ضدّه.

فى هذا الوضع كان لا بدّ من أن يستعين بكلّ الوسائل و يستغلّها لكسر اتّحاد الأعداء اللامشروع،و كانت إحدى هذه الوسائل هو الزواج من القبائل المختلفه لإيجاده علاقه قرابه و نسب،لأنّ رابطه القرابه كانت تعدّ أقوى الروابط بين عرب الجاهليه،و كانوا يعتبرون الصهر من نفس القبيله،و الدفاع عنه واجبا،و تركه وحيدا جريمه و ذنبا.

إنّ لدينا قرائن كثيره تبيّن أنّ زواج النّبى صلّى اللّه عليه و آله المتعدّد كان له صبغه سياسيّه فى كثير من الموارد على أقلّ تقدير.و أحدها-كزواجه بزينب-كان لكسر سنّه جاهليه،و قد بيّنا تفصيله فى ذيل الآيه(٣٧)من هذه السوره. و بعضه لتقليل العداوه،أو لجلب محبّه أشخاص أو أقوام متعصّبين عنودين.

من الواضح أنّ شخصا يتزوّج و هو فى سنّ الخامسه و العشرين،حيث كان فى عنفوان شبابه،بامرأه أيم لها أربعون سنه،و يكتفى بها حتّى الثالثه و الخمسين من عمره،و بهذا يكون قد قضى مرحله الشباب و بلغ سنّ الكهوله،ثمّ يقدم على الزواج المتعدّد،لا بدّ أن يكون له سبب و فلسفه،و لا يمكن أن يفسّر بأىّ وجه من الوجوه بأسباب العلاقه و الرغبه الجنسيه،لأنّه لم يكن هناك مانع اجتماعى،أو ظروف ماليه صعبه،أو أدنى نقص يمنع النّبى صلّى اللّه عليه و آله من الزواج المتعدّد فى سنّى شبابه،خاصّه و أنّ تعدّد الزوجات كان أمرا طبيعيا بين العرب آنذاك،بل ربّما كانت الزوجه الاولى تذهب لخطبه الزوجه الثّانيه،و لم يكونوا يعترفون بأىّ حدّ فى اتّخاذ الزوجات.

و الطريف أنّه قد ورد فى التواريخ أنّ النّبى لم يتزوّج إلّا بكرا واحده،و هى عائشه،و باقى نسائه كنّ أيامى جميعا و من الطبيعى أن لا يتمتعنّ بإثاره جنسيه

ملحوظه (۱) .

بل نقرأ فی بعض التواریخ أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله تزوّج بعدّه زوجات،و لم یجر إلاّ مراسم العقد،و لم یباشرهنّ أبدا،و لم یباشرهنّ أبدا،بل إنّه اکتفی فی بعض الموارد بخطبه بعض نساء القبائل فقط (۲) .

و قد کان هؤلاء یفرحون و یسرّون و یفتخرون بأنّ امرأه من قبیلتهم قد سمّیت بزوجه النّبی صلّی اللّه علیه و آله فحصل لهم هذا الفخر،و بذلک فإنّ علاقتهم الاجتماعیه بالنّبی کانت تشتدّ و تقوی،و یصبحون أکثر تصمیما علی الدفاع عنه.

و من جانب آخر،فمع أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله لم یکن رجلا عقیما،إلاّ أنّه لم یکن له من الأولاد إلاّ القلیل،فی حین أنّ هذا الزواج المتعدّد لو کان بسبب جاذبیه هذه النسوه،و إثارتهنّ الجنسیه،فینبغی أن یکون له من الأولاد الکثیر.

و کذلک ینبغی الالتفات إلی أنّ بعض هذه النساء-کعائشه-کانت صغیره جدّا عند ما أصبحت زوجه للنبی صلّی اللّه علیه و آله،و قد مرّت سنین حتّی استطاعت أن تکون زوجه حقیقیه له،و هذا یوحی بأنّ الاقتران بمثل هذه البنت الصغیره کانت له أهداف اخری،و کان الهدف الأصلی هو ما أشرنا إلیه قبل قلیل.

و بالرغم من أنّ أعداء الإسلام أرادوا أن یتّخذوا من تعدّد زواج النّبی صلّی اللّه علیه و آله حربه لأشدّ هجماتهم المغرضه،و یحوکون منها أساطیر أو هی من خیط العنکبوت للطعن فی نبی الإسلام صلّی اللّه علیه و آله إلاّ أنّ سنّ النّبی المتقدّمه عند إقدامه علی تکرار الزواج من جهه،و الظروف الخاصّه المتعلّقه بالنساء من ناحیه العمر و القبیله من جانب آخر،و القرائن المختلفه التی أشرنا إلی قسم منها آنفا من جهه ثالثه تجعل الحقیقه واضحه کالشمس،و تحبط مؤامرات المغرضین و تفضحها.

۱- ۱) بحار الأنوار،المجلّد ۲۲،صفحه ۱۹۱-۱۹۲.

۲- ۲) المصدر السابق.

الآیه [سوره الأحزاب (۳۳): آیه ۵۱]

اشاره

تُرْجِی مَنْ تَشٰاءُ مِنْهُنَّ وَ تُؤْوِی إِلَیْکَ مَنْ تَشٰاءُ وَ مَنِ اِبْتَغَیْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلاٰ جُنٰاحَ عَلَیْکَ ذٰلِکَ أَدْنیٰ أَنْ تَقَرَّ أَعْیُنُهُنَّ وَ لاٰ یَحْزَنَّ وَ یَرْضَیْنَ بِمٰا آتَیْتَهُنَّ کُلُّهُنَّ وَ اَللّٰهُ یَعْلَمُ مٰا فِی قُلُوبِکُمْ وَ کٰانَ اَللّٰهُ عَلِیماً حَلِیماً (۵۱)

سبب النّزول

قلنا فی تفسیر الآیتین ۲۸ و ۲۹ من هذه السوره و بیان سبب النّزول:إنّ جمعا من نساء النّبی-بناء علی ما نقله المفسّرون-قلن للنبیّ صلّی اللّه علیه و آله:زد فی نفقتنا و امور معاشنا-طمعا فی الغنائم الحربیه،فکنّ یحسبن أنّ قسما کبیرا منها من نصیبهنّ فنزلت الآیات المذکوره و خاطبتهنّ بصراحه بأنهنّ إن أردن الحیاه الدنیا و زینتها فلیفارقن النّبی إلی الأبد،و إن أردن اللّه و رسوله و الیوم الآخر فلیعشن معه حیاه بسیطه.

إضافه إلی أنّه کانت بینهنّ منافسه فی کیفیه تقسیم أوقات حیاه النّبی صلّی اللّه علیه و آله بینهنّ، و کنّ یحرجن النّبی و یضایقنه مع کلّ المشاکل و المشاغل التی کانت لدیه، و مع أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله کان یراعی العداله بینهنّ و یبذل الجهد اللازم لتحقیقها تماما،فقد

کان لغطهنّ وجد الهنّ مستمرّا،فنزلت هذه الآیه و جعلت النّبی صلّی اللّه علیه و آله حرّا فی تقسیم أوقاته،ثمّ أعلنت الآیه لهنّ أنّ هذا حکم إلهی لئلّا یتولّد فی أنفسهن أی قلق و سوء ظنّ (۱) .

التّفسیر

اشاره

حلّ مشکله اخری فی حیاه النّبی:

إنّ قائدا ربّانیا عظیما کالنّبی صلّی اللّه علیه و آله خاصّه و أنّه ابتلی بسیل من الحوادث الصعبه المرّه،و کانوا یحوکون له الدسائس و المؤامرات داخلیا و خارجیا،لا یقدر أن یشغل فکره بحیاته الخاصّه کثیرا،بل یجب أن یکون له هدوء نسبی فی حیاته الداخلیه لیقوی علی التفرّغ لحلّ سیل المشاکل التی أحاطت به من کلّ جانب.

إنّ اضطراب الحیاه الشخصیه،و کون قلبه و فکره مشغولین بوضعه العائلی فی هذه اللحظات المضطربه الحسّاسه کان أمرا خطیرا للغایه.

و مع أنّ زواج النّبی صلّی اللّه علیه و آله المتعدّد-و طبقا للبحوث السابقه،و الوثائق و المستندات التی أوردناها فی تفسیر الآیه السابقه-کانت له أبعاد سیاسیه و اجتماعیه و عاطفیه غالبا،و کان فی الحقیقه جزءا من تنفیذ و تطبیق رساله اللّه سبحانه،إلّا أنّ الاختلاف بین زوجات النّبی،و المنافسه النسویه المعروفه بینهنّ، قد أثار فی الوقت نفسه عاصفه من الاضطراب داخل بیت النّبی ممّا شغل فکره و زاد فی همّه.

هنا منح اللّه سبحانه نبیّه إحدی الخصائص الاخری،و أنهی هذه الحوادث و الأخذ و العطاء فی الجدل إلی الأبد،و أراح فکر النّبی صلّی اللّه علیه و آله من هذه الجهه،و هدأ خاطره و روعه،فقال سبحانه فی هذه الآیه تُرْجِی مَنْ تَشاءُ مِنْهُنَّ وَ تُؤْوِی إِلَیْکَ مَنْ تَشاءُ .

ص: ۳۱۶

۱- ۱) اقتباس من مجمع البیان و تفاسیر اخری.

«ترجى»من(الإرجاء)،أى:التأخير،و«تؤوى»،من(الإيواء)و يعنى استضافه شخص فى بيتك.

و نعلم أنّ أحكام الإسلام فى شأن الزوجات المتعدّده تقضى بأن يقسم الزوج أوقاته بينهنّ بصوره عادله،فإن بات ليله عند واحده،فيجب أن يبيت الليله الاخرى عند غيرها،إذ لا فرق و لا اختلاف بين النساء من هذه الجهه،و يعبّرون عن هذا الموضوع فى الكتب الفقهيّه الإسلاميه ب«حقّ القسم».

فكانت إحدى مختصّات النّبى صلّى اللّه عليه و آله هى سقوط رعايه حقّ القسم منه بحكم الآيه أعلاه،و ذلك نتيجه للظروف الخاصّه التى كان يعيشها،و الأوضاع المضطربه التى كانت تحيط به من كلّ جانب،و خاصّه أنّ الحرب كانت تفرض عليه كلّ شهر تقريبا،و كان له فى نفس الوقت زوجات متعدّده،و بسقوط هذا الواجب عنه فقد كان قادرا على أن يقسم أوقاته كيف يشاء،غير أنّه صلّى اللّه عليه و آله كان يراعى تحقيق العداله ما أمكن رغم هذه الظروف،كما جاء ذلك فى التواريخ الإسلاميه صريحا.

إلّا أنّ وجود هذا الحكم الإلهى قد منح نساء النّبى الراحه و الاطمئنان،و أضفى على حياته الداخليه الهدوء و السكينه.

ثمّ تضيف الآيه:و عند ما ترغب عن إحداهن و تعتزلها،ثمّ ترغب فيها فلا تثريب عليك: وَ مَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلاٰ جُنٰاحَ عَلَيْكَ .

و بهذا فليس الخيار بيدك فى البدايه و حسب،بل إنّه بيدك حتّى فى الأثناء أيضا، و هو فى الاصطلاح«تخيير استمرارى»لا ابتدائى،و بهذا الحكم الواسع ستقطع كلّ الحجج من برنامج حياتك فيما يتعلّق بأزواجك،و تستطيع أن تسخّر فكرك لمسؤوليات الرساله العظيمه الثقيله.

و من أجل أن تعلم نساء النّبى بأنهنّ إن أذعنّ لأمر اللّه تعالى فى مسأله تقسيم أوقات النّبى صلّى اللّه عليه و آله فإنّه يعتبر و سام فخر لهنّ يضاف إلى الفخر بكونهنّ أزواج النّبى

ص :٣١٧

صلّى اللّه عليه و آله،إذ أنّ هذا التسليم نوع من التضحيه و الإيثار،و ليس فيه أىّ عيب و انتقاص، و لذلك يضيف سبحانه: ذٰلِكَ أَدْنىٰ أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَ لاٰ يَحْزَنَّ وَ يَرْضَيْنَ بِمٰا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ .

و ذلك أوّلا:لأنّ هذا الحكم عامّ يشملهنّ جميعا و لا يتفاوتن فيه،و ثانيا:إنّ الحكم الذى يشرع من جانب اللّه سبحانه إنّما يشرع لمصلحه مهمّه،و بناء على هذا فيجب الإذعان له برغبه و رضا،فينبغى مضافا إلى عدم القلق و التأثّر أن يفرحن لذلك.

لكن النّبى صلّى اللّه عليه و آله-و كما أشرنا إلى ذلك-كان يراعى تقسيم أوقاته بينهنّ بعداله قدر المستطاع،إلاّ فى الظروف الخاصّه التى كانت توجب عدم التسويه و تحتّمه، و كان هذا بحدّ ذاته مطلبا آخر يبعث على ارتياحهنّ،لأنّهنّ كنّ يرين أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله يسعى للتسويه بينهنّ مع كونه مخيّرا.

و أخيرا ينهى المطلب بهذه الجمله: وَ اللّٰهُ يَعْلَمُ مٰا فِى قُلُوبِكُمْ وَ كٰانَ اللّٰهُ عَلِيماً حَلِيماً لا يستعجل فى إنزال العقاب بالمذنبين.

أجل..إنّ اللّه يعلم بأىّ حكم قد رضيتم،و له أذعنتم بقلوبكم،و عن أى حكم لم ترضوا.

و هو سبحانه يعلم إلى من أكثر من أزواجكم،و من منهنّ تحظى باهتمام أقل، و يعلم كيف تراعون حكمه و تنفّذوه مع هذا الاختلاف فى الميول و الرغبات.

و كذلك يعلم سبحانه من هم الذين يجلسون جانبا،و يعترضون على أحكام اللّه فى شأن النّبى صلّى اللّه عليه و آله،و يعارضونها بقلوبهم،و يعلم من هو الذى يرضى عن هذه الأحكام و يتقبّلها بدون اعتراض.

بناء على هذا فإنّ تعبير(قلوبكم)واسع يشمل النّبى صلّى اللّه عليه و آله و أزواجه،و يشمل كلّ المؤمنين الذين يقبلون بهذه الأحكام،أو الذين يعترضون عليها و ينكرونها و إن لم يبدوا هذا الاعتراض و الإنكار.

ملاحظه

اشاره

هل كان هذا الحكم فی حقّ كلّ نساء النّبی:

لقـد كـانت هـذه المسـأله موضع بحث فی الفقه الإسـلامی فی باب خصائص النّبی صـلّی اللّه علیه و آله بأنّ تقسـیم الأوقات بین الزوجات المتعـدّده بالتساوی هل یجب علی النّبی صـلّی اللّه علیه و آله كما یجب علی عامّه المسـلمین،أم أنّ النّبی كان له حكم التخییر الاسـتثنائی؟ المعروف و المشـهور بین فقهائنا و عنـد جمع من فقهاء العامّه أنّه صـلّی اللّه علیه و آله كان مسـتثنی من هـذا الحكم،و یعدّون الآیه المذكوره أعلاه دلیلا علی ذلك،فهی تقول:

تُرْجِی مَنْ تَشاءُ مِنْهُنَّ وَ تُؤْوِی إِلَیْكَ مَنْ تَشاءُ

لأنّ جعل هـذه الجمله بعـد البحث حول كلّ نساء النّبی یوجب أن یعود ضـمیر(هنّ)علیهنّ جمیعا،و هـذا مطلب مقبول من جانب الفقهاء و كثیر من المفسّرین.

إلاّـ أنّ البعض یری أنّ الضـمیر أعلاـه یتعلّق بالنساء اللاتی وهبن أنفسـهنّ للنبی بـدون مهر.فی حین أنّه لم یثبت تاریخیا أنّ هـذا الحكم قـد تحقّق فی الخـارج،و أنّ له موضوعـا و مصـداقا أم لاـو البعض یری أنّ النّبی لم یـتزوّج علی هـذه الشـاكله إلاّـ امرأه واحده.و علی كلّ حال،فإنّ أصل المسأله لم یثبت من الناحیه التاریخیه هذا أوّلا.

ثانیـا:إنّ هـذا التّفسیر خلاـف الظـاهر،و لا یتناسب مع سـبب النّزول الـذی ذكروه لهـذه الآیه،و بناء علی هـذا فیجب قبول الحكم المذكور عاما.

ص :۳۱۹

الآيه [سوره الأحزاب (٣٣): آيه ٥٢]

اشاره

لا يَحِلُّ لَكَ اَلنِّساءُ مِنْ بَعْدُ وَ لا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْواجٍ وَ لَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلاّ ما مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَ كانَ اَللّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً (٥٢)

التّفسير

اشاره

حكم مهمّ آخر فيما يتعلّق بأزواج النّبى:

لقد بيّن اللّه سبحانه فى هذه الآيه حكما آخر من الأحكام المتعلّقه بزوجات النّبى،فقال عزّ و جلّ: لا يَحِلُّ لَكَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ وَ لا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْواجٍ وَ لَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلاّ ما مَلَكَتْ يَمِينُكَ فالآيه منعت الرّسول من الزواج الجديد إلاّ الماء و الجوارى وَ كانَ اللّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً .

للمفسّرين و فقهاء الإسلام بحوث كثيره فى هذه الآيه،و وردت فى المصادر الإسلاميه روايات مختلفه فى هذا الباب،و نحن نذكر أوّلا ما يبدو من ظاهر الآيه أنّه مرتبط بالآيات السابقه و اللاحقه-بغضّ النظر عن أقوال المفسّرين- ثمّ نتناول المطالب الأخرى.

الظاهر من تعبير مِنْ بَعْدُ أنّ الزواج محرّم عليك بعد هذا،و بناء على هذا فإنّ

(بعـد)إمّا أن تعنى(بعـد)الزمانيه،أى لا تتّخـذ زوجه بعد هذا الزمان،أو أنّ المراد أنّک بعد أن خيّرت أزواجک بين البقاء معک و الحياه حياه بسيطه فى بيتک،و بين فراقهنّ،و قد رجّحن البقاء معک عن رغبه منهنّ،فلا ينبغى أن تتزوّج بعدهنّ بامرأه اخرى.

و كذلك لا يمكنك أن تطلّق بعضهنّ و تختار مكانهنّ زوجات أخر.و بتعبير آخر:

لا تزد فى عددهنّ،و لا تبدّل الموجود منهنّ.

مسائل مهمّه:

اشاره

۱-فلسفه هذا الحكم:

إنّ هـذا التحديـد للنبى صـلّى اللّه عليه و آله لاـ يعتبر نقصـا،بـل هو حكم له فلسـفه دقيقه جـدّا، فطبقـا للشواهـد التى تسـتفاد من التأريخ،أنّ النّبى صـلّى اللّه عليه و آله كان تحت ضـغط شديد من قبل مختلف الأفراد و القبائل بأن يتزوّج بنساء أخر منهم،و كلّ واحـده من القبائـل المسـلمه كـانت تفتخر على قبائل العرب بأنّ النّبى قـد صاهرهم و حتّى أنّ بعض النساء كنّ على اسـتعداد أن يهبن أنفسهنّ للنبى بدون مهر-كما مرّ ذلک-و يتزوّجنه بدون أىّ قيد أو شرط.

كـانت هـذه العلاـقه الزوجيه مع تلـک القبائـل و الأـقوام حلاّ لمشاكل النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و محقّقه لأهـدافه الاجتماعيه و السياسـيه،غير أنّهـا إذا تجـاوزت الحـدّ،فمن الطبيعى أن تخلق له المشاكـل بنفسـها،و بما أنّ كلّ قبيله كانت تأمل أن يتزوّج النّبى منهـا،فلو أراد النّبى صـلّى اللّه عليه و آله أن يحقّق آمال الجميع،و يختار منهم أزواجا،حتّى و إن كانت بمجرّد العقـد و لا يـدخل بها،فإنّ ذلک سـيوجد له مصاعب جمّه.و لـذلک فإنّ اللّه الحكيم قـد منع هذا الأمر و وقف دونه بإصدار قانون محكم،فنهاه عن الزواج الجديد،و عن تبديل أزواجه.

لقـد کان هناک أفراد فی هـذا الوسط یتوسّـلون للوصول إلی هـدفهم بحجّه أنّ أغلب أزواجک أیامی،و من بینهنّ من لاحظ لها من الجمـال،فاللائق بـک أن تتزوّج بـامرأه ذات جمال،و لـذلک فإنّ القرآن أکّـد علی هـذه المسأله بأنّه لا یحقّ لک أن تتزوّج النساء فیما بعد و إن أعجبک حسنهنّ و کنّ ذوات جمال.

إضـافه إلی أنّ أداء الجمیـل و رعـایته کان یوجب أن یسنّ اللّه تعالی مثل هـذا القانون،و یأمر به نبیّه لحفظ مقام أزواجه بعـد أن أبدین وفاءهن،و رجّحن الحیاه البسیطه المعنویه مع النّبی صلّی اللّه علیه و آله علی أی شیء آخر.

و أمّـا فیمـا یتعلّق بـالجواری و المملوکـات بـالیمین حیث أبیـح الزواج منهنّ،فإنّمـا هو من أجل أنّ مشـکله النّبی کانت من ناحیه الحرائر،و لـذلک لم تکن هناک ضـروره تـدعو إلی تحدید هذا الحکم فی طرف الجواری،مع أنّ النّبی صـلّی اللّه علیه و آله لم یستفد من هذا الاستثناء طبق الشواهد التأریخیه.

هذا هو الشیء الذی یبدو من ظاهر الآیه.

۲-الروایات المخالفه:

اعتبرت جمله: لاٰ یَحِلُّ لَکَ النِّسٰاءُ مِنْ بَعْدُ فی روایات عدیده-بعضـها ضـعیفه من ناحیه السـند،و بعضها یستحقّ الملاحظه-إشاره إلی النساء اللواتی بیّن تحریمهم فی الآیتین(۲۳ و ۲۴)من سوره النساء-و هنّ الامّ و البنت و الاخت و العمّه و الخاله و..،و صـرّح فی ذیـل بعض هـذه الأخبـار بـأنّه:کیف یمکن أن تکون النساء حلال علی الآخرین و حرام علی النّبی؟فلم تکن أیّه امرأه محرّمه علیه سوی ما حرّم علی الجمیع (۱) .

طبعا،یبدو بعیدا جدّا أن تکون الآیه تشیر إلی الآیات الوارده فی سوره

۱- ۱) تفسیر نور الثقلین،المجلّد ۴،صفحه ۲۹۴-۲۹۵.

النساء،إلّا أنّ المشكله هنا أنّ بعض الروايات قد صرّحت بأنّ المراد من مِنْ بَعْدُ :بعد المحرّمات فی آیه سوره النساء.

بناء علی هذا،فإنّ الأفضل هو أن نغضّ النظر عن تفسیر روایات الآحاد هذه، أو کما یقال:ندع علم ذلک إلی أهله،أی المعصومون علیهم السّلام،لأنّها لا تنسجم مع ظاهر الآیه،و نحن مکلّفون بظاهر الآیه،و الأخبار المذکوره أخبار ظنّیه.

و المطلب الآخر هو أنّ جماعه کثیره تعتقد بأنّ الآیه مورد البحث قد حرّمت کلّ زواج جدید علی النّبی صلّی اللّه علیه و آله إلاّ أنّ هذا الحکم قد نسخ فیما بعد،و اذن له بالزواج،و إن کان النّبی صلّی اللّه علیه و آله لم یتزوّج بعد ذلک.حتّی الآیه إِنّا أَحْلَلْنا لَکَ أَزْواجَکَ اللاّتِی آتَیْتَ أُجُورَهُنَّ.. و التی نزلت قبل الآیه مورد البحث،فإنّهم یعتبرونها ناسخه لهذه الآیه.و یعتقدون بأنّ هذه الآیه و إن کانت قد کتبت فی القرآن بعد آیه إِنّا أَحْلَلْنا.. إلاّ أنّ الأخیره قد نزلت قبلها!بل و ینقل«الفاضل المقداد»فی کنز العرفان بأنّ هذه هی الفتوی المشهوره بین الأصحاب (1) .

و هذا الرأی یتعارض مع الروایات أعلاه بوضوح،و کذلک لا ینسجم مع ظاهر الآیات أیضا،لأنّ ظاهر الآیات یوحی بأنّ آیه إِنّا أَحْلَلْنا لَکَ أَزْواجَکَ قد نزلت قبل الآیه مورد البحث،و مسأله النسخ تحتاج إلی دلیل قطعی.

و علی کلّ حال،فلیس لدینا شیء أکثر اطمئنانا و وضوحا من ظاهر الآیه نفسها، و طبقا لذلک فإنّ کلّ زواج جدید،أو تبدیل زوجات قد حرّم علی النّبی صلّی اللّه علیه و آله بعد نزول هذه الآیه،و کان لهذا الحکم مصالح و منافع هامّه أشرنا إلیها فیما سبق.

۳-هل یمکن النظر إلی زوجه المستقبل قبل الزواج؟

اعتبر جمع من المفسّرین جمله وَ لَوْ أَعْجَبَکَ حُسْنُهُنَّ دلیلا علی حکم معروف أشیر إلیه فی الروایات الإسلامیه أیضا،و هو:أنّ من أراد من أن یتزوّج

۱- ۱) کنز العرفان،المجلّد ۲،صفحه ۲۴۴.

بامرأه يستطيع النظر إليها من قبل نظره تبيّن له هيكلها و أوصافها.

و حكمه هـذا الحكم أن يختار الإنسان زوجته عن بصيره تامّه و لا ينـدم و يأسف فى المسـتقبل و هو ما يهـدّد العلاقه الزوجيه و الكيـان العـائلى بـالخطر،كمـا ورد ذلك فى حـديث عن النّبى الأكرم صـلّى اللّه عليه و آله أنّه قال لأحـد أصـحابه حينما أراد أن يتزوّج:

«انظر إليها،فإنّه أجدر أن يدوم بينكما» (۱) .

و نقرأ

فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال فى جواب هذا السؤال:

هـل يسـتطيع الرجـل أن يـدقّق النظر إلى المرأه إذا أراد الزواج منهـا و ينظر إلى وجهها و خلفها:«نعم،لا بأس أن ينظر الرجل إلى المرأه إذا أراد أن يتزوّجها،ينظر إلى وجهها و خلفها» (۲) .

و الأحاديث الوارده فى هذا الباب كثيره،و قد صرّح بعضها بأنّ هذه النظره يجب أن لا تكون بدافع الشهوه و طلب اللذّه.

و واضـح أيضـا أنّ هـذا الحكم خاصّ بالموارد التى يريـد فيها الإنسان أن يتحقّق فعلا من المرأه التى يريـد الزواج منها،بحيث لو كانت الشـروط مجتمعه فيها لتزوّجها،أمّا الـذى لم يصـمّم على الزواج بعد،بل يحتمله،أو أنّه يريد مجرّد البحث،فلا يجوز له النظر إلى النساء.

و احتمـل البعض فى هـذه الآيه أنّها إشاره إلى النظر للنساء صـدفه و لا إراديا، و على هـذا فإنّ الآيه لا تـدلّ فى هـذه الحاله على الحكم المذكور آنفا،و سـتكون الروايات هى الدليل الوحيد عليه.إلاّ أنّ جمله: وَ لَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ لا تنسجم مع نظره الصدفه السريعه،و بناء على هذا فإنّ دلالتها على الحكم المذكور تبدو بعيده.

۱- ۱) تفسير القرطبى،المجلّد ۸،صفحه ۵۳۰۳.

۲- ۲) وسائل الشيعه،المجلّد ۱۴،الباب ۳۶ من أبواب مقدّمات النكاح الحديث ۳.

الآیتان [سوره الأحزاب (۳۳): الآیات ۵۳ الی ۵۴]

اشاره

یا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا لاٰ تَدْخُلُوا بُیُوتَ اَلنَّبِیِّ إِلاّٰ أَنْ یُؤْذَنَ لَکُمْ إِلیٰ طَعٰامٍ غَیْرَ نٰاظِرِینَ إِنٰاهُ وَ لٰکِنْ إِذٰا دُعِیتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذٰا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَ لاٰ مُسْتَأْنِسِینَ لِحَدِیثٍ إِنَّ ذٰلِکُمْ کٰانَ یُؤْذِی اَلنَّبِیَّ فَیَسْتَحْیِی مِنْکُمْ وَ اَللّٰهُ لاٰ یَسْتَحْیِی مِنَ اَلْحَقِّ وَ إِذٰا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتٰاعاً فَسْئَلُوهُنَّ مِنْ وَرٰاءِ حِجٰابٍ ذٰلِکُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِکُمْ وَ قُلُوبِهِنَّ وَ مٰا کٰانَ لَکُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اَللّٰهِ وَ لاٰ أَنْ تَنْکِحُوا أَزْوٰاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذٰلِکُمْ کٰانَ عِنْدَ اَللّٰهِ عَظِیماً (۵۳) إِنْ تُبْدُوا شَیْئاً أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اَللّٰهَ کٰانَ بِکُلِّ شَیْءٍ عَلِیماً (۵۴)

سبب النّزول

ذکر المفسّرون فی سبب نزول هذه الآیه:أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله لمّا تزوّج«زینب بنت جحش»أولم للناس ولیمه فخمه تقریبا.و قلنا سابقا:إنّ هذه الأحکام ربّما کانت من أجل تحطیم سنّه جاهلیه فی مجال تحریم مطلّقات الأدعیاء بحزم تامّ، و لیکون لهذا التحطیم شعاع أوسع،و لتمحی هذه السنّه الجاهلیه التی کانت تعتبر

الزواج بأيامى العبيد المحرّرين عيبا و عارا.

يقول«أنس»،و كان خادما خاصّا للنبى:أمرنى النّبى أن أدعو أصحابه للغداء فدعوتهم،فكانوا يأتون جماعه يأكلون و يخرجون،حتّى قلت:يا رسول اللّه،لم يبق أحد لم أدعه،فأمر برفع السماط،فرفعوا السماط و تفرّق القوم،إلاّ ثلاثه نفر بقوا فى بيت النّبى و كانوا مشغولين بالحديث.

فلمّا رأى النّبى صلّى اللّه عليه و آله حديثهم قد طال،نهض و نهضت معه لعلّ القوم يلتفتون و يذهبون إلى أعمالهم،فخرج النّبى حتّى أتى حجره عائشه،ثمّ رجع مرّه اخرى و كنت معه،فرأيت القوم على جلستهم و حالهم،فنزلت الآيه أعلاه و أفهمتهم كيفيه التعامل مع هذه المسائل (۱) .

و يستفاد من بعض الرّوايات أيضا أنّ الجيران و سائر الناس كانوا يأتون إلى بعض نساء النّبى و يستعيرون أشياء حسب المتعارف و المعتاد،و بالرغم من أنّهم لم يكونوا يرتكبون معصيه و ذنبا طبقا لبساطه الحياه آنذاك،إلاّ أنّ الآيه أعلاه نزلت لحفظ حيثيّه زوجات النّبى و أمرت المؤمنين أنّهم إن أرادوا أن يأخذوا من نساء النّبى شيئا فليأخذوه من وراء حجاب.

و جاء فى روايه اخرى أنّ بعض مخالفى النّبى قالوا:كيف تزوّج النّبى بعض نسائنا،أما و اللّه لئن مات لنتزوجنّ نساءه،فنزلت الآيه أعلاه و حرّمت الزواج بنساء النّبى من بعده مطلقا،و أنهت هذه المؤامره (۲) .

التّفسير

مرّه اخرى يوجّه الخطاب إلى المؤمنين،لتبيّن الآيه جانبا آخر من أحكام

۱- ۱) مجمع البيان،المجلّد ۸،صفحه ۳۶۶ ذيل الآيه مورد البحث.

۲- ۲) المصدر السابق،ص ۳۶۶ و ۳۶۸.

الإسلام ضمن جمل قصيره بليغه و صريحه،و خاصّه ما كان مرتبطا بآداب معاشره النّبى صلّى اللّه عليه و آله و بيت النبوّه،فتقول أوّلا:لا ينبغى لكم دخول بيوت النّبى إلاّ إذا دعيتم إلى طعام و اذن لكم بالدخول بشرط أن تدخلوا فى الوقت المقرّر،لا أن تأتوا قبل ذلك بفتره و تجلسون فى انتظار وقت الغذاء يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاّٰ أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلىٰ طَعٰامٍ غَيْرَ نٰاظِرِينَ إِنٰاهُ (١) .

بهذا تبيّن الآيه أحد آداب المعاشره المهمّه،و التى كانت قلّما تراعى فى تلك البيئه،و مع أنّ الكلام يدور حول بيت النّبى إلاّ أنّ من المسلّم أنّ هذا الحكم لا يختصّ به،إذ ينبغى أن لا تدخل دار أى إنسان بدون إذنه(كما جاء ذلك فى الآيه ٢٧ من سوره النور)بل نقرأ فى أحوال النّبى صلّى اللّه عليه و آله أنّه عند ما كان يريد دخول بيت ابنته فاطمه(سلام اللّه عليها)،كان يقف خارجا و يستأذن.و كان معه«جابر بن عبد اللّه»يوما،فاستأذن له بعد أن استأذن لنفسه (٢) .

إضافه إلى أنّهم إذا دعوا إلى طعام فينبغى أن يكونوا عارفين بالوقت،لئلّا يوقعوا صاحب البيت فى جهد و إحراج فى غير مكانه.

ثمّ تناولت الحكم الثّانى فقالت: وَ لٰكِنْ إِذٰا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذٰا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا .

و هذا الحكم مكمّل و مؤكّد للحكم السابق فى الواقع،فلا تدخلوا البيت الذى دعيتم إليه فى غير زمان الدعوه،و فى وقت غير مناسب،و لا تهملوا إجابه الدعوه أو أن لا تعبؤوا بها،و لا تتأخّروا بعد تناول الطعام مدّه طويله.

من البديهى أنّ مخالفه هذه الأمور و عدم اتّباعها سيؤدّى إلى أذى و اشمئزاز المضيف،و هى لا تلائم الأصول الأخلاقيه.

و تقول فى الحكم الثالث: وَ لاٰ مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ فلا تجلسوا حلقا تتحدّثون

١- ١) «إناه»من مادّه«أنّى يأنى»أى حلول وقت الشىء،و تعنى هنا تهيئه الطعام للتناول.

٢- ٢) الكافى،المجلّد ٥،ص ٥٢٨.

بعد تناول الطعام،سواء كان ذلک فی بیت النّبی،أم فی بیت أی صاحب دعوه.

طبعا،قد یرغب المضیفون فی مثل هذه الحلقات و المجالس،فهذه الحاله مستثناه،إنّما الکلام فی ما لو کانت الدعوه لتناول الطعام فقط،لا لتشکیل مجالس الانس،حیث تجب مغادرته بعد تناول الطعام،خاصّه إذا کان البیت کبیت رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله،مقرّ أداء أکبر رسالات اللّه و أعظمها،فیجب أن لا یهدر وقته بأمور جانبیه تعوقه مدّه عن تأدیه رسالته.

ثمّ تبیّن الآیه علّه هذا الحکم فتقول: إِنَّ ذٰلِکُمْ کٰانَ یُؤْذِی النَّبِیَّ فَیَسْتَحْیِی مِنْکُمْ وَ اللّٰهُ لاٰ یَسْتَحْیِی مِنَ الْحَقِّ .

من المسلّم أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله لم یکن یتردّد لحظه،و لا یخشی شیئا،أو یستحیی من شیء فی بیان الحقّ فی الموارد التی لم یکن لها بعد شخصی و خاصّ،إلاّ أنّ بیان الحقّ إذا کان یعود علی القائل نفسه لیس بالأمر الجمیل الحسن،أمّا تبیانه من قبل الآخرین فانّه رائع و مستحسن،و مورد الآیه من هذا القبیل أیضا،فإنّ اصول الأخلاق و الأدب کانت توجب علی النّبی صلّی اللّه علیه و آله أن لا یدافع عن نفسه،بل یدافع اللّه سبحانه عنه.

ثمّ تبیّن الآیه الحکم الرابع فی باب الحجاب،فتقول: وَ إِذٰا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتٰاعاً فَسْئَلُوهُنَّ مِنْ وَرٰاءِ حِجٰابٍ .

قلنا:إنّ هذا الأمر کان و لا یزال متعارفا بین العرب و کثیر من الناس أنّهم إذا احتاجوا شیئا من لوازم الحیاه و وسائلها فإنّهم یستعیرونها من جیرانهم مؤقتا،و لم یکن بیت النّبی مستثنی من هذا القانون،بل کانوا یأتون إلیه سواء کان الوقت مناسبا أم غیر مناسب،و یستعیرون من نساء النّبی شیئا،و من الواضح أن جعل نساء النّبی عرضه لأنظار الناس-و إن کن یرتدین الحجاب الإسلامی-لم یکن بالأمر الحسن،و لذلک صدر الأمر إلی الناس أن یأخذوا الأشیاء من خلف حجاب أو من خلف الباب.

و المسأله التی ینبغی الانتباه إلیها هنا هی أنّه لیس المراد من الحجاب فی هـذه الآیه لباس النساء،بل هو حکم یضاف إلی ما کان خاصّا بنساء النّبی،و هو:أنّ الناس مکلّفون إذا أرادوا شیئا من نساء النّبی أن یأخذوه من وراء حجاب لظروف نساء النّبی الخاصّه،و یجب علیهنّ أن لا یخرجن إلی الناس و یظهرن لهم فی مثل هـذه الموارد حتّی و إن کن محجّبات،و هـذا الحکم لم یرد طبعا فی شأن النساء الاخریات،بل یکفیهنّ أن یراعین الحجاب الإسلامی.

و الشاهـد علی ذلـک أنّ کلمه«الحجـاب»،و إن کانت تسـتعمل فی المحادثات الیومیه بمعنی حجاب المرأه،إلاّ أنّها لیس لها مثل هذا المعنی لا فی کتب اللغه،و لا فی تعبیرات فقهائنا.

«الحجـاب»فی اللغه هو الشـیء الـذی یحول بین شـیئین (۱) ،و لـذلک اطلـق علی الغشـاء الموجـود بیـن الأمعـاء و القلب و الرئه اسم«الحجاب الحاجز».

و قد اسـتعمل القرآن الکریم هذه الکلمه بمعنی الحائل أو الساتر فی عدّه مواضع،کالآیه(۴۵)من سوره الإسراء حیث تقول: جَعَلْنا بَیْنَکَ وَ بَیْنَ الَّذِینَ لا یُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَهِ حِجاباً مَسْتُوراً .

و نقرأ فی الآیه(۳۲)من سوره ص: حَتّی تَوارَتْ بِالْحِجابِ .

و جاء فی الآیه(۵۱)من سوره الشوری: وَ ما کانَ لِبَشَرٍ أَنْ یُکَلِّمَهُ اللّهُ إِلاّ وَحْیاً أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ .

أمّا فی کلمـات الفقهـاء فقـد اسـتعملت کلمه«الستر»فیمـا یتعلّق بلبـاس النسـاء منـذ قـدیم الأیّام و إلی یومنا هـذا،و ورد أیضا فی الرّوایات الإسلامیه هذا التعبیر أو ما یشبهه،و استعمال کلمه«الحجاب»فی شأن لباس المرأه اصطلاح ظهر فی عصرنا علی الأکثر،و إذا وجد فی التواریخ و الرّوایات فقلیل جدّا.

ص: ۳۲۹

۱- ۱) لسان العرب مادّه حجب.

و الشاهد الآخر هو ما نقرؤه فى

الحـديث المروى عن«أنس بن مالك»خادم النّبى الخاص،حيث يقول: أنا أعلم الناس بهذه الآيه-آيه الحجاب-لمّا أهديت زينب إلى رّسـول اللّه كـانت معه فى الـبيت-صـنع طعامـا،و دعـا القـوم فقعـدوا يتحـدّثون،فجعـل النّبى يخرج ثـمّ يرجع و هم قعـود يتحدّثون،فأنزل اللّه: يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ -إلى قوله- مِنْ وَرٰاءِ حِجٰابٍ فضرب الحجاب و قام القوم (١) .

و فى روايه اخرى عن«أنس»أنّه قال:أرخى الستر بينى و بينه،فلمّا رأى القوم ذلك تفرّقوا (٢) .

بنـاء على هـذا فـإنّ الإسـلام لـم يـأمر النسـاء المسـلمات بـأن يجلسـن خلـف السـتور، و لاـ يـبرحن دورهـن،و ليس لكلمه«المستورات»أو«المحجّبات»و أمثال ذلک من التعبيرات صـفه إسـلاميه أو بعد إسـلامى بالنسبه للنساء،بل إنّ ما يلزم المرأه المسلمه هو محافظتها على الحجاب الإسلامى،إلّا أنّ نساء النّبى قد أمرن بهذا الأمر الخاص بسبب وجود أعداء كثيرين،و متتبعين للعيوب و المغرضين،و كان من الممكن أن يصبحن عرضه للتهم،و حربه تقع بيد الانتهازيين.

و بتعبير آخر:إنّ الناس قد أمروا أن يسألوا نساء النّبى ما يبتغونه من وراء حجاب.خاصّه و أنّ التعبير ب«وراء»يشهد لهذا المعنى.

و لذلک بيّن القرآن فلسفه هذا الحکم فقال: ذٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَ قُلُوبِهِنَّ .

و بـالرغم من أنّ مثـل هـذا التعليـل لاـ ينـافى الحکم الاسـتحبابى،إلاّـ أنّ ظهور الأمر فى جمله فَسْئَلُوهُنَّ لا يتزلزل فى دلالته على الوجوب،لأنّ مثل هذا التعليل قد ورد أحيانا فى موارد أحکام واجبه اخرى.

ثمّ تبيّن الآيه الحکم الخامس بأنّه وَ مٰا كٰانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللّٰهِ فبالرغم

ص: ٣٣٠

١- ١) صحيح البخارى،ج ۶،ص ١۴٩.

٢- ٢) المصدر السابق.

من أنّ هـذا العمل قـد ذكر فى نفس الآيه،و هو الذهاب إلى بيت النّبى صـلّى اللّه عليه و آله فى وقت غير مناسب،و الجلوس بعد تناول الطعام،فقد ورد فى روايات سبب النّزول أنّ بعض المنافقين كانوا قد أقسموا على أن يتزوّجوا نساء النّبى من بعده،و قد آلم ذلك رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله.و لكن معنى الآيه عام على كلّ حال،فهو يشمل كلّ نوع من الأذى.

و أخيرا تبيّن الآيه الحكم السادس و الأخير فى مجال حرمه الزواج بنساء النّبى من بعـده،فقالت: وَ لاٰ أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوٰاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذٰلِكُمْ كٰانَ عِنْدَ اللّٰهِ عَظِيماً .

و هنـا يـأتى سؤال،و هو:كيف حرّم اللّه نسـاء النّبى من اتّخـاذ زوج لهنّ بعـد وفـاه النّبى صـلّى اللّه عليه و آله،و قـد كان بعضـهنّ شابات تقريبا؟ و جواب هذا السؤال يتّضح بملاحظه الغايه من هذا التحريم،و ذلك لأنّه:

أوّلا:كما علمنا من سـبب النّزول،فإنّ البعض صمّم على هذا العمل كانتقام من النّبى صلّى اللّه عليه و آله و إهانه لقدسيته،و كانوا يريدون أن ينزلوا ضربه بكيانه صلّى اللّه عليه و آله عن هذا الطريق.

ثانيا:لو كانت هـذه المسأله جائزه،فإنّ جماعه كانوا سيتّخذون زوجان النّبى أزواجا لهم من بعـده،و كان من الممكن أن يسـتغلّوا هـذا الزواج لتحقيق مآربهم و الوصول إلى مكانه اجتماعيه مرموقه.أو أنّهم يبـدؤون بتحريف الإسـلام على أساس أنّهم يمتلكون معلومـات خاصّه صادره من داخل بيت النّبى صـلّى اللّه عليه و آله،و أهل البيت أدرى بالـذى فيه،أو أن يبثّ المنافقون بين الناس مطالب عن هذا الطريق تخالف مقام النبوّه-تأمّلوا ذلك-.

و نلمس ذلك بصوره أوضـح عنـد ما نعلم أنّ جماعه هيؤوا أنفسـهم للقيام بهـذا العمل،و صـرّح بـذلك بعضـهم،و كتمه البعض الآخر فى قلبه.و كان من جمله من

ذكره بعض مفسّرى العامّه هنا هو«طلحه» (۱) .

إنّ اللّه المطّلع على الأسرار الخفيّه و المعلنه،و الخبير بها،قد أصدر حكما قاطعا لإحباط هذه الخطّه الخبيثه،و ليمنع من وقوع هذه الأمور،و لتحكيم دعائم هذا الحكم فقد أطلق لقب(امّهات المؤمنين)على أزواج النّبى ليعلم أولئك بأنّ الزواج منهنّ كالزواج من امّهاتهم!و بملاحظه ما قيل يتّضح لماذا وجب على نساء النّبى أن يتقبّلن هذا الحرمان بكلّ رحابه صدر؟ قد تطرح أحيانا مسائل مهمّه على مدى حياه الإنسان،يجب أن يظهر تجاهها التضحيه و الإيثار،و أن يغضّ النظر عن بعض الحقوق التى ثبتت له،خاصّه و أنّ الافتخارات العظيمه تصاحبها مسئوليات خطيره،و لا شكّ أنّ أزواج النّبى قد اكتسبن فخرا لا يضاهى و عزّا لا يسامى بزواجهنّ من النّبى صلّى اللّه عليه و آله،و اكتساب هذا الفخر يحتاج إلى مثل هذه التضحيه.

لهذا السبب كانت نساء النّبى يعشن من بعده بكلّ احترام و تقدير بين الامّه الإسلاميه،و كن راضيات جدّا عن حالهنّ،و يعتبرن ذلك الحرمان مقابل هذه الافتخارات أمرا تافها.

و حذّرت الآيه الثّانيه الناس بشدّه،فقالت: إِنْ تُبْدُوا شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللّهَ كانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً فلا تظنّوا أنّ اللّه سبحانه لا يعلم ما خططتم له فى سبيل إيذاء النّبى صلّى اللّه عليه و آله سواء ما ذكر تموه،أو الذى أضمر تموه،فإنّه تعالى يعلم كلّ ذلك جيدا، و يعامل كلّ إنسان بما يناسب عمله.

۱- ۱) تفسير القرطبى،المجلّد ۸،صفحه ۵۳۱۰.

بحوث

اشاره

مناسبه للبحث الـذى ورد فى الآيـات المـذكوره فى شأن واجبات المسـلمين عنـد ما يـدعون إلى ضـيافه النّبى صلّى اللّه عليه و آله،نورد جانبا من تعليمات الإسلام فيما يتعلّق بأصل مسأله«الضيافه»،و حقّ الضيف،و واجبات المضيف:

١-الضيافه:

لقد أولى الإسلام مسأله الضيافه أهميّه خاصّه،حتّى أنّه

ورد فى حديث عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله: «الضيف دليل الجنّه» (١) .

إنّ أهميّه الضيف و وجوب احترامه و تقديره،بلغ حدّا اعتبر فيه هديه سماويه،

فإنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله يقول: «إذا أراد اللّه بقوم خيرا أهـدى إليهم هـديه،قالوا:و ما تلك الهـديه؟قال:الضـيف ينزل برزقه،و يرتحل بذنوب أهل البيت» (٢) .

و الطريف أنّ رجلا حضر عند النّبى صلّى اللّه عليه و آله فقال:فداك أبى و امّى،إنّى أسبغ الوضوء،و أقيم الصلاه،و أؤتى الزكاه فى حينها،و ارحّب بالضيف و اقريه فى اللّه،

فقال صلّى اللّه عليه و آله: «بخ بخ بخ!ما لجهنّم عليك سبيل!إنّ اللّه قد برأك من الشحّ إن كنت كذلك».

الكلام فى هذا الباب كثير،و نكتفى بهذا القدر رعايه للاختصار.

٢-مراعاه البساطه فى الضيافه:

مع كـلّ الأهميه التى يتمتّع بها الضيف،فإنّ الضيافه إذا اتّسمت بـالتكلّف فإنّها غير راجحه من وجهه نظر الإسلام،بل و نهى عنها،فإنّ الإسلام يوصى بأن تكون الضيافه بسيطه،و جعل معيارا عادلا بين الضيف و المضيف،و هو:أن لا يبخل

١- ١) بحار الأنوار،المجلّد ٧٥،صفحه ۴۶٠ باب ٩٣ حديث ١۴.

٢- ٢) المصدر السابق.

المضیف بما عنده و یحضره،و أن لا یتوقّع الضیف أکثر من ذلک!

یقول الإمام الصادق علیه السّلام: «المؤمن لا یحتشم من أخیه،و ما أدری أیّهما أعجب؟!الذی یکلّف أخاه إذا دخل علیه أن یتکلّف له،أو المتکلّف لأخیه؟» (۱) .

و

یروی سلمان الفارسی عن النّبی الأکرم صلّی اللّه علیه و آله أنّه قال: «أن لا نتکلّف للضیف ما لیس عندنا،و أن نقدّم إلیه ما حضرنا» (۲) .

۳-حقّ الضیف:

قلنا:إنّ الضیف کالهدیه السماویه من وجهه نظر الإسلام،و یجب أن یرحّب به و یکرم غایه الإکرام،و یحترم أقصی ما یمکن،حتّی أنّ أمیر المؤمنین علیا علیه السّلام

یروی عن النّبی الأکرم صلّی اللّه علیه و آله أنّه قال: «من حقّ الضیف أن تمشی معه فتخرجه من حریمک إلی البر» (۳) .

و یجب تهیئه مستلزمات راحته إلی الحدّ الذی لا یبلغ التکلّف،حتّی أنّه ورد فی حدیث أنّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله قال:«إنّ من حقّ الضیف أن یعد له الخلال» (۴) .

و قد یکون الضیوف خجولین أحیانا،و لذلک فقد صدر أمر بعدم سؤالهم عمّا إذا کانوا قد تناولوا الطعام أم لا،بل یمدّ لهم السماط فإن شاءوا و أکلوا،کما

یقول الإمام الصادق علیه السّلام: «لا تقل لأخیک إذا دخل علیک أکلت الیوم شیئا؟و لکن قرّب إلیه ما عندک،فإنّ الجواد کلّ الجواد من بذل ما عنده» (۵) .

و من جمله واجبات المضیف أمام اللّه سبحانه أن لا یحقّر الطعام الذی أعدّه، لأنّ نعمه اللّه سبحانه عزیزه و محترمه مهما کانت،إلّا أنّ المتعارف بین المترفین

۱- ۱) بحار الأنوار،المجلّد ۷۵،صفحه ۴۵۳.

۲- ۲) المحجّه البیضاء،المجلّد ۳،صفحه ۲۹ الباب الثالث.

۳- ۳) بحار الأنوار،المجلّد ۷۵،صفحه ۴۵۱.

۴- ۴) بحار الأنوار،المجلّد ۷۵،صفحه ۴۵۵.

۵- ۵) المصدر السابق.

و أهـل التكلّف أنّهم مهما نوّعوا السـماط و ملؤوه بأنواع الأطعمه فإنّهم يقولون:هـذا شـيء بسـيط لا يليق بمقامكم! و فى المقابل يجب أن لا يحتقر الضيف ما قدّم إليه،

ففى حديث عن الإمام الصادق عليه السّـلام أنّه قال: «هلك امرؤ احتقر لأخيه ما يحضره،و هلك امرؤ احتقر من أخيه ما قدّم إليه» (۱) .

إنّ الإسـلام دقيق النظره فى إكرام الضيف،فهو يقول:استقبل الضيف و أعنه عند ما يدخل إلى بيتک،أمّا إذا أراد الخروج فلا تعنه لئلّا يتصوّر بأنّک راغب فى خروجه (۲) .

۴-واجبات الضيف:

إنّ المسؤوليات تكون متقابله دائما،فكما أنّ على المضـيف واجبات تجاه الضيف،فكذلک توجد على الضيف واجبات ينبغى أن يراعيها.

فعلاوه على ما ذكر فى الأحاديث السابقه،فإنّ على الضـيف أن ينفّـذ ما يطلبه منه صاحب البيت و يقترحه عليه فى شأن منزله،فإذا طلب منه أن يجلس فى مكان ما مثلا فليفعل،فإنّ الإمام الصادق عليه السّـلام يقول:«إذا دخل أحـدكم على أخيه فى رحله فليقعد حيث يأمر صاحب الرحل،فإنّ صاحب الرحل أعرف بعوره بيته من الداخل عليه» (۳) .

و ملخّص الكلام أنّ مسأله الضيافه و آدابها قد خصّص لها بحث واسع فى آداب المعاشره الإسلاميه،و ليراجع لمزيد الإيضاح فى هذا الباب«بحار الأنوار»، الأبواب ۸۸-۹۴ من أبواب العشره،المجلّد ۱۷ و«المحجّه البيضاء»،المجلّد ۳

۱- ۱) المحجّه البيضاء،المجلّد ۳،صفحه ۳۰.

۲- ۲) بحار الأنوار،المجلّد ۷۵،صفحه ۴۵۵ حديث ۲۷.

۳- ۳) بحار الأنوار،المجلّد ۷۵،صفحه ۴۵۱.

الباب الرابع فضيله الضيافه.

إلاّ أنّ هـذه السـنّه الإنسانيه القـديمه قـد تقلّصت و للأسف الشديـد فی عصـرنا الحاضر..عصـر غلبه الماديه و طغيانها فی العالم،و هيمنتهـا عليه، بـل إنّهـا قـد اجتّثت تقريبـا فی بعض المجتمعـات الغربيه،و قـد سـمعنا أنّ بعض أولئـک عنـد مـا يـأتون إلی البلاد الإسـلاميه و يرون انتشـار مسـأله الضـيافه التی لا زالت قائمه فی البيوتات الأصـيله،و مـدی العواطف التی تكتنفها،فإنّهم يتعجّبون كيف يمكن أن يقدّم الناس أفضل الوسائل الموجوده فی البيت،و أنفس الأطعمه و ألذّها للضيوف الذين ربّما تربطهم بهم رابطه ضعيفه أحيانا،و ربّما كانوا قد تعارفوا فی سـفره قصـيره؟! إلاّ أنّ ملاحظه الأحاديث الإسـلاميه-التی ورد قسم منها قبل قليل-تبيّن سبب هـذه التضـحيه و الإيثار،و توضّح الحسابات المعنويه فی هذا المجال..تلک الحسابات التی لا تعنی شـيئا لدی عبّاد المادّه و الغارقين فی بحرها.

ص :۳۳۶

الآيه [سوره الأحزاب (٣٣): آیه ۵۵]

اشاره

لاٰ جُنٰاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبٰائِهِنَّ وَ لاٰ أَبْنٰائِهِنَّ وَ لاٰ إِخْوٰانِهِنَّ وَ لاٰ أَبْنٰاءِ إِخْوٰانِهِنَّ وَ لاٰ أَبْنٰاءِ أَخَوٰاتِهِنَّ وَ لاٰ نِسٰائِهِنَّ وَ لاٰ مٰا مَلَكَتْ أَيْمٰانُهُنَّ وَ اِتَّقِينَ اَللّٰهَ إِنَّ اَللّٰهَ كٰانَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً (۵۵)

سبب النّزول

يروى بعض المفسّرين أنّ آباء نساء النّبى و أبناءهنّ و عوائلهنّ سألوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله بعد نزول آيه الحجاب-الآيه السابقه-:يا رسول اللّه،و نحن أيضا نحدّثهنّ من وراء حجاب؟فنزلت هذه الآيه بأنّها لا تشملكم.

التّفسير

اشاره

الموارد المستثناه من قانون الحجاب:

لمّا كان الحكم الـذى ورد فى الآيه السابقه حول حجاب نساء النّبى مطلقا، و يمكن أن يوهم هـذا الإطلاق بأنّ المحارم مكلّفون بتنفيذه أيضا،و أن يحدّثوهنّ من وراء حجاب كالأجانب،فقد نزلت هذه الآيه و فصلت حكم هذه المسأله.

تقول الآيه: لاٰ جُنٰاحَ عَلَيْهِنَّ فِى آبٰائِهِنَّ وَ لاٰ أَبْنٰائِهِنَّ وَ لاٰ إِخْوٰانِهِنَّ وَ لاٰ أَبْنٰاءِ

إِخْوٰانِهِنَّ وَ لاٰ أَبْنٰاءِ أَخَوٰاتِهِنَّ وَ لاٰ نِسٰائِهِنَّ وَ لاٰ مٰا مَلَكَتْ أَيْمٰانُهُنَّ

.و بتعبير آخر:فإنّ محارمهنّ الذين استثنوا فى الآيه هم هؤلاء الستّه فقط،و إذا قيل:إنّ هناك أفرادا من المحارم أيضا لم يجر لهم ذكر فى الآيه كالأعمام و الأخوال،فيجاب على هذا السؤال بأنّه:

لمّا كان القرآن يراعى الفصاحه و البلاغه فى أجلى صورها و أسماها،و أحد اصول الفصاحه هو أن لا تكون فى الكلام أى كلمه زائده،فقد امتنع عن ذكر الأعمام و الأخوال هنا،و ذلك لأنّه حينما ذكر أولاد الأخ و أولاد الاخت،فسوف يتّضح حكم الأعمام و الأخوال من المحارم،لأنّ لهذه المحرميه جانبان،فكما أنّ ابن الأخ محرم بالنسبه إلى المرأه،فإنّها ستكون محرما أيضا بالنسبه إلى ابن أخيها-و نحن نعلم أنّ مثل هذه المرأه تعتبر«عمّه»-و لأنّ ابن الاخت كما هو محرم عليها فإنّها ستكون محرما بالنسبه إلى ابن الاخت،و نعلم أنّ مثل هذه المرأه هى «الخاله».

و عند ما تكون العمّه و الخاله محرما بالنسبه إلى ابن الأخ و ابن الاخت،فإنّ العمّ و الخال سيكونان أيضا محرما بالنسبه إلى ابنه الأخ و ابنه الاخت،حيث لا فرق بين العمّ و العمّه،و الخال و الخاله،و هذه إحدى دقائق القرآن الكريم.(تدبّر ذلك).

و هنا يطرح سؤال آخر،و هو:إنّ أبا الزوج و ابن الزوج بعض محارم المرأه، فلما ذا لم يذكرا هنا؟فى حين أنّهما ذكرا من جمله المحارم فى الآيه(٣١)من سوره النور.

و الإجابه عن هذا السؤال واضحه،لأنّ الكلام فى هذه الآيه منحصر فى حكم نساء النّبى صلّى اللّه عليه و آله،و نحن نعلم أنّ أبا النّبى صلّى اللّه عليه و آله لم يكن موجودا حال حياته،و لا امّه، و لم يكن له ابن (١) .«فتأمّل».

١- ١) ذكر المؤرخّون ثلاثه أولاد للنبى صلّى اللّه عليه و آله:القاسم و عبد اللّه(الملقّب بالطيّب و الطاهر)،و كانا من خديجه،و قد ودّعا

إنّ عـدم ذكر الإخوه و الأخوات من الرضاعه،و أمثالهم بسبب أنّ هؤلاء فى حكم الأخ و الاخت و سائر المحارم،و لا يحتاجون إلى ذكر مستقل.

و يتغيّر أسلوب الآيه فى نهايتها من الغائب إلى المخاطب،فتخاطب نساء النّبى و تقول: وَ اتَّقِينَ اللّهَ إِنَّ اللّهَ كانَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً فإنّ الحجاب و الستر و أمثالهما وسائل للحفظ و الإبعاد عن الذنب و المعصيه ليس إلّا،و الدعامه الأساسيه هى التقوى فحسب،و لولاها فسوف لا تنفع كلّ هذه الوسائل.

و الجدير بالذكر أنّ نِسائِهِنَّ إشاره إلى النساء المسلمات،و ذلك لأنّ من غير اللائق بالنساء المسلمات-و كما قلنا فى تفسير سوره النور-أن يكنّ بدون حجاب أمام غير المسلمات،إذ أنّ من الممكن أن تصفهنّ غير المسلمات لأزواجهنّ (١) .

و أمّا جمله: وَ لا ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُنَّ فلها معنى واسع-كما قلنا ذلك فى تفسير سوره النور أيضا-يشمل الجوارى و الغلمان،إلّا أنّها تختّص بالجوارى طبقا لبعض الرّوايات الإسلاميه،و بناء على هذا فإن ذكرهنّ بعد ذكر«النساء»قد يكون من جهه شمولها للجوارى غير المسلمات عموما.(دقّقوا ذلك).

١)

الحياه فى طفولتهما،و إبراهيم الذى ولد فى السنه الثامنه للهجره،و لم يعش أكثر من ١٨ أو ١٦ شهرا و لم يكن أى منهم حيّا عند نزول سوره الأحزاب،و إبراهيم ولد بعد ذلك و مات فى طفولته.يراجع:اسد الغابه،و سائر كتب التأريخ و الرجال.

١- ١) يراجع التّفسير الأمثل ذيل الآيه(٣١)من سوره النور.

الآيات [سوره الأحزاب (۳۳): الآيات ۵۶ الی ۵۸]

اشاره

إِنَّ اَللّٰهَ وَ مَلاٰئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى اَلنَّبِيِّ يٰا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَ سَلِّمُوا تَسْلِيماً (۵۶) إِنَّ اَلَّذِينَ يُؤْذُونَ اَللّٰهَ وَ رَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اَللّٰهُ فِي اَلدُّنْيٰا وَ اَلْآخِرَةِ وَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذٰاباً مُهِيناً (۵۷) وَ اَلَّذِينَ يُؤْذُونَ اَلْمُؤْمِنِينَ وَ اَلْمُؤْمِنٰاتِ بِغَيْرِ مَا اِكْتَسَبُوا فَقَدِ اِحْتَمَلُوا بُهْتٰاناً وَ إِثْماً مُبِيناً (۵۸)

التّفسير

اشاره

التّفسير (۱)

الصلاه على النّبى و السلام عليه:

بعد البحوث التى مرّت فى الآيات السابقه حول وجوب حفظ حرمه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و عدم إيذائه،فإنّ هذه الآيات تتحدّث أوّلا-عن محبّه اللّه و ملائكته للنّبى صلّى اللّه عليه و آله و تعظيمهم له،و بعد ذلك تأمر المؤمنين بذلك،ثمّ تذكر العواقب المشؤومه الأليمه لأولئك الذين يؤذون النّبى صلّى اللّه عليه و آله ثمّ تبيّن أخيرا عظم ذنب الذين يؤذون المؤمنين باتّهامهم و الافتراء عليهم.

۱- ۱) الطريف أنّ البدء بهذه الآيات صادف ليله ميلاد النّبى صلّى اللّه عليه و آله فى شهر ربيع الأوّل سنه الف و أربعمائه و أربع للهجره.

تقول أوّلا: إِنَّ اللّهَ وَ مَلاٰئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ .

إنّ مقام النّبى صلّى اللّه عليه و آله و منزلته من العظمه بمكان،بحيث أنّ خالق عالم الوجود، و كلّ الملائكه الموكّلين بتدبير أمر هذا العالم بأمر اللّه سبحانه يصلّون عليه،و إذا كان الأمر كذلك فضمّوا أصواتكم إلى نداء عالم الوجود هذا،ف يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَ سَلِّمُوا تَسْلِيماً .

إنّه جوهره نفيسه لعالم الخلقه،و قد جعل بينكم بلطف اللّه،فلا تستصغروا قدره، و لا تنسوا مقامه و منزلته عند اللّه و ملائكه السماوات..إنّه إنسان ظهر من بينكم، لكنّه ليس إنسانا عاديا،بل هو إنسان يتلخّص عالم الوجود فى وجوده.

و هنا امور يجب الالتفات إليها:

۱-(الصلاه)و جمعها«صلوات»،كلّما نسبت إلى اللّه سبحانه فإنّها تعنى «إرسال الرحمه»،و كلّما نسبت إلى الملائكه فإنّها تعنى«طلب الرحمه» (۱) .

۲-إنّ التعبير ب(يصلّون)و هو فعل مضارع يدلّ على الاستمرار،يعنى أنّ اللّه و ملائكته يصلّون عليه دائما و باستمرار صلاه دائمه خالده.

۳-اختلف المفسّرون فى الفرق بين(صلّوا)و(سلّموا)و الذى يبدو أنسب للأصل اللغوى للكلمتين،و أوفق لظاهر الآيه القرآنيه،هو:أن(صلّوا)أمر بطلب الرحمه و الصلاه على النّبى،أمّا(سلّموا)فتعنى التسليم لأوامر نبى الإسلام الأكرم، كما ورد فى الآيه(۶۵)من سوره النساء ثُمَّ لاٰ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمّٰا قَضَيْتَ وَ يُسَلِّمُوا تَسْلِيماً .

و كما نقرأ

فى روايه عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّ أبا بصير سأله فقال:قد عرفت صلاتنا على النّبى،فكيف التسليم؟قال:«هو التسليم له فى الأمور» (۲) .

أو أن يكون بمعنى«السلام»على النّبى صلّى اللّه عليه و آله ب(السلام عليك يا رسول اللّه)و ما

۱- ۱) أورد الراغب هذا المعنى بعبارات اخرى فى المفردات.

۲- ۲) مجمع البيان ذيل الآيه مورد البحث.

أشبه ذلک،و الذی یعنی طلب سلامه النّبی صلّی اللّه علیه و آله من اللّه سبحانه.

یروی«أبو حمزه الثمالی»عن«کعب»-و هو أحد أصحاب النّبی صلّی اللّه علیه و آله أنّه قال:

لمّا نزلت هذه الآیه قلنا:قد عرفنا السلام علیک،فکیف نصلّی علیک؟فقال:«قولوا:

اللهمّ صلّ علی محمّد و آل محمّد،کما صلّیت علی إبراهیم و آل إبراهیم إنّک حمید مجید،و بارک علی محمّد و آل محمّد کما بارکت علی إبراهیم و آل إبراهیم إنّک حمید مجید» (1) . و من هذا الحدیث تتّضح کیفیه الصلاه علی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و کذلک یتّضح معنی«السلام».

و بالرغم من أنّ هذین المعنیین للسلام یبدوان مختلفین تماما،إلاّ أنّه یمکن عطفهما و إرجاعهما إلی نقطه واحده إذا دقّقنا فیهما،و هی:التسلیم القولی و الفعلی للنبی صلّی اللّه علیه و آله،لأنّ من یسلّم علیه و یرجو من اللّه سلامته،یعشقه و یعرفه کنبی مفترض الطاعه.

4-ممّا یلفت النظر أنّه قد ورد صریحا فی کیفیه الصلاه علی النّبی و فی روایات لا تحصی من طرق العامّه و أهل البیت،أن یضاف(آل محمّد)عند الصلوات علی محمّد صلّی اللّه علیه و آله.

فقد روی فی«الدرّ المنثور»عن صحیح البخاری و مسلم و سنن أبی داود و الترمذی و النسائی و ابن ماجه و ابن مردویه و رواه آخرین عن کعب بن عجره:

أنّ رجلا أتی إلی النّبی صلّی اللّه علیه و آله فقال:أمّا السلام علیک فقد علمناه،فکیف الصلاه علیک؟فقال النّبی صلّی اللّه علیه و آله:«قل اللهمّ صلّ علی محمّد و علی آل محمّد کما صلّیت علی إبراهیم و آل إبراهیم إنّک حمید مجید.اللهمّ بارک علی محمّد و علی آل محمّد کما بارکت علی إبراهیم و آل إبراهیم إنّک حمید مجید».

و قد أورد صاحب تفسیر الدرّ المنثور ثمانیه عشر حدیثا آخر إضافه إلی هذا

1- 1) المصدر السابق.و روی الحدیث الثّانی فی کتب الفریقین بطرق متعدّده،و بعبارات قریبه الألفاظ.

الحديث،صرّحت جميعا بوجوب ذكر«آل محمّد»عند الصلوات.

و قد رويت هذه الأحاديث عن كتب أهل السنّه المعروفه المشهوره عن جماعه من الصحابه منهم:ابن عبّاس،و طلحه،و أبو سعيد الخدری،و أبو هريره،و أبو مسعود الأنصاری،و بريده،و ابن مسعود،و كعب بن عجره،و أمير المؤمنين علی عليه السّلام (۱) .

و قد رويت فی صحيح البخاری(و هو أشهر مصادر الحديث عند أهل السّنّه) روايات عديده فی هذا الباب يستطيع من يريد مزيد الإيضاح أن يرجع إليه (۲) .

و كذلك وردت فی صحيح مسلم روايتان فی هذا الباب (۳) .

و العجيب فی هذا الكتاب أنّه بالرغم من ورود(آل محمّد)عدّه مرّات فی هذين الحديثين،فإنّه اختار هذا العنوان لهذا الباب:(باب الصلاه علی النّبی صلّی اللّه عليه و آله) بدون ذكر«الآل»!! و ثمّه مسأله تستحقّ الانتباه و هی:أنّ فی بعض روايات أهل السنّه،و فی كثير من روايات أهل البيت لم ترد حتّی كلمه(علی)لتفرّق بين محمّد و آل محمّد،بل كيفيه الصلاه هی:اللهم صلّ علی محمّد و آل محمّد.

و ننهی هذا البحث بحديث آخر عن النّبی الأكرم صلّی اللّه عليه و آله فإنّ

«ابن حجر»يروی فی الصواعق:أنّ النّبی صلّی اللّه عليه و آله قال: «لا تصلّوا علیّ الصلاه البتراء،فقالوا:و ما الصلاه البتراء؟قال:تقولون: اللهمّ صلّ علی محمّد و تمسكون،بل قولوا:اللهمّ صلّ علی علی محمّد و آل محمّد» (۴) .

و لهذه الرّوايات فقد اعتبر جمع من كبار فقهاء العامّه إضافه(آل محمّد)إلی

۱- ۱) تفسير الدرّ المنثور ذيل الآيه مورد البحث،طبقا لتفسير الميزان،ج ۱۶،صفحه ۳۴۴.

۲- ۲) صحيح البخاری،المجلّد ۶،صفحه ۱۵۱.

۳- ۳) صحيح مسلم،المجلّد ۱،صفحه ۳۰۵ باب الصلاه علی النّبی صلّی اللّه عليه و آله.

۴- ۴) الصواعق المحرقه،صفحه ۱۴۴.

اسم«محمّد»فی تشهد الصلاه واجبا (۱) .

۵-هل أنّ الصلاه علی النّبی صلّی اللّه علیه و آله واجبه أم لا؟و إذا کانت واجبه فأین تجب؟ یقول الفقهاء فی الإجابه عن هذا السؤال:إنّ جمیع فقهاء أهل البیت یعتبرونها واجبه فی التشهّد الأوّل و الثّانی من الصلاه،و مستحبه فی غیرهما.

و علاوه علی الأحادیث الوارده عن أهل البیت علیهم السّلام فی هذا الباب،فإنّ الروایات الوارده فی کتب أهل السنّه،و الدالّه علی الوجوب،لیست بالقلیله،و من جملتها ما ورد عن عائشه أنّها قالت:سمعت رسول اللّه یقول:«لا یقبل صلاه إلاّ بطهور و بالصلاه علیّ».

و یعتبر«الشافعی»-و هو من فقهاء العامّه-الصلاه علی النّبی صلّی اللّه علیه و آله واجبه فی التشهّد الثانی،و«أحمد»فی إحدی الروایتین المرویتین عنه،و جمع آخر من الفقهاء،غیر أنّ«أبا حنیفه»لا یعتبرها واجبه.

و الطریف أنّ«الشافعی»قد نظّم فتواه هذه شعرا و ذکرها بصراحه حیث یقول:

یا أهل بیت رسول اللّه حبّکم

فرض من اللّه فی القرآن أنزله

کفاکم من عظیم القدر أنّکم

من لم یصلّ علیکم لا صلاه له (۲)

ثمّ تبیّن الآیه التالیه النقطه المقابله للآیه السابقه،فتقول: إِنَّ الَّذِینَ یُؤْذُونَ اللّٰهَ وَ رَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللّٰهُ فِی الدُّنْیٰا وَ الْآخِرَهِ وَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذٰاباً مُهِیناً .

ماذا یراد من أذی اللّه سبحانه؟ قال البعض:إنّ المراد منه هو الکفر و الإلحاد الذی یغضب اللّه عزّ و جلّ،لأنّ «الأذی»لا یعنی فی شأن اللّه تعالی إلاّ إغضابه.

---

۱ - ۱) أورد العلاّمه الحلّی هذا القول فی بحث التشهّد من التذکره-إضافه إلی کلّ علماء الشیعه-عن الإمام أحمد و بعض الشافعیه.

۲ - ۲) ذکر العلاّمه الأمینی فی کتاب«الغدیر»النفیس نسبه هذه الأشعار إلی الشافعی عن شرح المواهب للزرقانی و جماعه آخرین.

و یحتمل أیضا أن یکون إیذاء النّبی صلّی اللّه علیه و آله و المؤمنین هو إیذاء اللّه تعالی،و ذکر اللّه فی الآیه لأهمیه المطلب و تأکیده.

و أمّا إیذاء نبی الإسلام صلّی اللّه علیه و آله فله معنی واسع،و یشمل کلّ عمل یؤذیه،سواء کان الکفر و الإلحاد و مخالفه أوامر اللّه و الافتراءات و التّهم،أم الأذی الذی یراه حین یدعوهم إلی بیته،کما مرّ فی الآیه(۵۳)من هذه السوره إِنَّ ذٰلِکُمْ کٰانَ یُؤْذِی النَّبِیَّ .

أو الموضوع الذی ورد فی الآیه(۶۱)من سوره التوبه عند ما اتّهموا النّبی صلّی اللّه علیه و آله بأنّه«اذن»نتیجه إصغائه لکلام الناس و رعایته لأدب المحادثه وَ مِنْهُمُ الَّذِینَ یُؤْذُونَ النَّبِیَّ وَ یَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ و أمثال ذلک.

بل و یستفاد من الروایه الوارده فی ذیل الآیه أنّ إیذاء أهل بیت النّبی و خاصّه علی و فاطمه علیهما السّلام،یدخل ضمن الآیه،و

قد جاء فی المجلّد الخامس من صحیح البخاری،أنّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله قال: «فاطمه بضعه منّی فمن أغضبها أغضبنی» (۱) .

و

ورد هذا الحدیث فی«صحیح مسلم»بهذه العباره: «إنّ فاطمه بضعه منّی یؤذینی ما آذاها» (۲) .

و روی هذا المعنی فی حقّ علیّ علیه السّلام عن النّبی الأکرم صلّی اللّه علیه و آله (۳) .

و أمّا«اللعن»الوارد فی الآیه أعلاه،فإنّه بمعنی الطرد عن رحمه اللّه،و هو فی مقابل الرحمه و الصلوات التی وردت فی الآیه السابقه تماما.

إنّ اللعن و الطرد عن رحمه اللّه سبحانه..تلک الرحمه الواسعه التی لا تعرف الحدود،یعدّ أسوأ أنواع العذاب،خاصّه إذا کان هذا الطرد فی الدنیا و الآخره کما هو فی الآیه مورد البحث،و لعلّ ذکر مسأله اللعن قبل العذاب المهین لهذا السبب.

۱- ۱) صحیح البخاری،الجزء ۵،صفحه ۲۶.

۲- ۲) صحیح مسلم،المجلّد ۴،صفحه ۱۹۰۳ باب فضائل فاطمه.

۳- ۳) تفسیر مجمع البیان ذیل الآیه مورد البحث.

و التعبير ب(أعدّ)دليل على تأكيد هذا العذاب و شدّته.

تتحدّث الآيه الأخيره عن إيذاء المؤمنين،و تهتمّ به جدّا بعد إيذاء اللّه و رسوله صلّى اللّه عليه و آله،فتقول: وَ الَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنٰاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتٰاناً وَ إِثْماً مُبِيناً لأنّ للمؤمن علاقه باللّه و رسوله عن طريق الإيمان،و لهذا جعل فى مرتبه اللّه و رسوله هنا.

و تعبير بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا إشاره إلى أنّ هؤلاء لم يرتكبوا ذنبا حتّى يؤذوا.

و من هنا يتّضح أنّهم إن بدر منهم ذنب يستوجب الحدّ و القصاص فلا مانع من إجرائه و تنفيذه فى حقّهم،و كذلك لا يشمل هذا الكلام الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر.

إنّ تقديم«البهتان»على«الإثم المبين»لأهميّته،لأنّ البهتان يعتبر من أكبر الذنوب،و الجراحات التى تنجم عنه أشدّ ألما من جراحات السنان،كما قال الشاعر العربى:

جراحات السنان لها التيام

و لا يلتام ما جرح اللسان

و قد أولت الرّوايات الإسلاميه هذه المسأله اهتماما فائقا،

ففى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام: «إنّ اللّه عزّ و جلّ يقول:«ليأذن بحرب منّى من آذى عبدى المؤمن» (۱) .

و قال بعض المفسّرين:يستفاد من أسلوب الآيه أنّ جماعه فى المدينه كانوا يطلقون الشائعات و يثيرون الشبهات حول المؤمنين،و يتّهمونهم بما ليس فيهم، و حتّى نبى اللّه لم يكن بمنأى عن ألسن أولئك المؤذين.و هذه الفئه ليست قليله فى المجتمعات الاخرى،و خاصّه فى مجتمعات اليوم،و ليس لها عمل إلاّ التآمر ضدّ الصالحين و المحسنين،و اختلاق الأكاذيب و التّهم.

۱- ۱) أصول الكافى،المجلّد ۲،صفحه ۳۵.

لقد هاجم القرآن الكريم هؤلاء الأشخاص أشدّ هجوم،و وصفت أعمالهم بالبهتان و الإثم المبين.و الشاهد لهذا الكلام سيأتی فی الآيات التاليه.

و

جاء فی حديث آخر يرويه الإمام علی بن موسی الرضا عليه السّلام عن جدّه رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله: «من بهت مؤمنا أو مؤمنه،أو قال فيه ما ليس فيه أقامه اللّه تعالی يوم القيامه علی تلّ من نار حتّی يخرج ممّا قاله فيه» (۱) .

۱- ۱) بحار الأنوار،المجلّد ۷۵،صفحه ۱۹۴.

الآیات [سوره الأحزاب (۳۳): الآیات ۵۹ الی ۶۲]

اشاره

یا أَیُّهَا اَلنَّبِیُّ قُلْ لِأَزْواجِکَ وَ بَناتِکَ وَ نِساءِ اَلْمُؤْمِنِینَ یُدْنِینَ عَلَیْهِنَّ مِنْ جَلاَبِیبِهِنَّ ذٰلِکَ أَدْنیٰ أَنْ یُعْرَفْنَ فَلاٰ یُؤْذَیْنَ وَ کٰانَ اَللّٰهُ غَفُوراً رَحِیماً (۵۹) لَئِنْ لَمْ یَنْتَهِ اَلْمُنٰافِقُونَ وَ اَلَّذِینَ فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ اَلْمُرْجِفُونَ فِی اَلْمَدِینَهِ لَنُغْرِیَنَّکَ بِهِمْ ثُمَّ لاٰ یُجٰاوِرُونَکَ فِیهٰا إِلاّٰ قَلِیلاً (۶۰) مَلْعُونِینَ أَیْنَمٰا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَ قُتِّلُوا تَقْتِیلاً (۶۱) سُنَّهَ اَللّٰهِ فِی اَلَّذِینَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّهِ اَللّٰهِ تَبْدِیلاً (۶۲)

سبب النّزول

جاء فی تفسیر«علی بن إبراهیم»فی سبب نزول الآیه الاولی:فإنّه کان سبب نزولها أنّ النساء کن یخرجن إلی المسجد و یصلّین خلف رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و إذا کان باللیل خرجن إلی صلاه المغرب و العشاء الآخره و الغداه،یقعد الشبّان لهنّ فی طریقهنّ فیؤذونهن و یتعرّضون لهنّ فأنزل اللّه: یٰا أَیُّهَا النَّبِیُّ قُلْ لِأَزْوٰاجِکَ وَ بَنٰاتِکَ وَ نِسٰاءِ الْمُؤْمِنِینَ -إلی قوله- ذٰلِکَ أَدْنیٰ أَنْ یُعْرَفْنَ فَلاٰ یُؤْذَیْنَ وَ کٰانَ اللّٰهُ غَفُوراً

ص: ۳۴۸

رَحِيماً

(۱)

.

و جاء فی نفس الکتاب فی شأن نزول الآیه الثانیه،أنّها نزلت فی قوم منافقین کانوا فی المدینه یرجفون برسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله إذا خرج فی بعض غزواته یقولون قتل و أسر فیغتمّ المسلمون لذلک و یشکون إلی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله فأنزل اللّه فی ذلک: لَئِنْ لَمْ یَنْتَهِ الْمُنافِقُونَ -إلی قوله- ثُمَّ لا یُجاوِرُونَکَ فِیها إِلاّ قَلِیلاً (۲) فبذلک هدّدت مختلقی الشایعات بشدّه.

التّفسیر

اشاره

تحذیر شدید للمؤذین و مختلقی الإشاعات!

بعد النهی عن إیذاء رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و المؤمنین الذی ورد فی الآیه السابقه، أکّدت الآیه هنا علی أحد موارد الأذی،و من أجل الوقوف أمامه سلکت طریقین:

فأمرت المؤمنات أوّلا أن لا یدعن فی ید المفسدین و العابثین حجّه یتشبّثون بها فی سبیل تحقیق أذاهم،ثمّ هاجمت المنافقین و مختلقی الإشاعات و هدّدتهم بتهدید قلّ نظیره فی آیات القرآن.

فتقول الآیه فی الجزء الأوّل: یا أَیُّهَا النَّبِیُّ قُلْ لِأَزْواجِکَ وَ بَناتِکَ وَ نِساءِ الْمُؤْمِنِینَ یُدْنِینَ عَلَیْهِنَّ مِنْ جَلاَبِیبِهِنَّ ذلِکَ أَدْنی أَنْ یُعْرَفْنَ فَلا یُؤْذَیْنَ .

هناک رأیان لدی المفسّرین فی المراد من«المعرفه»لا یتناقضان:

الأوّل:أنّه کان من المتعارف ذلک الیوم أن تخرج الجواری من المنازل مکشوفات الرأس و الرقبه،و لمّا لم یکن مقبولات من الناحیه الأخلاقیه،فقد کان بعض الشباب المتهوّر یضایقوهنّ،فأمرت المسلمات الحرائر أن یلتزمن الحجاب التامّ لیتمیّزن عن الجواری،و بالتالی لا یقدر أن یؤذیهنّ أولئک الشباب.

۱- ۱) تفسیر القمّی ج ۲ ص ۱۹۶.

۲- ۲) المصدر السابق طبقا لنقل نور الثقلین،ج ۴،ص ۳۰۷.

و من البديهى أنّ هذا الكلام لا يعنى أنّه كان لأولئك الطائشين حقّ أذى الجوارى،بل المراد سلب الحجّه من الأفراد الفاسدين.

و الآخر:أنّ الهدف هو أن لا تتساهل المسلمات فى أمر الحجاب كبعض النساء المتحلّلات و المتبرجات المسلوبات الحياء رغم التظاهر بالحجاب،هذا التبرّج يغرى السفله و الأراذل و يلفت انتباههم.

أمّا المراد من«الجلباب»فقد ذكر المفسّرون و أرباب اللغه عدّه معان له:

۱-أنّه«الملحفه»،و هى قماش أطول من الخمار يغطّى الرأس و الرقبه و الصدر.

۲-أنّه المقنعه و الخمار.

۳-أنّه القميص الفضفاض الواسع (۱) .

و مع أنّ هذه المعانى تختلف عن بعضها،إلّا أنّ العامل المشترك فيها أنّها تستر البدن.

و تجدر الإشاره إلى أنّ«الجلباب»يقرأ بكسر الجيم و فتحها.

إلّا أنّ الأظهر أنّ المراد هو الحجاب الذى يكون أكبر من الخمار و أقصر من العباءه،كما ذكر ذلك صاحب لسان العرب.

و المراد من(يدنين)أن يقربن الجلباب إلى أبدانهن ليكون أستر لهنّ،لا أن يدعنه كيف ما كان بحيث يقع من هنا و هناك فينكشف البدن،و بتعبير أبسط أن يلاحظن ثيابهنّ و يحافظن على حجابهنّ.

أمّا ما استفاده البعض من أنّ الآيه تدلّ على وجوب ستر الوجه أيضا،فلا دليل عليه،و النادر من المفسّرين من اعتبر ستر الوجه داخلا فى الآيه (۲) .

و على كلّ حال،فيستفاد من هذه الآيه أنّ حكم الحجاب بالنسبه للحرائر كان

۱- ۱) لسان العرب،مجمع البحرين،مفردات الراغب القطر المحيط،و تاج العروس.

۲- ۲) كان لنا بحث حول فلسفه الحجاب و أهميّته،و كذلك حول استثناء الوجه و الكفّين فى ذيل الآيتين ۳۱ و ۳۲ من سوره النور.

قد نزل من قبل،إلاّ أنّ بعض النسوه كنّ يتساهلن فی تطبيقه،فنزلت الآيه المذكوره للتأكيد على الدقّه فی التطبيق.

و لمّا كان نزول هذا الحكم قد أقلق بعض المؤمنات ممّا كان منهن قبل ذلك،فقد أضافت الآيه فی نهايتها وَ كٰانَ اللّٰهُ غَفُوراً رَحِيماً فكلّ ما بدر منكنّ إلى الآن كان نتيجه الجهل فإنّ اللّه سيغفره لكنّ،فتبن إلى اللّه و ارجعن إليه،و نفذن واجب العفّه و الحجاب جيدا.

بعد الأمر الذی صدر فی الآيه السابقه للمؤمنات،تناولت هذه الآيه بعدا آخر لهذه المسأله،أی أساليب الأراذل و الأوباش فی مجال الإيذاء،فقالت: لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنٰافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْمُرْجِفُونَ فِی الْمَدِينَهِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لاٰ يُجٰاوِرُونَكَ فِيهٰا إِلاّٰ قَلِيلاً (١) .

(المرجفون)من مادّه«إرجاف»،و هی إشاعه الأباطيل بقصد إيذاء الآخرين و إحزانهم،و أصل الإرجاف:الاضطراب و التزلزل،و لمّا كانت الإشاعات الباطله تحدث اضطرابا عامّا،فقد أطلقت هذه الكلمه عليها.

و(نغرينّك)من مادّه«الإغراء»،و يعنی الدعوه إلى تنفيذ عمل،أو تعلّم شیء، دعوه تقترن بالترغيب و التحريض.

و يستفاد من سياق الآيه أنّ ثلاث فئات فی المدينه كانت مشتغله بأعمال التخريب و الهدم،و كلّ منها كان يحقّق أهدافه بأسلوب خاصّ،فظهر ذلك كتيار و مخطّط جماعی،و لم تكن له صبغه فرديه:

فالفئه الاولى:هم«المنافقون»الذين كانوا يسعون لاقتلاع جذور الإسلام عبر مؤامرتهم ضدّه.

و الثّانيه:هم«الأراذل»الذين يعبّر عنه القرآن: اَلَّذِينَ فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ كما

١- ١) (قليلا)هنا مستثنى من محذوف،و التقدير:لا يجاورونك زمانا إلاّ زمانا قليلا.

أنّ هذا التعبير قد ورد فى الآيه(۳۲)من سوره الأحزاب فى شأن من يتّبع أهواءه و شهواته فَلاٰ تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِى فِى قَلْبِهِ مَرَضٌ .

و الفئه الثالثه:هم الذين كانوا يبثّون الإشاعات فى المدينه،و خاصّه عند ما كان النّبى صلّى اللّه عليه و آله و جيش المسلمين يتّجهون إلى الغزوات،لإضعاف معنوياتهم،و كانوا ينشرون الأخبار الكاذبه عن هزيمه النّبى و المؤمنين،و هؤلاء هم«اليهود»برأى بعض المفسّرين.

و بهذا فإنّ القرآن الكريم هدّد هذه الفئات الثلاثه جميعا.

و يحتمل فى تفسير الآيه أيضا،أنّ كلّ أعمال التخريب للفئات الثلاثه كانت من عمل المنافقين،و فصلها عن بعضها هو فصل الصفات لا الأشخاص.

و مهما كان،فإنّ القرآن يقول:إنّ هؤلاء إن استمروا فى أعمالهم القبيحه المشينه فسنصدر أمرا بالهجوم العام عليهم،لنقتلع جذورهم من المدينه بحركه المؤمنين الشعبيه،و لا يقدرون على البقاء فى المدينه بعد ذلك.

و عند ما يطردون من هذه المدينه،و يخرجون عن حمايه الحكومه الإسلاميه، فإنّهم سيكونون مَلْعُونِينَ أَيْنَمٰا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَ قُتِّلُوا تَقْتِيلاً .

«ثقفوا»من مادّه«ثقف»و«ثقافه»،و هى:السيطره على الشيء بدقّه و مهاره، و لهذا يقال للعلم و تحصيله و الإحاطه به«ثقافه».و هذا التعبير إشاره إلى أنّهم سوف لا يجدون مكانا آمنا بعد هذا الهجوم،بل سيبحث عنهم المؤمنون بدقّه حتّى يجدوهم و يرسلوهم إلى ديار الفناء.

و هناك احتمالان فى المراد من الآيه:فامّا أنّه سيطاردون المنافقين و يتعقّبونهم خارج المدينه و يقتلونهم،أو أنّهم إذا بقوا فى المدينه بعد حكم الإبعاد العام سيلاقون هذا المصير،و لا منافاه بينهما،إذ أنّ المعنى هو أنّ هؤلاء المنافقين و المخرّبين و المرجفين و مرضى القلوب سوف لا يكونون بمأمن من سطوه المسلمين الشجعان بعد أن هدرت دماؤهم،و سحبت الحمايه عنهم،و صدر الحكم

بإخراجهم من المدينه،سواء بقوا فيها أم خرجوا.

ثمّ تضيف الآيه الأخيره من هذه الآيات أنّ هذا الأمر ليس جديدا،بل سُنَّةَ اللّهِ فِى الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ فكلّما زادت صلافه المفسدين و تجاوزت مؤامراتهم الحدود،يصدر الأمر بالهجوم عليهم.

و لمّا كان هذا الحكم سنّه إلهيّه،فإنّه سوف لا يتغيّر و لا يتبدّل أبدا،حيث أنّ سنّه اللّه ثابته وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللّهِ تَبْدِيلاً .

إنّ هذا التعبير يجسّد كون هذا التهديد حقيقيا و جديا،ليعلموا أنّ هذا المطلب و المصير حتمى،و له جذوره و نظائره فى التأريخ،و لا سبيل إلى تغييره و تبديله، فإمّا أن ينتهوا عن أعمالهم المخزيه،أو أن ينتظروا هذا المصير المؤلم.

تعليقات

اشاره

۱-ابدأ بنفسک!

الأمر الذى ورد فى الآيات مورد البحث حول وجوب رعايه الحجاب الإسلامى بدقّه،و أمر النّبى صلّى اللّه عليه و آله أن يبلغ هذا الأمر،أوّل ما بدأ بنساء النّبى،ثمّ بناته، ثمّ المؤمنات،و هو إشاره إلى أنّك يجب أن تبدأ بنفسک و أهل بيتک فى أىّ برنامج إصلاحى،و هذا خطّ لكلّ مصلحى البشر.

و بدأ بالزوجات عند ما دار الأمر بين الزوجات و البنات،و ذلك لأنّهنّ أقرب إلى الرجل،لأنّ البنات يتزوجنّ و ينتقلن إلى بيوت الأزواج.

۲-العلاج من طريقين:

لمّا كانت المفاسد الاجتماعيه لا تنبعث من علّه واحده غالبا،فلذلك يجب أن تبدأ مكافحتها من جميع الجوانب.و الطريف فى الأمر أنّ الآيات المذكوره،و من

أجل الوقوف أمام مضايقات الطائشين قد أمرت المؤمنات أوّلا- أن لا- يتركن ذريعه بيد الطائشين،ثمّ أوقفتهم عند حدّهم بتهديدهم أشدّ تهديد.

و هذا أيضا برنامج دائمى للجميع،بأنّ الصديق لا بدّ من إصلاحه،و يوقف العدوّ عند حدّه بالقوّه.

۳-موقع المسلمين القوى:

يستفاد جيّدا من تهديدات الآيات القويّه و الشديده أنّه بعد انتهاء حادثه«بنى قريظه»،و اجتثاث جذور هذه الفئه من الأعداء الداخليين الخطرين،فإنّ موقع المسلمين قد قوى فى المدينه تماما،و لم تكن المخالفات تأتى إلاّ من جانب المنافقين المندسّين بين صفوف المسلمين،أو من جانب جماعه من الأوباش و المتهوّرين و مطلقى الإشاعات،فتعامل النّبى صلّى اللّه عليه و آله معهم من موقع القوّه،و حذّرهم بشدّه بأنّهم إن لم يكفوا عن مؤامراتهم و نفثهم للسموم،فإنّه سيقوم بتصفيه الحساب معهم بهجوم واحد و يقضى عليهم! و قد أثّر هذا التعامل الحازم و الدقيق أثره بوضوح تامّ.

۴-اجتثاث جذور الفساد:

هل أنّ ما ورد فى الآيات أعلاه عن اقتلاع جذور المفاسد كمؤامرات المنافقين،و ملاحقه أعراض المسلمين و أذاهم،و إطلاق الإشاعات يصلح علاجا فى سائر الأعصار و القرون،و لكلّ الحكومات الإسلاميه؟ قليل من المفسّرين من بحث ذلك،إلاّ أنّه يبدو أنّ هذا الحكم كسائر الأحكام الإسلاميه لا يختّص بزمان أو مكان أو أشخاص.

إذا كان نفث السموم و التآمر قد تجاوز الحدّ على أرض الواقع،و أصبح كتيار جارف يهدّد المجتمع الإسلامى بأخطار حقيقيه،فما المانع من أن تنفذ الحكومه

الإسـلاميه أوامر الآيـات أعلاه،و التی أنزلت علی النّبی صـلّی اللّه علیه و آله و منحته هـذه الصـلاحیه، و تعبئ الناس للقضاء علی جـذور الفسـاد؟ إلاّ ـ أنّ ممّـا لا ـ شـکّ فیه أنّ هـذه الأعمـال و أمثالهـا،خـاصّه و أنّهـا مطروحه کسـنّه لا تقبل التغییر،لا یسـمح بها کتصرّف شخصی،و تمسّک برأی خاصّ،بل تجوز فقط بعد إذن ولی أمر المسلمین و حکّام الشرع بها.

۵-سنن اللّه الثابته:

قرأنا فی الآیات السابقه أنّ القرآن ذکر أنّ إحـدی سـنن اللّه التی لا تقبل التغییر هی اقتلاع جـذور التآمر بهجوم عامّ،و قـد کانت هذه السنّه جاریه فی الأمم السابقه.

و قـد ورد نظیر هـذا التعبیر فی مواضع اخری من القرآن،و من جملتها ما ورد فی الآیه(۳۸)من سوره الأحزاب هذه،فبعد أن أجاز سبحـانه مخـالفه سـنّه جاهلیه خاطئه و إلغاءها فی مسأله مطلقه الابن بالادّعاه،یقول:لیس للنبی أیّ ذنب إذا ما نفّـذ أوامر اللّه مهما کانت.

ثمّ یضیف تعالی: سُنَّهَ اللّهِ فِی الَّذِینَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَ کانَ أَمْرُ اللّهِ قَدَراً مَقْدُوراً .

و فی الآیه(۴۳)من سوره فاطر،و بعد أن هدّد الکافرین و المجرمین بالفناء و الهلاک،یقول سبحانه: فَهَلْ یَنْظُرُونَ إِلاّ سُنَّتَ الْأَوَّلِینَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللّهِ تَبْدِیلاً وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللّهِ تَحْوِیلاً .

و فی الآیه(۸۵)من سوره غافر،و بعد أن صـرّح بأنّ إیمان الکفّار العنودین من الأقوام الماضـین عند مشاهدتهم عذاب الاستئصال لم ینفعهم شیئا،یضیف: سُنَّتَ اللّهِ الَّتِی قَدْ خَلَتْ فِی عِبادِهِ وَ خَسِرَ هُنالِکَ الْکافِرُونَ .

و فی الآـیه(۲۳)مـن سـوره الفتـح،و بعـد أن ذکر انتصـار المـؤمنین و هزیمـه الکفّـار فی الحروب،و أن لیس لهـم ولی و لا نصیر،یضیف: سُنَّهَ اللّهِ الَّتِی قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ

وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّهِ اللّهِ تَبْدِيلاً .

و كذلك فى الآيه(٧٧)من سوره الإسراء عند ما يبيّن مؤامره إبعاد النّبى أو قتله،يضيف: وَ إِذاً لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاّ قَلِيلاً سُنَّهَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنا وَ لا تَجِدُ لِسُنَّتِنا تَحْوِيلاً .

يستفاد من مجموع هذه الآيات جيّدا أنّ المراد من السنّه فى مثل هذه الموارد:

القوانين الإلهيّه الثابته و الأساسيه،سواء التكوينيه منها أم التشريعيه،التى لا تتغيّر مطلقا.

و بتعبير آخر:فإنّ للّه سبحانه فى عالم التكوين و التشريع قوانين و أصولا ثابته، كالقوانين الأساسيه و الدساتير المسنونه بين شعوب العالم و التى لا تتبدّل،و لا تكون عرضه للتغيير،و هذه القوانين الإلهيه كانت حاكمه على الأقوام الماضين، و تحكّمنا اليوم،و ستكون حاكمه فى المستقبل على الأجيال الآتيه.

إنّ نصره النّبى،و هزيمه الكفّار،و وجوب تنفيذ أوامر اللّه و العمل بموجبها،حتّى و إن أدّت إلى إثاره سخط الناس و عدم رضاهم،عدم جدوى التوبه حين نزول العذاب الإلهى،و أمثال ذلك هى جزء من هذه السنن الخالده.

إنّ هذه التعبيرات تسلّى خواطر كلّ السائرين فى طريق الحقّ،و تمنحهم الهدوء و الطمأنينه من جهه،و توضّح من جهه اخرى وحده دعوه الأنبياء و انسجامها،و تناسق القوانين الحاكمه على نظام الخلقه و نظام الحياه الإنسانيه و اتّحادها،و هى فى الحقيقه فرع من فروع التوحيد.

الآيات [سوره الأحزاب (٣٣): الآيات ٦٣ الى ٦٨]

اشاره

يَسْئَلُكَ اَلنّاسُ عَنِ اَلسّاعَهِ قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اَللّهِ وَ ما يُدْرِيكَ لَعَلَّ اَلسّاعَهَ تَكُونُ قَرِيباً (٦٣) إِنَّ اَللّهَ لَعَنَ اَلْكافِرِينَ وَ أَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً (٦۴) خالِدِينَ فِيها أَبَداً لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَ لا نَصِيراً (٦۵) يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي اَلنّارِ يَقُولُونَ يا لَيْتَنا أَطَعْنَا اَللّهَ وَ أَطَعْنَا اَلرَّسُولاَ (۶۶) وَ قالُوا رَبَّنا إِنّا أَطَعْنا سادَتَنا وَ كُبَراءَنا فَأَضَلُّونَا اَلسَّبِيلاَ (۶٧) رَبَّنا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ اَلْعَذابِ وَ اِلْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً (۶٨)

التّفسير

اشاره

يسألون أيّان يوم القيامه؟!

كانت الآيات السابقه تتحدّث عن مؤامرات المنافقين و الأشرار،و قد أشير في هذه الآيات التي نبحثها إلى واحده اخرى من خططهم الهدّامه،و أعمالهم المخرّبه، حيث كانوا يطرحون أحيانا هذا السؤال:متى تقوم القيامه التي يخبر بها محمّد و يذكر لها كلّ هذه الصفات؟و ذلك إمّا استهزاء،أو لزرع الشكّ فيها في قلوب

البسطاء،فتقول الآيه: يَسْئَلُکَ النّاسُ عَنِ السّاعَهِ .

و يحتمل أيضا أن يكون بعض المؤمنين قد سأل النّبى صلّى اللّه عليه و آله هذا السؤال بدافع من حبّ الاستطلاع،أو للحصول على معلومات أكثر حول هذا الموضوع.

غير أنّ ملاحظه الآيات التى تلى هذه الآيه ترجّح التّفسير الأوّل،و الشاهد الآخر لهذا الكلام ما ورد فى الآيتين ١٧-١٨/سوره الشورى فى هذا الباب، حيث تقولان: وَ مّا يُدْرِيکَ لَعَلَّ السّاعَهَ قَرِيبٌ. يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِها وَ الَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْها .

ثمّ تقول الآيه-مورد البحث-فى مقام جوابهم: قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللّهِ و لا يعلمها حتّى المرسلون و الملائكه المقرّبون.

ثمّ تضيف بعد ذلك: وَ مّا يُدْرِيکَ لَعَلَّ السّاعَهَ تَكُونُ قَرِيباً .

و بناء على هذا يجب أن نكون مستعدّين دائما لقيام القيامه،و هذه هى الحكمه من كونها خافيه مجهوله لئلاّ يظنّ أحد أنّه فى مأمن منها،و يتصوّر أنّ القيامه بعيده فعلا،و يعتبر نفسه فى معزل عن عذاب اللّه و عقابه.

ثمّ تطرّقت الآيه إلى تهديد الكافرين،و تناولت جانبا من عقابهم الأليم،فقالت:

إِنَّ اللّهَ لَعَنَ الْكافِرِينَ وَ أَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً خالِدِينَ فِيها أَبَداً لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَ لا نَصِيراً

.

الفرق بين«الولى»و«النصير»هنا هو:أنّ«الولى»من يتولّى القيام بكلّ الأعمال و تنفيذها،أمّا«النصير»فهو الذى يعين على الوصول إلى الهدف المطلوب.إلاّ أنّ هؤلاء الكافرين لا وليّ لهم فى القيامه و لا نصير.

ثمّ بيّنت جزءا آخر من عذابهم الأليم فى القيامه فقالت: يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِی النّارِ و هذا التقليب إمّا أن يكون فى لون البشره و الوجه حيث تصبح حمراء أو سوداء أحيانا،أو من جهه تقلّبهم فى النار و لهيبها حيث تكون وجوههم فى مواجهه النار أحيانا،و أحيانا جوانب اخرى(نعوذ باللّه من ذلك).

هنا ستنطلق صرخات حسرتهم،و يَقُولُونَ يا لَيْتَنا أَطَعْنَا اللّهَ وَ أَطَعْنَا الرَّسُولاَ فإنّا لو كنّا أطعناهما لم يكن ينتظرنا مثل هذا المصير الأسود الأليم.

وَ قالُوا رَبَّنا إِنّا أَطَعْنا سادَتَنا وَ كُبَراءَنا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاَ

(۱)

.

(الساده)جمع«سيّد»،و هو المالك العظيم الذى يتولّى إداره المدن المهمّه أو الدول،و«الكبراء»جمع«كبير»و هو الفرد الكبير سواء من ناحيه السنّ،أو العلم، أو المركز الاجتماعى و أمثال ذلك.و بهذا فإنّ الساده إشاره إلى رؤساء البلاد العظام،و الكبراء هم الذين يتولّون إداره الأمور تحت إشراف أولئك الساده، و يعتبرون معاونين و مشاورين لهم،و كأنّهم يقولون:إنّنا قد جعلنا طاعه الساده محل طاعه اللّه،و طاعه الكبراء مكان طاعه الأنبياء،فابتلينا بأنواع الانحرافات و التعاسه و الشقاء.

من البديهى أنّ معيار السياده و كون الشخص كبيرا بين أولئك الأقوام هو القوّه و السيطره،و المال و الثروه الغير مشروعه،و المكر و الخداع.و ربّما كان إختيار هذين التعبيرين هنا من أجل أنّهم يحاولون توجيه عذرهم و يقولون:لقد كنّا تحت تأثير العظمه الظاهريه لأولئك.

هنا تثور ثائره هؤلاء الجهنميين الضالّين،و يطلبون من اللّه سبحانه أن يزيد فى عذاب مضلّيهم و عقابهم أشدّ عقاب فيقولون: رَبَّنا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذابِ وَ الْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً -عذاب لإضلالهم-.

من المسلّم أنّ هؤلاء يستحقّون العذاب و اللعن،و استحقاقهم للعذاب المضاعف و اللعن الكبير بسبب سعيهم فى سبيل إضلال الآخرين،و دفعهم إلى طريق الانحراف.

و الطريف ما ورد فى الآيه ۳۸ من سوره الأعراف،من أنّ هؤلاء المتّبعين

---

۱ – ۱) إنّ الألف فى«الرسولا»و«السبيلا»هى ألف الإطلاق،و لتناسق آخر الآيات،و إلاّ فإنّ التنوين لا يجتمع مع الألف و اللام مطلقا.

الضالّين عند ما يطلبون عذاب الضعف لسادتهم و أئمّتهم،يقال: لِكَلٍّ ضِعْفٌ وَ لٰكِنْ لاٰ تَعْلَمُونَ (۱) .

إنّ كون عـذاب أئمّه الكفر و الضـلال مضاعفـا واضـح،لكن لمـا ذا يكون عـذاب من اتّبعهم مضاعفـا؟ إنّ سـبب ذلـك هو أنّهم استحقّوا عـذابا لضـلالتهم،و العـذاب الآـخر لمعونه الظالمين و مؤازرتهم،لأنّ الظالمين لا يقـدرون على أن يسـتمرّوا فى عمل ما لوحـدهم مهما كانت لهم من قوّه، إلاّ أنّ أتباعهم هم الـذين يؤجّجون نار حروبهم،و يسـجرون أتون ظلمهم و كفرهم،و إن كان عذاب أئمّه الكفر-إذا ما قورن بعذاب المتّبعين- أشدّ و آلم بدون شكّ.

و قد كان لنا بحث مفصّل فى هذا الباب فى الآيه(۳۰)من هذه السوره.

۱- ۱) ممّـا يسـتحقّ الانتباه أنّه قـد ورد«الضـعفان»فى الآيات مورد البحث،و«الضـعف»فى آيه سوره الأعراف،إلاّ أنّه بالتـدقيق فى معنى الضعف يتّضح أنّ لكليهما معنى واحدا.

الآيات [سوره الأحزاب (٣٣): الآيات ۶۹ الی ۷۱]

اشاره

يٰا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسىٰ فَبَرَّأَهُ اَللّٰهُ مِمّٰا قٰالُوا وَ كٰانَ عِنْدَ اَللّٰهِ وَجِيهاً (۶۹) يٰا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا اِتَّقُوا اَللّٰهَ وَ قُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (۷۰) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمٰالَكُمْ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَ مَنْ يُطِعِ اَللّٰهَ وَ رَسُولَهُ فَقَدْ فٰازَ فَوْزاً عَظِيماً (۷۱)

التّفسير

اشاره

بما ذا رموا موسى عليه السّلام و اتّهموه؟

بعد البحوث التى مرّت فى الآيات السابقه حول وجوب احترام مقام النّبى صلّى اللّه عليه و آله،و ترک کلّ ما يؤذيه و الابتعاد عنه،فقد وجّهت هذه الآيات الخطاب للمؤمنين،و قالت: يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسىٰ فَبَرَّأَهُ اللّٰهُ مِمّٰا قٰالُوا وَ كٰانَ عِنْدَ اللّٰهِ وَجِيهاً .

إنّ إختيار موسى عليه السّلام من جميع الأنبياء الذين طالما أوذوا،بسبب أنّ المؤذين من بنى إسرائيل قد آذوه أكثر من أى نبى آخر،إضافه إلى أنّ بعض أنواع الأذى التى رآها كانت تشبه أذى المنافقين لنبى الإسلام صلّى اللّه عليه و آله.

و هناک بحث بين المفسّرين فى المراد من إيذاء موسى عليه السّلام هنا؟و لماذا ذكره

القرآن بشكل مبهم؟و قد ذكروا احتمالات عديده فی تفسیر الآیه،و من جملتها:

۱-إنّ موسی و هارون علیهما السّلام قد ذهبا إلی جبل-طبق روایه-و ودّع هارون الحیاه،فأشاع المرجفون من بنی إسرائیل أنّ موسی علیه السّلام قد تسبّب فی موته،فأبان اللّه سبحانه حقیقه الأمر،و أسقط ما فی ید المرجفین.

۲-کما أوردنا مفصّلا فی ذیل الآیات الأخیره من سوره القصص،فإنّ قارون المحتال أراد أن یتملّص من قانون الزکاه،و لا یؤدّی حقوق الضعفاء و الفقراء، فعمد إلی بغیّ و اتّفق معها علی أن تقوم بین الناس و تتّهم موسی علیه السّلام بأنّه زنی بها، إلاّ أنّ هذه الخطّه قد فشلت بلطف اللّه سبحانه،بل و شهدت تلک المرأه بطهاره موسی علیه السّلام و عفته،و بما أراده منها قارون.

۳-إنّ جماعه من الأعداء اتّهموا موسی علیه السّلام بالسحر و الجنون و الافتراء علی اللّه،و لکن اللّه تعالی برّأه منها بالمعجزات الباهرات.

۴-إنّ جماعه من جهّال بنی إسرائیل قد اتّهموه بأنّ فیه بعض العیوب الجسمیه کالبرص و غیره،لأنّه کان إذا أراد أن یغتسل و یستحمّ لا یتعرّی أمام أحد مطلقا، فأراد أن یغتسل یوما بمنأی عن الناس،فوضع ثیابه علی حجر هناک،فتدحرج الحجر بثیابه،فرأی بنو إسرائیل جسمه،فوجدوه مبرّأ من العیوب.

۵-کان المعذرون من بنی إسرائیل أحد عوامل إیذاء موسی علیه السّلام،فقد کانوا یطلبون تاره أن یریهم اللّه عزّ و جلّ«جهره»،و اخری یقولون:إنّ نوعا واحدا من الطعام-و هو«المنّ و السلوی»-لا یناسبنا،و ثالثه یقولون:إنّنا غیر مستعدّین للدخول إلی بیت المقدس و محاربه«العمالقه».اذهب أنت و ربّک فقاتلا،و افتحاه لنا لندخله بعد ذلک! الاّ أنّ الأقرب لمعنی الآیه،هو أنّها بصدد بیان حکم کلّی عام جامع،لأنّ بنی إسرائیل قد آذوا موسی علیه السّلام من جوانب متعدّده..ذلک الأذی الذی لم یکن یختلف عن أذی بعض أهل المدینه(لنبیّنا صلّی اللّه علیه و آله)کإشاعه بعض الأکاذیب و اتّهام زوج النّبی

بتهم باطله،و قد مرّ تفصيلها فی تفسیر سوره النور-ذیل الآیات ۱۱-۲۰- و الاعتراضات التی اعترضوا بها علی النّبی صلّی اللّه علیه و آله فی زواجه بزینب،و أنواع الأذی و المضایقات التی کانوا یضایقونه بها فی بیته،أو مناداته بأسلوب خال من الأدب و الأخلاق،و غیر ذلک.

و أمّا الاتّهام بالسحر و الجنون و أمثال ذلک،أو العیوب البدنیه،فإنّها و إن اتّهم موسی بها،إلاّ أنّها لا تتناسب مع یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا بالنسبه لنبیّنا صلّی اللّه علیه و آله إذ لم یتّهم المؤمنون موسی علیه السّلام و لا نبیّنا صلّی اللّه علیه و آله بالسحر و الجنون.و کذلک الاتّهام بالعیوب البدنیه،فإنّه علی فرض کونه قد حدث بالنسبه لموسی علیه السّلام،و أنّ اللّه تعالی قد برّأه، فلیس له مصداق أو حادثه تؤیّده فی تاریخ نبیّنا صلّی اللّه علیه و آله.

و علی أیّه حال،فیمکن أن یستفاد من هذه الآیه أنّ من کان عند اللّه وجیها و ذا منزله،فإنّ اللّه سبحانه یدافع عنه فی مقابل من یؤذیه و یتّهمه بالأباطیل،فکن طاهرا و عفیفا،و احفظ وجاهتک عند اللّه،فإنّه تعالی سیظهر عفّتک و طهارتک للناس،حتّی و إن سعی الأشقیاء و المسیؤون إلی اتّهامک و تحطیم منزلتک و تشویه سمعتک بین الناس.

و قد قرأنا نظیر هذا المعنی فی قصّه«یوسف»الصدّیق الطاهر،و کیف برّأه اللّه سبحانه من تهمه امرأه عزیز مصر الکبیره و الخطیره.

و کذلک فی شأن«مریم»بنت عمران أمّ عیسی علیه السّلام،حیث شهد ولیدها الرضیع بطهارتها و عفّتها،و قطع بذلک ألسن المتربّصین بها من بنی إسرائیل،و الذین کانوا یسعون لاتّهامها و تلویث سمعتها.

و الجدیر بالذکر أنّ هذا الخطاب لم یکن مختّصا بالمؤمنین فی زمان النّبی صلّی اللّه علیه و آله، بل من الممکن أن تشمل الآیه حتّی أولئک الذین سیولدون بعده و یقومون بعمل یؤذون روحه الطاهره به،فیحتقرون دینه و یستصغرون شأنه،و ینسون مواریثه، و لذلک

جاء فی بعض الرّوایات الوارده عن أهل البیت علیهم السّلام: «یا أیّها الذین آمنوا لا

تؤذوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله فى على و الأئمّه صلوات اللّه عليهم...» (۱) .

و آخر كلام فى تفسير هذه الآيه هو:أنّه بعد ملاحظه أحوال الأنبياء العظام الذين لم يكونوا بمأمن من جراحات ألسن الجاهلين و المنافقين،يجب أن لا نتوقّع أن لا يبتلى المؤمنون و الطاهرون بمثل هؤلاء الأفراد،

فإنّ الإمام الصادق عليه السّلام يقول: «إنّ رضى الناس لا يملك و ألسنتهم لا تضبط..» ثمّ يضيف الإمام فى نهايه هذا الحديث: «أ لم ينسبوا إلى موسى أنّه عنين و آذوه حتّى برّأه اللّه ممّا قالوا، و كان عند اللّه وجيها» (۲) .

قولوا الحقّ لتصلح أعمالكم:

بعد البحوث السابقه حول ناشرى الإشاعات و الذين يؤذون النّبى،تصدر الآيه التاليه أمرا هو فى الحقيقه علاج لهذا المرض الاجتماعى الخطير،فتقول: يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّٰهَ وَ قُولُوا قَوْلاً سَدِيداً .

«القول السديد»من مادّه(سد)أى المحكم المنيع الذى لا يعتريه الخلل، و الموافق للحقّ و الواقع،و يعنى القول الذى يقف كالسدّ المنيع أمام أمواج الفساد و الباطل.و إذا ما فسّره بعض المفسّرين بالصواب،و البعض الآخر بكونه خالصا من الكذب و اللغو و خاليا منه،أو تساوى الظاهر و الباطن و وحدتهما،أو الصلاح و الرشاد،و أمثال ذلك،فإنّها فى الواقع تفاسير ترجع إلى المعنى الجامع أعلاه.

ثمّ تبيّن الآيه التاليه نتيجه القول السديد،فتقول: يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمٰالَكُمْ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ .

إنّ التقوى فى الواقع هى دعامه إصلاح اللسان و أساسه،و منبع قول الحقّ، و القول الحقّ أحد العوامل المؤثّره فى إصلاح الأعمال،و إصلاح الأعمال سبب

۱- ۱) نور الثقلين،المجلّد ۴،ص ۳۰۸.

۲- ۲) نور الثقلين،المجلّد ۴،ص ۳۰۹.

مغفره الذنوب،و ذلک ل إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ . (۱)

يقول علماء الأخلاق:إنّ اللسان أكثر أعضاء البدن بركه،و أكثر الوسائل تأثيرا فى الطاعه و الهدايه و الصلاح،و هو فى الوقت نفسه يعدّ أخطر أعضاء البدن و أكثرها معصيه و ذنبا، حتّى أنّ ما يقرب من الثلاثين كبيره تصدر من هذا العضو الصغير (۲) .

و

فى حديث عن النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله: «لا يستقيم إيمان عبد حتّى يستقيم قلبه، و لا يستقيم قلبه حتّى يستقيم لسانه» (۳) .

و من الرائع جدّا ما

ورد فى حديث آخر عن الإمام السجّاد عليه السّلام: «إنّ لسان ابن آدم يشرف كلّ يوم على جوارحه فيقول:كيف أصبحتم؟فيقولون:بخير إن تركتنا.

و يقولون:اللّه اللّه فينا،و يناشدونه و يقولون:إنّما نثاب بک و نعاقب بک» (۴) .

هناک روايات كثيره فى هذا الباب تحكى جميعا عن الأهميّه الفائقه للّسان و دوره فى إصلاح الأخلاق و تهذيب النفوس الإنسانيه،و لذلک نقرأ

فى حديث:

«ما جلس رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله على هذا المنبر قطّ إلّا تلا هذه الآيه:

۱- ۱) سوره هود،الآيه ۱۱۴.

۲- ۲) عد الغزالى فى إحياء العلوم عشرين كبيره أو معصيه تصدر عن اللسان،و هى:۱-الكذب ۲-الغيبه ۳-النميمه ۴-النفاق فى الكلام،أى كون الإنسان ذا لسانين و وجهين ۵-المدح فى غير موضعه ۶-بذاءه الكلام ۷-الغناء و الأشعار غير المرضيه ۸-الإفراط فى المزاح ۹-السخريه و الاستهزاء ۱۰-إفشاء أسرار الآخرين ۱۱-الوعد الكاذب ۱۲-اللعن فى غير موضعه ۱۳-التخاصم و النزاع ۱۴-الجدال و المراء ۱۵-البحث فى امور الباطل ۱۶-الثرثره ۱۷-البحث فى الأمور التى لا تعنى الإنسان ۱۸-وصف مجالس الشراب و القمار و المعصيه ۱۹-السؤال عن المسائل الخارجه عن إدراک الإنسان و البحث فيها ۲۰-التصنع و التكلف فى الكلام. و نزيد عليها عشره مواضيع مهمه اخرى،و هى:۱-الاتهام ۲-شهاده الزور ۳-إشاعه الفحشاء،و نشر الإشاعات التى لا أساس لها ۴-مدح الإنسان نفسه ۵-الإصرار فى غير محله ۶-الغلظه و الخشونه فى الكلام ۷-الأذى باللسان ۸-ذم من لا يستحق الذم ۹-كفران النعمه اللسان ۱۰-الإعلام الباطل.

۳- ۳) بحار الأنوار،المجلد ۷۱،صفحه ۷۸.

۴- ۴) بحار الأنوار،المجلد ۷۱،صفحه ۲۷۸.

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّهَ وَ قُولُوا قَوْلاً سَدِيداً

(۱)

.

ثمّ تضيف الآيه فی النهايه: وَ مَنْ يُطِعِ اللّهَ وَ رَسُولَهُ فَقَدْ فٰازَ فَوْزاً عَظِيماً و أی فوز و ظفر أسمی من أن تكون أعمال الإنسان صالحه،و ذنوبه مغفوره،و هو عند اللّه من المبيضه وجوههم الذين رضی اللّه عنهم؟!

۱- ۱) الدرّ المنثور،طبقا لنقل تفسير الميزان،الجزء ۱۶،صفحه ۳۷۶.

الآيتان [سوره الأحزاب (٣٣): الآيات ٧٢ الى ٧٣]

اشاره

إِنّٰا عَرَضْنَا اَلْأَمٰانَهَ عَلَى اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ اَلْجِبٰالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهٰا وَ أَشْفَقْنَ مِنْهٰا وَ حَمَلَهَا اَلْإِنْسٰانُ إِنَّهُ كٰانَ ظَلُوماً جَهُولاً (٧٢) لِيُعَذِّبَ اَللّٰهُ اَلْمُنٰافِقِينَ وَ اَلْمُنٰافِقٰاتِ وَ اَلْمُشْرِكِينَ وَ اَلْمُشْرِكٰاتِ وَ يَتُوبَ اَللّٰهُ عَلَى اَلْمُؤْمِنِينَ وَ اَلْمُؤْمِنٰاتِ وَ كٰانَ اَللّٰهُ غَفُوراً رَحِيماً (٧٣)

التّفسير

اشاره

حمل الأمانه الإلهيه أعظم افتخارات البشر:

تكمل هاتان الآيتان-اللتان هما آخر آيات سوره الأحزاب-المسائل المهمّه التى وردت فى هذه السوره فى مجالات الإيمان،و العمل الصالح،و الجهاد، و الإيثار،و العفّه و الأدب و الأخلاق،و تبيّن كيف أنّ الإنسان يحتل موقعا ساميا جدّا بحيث يستطيع أن يكون حامل رساله اللّه العظيمه،و كيف أنّه إذا ما جهل قيمه الحياتيه و الوجوديه سيظلم نفسه غايه الظلم،و ينحدر إلى أسفل سافلين! تبيّن الآيه أوّلا أعظم امتيازات الإنسان و أهمّها فى كلّ عالم الخلقه،فتقول:

إِنّٰا عَرَضْنَا الْأَمٰانَهَ عَلَى السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ الْجِبٰالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهٰا وَ أَشْفَقْنَ

مِنْهٰا

.

ممّـا لا شكّ فيه أنّ إباءها تحمل المسؤوليه و امتناعها عن ذلك لم يكن استكبارا منها،كما كان ذلك من الشيطان،حيث تقول الآيه(۲۴)من سوره البقره: أَبىٰ وَ اسْتَكْبَرَ ،بل إنّ إياءها كان مقترنا بالإشفاق،أى الخوف الممتزج بالتوجّه و الخضوع.

إلاّ أنّ الإنسان،اعجوبه عالم الخلقه،قد تقدّم وَ حَمَلَهَا الْإِنْسٰانُ إِنَّهُ كٰانَ ظَلُوماً جَهُولاً .

لقد تحدّث كبار مفسّـرى الإسلام حول هذه الآيه كثيرا،و سعوا كثيرا من أجل الوصول إلى حقيقه معنى«الأمانه»،و أبدوا وجهات نظر مختلفه،نختار أفضلها بتقصّى القرائن الموجوده فى طيّات الآيه.

و يجب التأكيد فى هذه الآيه العميقه المحتوى على خمس موارد:

۱-ما هو المراد من الأمانه؟ ۲-ما معنى عرضها على السماوات و الأرض و الجبال؟ ۳-لماذا و كيف أبت هذه الموجودات حمل هذه الأمانه؟ ۴-كيف حمل الإنسان ثقل الأمانه هذا؟ ۵-لماذا و كيف كان ظلوما جهولا؟ لقد ذكرت تفاسير مختلفه للأمانه و من جملتها:

أنّ المراد من الأمانه:هى الولايه الإلهيه،و كمال صفه العبوديه،و الذى يحصل عن طريق المعرفه و العمل الصالح.

أنّ المراد:صفه الإختيار و الحريه و الإراده التى تميّز الإنسان عن سائر الموجودات.

أنّ المراد:العقل الذى هو ملاك التكليف،و مناط الثواب و العقاب.

أنّ المراد:أعضاء جسم الإنسان،فالعين أمانه اللّه،و يجب الحفاظ عليها و عدم

استعمالها فی طریق المعصیه،و الاذن و الید و الرجل و اللسان کلّها أمانات یجب حفظها.

أنّ المراد:الأمانات التی یأخذها الناس بعضهم من بعض،و الوفاء بالعهود.

أنّ المراد:معرفه اللّه سبحانه.

أنّ المراد:الواجبات و التکالیف الإلهیّه کالصلاه و الصوم و الحجّ.

لکن یتّضح من خلال أدنی دقّه أن هذه التفاسیر لا تتناقض مع بعضها،بل یمکن إدغام بعضها فی البعض الآخر،فبعضها أخذت جانبا من الموضوع،و بعضها الآخر کلّه.

و من أجل الحصول علی جواب جامع کاف،یجب أن نلقی نظره علی الإنسان لنری أی شیء یمتلکه و تفتقده السماوات و الأرضون و الجبال؟ إنّ الإنسان موجود له استعدادات و قابلیات یستطیع من خلال استغلالها أن یکون أتمّ مصداق لخلیفه اللّه،و یستطیع أن یصل إلی قمّه العظمه و الشرف باکتساب المعرفه و تهذیب النفس و تحصیل الکمالات،و أن یسمو حتّی علی الملائکه.

إنّ هذا الاستعداد المقترن بالحریه و الإراده و الإختیار یعنی أنّ الإنسان یطوی هذا الطریق بإرادته و إختیاره،و یبدأ فیه من الصفر و یسیر إلی ما لا نهایه.

إنّ السماء و الأرض و الجبال تمتلک نوعا من المعرفه الإلهیه،و هی تذکر اللّه سبحانه و تسبّحه،و تخضع لعظمته و تخشع لها و تسجد،إلاّ أنّ کلّ ذلک ذاتی و تکوینی و إجباری،و لذلک لیس فیه تکامل ورقی،و الموجود الوحید الذی لا ینتهی منحنی صعوده و نزوله،و هو قادر علی ارتقاء قمّه التکامل بصوره لا تعرف الحدود،و یقوم بکلّ هذه الأعمال بإرادته و إختیاره،هو الإنسان،و هذه هی «الأمانه الإلهیّه»التی امتنعت من حملها کلّ الموجودات،و حملها الإنسان! و لذلک نری الآیه التالیه قسّمت البشر إلی ثلاث فئات:«المؤمنین»و«الکفّار»و

«المنافقين».

بناء على هـذا يجب القول فى عباره مختصـره أنّ الأمانه الإلهيه هى قابليه التكامل غير المحدوده و الممتزجه بالإراده و الإختيار،و الوصول إلى مقام الإنسان الكامل،و عبوديه اللّه الخاصّه و تقبّل ولايه اللّه.

لكن لماذا عبّر عن هـذا الأمر بالأمانه،مع أنّ كلّ وجودنا و كلّ ما لـدينا أمانه اللّه؟ لقد عبّر بهذا التعبير لأهميّه امتياز البشـر العظيم هذا،و إلّا فإنّ بقيه المواهب أمانات اللّه أيضا،غير أنّ أهميّتها تقلّ أمام هذا الامتياز.

و يمكن أن نعبّر هنا عن هذه الأمانه بتعبير آخر و نقول:إنّها التعهّد و الالتزام و قبول المسؤوليه.

بنـاء على هـذا فـإنّ أولئـك الـذين فسّروا الأمـانه بصـفه الإختيـار و الحريـه فى الإراده،قـد أشـاروا إلى جـانب من هـذه الأمـانه العظمى،كما أنّ أولئك الذين فسّروها بالعقل،أو أعضاء البدن،أو أمانات الناس لدى بعضـهم البعض،أو الفرائض و الواجبات،أو التكاليف بصوره عامّه،قد أشار كلّ منهم إلى غصن من أغصان هذه الشجره العظيمه المثمره،و اقتطف منها ثمره.

لكن ما هو المراد من عرض هـذه الأمانه على السـموات و الأرض؟ هل المراد:أنّ اللّه سـبحانه قد منح هذه الموجودات شـيئا من العقل و الشعور ثمّ عرض عليها حمل هذه الأمانه؟ أو أنّ المراد من العرض هو المقارنه؟أى أنّها عند ما قارنت حجم هذه الأمانه مع ما لديها من القابليات و الاستعدادات أعلنت عدم لياقتها و استعدادها عن تحمّل هذه الأمانه العظيمه.

طبعا،يبـدو أنّ المعنى الثّانى هو الأنسب،و بهـذا فإنّ السـماوات و الأرض و الجبال قـد صـرخت جميعا بأنّا لا طاقه لنا بحمل هـذه الأمانه.

و من هنـا يتّضـح جواب السؤال الثـالث أيضـا،بـأنّ هـذه الموجودات لمـا ذا و كيف رفضت و أبت حمـل هـذه الأمانه العظمى،و أظهرت إشـفاقها من ذلك؟ و من هنا تتّضح كيفيه حمل الإنسان لهذه الأمانه الإلهيه،لأنّ الإنسان كان قد خلق بشكل يستطيع معه تحمّـل المسؤوليه و القيـام بهـا،و أن يتقبّل ولايه اللّه،و يسـير فى طريق العبوديه و الكمال و يتّجه نحو المعبود الـدائم،و أن يطوى هذا الطريق بقدمه و إرادته،و بالاستعانه بربّه.

أمّـا مـا ورد فى روايـات عديـده وردت عن أهل البيت عليهم السّـلام من تفسـير هـذه الأمانه بقبول ولايه أمير المؤمنين على عليه السّـلام و ولـده،فمن أجـل أنّ ولايه الأنبياء و الأئمّه نور ساطع من تلك الولايه الإلهيه الكليّه،و الوصول إلى مقام العبوديه، و طى طريق التكامل لا يمكن أن يتمّ من دون قبول ولايه أولياء اللّه.

جاء فى حديث عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السّلام أنّه سئل عن تفسير آيه عرض الأمانه،فقال: «الأمانه الولايه،من ادّعاها بغير حقّ كفر» (۱) .

و

فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السّـلام أنّه قال عند ما سـئل عن تفسير هذه الآيه:«الأمانه الولايه،و الإنسان هو أبو الشرور المنافق» (۲) .

و المسـأله الاـخرى التى يلزم ذكرهـا هنا،هى أنّنا قلنا فى ذيل الآيه(۱۷۲)من سوره الأعراف فيما يتعلّق بعالم الـذرّ بأن أخـذ ميثاق اللّه على التوحيد كان عن طريق الفطره،و استعداد و طبيعه الآدمى،و إنّ عالم الذرّ هو عالم الاستعداد و الفطره.

و فى مـورد قبـول الأمـانه الإلـهيّه يجب القول بـأنّ هـذا القبول لم يكن قبول اتّفـاق و عقـد،بـل كـان قبولاـ تكوينيـا حسب عـالم الاستعداد.

السؤال الوحيد الذى يبقى هو مسأله كون الإنسان«ظلوما جهولا»،فهل أنّ

۱- ۱) تفسير البرهان،المجلّد ۳،صفحه ۳۴۱ ذيل الآيه مورد البحث.

۲- ۲) المصدر السابق.

وصف الإنسان بهاتين الصفتين-و ظاهرهما ذمّه و توبيخه-كان نتيجه قبوله لهذه الأمانه؟ من المسلّم أنّ النفى هو جواب هذا السؤال،لأنّ قبول هذه الأمانه أعظم فخر و ميزه للإنسان،فكيف يمكن أن يذمّ على قبوله مثل هذا المقام السامى؟ أم أنّ هذا الوصف بسبب نسيان غالب البشر و ظلمهم أنفسهم،و عدم العلم بقدر الإنسان و منزلته..و بسبب الفعل الذى بدأ منذ ابتداء نسل آدم من قبل قابيل و أتباعه،و لا يزال إلى اليوم.

إنّ الإنسان الذى ينادى من العرش،و بنى آدم الذين وضع على رؤوسهم تاج (كرّمنا بنى آدم)و البشر الذين هم و كلاء اللّه فى الأرض بمقتضى قوله سبحانه:

إِنِّی جٰاعِلٌ فِی الْأَرْضِ خَلِیفَهً و الإنسان الذى كان معلّما للملائكه و سجدت له، كم يجب أن يكون ظلوما جهولا لينسى كلّ هذه القيم الساميه الرفيعه،و يجعل نفسه أسيره هذه الدنيا،و تابعا لهذا التراب،و يكون فى مصاف الشياطين،فينحدر إلى أسفل سافلين؟! أجل..إنّ قبول هذا الخطّ المنحرف-و الذى كان و لا يزال له أتباع و سالكون كثيرون جدّا-خير دليل على كون الإنسان ظلوما جهولا،و لذلك نرى أنّه حتّى آدم نفسه،و الذى كان رأس السلسله و متمتّعا بالعصمه،يعترف بأنّه قد ظلم نفسه رَبَّنٰا ظَلَمْنٰا أَنْفُسَنٰا وَ إِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنٰا وَ تَرْحَمْنٰا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخٰاسِرِينَ . (۱)

لقد كان«ترك الأولى»الذى صدر منه ناشئا فى الحقيقه عن نسيان جزء من عظمه هذه الأمانه الكبرى! و على أى حال،فيجب الاعتراف بأنّ الإنسان الضعيف و الصغير فى الظاهر،هو اعجوبه علم الخلقه،حيث استطاع أن يتحمّل أعباء الأمانه التى عجزت السماوات

۱- ۱) الأعراف،۲۳.

و الأرضون عن حملها إذا لم ینس مقامه و منزلته (۱) .

و تبیّن الآیه التالیه علّه عرض هـذه الأمانه علی الإنسان،و بیان حقیقه أنّ أفراد البشر قـد انقسـموا بعد حمل هذه الأمانه إلی ثلاث فئـات:المنـافقین و المشـرکین و المؤمنین،فتقول: لِیُعَـذِّبَ اللّهُ الْمُنافِقِینَ وَ الْمُنافِقاتِ وَ الْمُشْـرِکِینَ وَ الْمُشْـرِکاتِ وَ یَتُوبَ اللّهُ عَلَی الْمُؤْمِنِینَ وَ الْمُؤْمِناتِ وَ کانَ اللّهُ غَفُوراً رَحِیماً .

یوجد هناک احتمالان فی معنی«اللام»فی لِیُعَذِّبَ :

الأوّل:أنّهـا«لام الغایه»التی تـذکر لبیان عاقبه الشـیء و نهایته،و بناء علی هـذا یکون معنی الآیه:کانت عاقبه حمل هـذه الأمانه أن سلک جماعه طریق النفاق، و جماعه سبیل الشـرک،و هؤلاء سیبتلون بعذاب اللّه لخیانتهم أمانته،و جماعه هم أهل الإیمان الذین ستشملهم رحمته لأدائهم هذه الأمانه و القیام بواجباتهم.

و الثـانی:أنّهـا«لام العلّه»،فتکون هناک جمله مقـدره،و علی هـذا یکون تفسـیر الآیه:کان الهـدف من عرض الأمانه أن یوضع کلّ البشر فی بوتقه الاختبار،لیظهر کلّ إنسان باطنه فیری من الثواب و العقاب ما یستحقّه.

و هنا امور ینبغی الالتفات إلیها:

۱-إنّ سبب تقـدیم أهـل النفاق علی المشـرکین هو أنّ المنافق یتظاهر بأنّه أمین فی حین أنّه خائن،إلّا أنّ خیانه المشـرک ظاهره مکشوفه،و لذلک فإنّ المنافق یستحقّ حظّا أکبر من العذاب.

۲-یمکن أن یکون سبب تقدیم هاتین الفئتین علی المؤمنین هو أنّ الآیه

۱- ۱) اتّضح ممّا قلناه فی تفسیر الآیه أن لا حاجه مطلقا إلی أن نقدر شـیئا فی الآیه،کما قال ذلک جمع من المفسّـرین، ففسّـروا الآیه بأنّ المراد من عرض أمانه اللّه علی السـماء و الأرض و الجبال هو عرضها علی أهلها،أی الملائکه!و لذلک قالوا بأنّ أولئک الذین أبوا أن یحملوها قد أدّوها،و أولئک الذین حملوها خانوها. إنّ هذا التّفسیر لیس مخالفا لظاهر الآیه من ناحیه الاحتیاج إلی التقـدیر و حسب،بـل یمکن أن ینـاقش و یورد علی اعتقـاده بـأنّ علی الملائکه نوع تکلیف،و أنّها حامله لجزء من هـذه الأمانه.و بغضّ النظر عن کلّ ذلک فإنّ تفسیر أهل الجبال بالملائکه لا یخلو من غرابه،دقّقوا ذلک.

السابقه قد ختمت ب ظَلُوماً جَهُولاً و هاتان الصفتان تناسبان المنافق و المشرک، فالمنافق ظالم،و المشرک جهول.

۳-لقد وردت کلمه(اللّه)مرّه واحده فی شأن المنافقین و المشرکین،و مرّه فی شأن المؤمنین،و ذلک لأنّ مصیر الفئتین الاوّلیین واحد،و حساب المؤمنین یختلف عنهما.

۴-یمکن أن یکون التعبیر بالتوبه بدل الجزاء و الثواب فی شأن المؤمنین بسبب أنّ أکثر خوف المؤمنین من الذنوب و المعاصی التی تصدر عنهم أحیانا،و لذا فإنّ الآیه تطمئنهم و تمنحهم السکینه بأنّ ذنوبهم ستغفر.

أو لأنّ توبه اللّه علی عباده تعنی رجوعه علیهم بالرحمه، و نعلم أنّ کلّ الهبات و العطایا و المکافآت قد أخفیت فی کلمه«الرحمه».

۵-إنّ وصف اللّه بالغفور و الرحیم ربّما کان فی مقابل الظلوم و الجهول.أو لمناسبته ذکر التوبه بالنسبه للمؤمنین و المؤمنات.

الآن و قد بلغنا نهایه سوره الأحزاب بفضل اللّه سبحانه،نری لزاما ذکر هذه المسأله،و هی:أنّ انسجام بدایه هذه السوره مع نهایتها یستحقّ الدقّه و الانتباه، لأنّ هذه السوره-سوره الأحزاب-قد بدأت بخطاب النّبی صلّی اللّه علیه و آله و أمره بتقوی اللّه، و نهیه عن طاعه الکافرین و المنافقین،و التأکید علی کون اللّه علیما حکیما، و انتهت بذکر أعظم مسأله فی حیاه البشر،أی حمل أمانه اللّه.ثمّ بتقسیم البشر إلی ثلاث فئات:المنافقین،و الکافرین،و المؤمنین،و التأکید علی کون اللّه غفورا رحیما.

و بین هذین البحثین طرحت بحوثا کثیره حول هذه الفئات الثلاثه،و أسلوب تعاملهم مع هذه الأمانه الإلهیه،و کلّ هذه البحوث یکمل بعضها بعضا،و یوضّح بعضها بعضا.

اللهمّ اجعلنا ممّن قبلوا أمانتک بإخلاص،و حملوها بعشق و لذّه،و قاموا

بواجباتهم تجاهها.

اللهمّ اجعلنا من المؤمنين الذين وسعتهم رحمتك،لا من المنافقين و المشركين الذين استحقّوا العذاب لكونهم ظلومين جهولين.

اللهمّ انزل غضبك و سخطك على أحزاب الكفر التى اتّحدت مرّه اخرى، و احتّلت مدينه الإسلام فى عصرنا الحاضر،و اهدم قصورهم على رؤوسهم.اللهمّ و هب لنا من الثبات و الاستقامه ما نقف به كالجبل لندافع عن مدينه الإسلام و نحرسها فى هذه اللحظات الحسّاسه.

آمين يا ربّ العالمين.

نهايه سوره الأحزاب

ص: ۳۷۵

سوره سبأ

اشاره

مکيّه و عدد آياتها أربع و خمسون آيه

ص :۳۷۷

محتوى سوره سبأ:

سمّيت السوره بهذا الاسم(سبأ)لذكرها قصّه قوم سبأ،و هى من السور المكيّه، التى تشتمل عاده على بحوث المعارف الإسلاميه و اصول الإعتقادات،خصوصا «المبدأ»و«المعاد»و«النبوّه».فأغلب بحوثها تحوم حول تلكم الموضوعات، لحاجه المسلمين لبلوره امور العقيده فى مكّه،و إعدادهم للانتقال إلى فروع الدين،و تشكيل الحكومه،و تطبيق كافّه البرامج الإسلاميه.

و بشكل إجمالى يمكن القول بأنّ محتوى هذه السوره يندرج فى خمسه مواضيع:

۱-«التوحيد»،و بعض الآثار الدالّه عليه فى عالم الوجود،و بعض صفات اللّه المقدّسه كالوحدانيه،و الربوبيه،و الالوهيه.

۲-قضيّه المعاد التى نالت النصيب الأوفى من العرض فى هذه السوره، باستعراضها ضمن بحوث منوّعه و من زوايا مختلفه.

۳-نبوّه الأنبياء السابقين و بالأخص رسول الإسلام الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و الردّ على تخرصات أعدائه حوله،و ذكر جانب من معجزات من سبقه من الأنبياء.

۴-التعرّض لذكر بعض النعم الإلهيه العظيمه،و مصير الشاكرين و الجاحدين من خلال استعراض جانب من حياه النّبى سليمان عليه السّلام و حياه قوم سبأ.

۵-الدعوه إلى التفكّر و التأمّل و الإيمان و العمل الصالح،و بيان تأثير هذه

العوامل فی سعاده و موفقیه البشر.

و علی کلّ حال،فانّها تشکّل برنامجا تربویا شاملا لتربیه الباحثین عن الحقّ.

فضیله هذه السوره:

یلاحظ فی الروایات تعبیرات ملفته حول أهمیّه هذه السوره و أهمیّه قراءتها.

من جملتها ما

ورد فی حدیث عن الرّسول صلّی اللّه علیه و آله أنّه قال: «من قرأ سوره سبأ لم یبق نبیّ و لا رسول إلاّ کان له یوم القیامه رفیقا و مصافحا» (1) .

و

فی حدیث آخر عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّه قال: «من قرأ الحمدین جمیعا، سبأ و فاطر،فی لیله لم یزل لیلته فی حفظ اللّه تعالی و کلاءته،فإن قرأهما فی نهاره لم یصبه فی نهاره مکروه،و اعطی من خیر الدنیا و خیر الآخره ما لم یخطر علی قلبه و لم یبلغ مناه» (2) .

و نذکّر-کما فی بدایه کلّ سوره-بأنّ من الطبیعی أنّ هذا الثواب العظیم لا یکون نصیب من یکتفی من قراءته بلقلقه اللسان و حسب،بل یجب أن تکون القراءه مقدّمه للتفکیر الذی یکون بدوره باعثا علی العمل الصالح.

فإنّ من یقرأ هذه السوره مثلا-سیعلم بأنّ الدمار الذی حلّ بقوم سبأ و جعل من مصرعهم عبره للعالمین،و مصیرهم مضربا للأمثال،إنّما کان لکفرانهم النعم الإلهیه الوافره.

و من یطّلع علی ذلک فسیؤدّی شکر النعمه بطریقه عملیه.و الشاکر بنعمه اللّه سیکون فی حفظه و أمانه تعالی.

و قد ذکرنا شرحا أوفی حول هذا الموضوع فی أوّل تفسیرنا لسوره النور.

۱- ۱) مجمع البیان،بدایه سوره سبأ،المجلّد ۸،صفحه ۳۷۵.

۲- ۲) المصدر السابق.

الآیتان [سوره سبإ (۳۴): الآیات ۱ الی ۲]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِ اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ اَلَّذِی لَهُ مٰا فِی اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِی اَلْأَرْضِ وَ لَهُ اَلْحَمْدُ فِی اَلْآخِرَهِ وَ هُوَ اَلْحَکِیمُ اَلْخَبِیرُ (۱) یَعْلَمُ مٰا یَلِجُ فِی اَلْأَرْضِ وَ مٰا یَخْرُجُ مِنْهٰا وَ مٰا یَنْزِلُ مِنَ اَلسَّمٰاءِ وَ مٰا یَعْرُجُ فِیهٰا وَ هُوَ اَلرَّحِیمُ اَلْغَفُورُ (۲)

التّفسیر

اشاره

هو المالک لکلّ شیء و العالم بکلّ شیء:

خمس سور من القرآن الکریم افتتحت«بحمد اللّه»،و ارتبط(الحمد)فی ثلاثه منها بخلق السموات و الأرض و هی(سبأ و فاطر و الأنعام) بینما کان مقترنا فی سوره الکهف بنزول القرآن علی قلب الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله،و جاء فی سوره الفاتحه تعبیرا جامعا شاملا لکلّ هذه الاعتبارات اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعٰالَمِینَ .علی کلّ حال، الحمد و الشکر للّه تعالی فی مطلع سوره سبأ هو فی قبال مالکیته و حاکمیته تعالی فی الدنیا و الآخره.

یقول تعالی: اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِی لَهُ مٰا فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِی الْأَرْضِ وَ لَهُ الْحَمْدُ فِی

الْآخِرَهِ

.

لذا فإنّ الحاكميه و المالكيه فی الدنيا و الآخره له سبحانه،و كلّ موهبه،و كلّ نعمه،و منفعه و بركه،و كلّ خلقه سويه عجيبه مذهله،تتعلّق به تعالی،و لذا فإنّ «الحمد»الذی حقيقته«الثناء علی فعل اختياری حسن»كلّه يعود إليه تعالی،و إذا كانت بعض المخلوقات تستحقّ الحمد و الثناء،فلأنّها شعاع من وجوده عزّ و جلّ و لأنّ أفعالها و صفاتها قبس من أفعاله و صفاته تعالی.و عليه فكلّ مدح و ثناء يصدر من أحد علی شیء فی هذا العالم،فإنّ مرجعه فی النهايه إلی اللّه سبحانه و تعالی.

ثمّ يضيف تعالی قائلا: وَ هُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ .

فقد اقتضت حكمته البالغه أن يخضع الكون لهذا النظام العجيب،و أن يستقرّ- بعلمه و إحاطته-كلّ شیء فی محلّه من الكون،فيجد كلّ مخلوق- كلّ ما يحتاج إليه-فی متناوله.

و قد تحدّث المفسّرون كثيرا فی هذه الآيه عن المقصود من الحمد و الشكر فی الآخره..

فذهب بعضهم:إنّ الآخره و إن لم تكن دار تكليف،إلاّ أنّ عبّاد الرحمن الذين تسامت أرواحهم بعشق بارئهم هناك،يشكرونه و يحمدونه و ينتشون بلذّه خاصّه من ذلك.

و قال آخرون:إنّ أهل الجنّه يحمدونه علی فضله،و أهل النار يحمدونه علی عدله.

و قيل:إنّ الإنسان-نتيجه وجود الحجب المختلفه علی قلبه و عقله فی الدنيا- لا يمكنه أن يحمد اللّه حمدا خالصا،و عند ما ترتفع هذه الحجب يوم القيامه تتّضح مالكيته تعالی و هيمنته علی عالم الوجود للجميع مصداقا لقوله تعالی اَلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلّٰهِ و حينها تلهج الألسن بحمده و الثناء عليه بكامل خلوص النيّه.

و كذلك فإنّ الإنسان قد يغفل فى هذه الدنيا فيحمد بعض المخلوقات،متوهما استقلالها،إلاّ أنّه فى الآخره،و حيث يتّضح ارتباط الكلّ به تعالى كارتباط أشعّه الشمس بقرصها،فإنّ الإنسان لن يؤدّى الحمد و الثناء إلاّ للّه سبحانه.

فضلا عن كلّ هذا،فقد ورد مرارا فى القرآن الكريم-أيضا-أنّ أصحاب الجنّه يحمدون اللّه حين دخولهم جنّات الخلد: وَ قٰالُوا الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِی أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ . (۱)

وَ آخِرُ دَعْوٰاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعٰالَمِینَ . (۲)

على كلّ حال فإنّ هذا الحمد و الثناء لا ينطلق من ألسنه الناس و الملائكه فقط، بل تسمع همهمه الحمد و التسبيح من كلّ ذرّه فى عالم الوجود بإدراك العقل،فليس من موجود إلاّ و يحمده و يسبّحه تعالى.

تنتقل الآيه التى بعدها إلى التوسّع فى إظهار جانب من علم اللّه اللامحدود، تناسبا مع وصف الآيه السابقه له تعالى بالحكيم و الخبير،فيقول سبحانه: يَعْلَمُ مٰا يَلِجُ فِی الْأَرْضِ وَ مٰا يَخْرُجُ مِنْهٰا .

نعم،فقد أحاط علما بكلّ حبّه مطر و قطره ماء تنفذ و تلج فى أعماق الأرض حتّى إذا وصلت طبقه صلده تجمّعت هناك و صارت ذخيره للإنسان.

و يعلم بالبذور التى تنتقل على سطح الأرض بواسطه الريح أو الحشرات، لتنبت فى مكان ما و تصبح شجره باسقه أو عشبا طريّا.

يعلم بجذور الأشجار عند توغلها فى أعماق التربه بحثا عن الماء و الغذاء.

يعلم بالموجات الكهربائيه و الغازات المختلفه،بذرّات الهواء التى تنفذ فى الأرض،يعلم بالكائنات الحيّه التى تشقّ طريقها فيها،و يعطيها الحياه.

و كذلك،يعلم بالكنوز و الدفائن و أجساد الموتى من الإنسان و غيره..نعم إنّه .

۱- ۱) فاطر،۳۴.

۲- ۲) يونس،۱۰

مطّلع على كلّ هذا.

و كـذلك فهو عارف و عالم بالنباتات التى تخرج من الأرض،و الناس الـذين يبعثون منها،بالعيون التى تفور بالماء منها،بالغازات التى تتصاعد منها، بالبراكين التى تلوّح بجحيمها،بالحشرات التى تتّخذ أو كارا فيها،و تخرج منها.

و الخلاصه،فهو عالم بكلّ الموجودات التى تلج الأرض و تخرج منها أعمّ ممّا نعلمه أو ما لا نعلمه.

ثمّ يضيف قائلا: وَ مٰا يَنْزِلُ مِنَ السَّمٰاءِ وَ مٰا يَعْرُجُ فِيهٰا .

فهو يعلم بحبّات المطر،و بأشـعّه الشـمس التى تنثر الحياه،بأمواج الوحى و الشـرائع السـماويه العظيمه،و بالملائكه التى تهبط إلى الأرض لإبلاغ الرسالات أو أداء الأوامر الإلهيّه المختلفه.بالأشـعه الكونيه التى تدخل جو الأرض من الفضاء الخارجى،بالشـهب و الذرّات المضطربه فى الفضاء و التى تهوى نحو الأرض،فهو تعالى محيط بهذا كلّه.

و كذلك فإنّه يعلم بأعمال العباد التى تعرج إلى السـماء،و الملائكه التى تقفل صاعده إلى السـماء بعد أداء تكاليفها،و بالشياطين الذين يرتقون إلى السـماء لاستراق السـمع،و بفروع الأشـجار التى تتطلّع برؤوسـها إلى السـماء،و بالأبخره التى تتصاعد من البحار إلى أعالى السماء لتتكاثف مكونه سحبا.و بالآهات التى تنطلق من قلب المظلوم متصاعده إلى السماء...نعم هو عالم بكلّ ذلك.

فهـل هنـاك مـن مطّلع على كـلّ ذلـك غيره تعـالى؟و هـل يمكن لعلـوم جميـع العلمـاء مجتمعه أن تحيـط و لـو بجزء من هـذه المعلومات؟ و فى ختام الآيه يضيف تعالى: وَ هُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ .

لقد وصف اللّه تعالى نفسه بهاتين الصفتين إمّا لأجل أنّه من جمله الأمور التى تعرج إلى السماء أعمال العباد و أرواحهم فيشملها برحمته...

أو لأنّ نزول البركات و العطايا السماويه تترشّح من رحمته،و الأعمال

ص: ۳۸۴

الصالحه المتصاعده من العباد مشموله بغفرانه بمقتضی وَ الْعَمَلُ الصّٰالِحُ یَرْفَعُهُ .

أو لکون«الرحمه»تشمل من یشکر هذه النعم،و«الغفران»یشمل المقصّرین فی ذلک.

و الخلاصه:أنّ الآیه أعلاه،لها معان واسعه من جمیع الوجوه،و لا یجب حصر مؤدّاها فی معنی واحد.

ص :۳۸۵

الآیات [سوره سبإ (۳۴): الآیات ۳ الی ۵]

اشاره

وَ قٰالَ اَلَّذِینَ کَفَرُوا لاٰ تَأْتِینَا اَلسّٰاعَهُ قُلْ بَلیٰ وَ رَبِّی لَتَأْتِیَنَّکُمْ عٰالِمِ اَلْغَیْبِ لاٰ یَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقٰالُ ذَرَّهٍ فِی اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ لاٰ فِی اَلْأَرْضِ وَ لاٰ أَصْغَرُ مِنْ ذٰلِکَ وَ لاٰ أَکْبَرُ إِلاّٰ فِی کِتٰابٍ مُبِینٍ (۳) لِیَجْزِیَ اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ أُولٰئِکَ لَهُمْ مَغْفِرَهٌ وَ رِزْقٌ کَرِیمٌ (۴) وَ اَلَّذِینَ سَعَوْا فِی آیٰاتِنٰا مُعٰاجِزِینَ أُولٰئِکَ لَهُمْ عَذٰابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِیمٌ (۵)

التّفسیر

اشاره

أقسم باللّه لتأتینکم القیامه:

تتعرّض الآیات مورد البحث إلی موضع التوحید و صفات اللّه فی نفس الوقت الذی تهیء أرضیّه لموضوع المعاد،لأنّ مشکلات(بحث المعاد)لا یمکن حلّها إلاّ عن طریق العلم اللامتناهی للباریّ عزّ و جلّ،کما سنری.

لذا فإنّ الآیات مورد البحث تبدأ أوّلا بقوله تعالی: وَ قٰالَ الَّذِینَ کَفَرُوا لاٰ تَأْتِینَا السّٰاعَهُ .فما هو إلاّ کذب و افتراء،بل إنّ القیامه لا تأتی أحدا من الناس.

ص:۳۸۶

و یریـدون بـذلک الفکـاک و التحرّر من قیود هـذه الإعتقـادات،الحسـاب و الکتاب و العـدل و الجزاء،لیرتکبوا ما یحلوا لهم من الأعمال.

و لکـنّ القرآن بنـاء علی وضـوح أدلّـه القیـامه یخـاطب الرّسـول الأـکرم صـلّی اللّه علیه و آله بصـوره حاسـمه و فی معرف بیـان النتیجه،فیقول: قُلْ بَلیٰ وَ رَبِّی لَتَأْتِیَنَّکُمْ .

و الترکیز علی کلمه«ربّ»لأـنّ القیـامه فی الأصـل من شؤون الربوبیه.فکیف یمکن أن یکون اللّه مالکـا و مربیا للبشـر یقودهم فی سیرهم التکـاملی،ثمّ یتخلّی عنهم فی منتصف الطریق لینتهی بـالموت کـلّ شـیء،فتکون حیـاتهم بلاـ هـدف و خلقهم هباء و بلا معنی.

و قد رکّز القرآن فی الآیه السابعه من سوره التغابن أیضا علی هذا الوصف، فقال تعالی: زَعَمَ الَّذِینَ کَفَرُوا أَنْ لَنْ یُبْعَثُوا قُلْ بَلیٰ وَ رَبِّی لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمٰا عَمِلْتُمْ .

و بما أنّ أحد إشـکالات الکافرین بالمعاد،هو شکّهم-من جانب-فی إمکانیه جمع و إعاده بناء أعضاء الإنسان المیّت بعد تبعثرها و تفسّـخها فی التراب.و کذلک -من جانب آخر-فی إمکانیه وجود من یمکنه النظر فی جمیع أعمال العباد التی عملوها فی السرّ و العلن و الظاهر و الباطن،لذا فإنّ اللّه تعالی یضیف فی تتمّه الآیه الکریمه عٰالِمِ الْغَیْبِ لاٰ یَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقٰالُ ذَرَّهٍ فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ لاٰ فِی الْأَرْضِ وَ لاٰ أَصْغَرُ مِنْ ذٰلِکَ وَ لاٰ أَکْبَرُ إِلاّٰ فِی کِتٰابٍ مُبِینٍ (۱) .

و لـذا،فلا یغیب عن علمه تبعثر ذرّات جسم الإنسان فی التراب،و لا اختلاطها بسائر الموجودات،و لا حتّی حلولها فی أبدان أناس آخرین عن طریق الغذاء، و لا یشـکّل مشکله أمام إعاده بنائه من جدید..و أعمالهم فی هذه الدنیا تبقی محفوظه أیضا،و إن تغیّر شکلها،فهو سبحانه المحیط بها علما.

۱- ۱) «یعزب»:من ماده«عزوب»و تعنی المتباعد فی طلب الکلأ عن أهله،یقال عزب یعزب و یعزب ثمّ اطلق علی کلّ غائب،یقال رجل عزب،و امرأه عزبه إذا غاب عنها زوجها.

و قـد ورد نظير هـذا التعبير فى الآيات الثالثه و الرّابعه من سوره(ق)فى قوله تعالى: أَ إِذٰا مِتْنٰا وَ كُنّٰا تُرٰاباً ذٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ، قَدْ عَلِمْنٰا مٰا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَ عِنْدَنٰا كِتٰابٌ حَفِيظٌ .

و لكـن مـا هـو المقصـود من«الكتـاب المـبين»؟ أغلب المفسّرين قـالوا بـأنّه«اللـوح المحفـوظ»و لكن السـؤال هـو:مـا هـو اللـوح المحفوظ؟! و كمـا ذكرنـا سابقا فإنّ أقرب تفسـير(للّوح المحفوظ)،هو«لوح العلم الإلهى اللامتناهى»نعم فى ذلك اللوح ضـبط و قيّد كلّ شىء،بدون أن يجد التغيير و التبديل طريقه إليه.

و عـالم الوجود المترامى الأطراف،هو الآخر انعكـاس عن ذلـك اللوح المحفوظ،بلحـاظ أنّ كـلّ ذرّات وجودنا و كلّ أقوالنا و أفعالنا،تبقى محفوظه فيه، و إن كانت الظواهر تتغيّر،لكنّها لا تخرج عن حدّها أبدا.

ثمّ يوضّـح تعـالى الهـدف من قيـام القيـامه فى آيتين،أو بتعبير آخر إعطـاء الـدليل على لزوم مثل ذلك العالم بعـد عالمنا الحالى لمنكرى القيامه،فيقول تعالى:

لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ أُولٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ

.

فإن لم يجاز المؤمنين بصالح عملهم ثوابا،أ فلا يعنى ذلك تعطيل أصل العداله الذى هو أهم أصل من اصول الخلقه؟و هل يبقى معنى لعداله اللّه بدون ذلك المفهوم؟!فى الوقت الذى نرى أنّ أغلب هؤلاء الأفراد الصالحين،لا يتلقون جزاء أعمالهم الحسنه فى هذه الدنيا أبدا،إذن لا بدّ من عالم آخر لكى يتحقّق فيه هذا الأصل.

تقـديم«المغفره»على«الرزق الكريم»ربّمـا كـان سـببه:أنّ أشـدّ ما يقلق المؤمنين هو الـذنوب التى ارتكبوها،لـذا فإنّ الآيه تطمئنهم بعرض المغفره عليهم أوّلا،فضلا عن أنّ من لم يغتسل بماء المغفره الإلهيه لن يكون أهلا(للرزق الكريم)و المقام

الكريم! (الرزق الكريم)يشمل كلّ رزق ذى قيمه،و مفهوم ذلك واسع إلى درجه أنّه يشمل كلّ المواهب و العطايا الإلهيه،و منها ما لا عين رأت و لا اذن سمعت و لا خطر على قلب بشر.

و بتعبير آخر فإنّ«الجنّه»بكلّ نعمها المعنويه و الماديّه جمعت فى هذه الكلمه، و البعض فسّر«الكريم»بأمرين:الجيد و الخالى من المنغّصات،و لكن يبدو أنّ مفهوم الكلمه أوسع من ذلك بكثير.

ثمّ تضيف الآيه الكريمه التاليه،موضّحه نوعا آخر من العداله فيما يخصّ عقاب المذنبين و المجرمين،فيقول تعالى:إنّ الذين كذّبوا آياتنا وسعوا فى إنكارها و إبطالها و تصوّروا أنّهم يستطيعون الخلاص من دائره قدرتنا.. وَ الَّذِينَ سَعَوْا فِى آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ .

فهناك كان الحديث عن«الرزق الكريم»و هنا عن«الرجز الأليم».

«الرّجز»:فى الأصل بمعنى الاضطراب و عدم القدره على حفظ التوازن،و منه قيل«رجز البعير رجزا»فهو أرجز،و ناقه«رجزاء»إذا تقارب خطوها و اضطرب لضعف فيها.و أجبرت على تقصير خطواتها لحفظ توازنها،ثمّ أطلقت الكلمه على كلّ ذنب و رجس.كذلك فإنّ إطلاق كلمه«الرجز»على المقاطع الشعريه الخاصّه بالنزال فى الحرب،من باب قصر مقاطعها و تقاربها.

على كلّ حال فالمقصود من(الرجز)هنا،أسوأ أنواع العذاب-الذى يتأكّد بإرداف كلمه«الأليم»أيضا و أنواع العقوبات البدنيه و الروحيه الأليمه.

و التفت البعض إلى هذه النكته،و هى أنّ القرآن الكريم حين ذكر نعم أهل الجنّه لم يستعمل كلمه«من»ليدلّل على سعتها،بينما جاءت هذه الكلمه عند ذكر العذاب لتكون دليلا على محدوديته النسبيه،و لتتضح رحمته تبارك و تعالى.

«سعوا»:من السعى،بمعنى كلّ جهد و جدّ فى أمر،و المقصود منها هنا،الجدّ

و الجهد فى تكذيب و إنكار آيات الحقّ و صدّ الناس عن طريق اللّه سبحانه و تعالى.

معاجزين:من المعاجزه،بمعنى معجّزين،أى مثبّطين،و فى مثل هذه الموارد تطلق على من يفرّ من شخص آخر بحيث لا يمكّنه من التسلّط عليه،و بديهى أنّ هذا الوصف يستخدم للمجرمين لتوهمّهم الذى يظهرونه عمليا بهذا الاتّجاه، و عملهم يشبه إلى حد كبير من يتصوّر أنّه يستطيع القيام بأيّه جنايه يشاء،ثمّ يستطيع الفرار من سلطه القدره الإلهيّه!!.

ص:۳۹۰

الآيات [سوره سبإ (٣٤): الآيات ۶ الى ٩]

اشاره

وَ يَرَى اَلَّذِينَ أُوتُوا اَلْعِلْمَ اَلَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ اَلْحَقَّ وَ يَهْدِي إِلىٰ صِرٰاطِ اَلْعَزِيزِ اَلْحَمِيدِ (۶) وَ قٰالَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذٰا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (٧) أَفْتَرىٰ عَلَى اَللّٰهِ كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ اَلَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَهِ فِي اَلْعَذٰابِ وَ اَلضَّلاٰلِ اَلْبَعِيدِ (٨) أَ فَلَمْ يَرَوْا إِلىٰ مٰا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مٰا خَلْفَهُمْ مِنَ اَلسَّمٰاءِ وَ اَلْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ اَلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِنَ اَلسَّمٰاءِ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَهً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٩)

التّفسير

اشاره

العلماء يرون دعوتك إنّها حقّ:

كان الحديث في الآيات السابقه عن عمى البصائر،المغفّلين الذين أنكروا المعاد مع كلّ تلك الدلائل القاطعه،و سعوا سعيهم لتكذيب الآيات الإلهيه،و إضلال الآخرين.

ص:٣٩١

و على هـذا،فإنّ الآيات مورد البحث،تتحـدّث عن العلماء و المفكّرين الذين صدّقوا بآيات اللّه و سـعوا سـعيهم لتشـجيع الآخرين على التصديق بها،يقول تعالى:

وَ يَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِى أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَ يَهْدِى إِلىٰ صِرٰاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ

.

فسّـر بعض المفسّـرين عباره اَلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ،بتلك المجموعه من علماء أهل الكتاب الـذين يتّخذون موقف الخضوع و الإقرار للحقّ عند مشاهده آثار حقّانيه القرآن الكريم.

و ليس هناك مانع من اعتبار علماء أهل الكتاب أحـد مصاديق الآيه،و لكن تحديـدها بهم يفتقد إلى الدليل،بل مع الالتفات إلى الفعل المضارع(يرى)وسعه مفهوم اَلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ يتّضح شمول الآيه لكلّ العلماء و المفكّرين فى كلّ عصر و زمان و مكان.

و إذا فسّـرت بكونها إشاره إلى«أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه الصلاه و السلام»،كما فى تفسير على بن إبراهيم،فإنّ ذلك توضيح و إشاره إلى أتمّ و أكمل مصاديق الآيه.

نعم،فـأى عـالم موضوعى و غير متعصّب إذا تأمّـل فى مـا ورد فى هـذا الكتـاب السـماوى،و تـدبّر فى معـارفه العميقه،و أحكـامه المتينه،و نصائحه الحكيمه، و مواعظه المؤثّره فى الوجدان إلى قصصه التأريخيه المشعّه بالعبره،و بحوثه العلميه الإعجازيه،فسيعلم بأنّها جميعا دليل على حقّانيه هذه الآيات.

و اليـوم،فـإنّ هنـاك كتبـا متنوّعه كتبهـا مفكّرون غربيون و شـرقيون حول الإسـلام و القرآن،تحوى اعترافـات ظـاهره على عظمه الإسلام و صدق الآيه مورد البحث.

التعـبير ب«هـو الحـقّ»تعـبير جـامع ينطبـق على جميـع محتـوى القرآن الكريم، حيث أنّ«الحقّ»هـو تلـك الواقعه العينيه و الوجود الخارجى،أى إنّ محتوى القرآن يتساوق و ينسجم مع قوانين الخلق و حقائق الوجود و عالم الإنسانيه.

و لكونه كـذلك فهو يهـدى إلى صـراط اللّه،اللّه«العزيز»و«الحميـد»أى أنّه تعـالى الأهـل لكـلّ حمـد و ثناء و فى ذات الوقت فانّ قدرته غايه القدره و الغلبه،و ليس هو كأصـحاب القدره من البشر الذى يتعامل منطلقا من كونه على عرش القدره بالدكتاتوريه و الظلم و التجاوز و التلاعب.

و قـد جـاء نظير هـذا التعبير فى الآـيه الاـولى من سوره«إبراهيم»حيث قـال جـلّ من قائـل: كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ .

و واضـح أنّ من كـان مقتـدرا و أهلاـ للحمـد و الثنـاء،و من هـو عـالم و مطّلع رحيم و عطوف،من المحتّم أن يكون طريقه أكـثر الطرق اطمئنان و استقامه.فمن يسلك طريقه إنّما يقترب من منبع القدره و كلّ الأوصاف الحميده.

و يعود تعـالى إلى مسأله القيـامه و البعث فى الآـيه التى بعـدها،و يكمل البحوث السابقه بطريقه اخرى،فيقول تعالى: وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ .

يبـدو أنّ إصـرار-هؤلاـء الكفّار-على إنكار مسأله المعاد يعتمـد على أمرين:- الأوّل:توهمّهم أنّ المعاد الـذى تحـدّث عنه رسول الإسـلام صـلّى اللّه عليـه و آله و هـو«المعـاد الجسـمانى»،أمر يسـهل الإشـكال عليه و الطعن فيه،و أنّ بإمكـانهم تنفير النـاس منه فينكرونه بسهوله.

الثّانى:أنّ الإعتقاد بالمعاد،أو حتّى القبول باحتماله-على كلّ حال-إنّما يفرض على الإنسان مسـئوليات و تعهّـدات،و يضـعه وجها لوجه أمام الحقّ،و هذا ما اعتبره رؤوس الكفر خطرا حقيقيّا،لذا فقد أصرّوا على إلغاء فكره المعاد و الجزاء الاخروى على الأعمال من أذهان الناس.فقالوا:أ يمكن لهذه العظام المتفسّخه،و هذه الذرّات المبعثره،التى تعصف بها الريح من كلّ جانب،أن تجمع فى يوم و تلبس ثوب الحياه من جديد؟

و استخدامهم لكلمه(رجل)بصيغه النكره فى تعبيرهم عن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله يقصد منه التحقير«و حاشاه».

و لكن فاتهم أنّنا فى بدء الخليقه لم نكن إلاّ أجزاء مبعثره،فكلّ قطره ماء فى أبداننا إنّما كانت قطره فى زاويه من بحر أو ينبوع ماء،و كلّ ذرّه من مواد أجسامنا،كانت فى جانب من جوانب هذه الأرض المتراميه،و سيجمعها اللّه تبارك و تعالى فى النهايه أيضا كما جمعها فى البدء،و هو على كلّ شىء قدير.

و العجيب أنّهم اعتبروا ذلك دليلا على كذب الرّسول صلّى اللّه عليه و آله أو جنونه،و حاشاه أَفْتَرىٰ عَلَى اللّٰهِ كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ .

و إلاّ فكيف يمكن لرجل عاقل أو صادق أن يتفوّه بمثل هذا الحديث!!؟ و لكن القرآن يردّ عليهم بشكل حاسم قائلا: بَلِ الَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَهِ فِى الْعَذٰابِ وَ الضَّلاٰلِ الْبَعِيدِ .

فأى ضلال أوضح من أن يرى منكر المعاد بامّ عينيه مثالا لهذا المعاد فى عالم الطبيعه فى كلّ عام بإحياء الأرض الميته بالزرع.

المعاد الذى لو لا وجوده لما كان للحياه فى هذا العالم أى معنى أو محتوى.

و أخيرا فإنكار المعاد مساو لإنكار قدره و عدل و حكمه اللّه جلّ و علا.

و لكن لماذا يؤكّد تعالى أنّهم الآن فى العذاب و الضلال؟ ذلك لأنّ الإنسان يواجه فى حياته مشاكل و أحداثا لا يمكنه-بدون الإيمان بالآخره-تحمّلها،و الحقيقه أنّ الحياه لو حدّت بهذه الأيّام القليله من عمر الدنيا لكان تصوّر الموت بالنسبه لكلّ إنسان كابوسا مرعبا،لهذا السبب نرى أنّ منكرى المعاد فى قلق دائم منغّص و عذاب أليم،فى حال المؤمنين بالمعاد يعتبرون الموت قنطره إلى عالم البقاء،و وسيله لكسر القيود و التحرّر من سجن الدنيا.

نعم،فالإيمان بالمعاد،يغمر قلب الإنسان بالطمأنينه،و يهوّن عليه المشكلات، و يجعله أكثر قدره على الإيثار و الفداء و التضحيه.

أمّا الذين يرون المعاد-لجهلهم و كفرهم-دليلا على الكذب أو الجنون،إنّما يأسرون أنفسهم فى عذاب العمى،و الضلال البعيد.

و مع أنّ بعض المفسّرين اعتبروا هذا العذاب إشاره إلى عذاب الآخره،و لكنّ ظاهر الآيه يدلّل على أنّهم أسرى هذا العذاب و الضلال الآن و فى هذه الدنيا.

ثمّ ينتقل القرآن الكريم لتقديم دليل آخر عن المعاد،مقترن بتهديد الغافلين المعاندين فيقول تعالى: أَ فَلَمْ يَرَوْا إِلىٰ مٰا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مٰا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمٰاءِ وَ الْأَرْضِ .

فإنّ هذه السماء العظيمه بكلّ عجائبها،بكواكبها الثابته و السيّاره،و بالأنظمه التى تحكمها،و كذلك الأرض بكلّ مدهشاتها و أنواع موجوداتها الحيّه،و بركاتها و مواهبها،لأوضح دليل على قدره الخلّاق العظيم.

فهل أنّ القدير على كلّ هذه الأمور،عاجز عن إعاده الإنسان بعد الموت إلى الحياه؟ و هذا هو«برهان القدره»الذى استدلّ به القرآن الكريم فى آيات اخرى فى مواجهه منكرى المعاد،و من جمله هذه الآيات،الآيه(٨٢)من سوره يس.الآيه (٩٩)من سوره الإسراء و الآيتين(۶ و ٧)من سوره ق.

و نشير إلى أنّ هذه الجمله كانت مقدّمه لتهديد تلك الفئه المتعصّبه من ذوى القلوب السوداء،الذين يصّرون على عدم رؤيه كلّ هذه الحقائق.لذا يضيف تعالى قائلا: إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ فنأمر الأرض فتنشقّ بزلزله مهوله و تبتلعهم، أو نأمر السماء فترميهم بقطعات من الحجر و تدمّر بيوتهم و تهلكهم أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِنَ السَّمٰاءِ أجل،إنّ فى هذا الأمر دلائل واضحه على قدره اللّه تعالى على كلّ شىء،و لكن يختّص بإدراك ذلك كلّ إنسان يتدبّر فى مصيره و يسعى فى الإنابه إلى اللّه إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ .

لا بدّ أن سمع أو شاهد كلّ منّا نماذج من الزلازل أو الخسف فى الأرض،أو

سقوط النیازک من السماء،أو بتساقط و تناثر صخور الجبال بسبب صاعقه أو انفجار برکان،و کلّ عاقل یدرک إمکانیه حصول مثل هذه الأمور فی أیّه لحظه و فی أیّ مکان من العالم،فإذا کانت الأرض هادئه تحت أقدامنا،و السماء آمنه فوق رؤوسنا،فلأنّها کذلک بقدره اخری و بأمر من آمر،فکیف نستطیع-و نحن المحکومون بقدرته فی کلّ طرفه عین-إنکار قدرته علی البعث بعد الموت،أو کیف نستطیع الفرار من سلطه حکومته!!.

هنا یجب الالتفات إلی جمله امور:

۱-یعبّر القرآن الکریم هنا عن السماء التی فوق رؤوسنا،و الأرض التی تحت أقدامنا ب مٰا بَیْنَ أَیْدِیهِمْ و مٰا خَلْفَهُمْ .و هو المورد الوحید الذی یلاحظ فیه مثل هذا التعبیر.و هذا التعبیر لعلّه إشاره إلی أنّ قدره و عظمه اللّه أظهر فی السماء وقت طلوع أو غروب الشمس و ظهور القمر و النجوم فیها.و نعلم أنّ من یقف غالب باتّجاه الأفق تکون السماء بین یدیه،و الأرض التی تأتی بالدرجه الثّانیه من الأهمیّه اطلق علیها مٰا خَلْفَهُمْ .

کذلک هی إشاره إلی هؤلاء المغرورین أنّهم إن لم یجیزوا لأنفسهم النظر إلی ما فوق رؤوسهم،فلا أقل من أن ینظروا إلی ما بین أیدیهم فی جوار الأفق.

۲-نعلم بأنّنا نعیش بین مصدرین عظیمین من مصادر الخطر علی حیاتنا:

أوّلهما:باطن الکره الأرضیه المشتعل الذی هو عباره عن صخور مذابه و مشتعله و فی حاله من الفوران،و فی الحقیقه فإنّ حیاه جمیع البشر فوق مجموعه من البراکن-بالقوّه-و بمجرّد صدور أمر إلهی صغیر ینطلق أحد هذه البراکین لیهزّ منطقه عظیمه من الأرض و ینثر علیها الأحجار الملتهبه و المواد المعدنیه المذابه المشتعله.

و ثانيهما:مئات الآلاف من الأحجار الصغيره و الكبيره السابحه فى الفضاء الخارجى تنجذب نحو الأرض يوميا بفعل جاذبيتها،و لو لا احتراقها نتيجه اصطدامها بالغلاف الغازى،لكنّا هدفا«لمطر حجرى»بشكل متواصل ليل نهار، و أحيانا تكون أحجامها و سرعتها و قوّتها إلى درجه أنّها تتخطّى ذلك المانع و تنطلق باتّجاه الأرض لتصطدم بها.و هذا واحد من الأخطار السماويه،و عليه فإذا كنّا نعيش وسط هذين المصدرين الرهيبين للخطر،بمنتهى الأمن و الأمان بأمر اللّه،أ فلا يكفى ذلك لأن نتوجّه إلى جلال قدرته العظيمه و نسجد تعظيما و طاعه له!!.

۳-من الجدير بالملاحظه أنّ الآيه الأخيره من الآيات مورد البحث أشارت إلى إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَآيَةً و لكنّها حدّدت لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ .و الإشاره تستبعد ذلك المتمرّس بالعصيان الذى خلع عن رقبته طوق العبوديه للّه سبحانه و تعالى، و الغافلين الذين أداموا السير فى الطريق الخاطئه الملوّثه بالخطايا و استبعدوا عن أذهانهم-كليا-التوبه و الإنابه،فهؤلاء أيضا لا يمكنهم الانتفاع من هذه الآيه المشرقه،لأنّ وجود الشمس الساطعه لا يكفى وحده لتحصل الرؤيه،بل يستلزم أيضا العين المبصره و ارتفاع الحجاب بينهما.

ص: ۳۹۷

الآيتان [سوره سبإ (٣۴): الآيات ١٠ الى ١١]

اشاره

وَ لَقَدْ آتَيْنا داوُدَ مِنّا فَضْلاً يا جِبالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَ الطَّيْرَ وَ أَلَنّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) أَنِ اعْمَلْ سابِغاتٍ وَ قَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَ اعْمَلُوا صالِحاً إِنِّي بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١)

التّفسير

اشاره

المواهب الإلهيه العظيمه لداود:

بنـاء على مـا مرّ ذكره فى آخر المجموعه السابقه من الآيات و ما قلناه حول «العبـد المنيب»و الثواب.و لعلمنا بأنّ هـذا الوصف قد ذكر للنبى داود عليه السّلام(فى الآيه ٢۴ من سوره ص)-كما سيرد شرحه بإذن اللّه-فالأفضل من أن نتعرّض لجانب من حياه هذا النّبى عليه السّلام كمثال للإنابه و التوبه و إكمال البحث السابق.و هى أيضا تنبيه لكل من يغمط نعم اللّه و يتناساها، و يتخلّى عن عبوديته للّه عند جلوسه على مسند القدره و السلطه.

فى الآيه الاولى يقول تعالى: وَ لَقَدْ آتَيْنا داوُدَ مِنّا فَضْلاً .

مفرده«فضـل»ذات معنى وسـيع،يشـمل كـلّ المواهب التى تفضّـل اللّه بها على داود،و زادها التنكير سعه و دلّل على عظمه تلك المواهب.

ص:٣٩٨

فقد شمل داود بالمواهب العظيمه سواء من الناحيه الماديه أو المعنويه،و قد تعرّض القرآن الكريم مرارا لذكرها.

ففى موضع يقول تعالى: وَ لَقَدْ آتَيْنٰا دٰاوُدَ وَ سُلَيْمٰانَ عِلْماً وَ قٰالاَ الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِى فَضَّلَنٰا عَلىٰ كَثِيرٍ مِنْ عِبٰادِهِ الْمُؤْمِنِينَ . (١)

و فى موضع آخر يقول تعالى على لسان داود يٰا أَيُّهَا النّٰاسُ عُلِّمْنٰا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَ أُوتِينٰا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هٰذٰا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ . (٢)

و سترد ضمن حديثنا حول آخر هذه الآيات،معجزات مختلفه تمثّل جزءا من هذا الفضل العظيم،و كذلك الصوت الباهر،و القدره العاليه على القضاء العادل التى أشير إليها فى سوره(ص)تمثّل لونا آخر من ذلك الفضل الإلهى،و أهمّ من ذلك كلّه النبوّه و الرساله التى شرّف بها داود.

و على كلّ حال،فبعد هذه الإشاره الإجماليه العامّه،تبدأ الآيه بشرح و توضيح جوانب من الفضائل المعنويه و الماديه التى تمتّع بها داود،فيقول تعالى: يٰا جِبٰالُ أَوِّبِى مَعَهُ وَ الطَّيْرَ .

كلمه«أوّبى»فى الأصل من«التأويب»بمعنى الترجيع و إعاده الصوت فى الحلق.و هذا الأصل يستعمل أيضا بمعنى«التوبه»لأنّ حقيقتها الرجوع إلى اللّه.

و مع أنّ كلّ ذرّات الوجود تذكر اللّه و تسبّح بحمده،سواء سبّح داود عليه السّلام معها أو لم يسبّح،و لكن الميزه التى خصّ بها داود هى أنّه ما إن يرفع صوته و يبدأ التسبيح، إلاّ و يظهر ما كان خفيّا و كامنا فى الموجودات،و تتبدل الهمهمه الباطنيه إلى نغمه علنيه منسجمه،كما ورد فى الروايات من تسبيح الحصاه فى يد الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله.

و

قد ورد عن الإمام الصادق عليه السّلام عند ذكره لقصّه داود«إنّه خرج يقرأ الزبور،

١- ١) النمل،١٥.

٢- ٢) النمل،١٦.

و كان إذا قرأ الزبور لا يبقى جبل و لا حجر و لا طائر إلّا أجابه» (۱) .

و بعد ذكر هذه الفضيله المعنويه،تذكر الآيه فضيله ماديه اخرى فتقول: وَ أَلَنّا لَهُ الْحَدِيدَ .

يمكن القول،بأنّ اللّه تعالى علّم داود-إعجازا-ما استطاع بواسطته تليين الحديد حتّى يمكنه من صنع أسلاك رقيقه و قويه لنسج الدروع منها،أو أنّه كان قبل داود يستفاد من صفائح الحديد لصناعه الدروع و الإفاده منها فى الحروب،ممّا كان يسبّب حرجا و إزعاجا للمحاربين نتيجه ثقل الحديد من جهه،و عدم قابليه تلك الدروع للانحناء أو الالتواء حين ارتدائها، و لم يكن أحد قد استطاع حتّى ذلك اليوم نسج الدروع من أسلاك الحديد الرفيعه المحكمه،ليكون لباسا يمكن ارتداؤه بسهوله و الإفاده من قابليته على التلوّى و الانحناء مع حركه البدن برقّه و إنسياب (۲) .

و لكن ظاهر الآيه يدلّل على أنّ ليونه الحديد تمّت لداود بأمر إلهى،فما يمنع الذى أعطى لفرن النار خاصيه إلانه الحديد،أن يعطى هذه الخاصيه لداود بشكل آخر،و قد أشارت بعض الروايات أيضا إلى هذا المعنى.

فقد روى عن الإمام الصادق عليه السّلام،أنّه قال: «إنّ اللّه أوحى إلى داود:نعم العبد أنت إلّا أنّك تأكل من بيت المال،فبكى داود أربعين صباحا،فألان اللّه له الحديد، و كان يعمل كلّ يوم درعا فيبيعها بألف درهم فعمل ثلاثمائه و ستّين درعا فباعها بثلاثمائه و ستّين ألفا فاستغنى عن بيت المال» (۳) .

صحيح أنّ بيت المال يؤمّن مصارف الأشخاص الذين يقدّمون خدمه مجانيه للامّه،و يتحمّلون الأعباء التى لا يتحمّلها غيرهم،و لكن ما أروع أن يستطيع

۱- ۱) الميزان،ج ۱۶،ص ۳۶۷.

۲- ۲) انظر تفسير البرهان،ج ۳،ص ۳۴۳،و تفسير نور الثقلين،ج ۴،ص ۳۱۵.

۳- ۳) مجمع البيان-ج ۸ ص ۳۸۱.

الإنسان تقديم هذه الخدمه،و تأمين معاشه-فی حال الاستطاعه-من كدّ يمينه، و داود عليه السّلام أراد أن يكون ذلك العبد الممتاز.

على كلّ حال،فإنّ داود وجّه هذه القدره التی و هبها إيّاه اللّه فی أفضل الطرق و هی صناعه وسائل الجهاد و الدفاع ضدّ الأعداء،و لم يحاول الاستفاده منها فی صناعه وسائل الحياه العاديه،و علاوه على الاستفاده من دخله منها فی تصريف امور حياته المعاشيه البسيطه،فقد هيّأ جزءا منه للإنفاق على المحتاجين (۱) .و فوق كلّ هذا،فقد كان عمله بحدّ ذاته معجزه ارتبطت به.

نقل بعض المفسّرين قال«حكی أنّ لقمان حضر داود عند أوّل درع عملها فجعل يتفكّر فيها و لا يدری ما يريد،و لم يسأله حتّى فرغ منها ثمّ قام فلبسها و قال:نعم جنه الحرب هذه.فقال لقمان:الصمت حكمه و قليل فاعله!» (۲) .

الآيه التی بعدها تتعرّض لشرح صناعه داود للدروع و الأمر الإلهی العميق المعنى بهذا الخصوص.يقول تعالى: أَنِ اعْمَلْ سٰابِغٰاتٍ وَ قَدِّرْ فِی السَّرْدِ .

«سابغات»:جمع(سابغ)و هو الدرع التامّ الواسع،و«إسباغ النعمه»أيضا بمعنى توسيعها.

«سرد»:فی الأصل بمعنى حياكه ما يخشن و يغلظ كنسج الدرع و خرز الجلد، و استعير لنظم الحديد.و جمله وَ قَدِّرْ فِی السَّرْدِ معناها مراعاه المقاييس المتناسبه فی حلقات الدرع و طريقه نسجها.و فی الواقع فإنّ اللّه تعالى قد أمر داود بأن يكون مثالا يحتذى لكلّ الحرفيين و العمّال المؤمنين فی العالم،بمراعاته للإتقان و الدقّه فی العمل من حيث الكمّ و الكيف فی المصنوعات،ليستطيع بالتالی مستهلكوها استعمالها براحه و بشكل جيّد،و الإفاده من متانتها.

يقول تعالى لداود:أن اصنع الدروع واسعه و مريحه،حتّى لا تكون سجنا

۱- ۱) راجع تفسير أبو الفتوح الرازی،ج ۹،ص ۱۹۲.

۲- ۲) مجمع البيان،ج ۸،ص ۳۸۲.

للمقاتل وقت ارتدائها..لا تجعل حلقاتها صغيره و ضيّقه أكثر من اللازم فتفقد بذلك خاصيّه الانثناء و التطوّى،و لا كبيره إلى درجه يمرّ منها حدّ السيف و الخنجر و السنان،فكلّ شيء يجب أن يكون ضمن مقياس معيّن و تناسب محدّد.

الخلاصه:هي أنّ اللّه تعالى قد قيّض لداود«المادّه»بمقتضى وَ أَلَنّا لَهُ الْحَدِيدَ .

و كذلك علّمه بطريقه تحويلها و صناعتها،حتّى يكون الناتج كاملا باجتماع «المادّه»و«الصوره».

ثمّ تختم الآيه بخطاب لداود و أهل بيته وَ اعْمَلُوا صالِحاً إِنِّي بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .

و يلاحظ أنّ المخاطب كان في صدر الآيه داود وحده،بينما تحوّل الخطاب في آخر الآيه ليشمل داود و أهل بيته أو داود و قومه،ذلك لأنّ هذه الأمور مقدّمه للعمل الصالح،فالهدف ليس صناعه الدروع و تحقيق الربح،بل إنّ ذلك كلّه وسيله في المسير باتّجاه العمل الصالح.و ليستفيد أيضا داود و أهل بيته.و إحدى خصائص العمل الصالح هي مراعاه الدقّه الكافيه في الصناعات من كلّ الجوانب و تقديم نتاج كامل و مفيد خال من أي عيب أو تقصير.

و من المحتمل أيضا أن يكون الخطاب لداود و كلّ من تحقّقت له الاستفاده من جهده و نسيجه،إشاره إلى أنّ هذه الوسيله الدفاعيه ينبغي أن تستخدم في طريق العمل الصالح،و ليس في طريق المعاصي و الجور و الظلم.

ص :۴۰۲

الآیات [سوره سبإ (۳۴): الآیات ۱۲ الی ۱۴]

اشاره

وَ لِسُلَيْمانَ اَلرِّيحَ غُدُوُّها شَهْرٌ وَ رَواحُها شَهْرٌ وَ أَسَلْنا لَهُ عَيْنَ اَلْقِطْرِ وَ مِنَ اَلْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَ مَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنا نُذِقْهُ مِنْ عَذابِ اَلسَّعِيرِ (۱۲) يَعْمَلُونَ لَهُ ما يَشاءُ مِنْ مَحارِيبَ وَ تَماثِيلَ وَ جِفانٍ كَالْجَوابِ وَ قُدُورٍ راسِياتٍ اِعْمَلُوا آلَ داوُدَ شُكْراً وَ قَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ اَلشَّكُورُ (۱۳) فَلَمّا قَضَيْنا عَلَيْهِ اَلْمَوْتَ ما دَلَّهُمْ عَلى مَوْتِهِ إِلاّ دَابَّةُ اَلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ اَلْجِنُّ أَنْ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ اَلْغَيْبَ ما لَبِثُوا فِي اَلْعَذابِ اَلْمُهِينِ (۱۴)

التّفسیر

اشاره

هیبه سلیمان و موته العبره!!

بعد الحدیث عن المواهب التی أغدق اللّه بها علی داود علیه السّلام تنتقل الآیات إلی الحدیث عن ابنه سلیمان علیه السّلام،و فی حین أنّ الآیات السابقه أشارت إلی موهبتین تخصّان داود،فهذه الآیات تشیر إلی ثلاث مواهب عظیمه خصّ بها ابنه

سلیمان علیه السّلام یقول تعالی: وَ لِسُلَیْمٰانَ الرِّیحَ غُدُوُّهٰا شَهْرٌ وَ رَوٰاحُهٰا شَهْرٌ (۱) .

الملفت هنا أنّ اللّه تبارک و تعالی حینما سخّر للأب جسما خشنا و صلبا جدّا و هو الحدید،نری أنّه قد سخّر للابن موجودا لطیفا للغایه،و لکنّ العملین کانا نافعین و إعجازیین،جسم صلب یلین لداود،و أمواج الهواء اللطیفه تجعل محکمه و فعّاله لسلیمان!! و لطافه الریح لا تمنع من أدائه أعمال هامّه،فمن الریاح ما یحرّک السفن الکبیره علی ظهر المحیطات،و منها ما یدیر أحجار الطاحونات الهوائیه الثقیله، و منها ما یرفع البالونات إلی عنان السماء و یحرّکها کالطائرات.

نعم،هذا الجسم اللطیف بهذه القدره الإیجابیه سخّر لسلیمان.

أمّا کیف تحمل الریح مقعد سلیمان،(سواء أ کانت کرسیا أم بساطا)؟فلیس بواضح لنا.و القدر المتیقّن هو أن لا شیء یمثّل مشکله أو عقبه أمام قدره اللّه،لقد استطاع الإنسان بقدرته-الحقیره أمام قدره اللّه-أن یحرّک البالونات و الطائرات التی تحمل مئات بل آلاف المسافرین و الأحمال الاخری فی عنان السماء،فهل أنّ تحریک بساط سلیمان بواسطه الریح یشکّل أدنی مشکله للباری جلّت قدرته!؟ ما هی العوامل التی تحفظ سلیمان و وسیله نقله من السقوط أو من ضغط الهواء و المشکلات الاخری الناشئه من الحرکه فی السماء؟هذه أیضا من المسائل التی خفیت عنّا تفصیلاتها.و لکن ما نعلمه أنّ تأریخ الأنبیاء حافل بخوارق العاده و التی-مع الأسف-امتزجت نتیجه جهود بعض الجهله أو أعداء المعرفه بالخرافات حتّی أضحت الصوره الحقیقیه لهذه الأمور مشوشه و قبیحه،و نحن

ص:۴۰۴

---

۱ – ۱) «لسلیمان»جار و مجرور متعلّق بفعل مقدّر تقدیره«سخّرنا»کما یفهم بقرینه الآیات السابقه،و قد صرّح بذلک فی الآیه(۳۶)من سوره ص.التی قال فیها سبحانه و تعالی: فَسَخَّرْنٰا لَهُ الرِّیحَ .و بعض المفسّرین یعتقد بأنّ(اللام)فی (لسلیمان)للتخصیص،إشاره إلی أنّ المعجزه اختصّ بها سلیمان و لم یشارکه فیها أحد من الأنبیاء.

نقتنع بهذا الخصوص بالمقدار الذى أشار إليه القرآن الكريم.

«غدو»:بمعنى وقت الصبح من النهار،يقابله«الرواح»بمعنى وقت الغروب من النهار،و يطلق على الحيوانات عند عودتها إلى مساكنها فى آخر النهار للاستراحه، و يبدو من القرائن فى الآيه مورد البحث أنّ«الغدو»هنا بمعنى النصف الأوّل من النهار،و«الرواح»النصف الثّانى منه،لذا يحتمل فى معنى الآيه أنّ سليمان عليه السّلام يقطع فى وقت مقداره من الصبح إلى الظهر-بمركبه-ما يعادل المسافه التى يقطعها المسافرون فى ذلك الزمان بشهر كامل،و كذا نصف النهار الثانى.

بعدئذ تنتقل الآيه إلى الموهبه الثّانيه التى خصّ اللّه بها سليمان عليه السّلام فتقول الآيه الكريمه: وَ أَسَلْنا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ .

«أسلنا»من مادّه«سيلان»بمعنى الجريان،و«القطر»بمعنى النحاس، و المقصود أنّنا أذبنا له هذا الفلز و جعلناه كعين الماء،و ذهب البعض إلى أنّ«القطر» يعنى أنواع الفلزات أو«الرصاص»،و على هذا يكون قد ألين الحديد للأب، و أذيبت الفلزات بأجمعها للابن،و لكن المشهور هو المعنى الأوّل.

كيف يكون النحاس أو الفلزات الاخرى كعين الماء بين يدى سليمان عليه السّلام؟هل أنّ اللّه علّم هذا النّبى كيفيه إذابه هذه الفلزات بكميات كبيره بطريقه الإعجاز؟أو جعل عينا من هذا الفلز المائع تحت تصرفه،تشبه عيون البراكين وقت فعاليتها، حيث تنحدر منها على أطراف الجبل بصوره إعجازيه،أو بأى شكل آخر؟ليس واضحا لدينا و ما نعلمه هو أنّ ذلك أيضا كان من الألطاف الإلهيه على هذا النّبى العظيم.

أخيرا تنتقل الآيه إلى بيان الموهبه الإلهيه الثالثه لسليمان عليه السّلام و هى تسخير مجموعه كبيره من الجنّ لخدمته فتقول الآيه: وَ مِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَ مَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنا نُذِقْهُ مِنْ عَذابِ السَّعِيرِ .

«الجنّ»:و كما هو معلوم من اسمه،ذلك المخلوق المستور عن الحسّ البشرى،

له عقل و قدره و مكلّف بتكاليف إلهيه-كما يستفاد من آيات القرآن-.

لقد صيغت حول«الجنّ»أساطير و حكايات و قصص خرافيه كثيره،لو حذفناها لكان أصل وجودهم و الصفات الخاصّه بهم التى وردت فى القرآن موضوعا لا يخالف العلم و العقل مطلقا،و سوف نتعرّض إن شاء اللّه لتفصيل هذا الموضوع أكثر عند تفسير سوره«الجنّ».

و على كلّ حال،يستفاد من تعبير الآيه أعلاه،أنّ تسخير هذه القوّه العظيمه كان -أيضا-بأمر اللّه،و أنّهم كانوا يتعرّضون للعقاب لدى تقصيرهم فى أداء مهامهم.

قال بعض المفسّرين:إنّ المقصود من«عذاب السعير»هنا،عقوبه يوم القيامه، فى حين أنّ ظاهر الآيه يشير إلى أنّها عقوبه فى الدنيا.

و كذلك يستفاد من الآيات ۳۷ و ۳۸ من سوره«ص»بأنّ اللّه قد سخّر لسليمان عليه السّلام مجموعه من الشياطين لإنجاز أعمال عمرانيه هامّه له،و أنّهم كانوا يكبّلون بالسلاسل بأمر من سليمان عند ظهور أى تخلّف منهم وَ الشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَ غَوَّاصٍ وَ آخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى الْأَصْفَادِ .

و الجدير بالملاحظه.هو أنّه لإداره حكومه كبيره،و دوله واسعه كدوله سليمان يلزم وجود عوامل عديده،و لكن أهمّها ثلاثه عوامل ذكرتها الآيه أعلاه و هى:

الأوّل:توفّر واسطه نقل سريعه مهيّأه على الدوام،لكى يستطيع رئيس الحكومه تفقّد جميع أطراف دولته بواسطتها.

الثانى:مواد أوّليه يستفاد منها لصناعه المعدّات اللازمه لحياه الناس و الصناعات المختلفه.

الثالث:قوّه عامله فعّاله،تستطيع الإفاده من تلك المواد بدرجه مناسبه، و تصنيعها بالكيفيه اللازمه،و سدّ حاجه البلاد من هذه الجهه.

و نرى أنّ اللّه تعالى قد قيّض لسليمان هذه العناصر الثلاثه،و قد حقّق سليمان منها أحسن الفائده فى ترقيه الناس و تعمير البلاد و تحقيق الأمن فيها.

و هذا الموضوع لا يختّص فقط بعصر سليمان عليه السّلام و حكومته،فالالتفات إليه و مراعاته من الضروريات اليوم و غدا،و فى كلّ مكان لأجل إداره الدول بطريقه صحيحه.

الآيه التاليه،تشير إلى جانب من الأعمال الإنتاجيه الهامّه،التى كان يقوم بها فريق الجنّ بأمر سليمان.

يقول تعالى: يَعْمَلُونَ لَهُ مٰا يَشٰاءُ مِنْ مَحٰارِيبَ وَ تَمٰاثِيلَ وَ جِفٰانٍ كَالْجَوٰابِ وَ قُدُورٍ رٰاسِيٰاتٍ .

فكلّ ما أراده سليمان من معابد و تماثيل و أوانى كبيره للغذاء و التى كانت كالأحواض الكبيره،و قدور واسعه ثابته،كانت تهيّأ له،فبعضها يرتبط بالمسائل المعنويه و العباديه،و بعضها الآخر يرتبط بالمسائل الجسمانيه،و كانت متناسبه مع أعداد جيشه و عمّاله الهائله.

«محاريب»جمع محراب،و يعنى«مكان العباده»أو«القصور و المبانى الكبيره»التى بنيت كمعابد.كذلك أطلقت أيضا على صدر المجلس،و عند ما بنيت المساجد سمّى صدر المسجد به،قيل: سمّى محراب المسجد بذلك لأنّه موضع محاربه الشيطان و الهوى (1) .و قيل:سمّى بذلك لأنّ الإنسان فيه يكون حريبا من أشغال الدنيا و من توزّع الخواطر (2) .

على كلّ حال،فإنّ هؤلاء العمّال النشطين المهره،قاموا ببناء المعابد الضخمه و الجميله فى ظلّ حكومته الإلهيه و العقائديه،حتّى يستطيع الناس أداء وظائفهم العباديه بسهوله.

«تماثيل»:جمع تمثال،بمعنى الرسم و الصوره و المجسمه،و قد وردت تفاسير عديده حول ماهيه هذه التماثيل و لأى الموجودات كانت؟أو لما ذا أمر سليمان

۱- ۱) مفردات الراغب،مادّه(حرب).

۲- ۲) المصدر السابق.

بصنعها؟.

يمكن أن تكون صنعت لتزيين المبانى،كما نلاحظ ذلك فى المبانى المهمّه القديمه فى عصرنا الحالى،أو حتّى فى بعض المبانى الجديده.

أو لإضفاء الأبّهه و الهيبه على المبانى التى بنيت،حيث أنّ رسم بعض أنواع الحيوانات كالأسد مثلا يضفى نوعا من الابّهه فى أفكار غالبيه الناس.

ثمّ،هل كان صنع تماثيل ذوات الأرواح مباحا فى شريعه سليمان عليه السّلام مع كونه حراما فى الشريعه الإسلاميه؟أو أنّ التماثيل التى كانت تصنع لغير ذوات الروح من الموجودات كالأشجار و الجبال و الشمس و القمر و النجوم؟ أو أنّها كانت مجرّد نقوش و رسوم على الجدران-كما تلاحظ فى الآثار القديمه-و هى غير محرّمه كما هو الحال فى حرمه التماثيل المجسّمه.

كلّ ذلك محتمل،لأنّ تحريم صناعه المجسّمات فى الإسلام،كان بقصد مكافحه قضيّه عباده الأوثان و اقتلاعها من الجذور،فى حين أنّ ذلك لم يكن بتلك الدرجه من الضروره فى زمن سليمان،لذا لم تحرم فى شريعته! و لكنّنا نقرأ

فى روايه عن الإمام الصادق عليه السّلام فى تفسير هذه الآيه أنّه قال: «و اللّه ما هى تماثيل الرجال و النساء و لكنّها الشجر و شبهه» (1) .

و بالاستناد إلى هذه الرّوايه فإنّ صنع التماثيل من ذوات الروح فى شريعه سليمان كان حراما أيضا.

«جفان»جمع«جفنه»بمعنى إناء الطعام.

«جوابى»جمع«جابيه»بمعنى حوض الماء.

و هنا يستفاد أنّ المقصود من التعبير الوارد فى الآيه الكريمه،أنّ هؤلاء العمّال قد صنعوا لسليمان عليه السّلام أوانى للطعام كبيره جدّا،بحيث أنّ كلاّ منها كان كالحوض،

۱- ۱) وسائل الشيعه،ج ۱۲،ص ۲۱۹-۲۲۰،ب ۹۴،ح ۱.

لکی یستطیع عدد کبیر من الأفراد الجلوس حوله و تناول الطعام منه.و الاستفاده من الأوانی الجماعیه الکبیره لتناول الطعام کانت موجوده إلی أزمنه لیست بالبعیده.و فی الحقیقه فإنّ مائدتهم کانت تلک الأوانی الکبیره التی لا تشبه ما نستعمله هذه الأیّام من أوان صغیره و مستقلّه.

«قدور»:جمع«قدر»علی وزن«قشر».بنفس معناه الحالی،أی الإناء الذی یطبخ فیه الطعام.

«راسیات»:جمع«راسیه»بمعنی ثابته،و المقصود أنّ القدور کانت من العظمه بحیث لا یمکن تحریکها من مکانها.

و تعرج الآیه فی الختام و بعد ذکر هذه المواهب الإلهیه،إلی آل داود فتخاطبهم:

اِعْمَلُوا آلَ دٰاوُدَ شُکْراً وَ قَلِیلٌ مِنْ عِبٰادِیَ الشَّکُورُ

.

و بدیهی أنّ(الشکر)الذی أشارت إلیه الآیه،لو کان مقصودا به الشکر باللسان لما کانت هناک أدنی مشکله و لمّا کان العاملون به قلیلین،و لکن المقصود هو (الشکر العملی).أی الاستفاده من تلک المواهب فی طریق الأهداف التی خلقت لأجلها.و المسلّم به أنّ الذین یستفیدون من المواهب الإلهیه فی طریق الأهداف التی خلقت لأجلها هم الندره النادره.

قال بعض العلماء:إنّ للشکر ثلاثه مراحل:الشکر بالقلب،بتصوّر النعمه و الرضی و السرور بها.و الشکر باللسان،و بالحمد و الثناء علی المنعم.الشکر بسائر الأعضاء و الجوارح،و ذلک بتطبیق الأعمال مع متطلّبات تلک النعمه.

«شکور»:صیغه مبالغه.یعبّر بها عن کثره الشکر و دوامه بالقلب و اللسان و الأعضاء و الجوارح.

و هذه الصفه تطلق أحیانا علی اللّه سبحانه و تعالی،کما ورد فی الآیه(١٧)من سوره التغابن: اَللّٰهُ شَکُورٌ حَلِیمٌ .و المقصود به أنّ اللّه سبحانه و تعالی،یشمل العباد المطیعین بعطایاه و ألطافه،و یشکرهم،و یزیدهم من فضله أکثر ممّا

يستحقّون.

كـذلك يمكن أن يكـون التعـبير ب قَلِيلٌ مِنْ عِبٰادِيَ الشَّكُورُ إشـاره إلى تعظيم مقـام هـذه المجموعه النموذجيه،أو بمعنى حثّ المستمع ليكون من أفراد تلك الزمره و يزيد جمع الشاكرين.

آخر آيه من هـذه الآيات،و هى آخر حـديث عن النّبى سـليمان عليه السّـلام، يخبرنا اللّه سـبحانه و تعالى فيها بطريقه موت ذلك النّبى العجيبه و الـداعيه للاعتبـار،فيوضّـح تلـك الحقيقه الساطعه،و هى كيف أنّ نبيّا بتلك العظمه و حاكما بكلّ تلك القـدره و الاـبّهه،لـم يسـتطع حيـن أخـذ المـوت بتلاـبيبه مـن أن يسـتلقى على سـرير مريـح، و انـتزعت روحـه مـن بـدنه بتلـك السـهوله و السرعه.يقول تعالى: فَلَمّٰا قَضَيْنٰا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مٰا دَلَّهُمْ عَلىٰ مَوْتِهِ إِلاّٰ دَابَّهُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ (١) .

يستفاد من تعبير الآيه و من الروايات المتعـدّده الوارده فى تفسيرها،أنّ سليمان كان واقفا متّكئا على عصاه حين فاجأه الموت و اسـتلّ روحـه من بـدنه، و بقى جثمـان سـليمان مـدّه على حـالته،حتّى أكلت الأـرضه-الـتى عـبّر عنهـا القرآن ب«دابّه الأـرض»- عصاه،فاختلّ توازنه و هوى على الأرض،و بذا علم بموته.

لذا تضيف الآيه بعد ذلك فَلَمّٰا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كٰانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مٰا لَبِثُوا فِي الْعَذٰابِ الْمُهِينِ .

جمله«تبيّنت»من مـادّه«بيّن»عـاده بمعنى(اتّضـح)(و هو فعـل لاـزم).و أحيانـا يـأتى أيضـا بمعنى«العلم و الاطلاع»(فعل متعـد).و هنا يتنـاسب الحـال مع المعنى الثـانى.بمعنى أنّ الجنّ لم يعلمـوا بمـوت سـليمان إلى ذلـك الـوقت،ثمّ علموا و فهموا أنّهم لو كـانوا يعلمون الغيب لما بقوا حتّى ذلك الحين فى تعب و آلام الأعمال

١- ١) «منسأته»:من مادّه(نسأ)و هو التأخير فى الوقت،و المنسأه:عصا ينسأ بها الشـىء،أى يؤخّر.قال بعض المفسّرين:إنّ هذه اللفظه من كلمات أهل اليمن،و بما أنّ سليمان عليه السّلام حكم تلك المنطقه فقد استخدمها القرآن حين حديثه عن ذلك النّبى.راجع مفردات الراغب و تفسير القرطبى و روح البيان.

الشاقّه التی کلّفوا بها.

جمع من المفسّرین أخذ المعنی بالحاله الأولی،و قال:إنّ مقصود الآیه هو أنّه بعد أن هوی جثمان سلیمان علیه السّلام إلی الأرض اتّضحت حقیقه الجنّ للناس،و أنّهم لا یعلمون شیئا من الغیب،و عبثا کان إعتقاد البعض باطّلاع الجنّ علی الغیب (۱) .

(العذاب المهین)هذا التعبیر قد یکون إشاره إلی الأعمال الشاقّه التی کان سلیمان علیه السّلام یعهد بها إلی مجموعه من الجنّ کنوع من العقاب،و إلاّ فإنّ نبیّ اللّه لا یمکن أن یضع أحدا فی العذاب عبثا،و هو علی ما یبدو عذاب مذلّ.

بحوث

اشاره

۱-صور من حیاه سلیمان علیه السّلام:

علی عکس«التوراه»الموجود الیوم و التی صوّرت«سلیمان»أحد السلاطین الجبابره و بانی معابد الأوثان الضخمه و مستهتر النساء-یعدّ القرآن الکریم «سلیمان»من أنبیاء اللّه العظام و نموذج للحکومه و القدره المنقطعه النظیر،و قد أعطی القرآن الکریم بعرضه البحوث المختلفه المتعلّقه بسلیمان دروسا للبشر هی الأساس من ذکر قصّته.

قرأنا فی هذه الآیات الکریمه،أنّ اللّه تعالی أعطی لهذا الرّسول العظیم مواهب عظیمه،فمن وسیله النقل السریعه جدّا و التی استطاع بواسطتها التنقّل فی مملکته الواسعه فی مدّه قصیره،إلی المواد المعدنیه المختلفه الکثیره،إلی القوی العامله الفعّاله الکافیه لتصنیع تلک المعادن.

۱- ۱) فی الحاله الاولی یکون إعراب الآیه کما یلی:«تبیّنت»فعل و«الجنّ»فاعل و جمله«أن لو کانوا...»فی محل مفعول به،و فی الحاله الثّانیه«تبیّنت»فعل و«أمر الجنّ»فاعل ثمّ حذف المضاف و أصبح«المضاف إلیه»فی محلّه،و أن لو کانوا...بیان و توضیح للجمله.

و قد قام سليمان عليه السّلام بالاستفاده من المواهب المذكوره،ببناء المعابد الضخمه، و ترغيب الناس بالعباده،و كذلك فقد نظّم برامج واسعه لاستضافه أفراد جيشه و عمّاله و سائر الناس فى مملكته.و من الأوانى التى مرّ ذكرها يمكننا تخيّل أكثر من ذلك.

و فى قبال ذلك طالبه اللّه تعالى بأداء الشكر على هذه النعم،مع تأكيده سبحانه على أنّ أداء شكر النعم يتحقّق من فئه قليله نادره.

ثمّ اتّضح كيف أنّ رجلا- بكلّ هذه القدره و العظمه كان أمام الموت ضعيفا لا حول له و لا قوّه،بحيث فارق الدنيا فجأه و فى لحظه واحده.نعم..كيف أنّ الأجل لم يعطه حتّى فرصه الجلوس أو الاستلقاء على سريره.ذلك حتّى لا- يتّوهم المغرورون العاصون حينما يبلغون مقاما أو منصبا أن قد أصبحوا مقتدرين حقيقه، فإنّ المقتدر الحقيقى الذى كان الجنّ و الإنس و الشياطين خدما بين يديه،و الذى كان يجول فى الأرض و السماء و قد بلغ قمّه الهيبه و الحشمه..ثمّ فى لحظه قصيره فارق الدنيا.

و اتّضح كذلك كيف أنّ عصا تافهه،أقامت جثمانه مدّه،و جعلت الجنّ يعملون بجد و اجتهاد و هم يلحظون جثمانه الواقف أو الجالس.ثمّ كيف أسقطته الأرضه على الأرض،و كيف اضطربت بسقوطه الدوله بكلّ مسئوليها.نعم،عصا تافهه أقامت دوله عظيمه، ثمّ حشره صغيره أوقفت تلك الدوله!! الجميل هو ما

ورد فى الروايه عن الإمام الباقر عليه السّلام إذ قال: «أمر سليمان بن داود الجنّ فصنعوا له قبّه من قوارير فبينا هو متكئ على عصاه فى القبّه ينظر إلى الجنّ كيف ينظرون إليه إذ حانت منه التفاته فإذا رجل معه فى القبّه قال له:من أنت،قال:أنا الذى لا أقبل الرشا و لا أهاب الملوك أنا ملك الموت.فقبضه و هو قائم متكئ على عصاه فى القبّه و الجنّ ينظرون إليه.قال:فمكثوا سنه يدأبون له حتّى بعث اللّه عزّ و جلّ الأرضه فأكلت منسأته-و هى العصا-فلمّا خرّ تبيّنت الجنّ

أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فی العذاب المهین»الحدیث (۱) .

و یجب أن نـذكّر هنـا أیضـا،بـأنّ قصّه النّبی سـلیمان علیه السّـلام ككثیر من قصـص الأنبیـاء، اختلطت مع الأـسف بروایات كثیره موضوعه و خرافات شوّهت صوره هذا النّبی العظیم،و أكثر هذه الخرافات أخذت من التوراه الرائجه الیوم،و لو اقتنعنا بما ورد فی القرآن الكریم حول هذا النّبی لما واجهتنا أیّه مشكله.

۲-لماذا خفی موت سلیمان مدّه من الزمن؟

كم هی المدّه التی ظلّ فیها موت سـلیمان مخفیا عن حكومته،هل كانت سـنه،أم شـهرا،أم عدّه أیّام؟اختلف المفسّـرون حول هذا الموضوع.

هل أنّ الكتمان كان من قبل مقربیه الذین قصدوا من وراء ذلك تمشـیه امور الدوله،أم أنّهم هم الآخرون قد خفی علیهم ذلك؟ یبـدو من المسـتبعد تماما أن یخفی أمر وفاته عن حاشـیته لمـدّه طویله،لا بل حتّی لأكثر من یوم واحد،لأنّ من المسـلّم أنّ هناك أفرادا كانوا مكلّفین بإیصال احتیاجاته و غذائه إلیه،و هؤلاء سـیعلمون بموته حتما،و علیه فلا یسـتبعد-كما قال بعض المفسّـرین- أنّهم علموا بـأمر موته،لكنّهم أخفوا ذلك الأمر لغایات معیّنه،لـذا فقـد ورد فی بعض الروایات بأنّ«آصف بن برخیا»وزیر سـلیمان الخاص،هو الذی كان یدیر امور الدوله.

ألم تشـكّل مسأله عدم تناول الطعام و الماء لمدّه طویله تساؤلا لدی ناظریه؟ مع الیقین بأنّ كلّ أعمال سـلیمان علیه السّلام كانت عجیبه،فیمكن اعتبار هـذه المسأله من عجائبه أیضا،و حتّی أنّه ورد فی بعض الروایات أنّه بعـد مـدّه من بقاء سـلیمان علیه السّـلام علی حاله كثر الهمس بین البعض فی وجوب عیاده سلیمان،لأنّه علی

۱- ۱) علل الشرائع،طبقا لنقل المیزان،ج ۱۶،ص ۳۶۶.

حاله منذ مدّه لم يتحرّك و لم يأكل و لم يشرب و لم ينم (۱) .و لكن حينما تحطّمت العصا،و سقط الجثمان على الأرض تبدّدت كلّ هذه الأفكار و الأوهام.

على كلّ حال،فإنّ تأخير إعلان موت سليمان عليه السّلام كشف كثيرا من الأمور:

۱-اتّضح للجميع أنّ الإنسان حتّى إذا بلغ أوج القدره و القوّه،فلا يزال هو الموجود الضعيف قبال الحوادث،كالقشّه فى خضمّ الطوفان يتقاذفها فى كلّ جانب.

يقول أمير المؤمنين على بن أبى طالب(عليه أفضل الصلاه و السّلام)فى إحدى خطبه «فلو أنّ أحدا يجد إلى البقاء سلما أو لدفع الموت سبيلا لكان ذلك سليمان بن داود عليهما السّلام الذى سخّر له ملك الجنّ و الإنس مع النبوّه و عظيم الزلفه» (۲) .

۲-اتّضح للجميع أنّ الجنّ لا يعلمون الغيب،و المغفّلين من البشر الذين كانوا يعبدونهم كانوا على خطأ فادح.

۳-اتّضحت لجميع الناس أيضا حقيقه إمكان أن يرتبط نظام دوله بموضوع صغير،بوجوده يمكن أن يقوم هذا النظام،و بانهياره ينهار هذا النظام،و من وراء ذلك تجلّت القدره اللامتناهيه للبارى عزّ و جلّ.

۳-سليمان فى القرآن و التوراه الحاليه

يصوّر القرآن سليمان بصوره نبى عظيم،ذى علم وافر،و تقوى عاليه،لم يأسره المقام و المال أبدا،مع كلّ ما كان له من سلطه فى حكومه عظيمه،و قال حينما أرسلت ملكه سبأ-لخداعه-هدايا نفيسه و ثمينه

۱- ۱) تفسير البرهان،ج ۳،ص ۳۴۵.

۲- ۲) نهج البلاغه،الخطبه ۱۸۲.

أَ تُمِدُّونَنِ بِمٰالٍ فَمٰا آتٰانِیَ اللّٰهُ خَیْرٌ مِمّٰا آتٰاکُمْ

(۱)

لم یکن لهم من هم سوی أداء الشکر للّه علی نعمه وَ قٰالَ رَبِّ أَوْزِعْنِی أَنْ أَشْکُرَ نِعْمَتَکَ الَّتِی أَنْعَمْتَ عَلَیَّ وَ عَلیٰ وٰالِدَیَّ... (۲) .

قائد لم یسمح بظلم نمله حینما قالت و هم فی وادی النمل: یٰا أَیُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسٰاکِنَکُمْ لاٰ یَحْطِمَنَّکُمْ سُلَیْمٰانُ وَ جُنُودُهُ وَ هُمْ لاٰ یَشْعُرُونَ (۳) .

کان«عابدا»إذا غفل عن ذکر ربّه أو شغل بالدنیا عاد منیبا و هو یقول: إِنِّی أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَیْرِ عَنْ ذِکْرِ رَبِّی.. (۴) .

کان«حکیما»لم یجانب المنطق فی قول،حتّی فی حدیثه مع الهدهد،لم یتخلّ عن الحقّ و العداله.

کان«حاکما»له من المعاونین من له من علم الکتاب ما استطاع به إحضار عرش بلقیس فی أقلّ من طرفه عین.

و قد وصفه القرآن الکریم ب«الأوّاب»و«نعم العبد».

شخص أعطاه اللّه«الحکم»و«العلم»و شمله بهدایته،و لم یشرک باللّه طرفه عین أبدا.

لکنّنا نجد أنّ التوراه الحالیه المحرّفه،قد لوّثت صفحه هذا النّبی العظیم بالشرک و غیره،فقد نسبت إلیه أسوأ الأوصاف فیما یخصّ بناء المعابد الوثنیه،و الترویج لعباده الأوثان، و الوالع المفرط بالنساء،و تعبیرات قبیحه جدّا من أوصاف العشّاق المبتذلین،التی نخجل عن ذکرها.

و نکتفی بذکر بعض ما ورد فی التوراه من الأساطیر الأهون قبحا،ففی الکتاب الأوّل للملوک من التوراه نقرأ ما یلی:

۱- ۱) النمل،۳۶.

۲- ۲) النمل،۱۹.

۳- ۳) النمل-۱۸.

۴- ۴) سوره ص،۳۲.

«و أولع سليمان بنساء غريبات كثيرات فضلا عن ابنه فرعون،فتزوّج نساء موابيات و عمّونيّات و أدوميات و صيدونيات و حثيات،و كلّهنّ من بنات الأمم التى نهى الربّ بنى إسرائيل عن الزواج منهنّ قائلا لهم:«لا تتزوّجوا منهم و لا هم منكم لأنّهم يغوون قلوبكم وراء آلهتهم»و لكن سليمان التصق بهنّ لفرط محبّته لهنّ،فكانت له سبع مائه زوجه،و ثلاث مائه محضيه،فانحرفن بقلبه عن الربّ فاستطعن فى زمن شيخوخته أن يغوين قلبه وراء آلهه اخرى،فلم يكن قلبه مستقيما مع الربّ إلهه كقلب داود أبيه،و ما لبث أن عبد عشتاروت آلهه الصيدونيين و ملكوم إله العمونيين البغيض،و ارتكب الشرّ فى عينى الربّ،و لم يتّبع سبيل الربّ بكمال كما فعل أبوه داود،و أقام على تلّ شرقى أورشليم مرتفعا تكموش إله الموآبيين الفاسق.و لمولك إله بنى عمون البغيض،و شيّد مرتفعات لجميع نسائه الغربيات،اللواتى رحن يوقدن البخور عليها،و يقربن المحرّقات لآلهتهنّ فغضب الربّ على سليمان لأنّ قلبه ضلّ عنه مع أنّه تجلّى له مرّتين و نهاه عن الغوايه وراء آلهه اخرى،فلم يطع وصيّته،لهذا قال اللّه لسليمان!لأنّك انحرفت عنّى و نكثت عهدى،و لم تطع فرائضى التى أوصيتك بها،فانّى حتما امزّق أوصال مملكتك و أعطيها لأحد عبيدك،إلاّ أنّنى لا أفعل ذلك فى أيّامك،من أجل داود أبيك،بل من يد ابنك امزّقها،غير أنّى ابقى له سبطا واحدا يملك عليه إكراما لداود عبدى...» (1) .

و من مجموع هذه القصّه الخرافيه للتوراه يتّضح ما يلى:

1-إنّ سليمان كان يحبّ كثيرا النساء الوثنيات،و تزوّج بكثير منهنّ على خلاف أوامر اللّه تعالى،و تدريجيّا مال إلى دينهنّ،و بالرغم من كثره نسائه(700 زوجه و 300 محضيه)فانّ حبّه لهنّ أدّى إلى انحرافه عن طريق الحقّ(نعوذ باللّه).

1- 1) التوراه كتاب الملوك الأوّل-الفصل 11-12-زوجات سليمان.

۲-إنّ سليمان أمر بصراحه ببناء معابد للأوثان فوق الجبل المقابل لأورشليم المركز الدينى المقدّس لبنى إسرائيل،و أحد المعابد كان لصنم«كموش»الذى يعبده الموآبيون،و الآخر لصنم«عشترون»الذى كان يعبده الصيداويون.و كلّ ذلك حدث فى أيّام شيخوخته.

۳-إنّ اللّه تعالى قرّر عقوبه سليمان بسبب انحرافه و ذنوبه الكبيره بأن يفقد مملكته،و لكن لا من يده،بل من يد ابنه«رحبعام»و يتركه إلى آخر عمره يلعب و يعبث كيفما شاء من أجل أبيه داود العبد المخلص،أى ذلك العبد الذى تقول التوراه عنه انّه ارتكب قتل النفس وزنا المحصنه و الاستيلاء على زوجه قائد جيشه المتفانى!!فهل يمكن تصديق مثل هذه التّهم ضدّ رجل مقدّس مثل سليمان؟! و لو فرضنا أنّ سليمان لم يكن نبيّا-كما يصرّح القرآن بذلك-و قلنا بأنّه من ملوك بنى إسرائيل،فمع ذلك لا يمكن تصديق مثل هذه التّهم فى حقّه، لأنّه لو لم يكن نبيّا فلا أقل من أنّ مرتبته كانت تاليه لمرتبه النّبى،لأنّ له كتابين من كتب العهد القديم أحدها يدعى:«مواعظ سليمان»و الآخر«أشعار سليمان».

و أساسا كيف يجيب اليهود و النصارى الذين يعتقدون بهذه التوراه الحاليه على هذه الأسئله و الإشكالات؟و كيف يتسنّى لهم قبول مثل هذه الفضائح؟!

۴-و قليل من عبادى الشكور

قبل كلّ شىء يلزم البحث فى الأصل اللغوى لكلمه«شكر».

الراغب الأصفهانى يقول فى مفرداته،الشكر:تصوّر النعمه و إظهارها،قيل و هو مقلوب عن«الكشر»أى الكشف،و يضادّه الكفر،و هو نسيان النعمه و سترها، «و دابه شكور»مظهره بسمنها إسداء صاحبها إليها.و قيل أصله عين شكرى،أى ممتلئه فالشكر على هذا هو الامتلاء من ذكر المنعم عليه.

و الشکر ثلاثه أضرب:شکر القلب،و هو تصوّر النعمه.و شکر اللسان،و هو الثناء علی المنعم،و شکر سائر الجوارح،و هو مکافأه النعمه بقدر استحقاقها.

التعبیر القرآنی فی الآیه اِعْمَلُوا آلَ دٰاوُدَ شُکْراً یشیر إلی أنّ الشکر أکثر من مقوله،إنّه«عمل»،و یجب أن یظهر من بین أعمال الإنسان،و علیه فقد یکون القرآن الکریم قد عدّ الشاکرین الحقیقیین قلّه لهذا السبب.و فضلا عمّا ورد فی هذه الآیات فإنّ فی الآیه(۲۳)من سوره الملک،ذکر بعد تعداد بعض النعم الإلهیه العظیمه،کخلق السمع و البصر و القلب،ذکر قَلِیلاً مٰا تَشْکُرُونَ ،و کذا فی الآیه (۷۳)من سوره النمل ورد وَ لٰکِنَّ أَکْثَرَهُمْ لاٰ یَشْکُرُونَ .و هذا من جانب.

و من جانب آخر فمع الالتفات إلی أنّ الإنسان غارق من رأسه حتّی أخمص قدمیه بنعم اللّه التی لا تعدّ و لا تحصی،کما عبّر عن ذلک القرآن الکریم وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَهَ اللّٰهِ لاٰ تُحْصُوهٰا یتّضح لما ذا یمتنع الشکر کما ینبغی للّه قبال جمیع النعم التی أفاضها الباری جلّ و علا.

بتعبیر آخر،و کما ورد علی لسان بعض کبار المفسّرین،فإنّ«الشکر المطلق»، هو أن یکون الإنسان علی ذکر دائم للّه بلا أدنی نسیان،سائرا فی طریقه تعالی بدون أیّه معصیه،طائعا لأوامره بلا أدنی لفّ أو دوران،و مسلّم بأنّ هذه الأوصاف لا تجتمع إلاّ فی القلّه النادره،و لا یصغی إلی قول من یقول:إنّه أمر بما لا یطاق، فإنّه ناشئ من قلّه التدبّر فی هذه الحقائق و البعد من ساحه العبودیه (۱) .

قد یقال:إنّ أداء حقّ الشکر للّه سبحانه و تعالی قضیّه معقّده بلحاظ إنّه فی الوقت الذی یقف فیه الإنسان فی مقام الشکر و یوفّق لذلک،بأن تتوفّر لدیه أسباب أداء الشکر،فإنّ ذلک بحدّ ذاته نعمه جدیده تحتاج إلی شکر آخر،و بذا یستمرّ هذا الموضوع بشکل متتابع،و کلّما بذل الإنسان جهدا أکثر فی طریق الشکر سیکون مشمولا بنعمه متزایده لا یمکنه معها أداء شکرها.لکن إذا انتبهنا أنّ أحد طرق أداء

۱- ۱) تفسیر المیزان،ج ۴،ص ۳۸.

الشکر للّه هو بإظهار العجز عن أدائه کما بیّن القرآن الکریم یتّضح حقیقه قلّه الشاکرین و ملاحظه الأحادیث التالیه تساعد فی توضیح هذا المطلب.

فعن أبی بصیر قال: قلت لأبی عبد اللّه الصادق علیه السّلام:هل للشکر حدّ إذا فعله العبد کان شاکرا؟قال:«نعم»قلت:ما هو؟قال:یحمد اللّه علی کلّ نعمه علیه فی أهل و مال،و إن کان فیما أنعم علیه فی ماله حقّ أدّاه» (۱) .

و

عن أبی عبد اللّه علیه السّلام قال: «شکر النعمه اجتناب المحارم» (۲) .

و

عن الإمام أبو عبد اللّه الصادق علیه السّلام أیضا قال: «فیما أوحی اللّه عزّ و جلّ إلی موسی علیه السّلام:یا موسی اشکرنی حقّ شکری،فقال:یا ربّ و کیف أشکرک حقّ شکرک و لیس من شکر أشکرک به إلاّ و أنت أنعمت به علیّ؟قال:یا موسی الآن شکرتنی حین علمت أنّ ذلک منّی» (۳) .

نلفت النظر کذلک إلی أنّ شکر الإنسان الذی یکون وسیله للنعمه لشخص آخر، هو شعبه من شکر اللّه،و کما

ورد عن علی بن الحسین السجّاد علیه السّلام قوله: إنّ اللّه یحبّ کلّ قلب حزین و یحبّ کلّ عبد شکور،یقول اللّه تبارک و تعالی لعبد من عبیده یوم القیامه:أشکرت فلانا؟فیقول:بل شکرتک یا ربّ،فیقول:لم تشکرنی إذ لم تشکره، ثمّ قال:أشکرکم للّه أشکرکم للناس» (۴) .

و فیما یخصّ موضوع(حقیقه الشکر)و کیف یکون الشکر سببا فی زیاده النعمه،و کیف یکون الکفر سببا فی ذهابها و فنائها،هناک شرح مفصّل فی تفسیر الآیه السابعه من سوره إبراهیم.

۱- ۱) الکافی،ج ۲،باب الشکر،ص ۹۵،ح ۱۲ و ح ۱۰.

۲- ۲) المصدر السابق.

۳- ۳) الکافی،ج ۲،باب الشکر،ص ۹۸،ح ۲۷.

۴- ۴) الکافی،ج ۲،باب الشکر،ص ۹۹،ح ۳۰.

الآيات [سوره سبإ (۳۴): الآيات ۱۵ الى ۱۷]

اشاره

لَقَدْ كانَ لِسَبَإٍ فِی مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتانِ عَنْ يَمِينٍ وَ شِمالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَ اُشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَ رَبٌّ غَفُورٌ (۱۵) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ سَيْلَ اَلْعَرِمِ وَ بَدَّلْناهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَواتَیْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَ أَثْلٍ وَ شَیْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ (۱۶) ذٰلِكَ جَزَيْناهُمْ بِما كَفَرُوا وَ هَلْ نُجازِی إِلاَّ اَلْكَفُورَ (۱۷)

التّفسير

اشاره

المدينه الراقيه التی أضاعها الكفران:

بعد أن تطرّقت الآيات السابقه إلى توضيح النعم الإلهيه العظيمه التى أولاها اللّه داود و سليمان عليهما السّلام،و أداء هذين النّبيين العظيمين وظيفتهما بالشكر،تنتقل الآيات أعلاه إلى الحديث عن قوم آخرين يمثّلون الموقف المقابل للموقف السابق، و يحتمل أن يكونوا قد عاصروا داود و سليمان أو عاشوا بعدهما بفتره قليله..قوم شملهم اللّه بأنواع النعم،و لكنّهم سلكوا طريق الكفران،فسلبهم اللّه ذلك،و مزّقهم شرّ ممزّق،حتّى أصبح ما حلّ بهم عبره للعالمين،أولئك كانوا«قوم سبأ».

عرض القرآن المجيد تأريخ«قوم سبأ»من خلال خمس آيات،و أشار

باختصار إلی بعض خصوصیات و جزئیات حیاتهم.

یقول تعالی: لَقَدْ کانَ لِسَبَإٍ فِی مَسْکَنِهِمْ آیَهٌ .

و کما سنری فإنّ عظمه هذه الآیه تنبع من أنّهم بالاستفاده من خصوصیات موقعهم و طریقه إحاطه الجبال بمنطقه سکناهم و بالذکاء العالی الذی وهبهم اللّه، استطاعوا حصر میاه السیول-التی لا تخلف وراءها إلاّ الدمار-خلف سدّ عظیم، و بذا عمّروا دوله رفیعه التمدّن،فکانت آیه عظیمه أن یتحوّل سبب الخراب و الدمار إلی عامل رئیسی من عوامل العمران و التمدّن!! «سبأ»اسم من؟و ما هی؟.الموضوع مورد أخذ وردّ بین المؤرخین،و لکن المشهور هو أنّ«سبأ»اسم«أبی العرب»فی الیمن،و طبقا للروایه الوارده عن «فروه بن مسیک»أنّه قال:«سألت رسول اللّه عن«سبأ»أرجل هو أم امرأه؟فقال:

هو رجل من العرب ولد له عشره،تیامن منهم ستّه و تشاءم منهم أربعه،فأمّا الذین تیامنوا فالأزد و کنده و مذحج و الأشعرون و أنمار و مجد.فقال رجل من القوم:ما أنمار؟قال:الذین منهم خثعم و بجیله،و أمّا الذین تشاءموا فعامله و جذام و لخم و غسان.فالمراد بسبإ هاهنا القبیله الذین هم أولاد سبأ بن یشجب بن یعرب بن قحطان» (۱) .

و بعضهم ذهب إلی أنّ«سبأ»اسم لأرض الیمن أو لإحدی مناطقها.و ظاهر الآیات القرآنیه التی تحدّثت فی قصّه سلیمان علیه السّلام و(الهدهد)أشارت إلی هذا المعنی أیضا ففی الآیه(۲۲)من سوره النمل،یقول تعالی علی لسان الهدهد:

وَ جِئْتُکَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ یَقِینٍ یعنی لقد جئتک من أرض سبأ بنبإ یقین.

فی حال أنّ ظاهر الآیه مورد البحث هو أنّ«سبأ»کانوا«قوما»عاشوا فی تلک المنطقه،بلحاظ أنّ ضمیر«هم»فی«مساکنهم»یعود علیهم.

۱- ۱) مجمع البیان،ج ۸،ص ۳۸۵-۳۸۶.

و لا منافاه بين التّفسيرين لأنّ من الممكن أن يكون«سبأ»اسم شخص ابتداء، ثمّ بعدئذ سمّى كلّ أولاده و قومه من بعده باسمه،ثمّ انتقل الاسم ليشمل مكان سكناهم.

تنتقل الآيه بعد ذلك لتجلّى الموقف عن تلك الموهبه الإلهيه التى وضعت بين يدى قوم سبأ.فيقول تعالى: جَنَّتانِ عَنْ يَمِينٍ وَ شِمالٍ .

ما حصل هو أنّ قوم سبأ استطاعوا-ببناء سدّ عظيم بين الجبال الرئيسيه فى منطقتهم-حصر مياه السيول المدمّره أو الضائعه هدرا على الأقل،و الإفاده منها..

و بإحداث منافذ فى ذلك السدّ سيطروا تماما على ذلك الخزّان المائى الهائل، و بالتحكّم فيه تمكّنوا من زراعه مساحات شاسعه من الأرض.

الإشكال الذى أثاره(الفخر الرازى)هو:ما هى أهميّه وجود مزرعتين لكى يذكر ذلك فى آيه مستقلّه؟ثمّ يقول فى الجواب أنّ هاتين المزرعتين لم تكونا عاديتين،بل إنّهما عباره عن سلسله من رياض المترابطه مع بعضها البعض و الممتده على جانبى نهر عظيم يتغذّى من ذلك السدّ العظيم.و كانت تلك الرياض مليئه بالبركات إلى درجه أنّه ورد فى كتب التأريخ عنها،أن لو مرّ شخص يحمل على رأسه سلّه فارغه من تحت أشجار تلك المزارع فى فصل نضوج الأثمار فانّها تمتلئ بسرعه نتيجه ما يتساقط من تلك الأثمار الناضجه.

أليس من العجيب إذا أن يتحوّل سبب الخراب و الدمار إلى سبب رئيسى للعمران بذلك الشكل المدهش؟ثمّ ألا يعدّ ذلك من عجائب آيات اللّه سبحانه و تعالى؟ و علاوه على كلّ ذلك-و كما سترد الإشاره إليه فى الآيات الآتيه-فإنّ من آيات اللّه أيضا ذلك الأمن و الأمان غير العاديين اللذين شملا تلك الأرض.

ثمّ يضيف القرآن: كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَ اشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَ رَبٌّ

غَفُورٌ

(۱)

(۲)

.

هـذه الجمله القصـيره تصوّر مجموعه النعم المـاديه و المعنويه بأجمل تعابير، فبلحاظ النعم الماديه أرض طيّبه خاليه من الأمراض المختلفه،من السـراق و الظلمه،من الآفـات و البلايـا،من الجفـاف و القحط،من الخوف و الوحشه،و قيل خاليه حتّى من الحشـرات المؤذيه.

هواء نقى،و نسيم يبعث على السرور،أرض معطاءه و أشجار وافره الثمر.

و أمّا بلحاظ النعم المعنويه فمغفره اللّه التى شملتهم، و التغاضى عن تقصيرهم، و صرف البلاء و العذاب عنهم و عن بلدتهم.

و لكن هؤلاء الجاحدين غير الشـكورين.لم يقدّروا تلك النعمه حّق قدرها.و لم يخرجوا من بوتقه الامتحان بسـلام،سـلكوا طريق الإعراض و الكفران،فقرّعهم اللّه أيّما تقريع!! قال تعالى: فَأَعْرَضُوا اسـتهانوا بنعمه اللّه،توهّموا بأنّ العمران و المدنيه و الأمن أشياء عـاديه،نسـوا اللّه،و أسـكرتهم النعمه،و تفـاخر الأغنيـاء على الفقراء، و ظنّوا أنّهم يزاحمونهم فى أرزاقهم-كمـا سـيرد فى الآيـات اللاحقه-.

و هنا مسّهم سوط الجزاء،يقول تعالى: فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ فدمّر بيوتهم و مزارعهم و حوّلها إلى خرائب..

«العرم»:من«العرامه»و هى شـراسه و صعوبه فى الخلق تظهر بالفعل،و وصف «السيل»بالعرم إشاره إلى شدّته و قابليته على التدمير.و تعبير«سيل العرم»من قبيل إضافه الموصوف إلى الصفه.

و قيل:«العرم»الجرذان الصحراويه،و هى التى سبّبت انهيار السدّ بنفوذها فيه

۱- ۱) «بلده»:خبر لمبتدأ محذوف،و التقدير:هذه بلده طيّبه و هذا ربّ غفور.

۲ - ۲) يمكن أن يكون هـذا الخطـاب الإلـهى لهؤلاـء القوم على أحـد احتمـالين،فإمّـا أن يكون قـد أبلغ ذلـك بواسـطه الأنبيـاء المبعوثين منهم،كما قال به بعض المفسّرين،أو أنّ هذه النعم كانت توصل إلى إدراكهم مثل هذا الخطاب.

(قصّه نفوذ الجرذان الصحراويه فى السدّ،مع كونها ممكنه-كما سيرد شرحه فيما بعد-لكن تعبير الآيه ليس فيه أدنى تناسب مع هذا المعنى).

فى«لسان العرب»،مادّه«عرم»وردت معان مختلفه من جملتها«السيل الذى لا يطاق»و منه قوله تعالى«الآيه»،و قيل:إضافه إلى المسنّاه أو السدّ،و قيل:إلى الفأر (۱) .

و لكن أنسب التفاسير هو الأوّل،و هو الذى اعتمده-أيضا-على بن إبراهيم فى تفسيره.

بعدئذ يصف القرآن الكريم عاقبه هذه الأرض كما يلى: وَ بَدَّلْنٰاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوٰاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَ أَثْلٍ وَ شَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ .

«أكل»:بمعنى الطعام.

«خمط»:بمعنى النبات المرّ و هو«الأراك».

«أثل»:شجر معروف.

و بذا يكون قد نبت محلّ تلك الأشجار الخضراء المثمره،أشجار صحراويه غليظه ليست ذات قيمه،و التى قد يكون«السدر»أهمّها،و هذا أيضا كان نادرا بينها.و لك-أيّها القارئ-أن تتخيّل أى بلاء حلّ بهؤلاء و بأرضهم؟! و لعلّ ذكر هذه الأنواع الثلاثه من الأشجار التى بقيت فى تلك الأرض المدمّره إشاره إلى ثلاثه امور:أحدها قبيح المنظر،و الثّانى لا نفع فيه،و الثالث له منفعه قليله جدّا.

يقول تعالى فى الآيه التاليه بصراحه و كتلخيص و استنتاج لهذه القصّه ذٰلِكَ جَزَيْنٰاهُمْ بِمٰا كَفَرُوا .

و يجب أن لا يتبادر إلى الذهن بأنّ هذا المصير يخصّ هؤلاء القوم،بل إنّ من

۱- ۱) لسان العرب مادّه«عرم»ج ۱۲،ص ۳۹۶.

المسلّم أنّه یعمّ کلّ من کانت لهم أعمال شبیهه بأعمال هؤلاء.و هکذا تضیف الآیه وَ هَلْ نُجازِی إِلاَّ الْکَفُورَ .

کان هذا مختصرا عن مصیر«قوم سبأ»الذی سنفصّله أکثر فی تفسیر الآیات اللاحقه.

ص :۴۲۵

الآيتان [سوره سبإ (۳۴): الآيات ۱۸ الی ۱۹]

اشاره

وَ جَعَلْنا بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ اَلْقُرَى اَلَّتِي بارَكْنا فِيها قُرىً ظاهِرَةً وَ قَدَّرْنا فِيهَا اَلسَّيْرَ سِيرُوا فِيها لَيالِيَ وَ أَيّاماً آمِنِينَ (۱۸) فَقالُوا رَبَّنا باعِدْ بَيْنَ أَسْفارِنا وَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْناهُمْ أَحادِيثَ وَ مَزَّقْناهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبّارٍ شَكُورٍ (۱۹)

التّفسير

فَجَعَلْناهُمْ أَحادِيثَ وَ مَزَّقْناهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ!!

تعود هذه الآيات إلى قصّه قوم سبأ مرّه اخرى،و تعطى شرحا و تفصيلا أكثر حولهم و حول العقاب الذى حلّ بهم. ليكون درسا بليغا و تربويا لكلّ سامع.

يقول تعالى:لقد عمّرنا أرضهم إلى حدّ أنّ النعمه لم تغطّها وحدها،بل وَ جَعَلْنا بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بارَكْنا فِيها قُرىً ظاهِرَةً .فقد جعلنا بينهم و بين الأرض المباركه مدائن و قرى اخرى متّصله بفواصل قليله إلى درجه أنّ القريه ترى من القريه الثّانيه.

بعض المفسّرين قالوا فى تفسير«قرى ظاهره»بأنّها إشاره إلى القرى التى كانت تظهر للعيان من جادّه المسير بشكل واضح،و يستطيع المسافرون التوقّف فيها،أو

أنّها القرى التى كانت على مرتفعات من الأرض فكانت واضحه للعابرين.

أمّا ما هى«الأرض المباركه»؟فقد أجمع أغلب المفسّرين على أنّها«أرض الشام»(سوريا و فلسطين و الأردن)،لأنّ هذا التعبير اطلق على نفس هذه المنطقه فى الآيه الاولى من سوره الإسراء،و الآيه(٨١)من سوره الأنبياء.

و لكن بعض المفسّرين احتمل أنّ المقصود منها هو«صنعاء»أو«مأرب» و كلتاهما كانتا فى اليمن،و لا يستبعد هذا التّفسير،لأنّ المسافه بين(اليمن)الواقعه فى أقصى جنوب الجزيره العربيه،و(الشام)الواقعه فى أقصى شمالها،شاسعه و مليئه بالصحارى اليابسه المقفره ممّا يجعل تفسير الأرض المباركه هنا(بالشام) بعيدا جدّا،و لم ينقل فى التواريخ ما يشير إلى ذلك.

بعضهم احتمل أيضا أن يكون المقصود(بالأرض المباركه).(مكّه)و هو بعيد أيضا.

هذا من جهه العمران،و لكن العمران وحده لا يكفى،بل إنّ شرطه الأساسى هو «الأمان»،و لذلك تضيف الآيه وَ قَدَّرْنا فِيهَا السَّيْرَ أى جعلنا بينها فواصل معتدله. سِيرُوا فِيها لَيالِيَ وَ أَيّاماً آمِنِينَ .

و بهذا فإنّ الفواصل و المسافات بين القرى كانت متناسقه محسوبه،و كذلك فإنّها طرق محفوظه من حملات الضوارى أو السرّاق أو قطّاع الطرق.بحيث أنّ الناس كانوا يسافرون خلال هذه الطرق.بلا زاد أو دواب و بلا استفاده من الحراس المسلّحين،و لم يكونوا يخافون من حوادث الطريق أو قلّه الماء و الزاد لديهم.

أمّا بأيّه وسيله تمّ إبلاغ هذه الرساله للناس سِيرُوا فِيها الآيه،يرد أيضا الاحتمالان بأن يكون ذلك بواسطه أحد الأنبياء عليهم السّلام،أو أنّ ظاهر حال المنطقه كان يوصل هذا المعنى إلى وجدانهم.

تقديم«الليالى»على«الأيّام»قد يكون بلحاظ أنّ وجود الأمن فى الليل من

السرّاق او الوحوش اهمّ منه فى النهار الذى تسهل معه مهمّه الأمن.

و لكن هؤلاـء جحدوا نعم اللّه العظيمه التى شملت كلّ مناحى حياتهم-كما هو الحال بالنسبه لغيرهم من الأقوام المتنعّمه-و لبسهم الغرور،و أحاطت بهم الغفله و نشوه النعيم و عدم لياقتهم له،فأسلكتهم طريق الكفران و عدم الشكر،و انحرفوا عن الصراط و تركوا أوامر اللّه خلف ظهورهم.

فمن جمله مطالبهم العجيبه من اللّه، فَقٰالُوا رَبَّنٰا بٰاعِدْ بَيْنَ أَسْفٰارِنٰا .

أى طلبوا أن يجعل اللّه المسافات بين قراهم طويله،كى لاـ يستطيع الفقراء السفر جنبا إلى جنب مع الأغنياء،و مقصودهم هو أن تكون بين القرى-كما أسلفنا -فواصل صحراويه شاسعه،حتّى لا يستطيع الفقراء و متوسّطو الحال الإقدام على السفر بلا زاد أو ماء أو مركّب،و بذا يكون السفر أحد مفاخر الأغنياء و علامه على القدره و الثروه،و وجوب أن يظهر هذا الامتياز و يثبت لدى الجميع.

أو أنّهم ملّوا من الراحه و الرفاه،كما ملّ بنو إسرائيل من(المنّ و السلوى) (الغذاء السماوى)و طلبوا من اللّه البصل و الثوم و العدس.

بعضهم احتمل أيضا أن يكون المقصود بعباره بٰاعِدْ بَيْنَ أَسْفٰارِنٰا أنّهم أصبحوا كسالى إلى درجه لم يكونوا معها حاضرين للسفر لغرض رعى الحيوانات أو التجاره أو الزراعه،و لذا طلبوا من اللّه أن يبقيهم فى وطنهم دائما و يباعد بين السفره و الاخرى.و لكن يبدو أنّ التّفسير الأوّل أفضل.

على كلّ حال فإنّهم بهذا العمل أوقعوا الظلم على أنفسهم وَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ .

نعم،فإن كانوا يظنّون أنّهم إنّما يظلمون غيرهم فقد اشتبهوا،إذ أنّهم قد استلّوا خنجرا و مزّقوا به صدورهم،و دخّان النار التى أسعروها أعمى عيونهم.

و ياله من تعبير رائع،ذلك الذى أوضح به القرآن الكريم مصيرهم المؤلم،حيث يقول:إنّنا جازيناهم و دمّرنا بلادهم و معيشتهم بحيث: فَجَعَلْنٰاهُمْ أَحٰادِيثَ .

نعم فلم يبق من تلك الحياه المرفّهه،و التمدّن العريض المشرق،إلاّ أخبار على

الألسن،و ذكريات فى الخواطر،و كلمات على صفحات التاريخ وَ مَزَّقْنٰاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ .

كيف دمّرنا أرضـهم بحيث سلبت منهم معها قدره البقاء فيها،و بذا أصبحوا مجبرين على أن يتفرّقوا كلّ مجموعه إلى جهه لإدامه حياتهم،و نثروا كما تنثر أوراق الخريف التى عصفت بها الريح حتّى أضحى تفرّقهم مثلا يضرب فقيل:

«تفرّقوا أيادى سبأ» (۱) .

و كما قال بعض المفسّرين،فقد ذهبت قبيله(غسّان)إلى الشام،و(أسد)إلى عمان،و(خزاعه)إلى جهه تهامه،و(أنمار)إلى يثرب (۲) .

و فى ختام الآيه يقول تعالى: إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيٰاتٍ لِكُلِّ صَبّٰارٍ شَكُورٍ ،لأنّ الصابرين و الشاكرين وحدهم يستطيعون الإعتبار ممّا جرى،خصوصا مع ملاحظه أنّ كلاّ من(صبّار)و(شكور)هى صيغه مبالغه.ذلك لكونهم بصبرهم و استقامتهم يتمكّنون من الإمساك بزمام مركب الهوى و الهوس الجموح،و يقفون بوجه المعاصى،و بشكرهم للّه تعالى فى طريق طاعته فإنّهم مرتبطون به و يقظون، و عليه فإنّهم يأخذون العبره بشكل جيّد،أمّا أولئك الذين ركبوا سفينه الهوى و تجاهلوا نعم اللّه عليهم فكيف يمكنهم أخذ العبره ممّا جرى؟

بحوث

اشاره

۱-المصير المذهل لقوم سبأ!!

يستفاد ممّا ورد فى القرآن الكريم و الروايات،و كذلك كتب التاريخ،بأنّ«قوم سبأ»كانوا يقطنون جنوب الجزيره،و كانت لهم حكومه راقيه،و حضاره خلاّبه.

۱- ۱) نقل هذا المثل على صورتين«تفرّقوا أيدى سبأ»و«أيادى سبأ»،ففى الشكل الأوّل إشاره إلى التمزّق البشرى، و الشكل الثّانى إشاره إلى تمزّق الأموال و النعم و الإمكانات،لأنّ«أيادى»عاده تستعمل بمعنى النعم.

۲- ۲) تفسير القرطبى و تفسير أبى الفتوح الرازى،ذيل الآيات مورد البحث.

و رغم أنّ أرض(اليمن)كانت واسعه و صالحه للزراعه،إلّا أنّه من استغلالها لعدم وجود نهر مهمّ فى تلك المنطقه،كما أنّ مياه الأمطار-التى كانت تهطل بغزاره على قمم الجبال كانت تذهب هدرا فى هضاب و صحارى تلك المنطقه.و لكن أهل تلك المنطقه الأذكياء فكّروا فى كيفيه الاستفاده من تلك المياه المهدوره، فبنوا لهذا الغرض عددا من السدود فى النقاط الحسّاسه كان أهمّها و أكثرها مخزونا«سدّ مأرب».

«مأرب»بلده صغيره تقع عند انتهاء إحدى ممرّات السيول تلك،و كانت تمرّ سيول جبال«صراه»العظيمه من جنبها،و فى فم هذا المضيق و بين جبلى«بلق» بنوا سدّا عظيما قويا،و أوجدوا فيه منافذ كثيره للماء،و قد استطاع هذا السدّ خزن كميّات هائله من الماء خلفه إلى درجه أنّهم استطاعوا-بالاستفاده من ذخيرته- إحداث جنّات جميله جدّا،و بساتين مملوءه بالبركه على طرفى النهر الوارد ابتداء من مصبّ السدّ.

و كما ذكرنا سابقا فإنّ القرى المأهوله فى تلك الأرض كانت شبه متّصله ببعضها،بحيث أنّ ظلال الأشجار كانت تتواصل مع بعضها البعض،و كانت الأشجار محمّله بكميّات كبيره من الثمار حتّى أنّ من يمرّ تحتها بسلّته الخاليه يخرج بعد مدّه قصيره بسلّه ممتلئه تلقائيا،و فور النعمه-ممزوجا بالأمان-هيّأ محيطا مرفّها لحياه طاهره،محيطا نموذجيا لطاعه اللّه،و التكامل المعنوى،و لكنّهم لم يقدّروا النعمه حقّ قدرها،فنسوا اللّه،و جحدوا النعمه،و انشغلوا بالتفاخر و العناوين و المستوى الاجتماعى.

ورد فى بعض كتب التاريخ بأنّ الجرذان الصحراويه،بعيدا عن مرأى هؤلاء المغرورين السكارى،كانت تتّخذ لها جحورا فى ذلك السدّ الترابى،و تنخره من الداخل،و فجأه هطلت أمطار غزيره و تجمّعت لتشكّل سيولا عظيمه،تراكمت خلف ذلك السدّ الذى لم يعدّ حينها مؤهّلا لتحمّل الضغط الشديد من تلك الكمّيات

الهــــائله،و مـــا هی إلاــّ لحظــه حــتّی انهـــار هـــذا الســـدّ لیضـــع النهـــایه لتلـــک الحیـــاه الزاهیـــه، و دمّر القری المعموره،الجنان،المزارع،المحاصیل،قضی علی الحیوانات،هدّم القصور و البیوت الجمیله الجذّابه،و تحوّلت تلک الأرض الحیّه إلی صحراء جافّه لا ماء فیها و لا کلأ،و لم یبق من تلک الجنان و الأشجار المثمره إلاّ شجر(الأراک) المرّ،و(شجر المنّ)و قلیل من(السدر)،و هاجرت الطیور المغرده لیحلّ محلّها البوم و الغربان... (۱) .

نعم،حینما یرید اللّه سبحانه و تعالی إظهار قدرته،فإنّه یدمّر مدینه راقیه بعدد من الفئران حتّی یتّضح للعباد مدی ضعفهم و لا یغترّوا بقدرتهم مهما بلغت.

۲-الإعجاز القرآنی التأریخی

أورد القرآن الکریم قصّه«قوم سبأ»فی الوقت الذی کان المؤرخّون لا یعلمون شیئا عن وجود هؤلاء القوم،و عن مثل تلک المدنیّه.و الملفت للنظر أنّ المؤرخّین قبل الاکتشافات الحدیثه،لم یذکروا شیئا حول سلسله ملوک سبأ و المدنیه العظیمه لهم،و اعتقدوا فقط بأنّ(سبأ)هو شخص افتراضی،عرف کأب مؤسّس لدوله «حمیر»،فی حین أنّ القرآن الکریم أفرد سوره کامله باسم هؤلاء القوم و أشار إلی أحد مظاهر مدینتهم و هو بناؤهم(لسدّ مأرب)التأریخی.

و لکن بعد الکشوف عن الآثار التأریخیه لهؤلاء القوم فی الیمن،تغیّرت أفکار علماء التأریخ.و السبب فی تأخّر الکشف عن الآثار التأریخیه لهؤلاء القوم یعود إلی:

۱-صعوبه الطریق المؤدّیه إلی مناطق التنقیب و شدّه حراره الجو هناک.

۲-تنفّر سکنه المنطقه حالیا من الأجانب،ممّا جعل الأوربیین غیر المطّلعین

۱- ۱) اقتباس من تفسیر مجمع البیان و قصص القرآن و تفاسیر اخری.

و غیر العارفین یطلقون صفه«التوحّش»علی هذه الأحاسیس الصادره من أهل المنطقه،حتّی استطاع عدّه معدوده من علماء الآثار یدفعهم التعلّق الشدید بکشف الأسرار الأثریه النفوذ إلی قلب مدینه«مأرب»و ما حولها.و اکتشفوا مجموعه من الأحجار الحاویه للخطوط و النقوش الکثیره،و بعد ذلک تعاقبت مجامیع المنقّبین فی القرن التاسع عشر المیلادی ناقلین معهم فی کلّ مرّه مجموعه من النقوش و الخطوط و الآثار،و بالاستفاده من تلک الآثار،التی ناهزت الألف أثر،أطلع العلماء علی جزئیات و خصوصیات حضاره هؤلاء القوم،و علی تأریخ بناء«سدّ مأرب»و خصوصیات اخری،و ثبت للغربیین بأنّ ما ذکره القرآن الکریم بهذا الخصوص لم یکن اسطوره،بل واقع تاریخی لم یکونوا قد اطّلعوا علیه،و بعد ذلک استطاعوا رسم مخطّط کامل لذلک السدّ العظیم و تشخیص منافذ عبور المیاه فیه، و الجداول الخاصّه بالبساتین و المزارع یمینا و شمالا و سائر خصوصیات المنطقه الاخری.

۳-لفتات هامّه للعبره فی قصّه قصیره

إنّ التعرّض لسرد قصّه قوم سبأ بعد قصّه سلیمان علیه السّلام له مفهوم خاصّ:

۱-إنّ داود و سلیمان علیهما السّلام کانا نبیّین عظیمین استطاعا تشکیل حکومه قویّه، و إیجاد حضاره مشرقه تلاشت بوفاتهم،و کذلک الحضاره الکبری التی أقامها قوم سبأ تلاشت بانهیار سدّ مأرب!! و الجدیر بالملاحظه أنّ الروایات تشیر إلی أن عصا سلیمان علیه السّلام أکلتها حشره «الأرضه»،کما أنّ سدّ مأرب نخرته الجرذان الصحراویه،کی یعلم هذا الإنسان المغرور بأنّ النعم المادیه مهما کانت عظیمه و مصدرا للخیر،فإنّها أحیانا تتلاشی بواسطه حشره أو حیوان ضعیف یقلب عالیها أسفلها.و بالنتیجه ینتبه المؤمنون

و العارفون و لا يقعوا أسرى فى شراك هذه النعم،و يفيق المغرورون من سكر غفلتهم و لا يسلكوا طريق الظلم و العدوان.

۲-نلاحظ هنا حضارتين عظيمتين،إحداهما رحمانيه،و الاخرى شيطانيه المصير،لكنّهما واجهتا الفناء و لم تخلدا.

۳-و ممّا يستحقّ الانتباه،هو أنّ المغرورين من قوم سبأ الذين لم يستطيعوا تحمّل وجود المستضعفين بينهم،و تمنّوا حاجزا منيعا بين الأقليّه الأشراف و الأكثريه الفقراء يحول دون اختلاطهم،و دعوا اللّه أن يباعد بين قراهم حتّى يشقّ السفر على الفقراء،و قد استجاب اللّه سبحانه و تعالى دعاءهم و فرّق جمعهم، و مزّقهم أيادى سبأ،حتّى أنّهم لو أرادوا الالتقاء لتطلّب منهم ذلك أن يصرفوا عمرا كاملا فى السفر.

۴-حينما يدقّق المتأمّل فى وضع تلك الأرض قبل هجوم«سيل العرم»و بعده، لا يمكنه أن يصدّق بسهوله أنّ هذه الأرض بعد السيل هى تلك الأرض الخضراء المليئه بالأشجار المورقه المثمره،و كيف أضحت الآن صحراء موحشه ليس فيها إلّا بضعه أشجار مبعثره من الشجر المرّ و الأراك و قليل من شجر السدر تتراءى من بعيد كمسافرين أضاعوا طريقهم و تبعثروا هنا و هناك.

و هذا يجسّد بلسان الحال:أنّ«كيان الإنسان»كهذه الأرض،فإذا استطاع السيطره على قواه الخلاّقه و استخدمها بالشكل الصحيح،فإنّه ينبت بساتين مليئه بالطراوه من العلم و العمل و الفضائل الأخلاقيه،و لكن إذا كسر سدّ التقوى، و انهالت الغرائز كالسيل المدمّر،و غطّت أرض حياه الإنسان،فلن يبقى غير الخراب،و أحيانا فإنّ أعمالا ظاهرها أنّها بسيطه تبدأ بالتأثير تدريجيا على الاسس،حتّى ينهار كلّ شىء،لذا يجب الخوف و الحذر حتّى من هذه الأمور الصغيره التافهه ظاهرا.

ص:۴۳۳

۵-آخر ما نروم الإشاره إليه،هو أنّ ذلك المصير العجيب يثبت مرّه اخرى حقيقه أنّ(الموت)مخفى فى جوهر حياه الإنسان،و نفس الشيء الذى يكون سببا لحياه الإنسان و عمرانها يوما،يكون عامل موته و هلاكه فى يوم آخر.

ص: ۴۳۴

الآیتان [سوره سبإ (۳۴): الآیات ۲۰ الی ۲۱]

اشاره

وَ لَقَدْ صَدَّقَ عَلَیْهِمْ إِبْلِیسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاّٰ فَرِیقاً مِنَ اَلْمُؤْمِنِینَ (۲۰) وَ مٰا کٰانَ لَهُ عَلَیْهِمْ مِنْ سُلْطٰانٍ إِلاّٰ لِنَعْلَمَ مَنْ یُؤْمِنُ بِالْآخِرَهِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهٰا فِی شَکٍّ وَ رَبُّکَ عَلیٰ کُلِّ شَیْءٍ حَفِیظٌ (۲۱)

التّفسیر

اشاره

لا أحد مجبر علی اتّباع الشّیطان:

هذه الآیات فی الحقیقه تمثّل نوعا من الاستنتاج العام من قصّه«قوم سبأ»التی مرّت فی الآیات السابقه،و رأینا کیف أنّهم باستسلامهم لهوی النفس و وسوسه الشیطان،أصبحوا معرضا لکلّ تلک الخیبه و سوء التوفیق.

یقول تعالی فی الآیه الاولی من هذه الآیات: وَ لَقَدْ صَدَّقَ عَلَیْهِمْ إِبْلِیسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاّٰ فَرِیقاً مِنَ الْمُؤْمِنِینَ .

بتعبیر آخر،فإنّ إبلیس بعد امتناعه من السجود لآدم و طرده من محضر الکبریاء الإلهی،توقّع و قال: فَبِعِزَّتِکَ لَأُغْوِیَنَّهُمْ أَجْمَعِینَ إِلاّٰ عِبٰادَکَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِینَ (۱) و إنّ هذا التوقّع قد صحّ بالنسبه لهؤلاء القوم.فمع أنّه(لعنه اللّه)قد قال

۱- ۱) النمل،۱۹

حديثه هذا تخمينا و توقّعا،و لكن هذا التخمين أصبح واقعا فى النتيجه.و اتّبعه ضعفاء الإيمان و الإراده و سقطوا فى فخاخه زرافات و وحدانا،إلاّ مجموعه صغيره من المؤمنين استطاعت تحطيم سلاسل الوساوس الشيطانيه،و تفادت الوقوع فى مصيدته،جاءوا أحرارا و عاشوا أحرارا و رحلوا أحرارا،و مع أنّهم كانوا قلّه من حيث العدد،إلاّ أنّ كلّ واحد منهم كان يعدل دنيا بأسرها من حيث القيمه المعنويه

«أولئك هم الأقلّون عددا و الأكثرون عند اللّه قدرا» (۱) .

و تشير الآيه التاليه إلى مطلبين فيما يخصّ الوساوس الشيطانيه،و الأشخاص الذين يقعون تحت سلطته،و الأشخاص الذين ليس له عليهم سلطان،فتقول الآيه المباركه: وَ مٰا كٰانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطٰانٍ .

إذن فنحن الذين نجيز له الدخول و نعطيه تأشيره العبور من حدود دوله الفرديه إلى داخل قلوبنا.و ذلك هو عين ما ينقله القرآن عن لسان الشيطان نفسه وَ مٰا كٰانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطٰانٍ إِلاّٰ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي (۲) ، و لكن من الواضح أنّه بعد إجابه دعوته من قبل عديمى الإيمان،و عبيد الهوى،لا يهدأ له بال،بل يسعى إلى إحكام سلطته على وجودهم.

لذا فإنّ الآيه تؤكّد أنّ الهدف من إطلاق يد إبليس فى وسوساته،إنّما هو لأجل معرفه المؤمنين من غيرهم ممّن هم فى شكّ: إِلاّٰ لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَهِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهٰا فِي شَكٍّ (۳) .

بديهى أنّ اللّه تعالى مطّلع تماما على كلّ ما يقع فى هذا العالم منذ الأزل حتّى الأبد،و عليه فإنّ جمله«لنعلم»ليس مفهومها أنّ اللّه تعالى يقول:«بأنّنا لم نكن

۱- ۱) نهج البلاغه،الكلمات القصار.

۲- ۲) إبراهيم،۲۲.

۳- ۳) على هذا المعنى الذى ذكرناه فى تفسير الآيه،فإنّ الاستثناء هنا«استثناء متّصل»بقرينه ما ورد فى الآيه(۴۲)من سوره الحجر: إِنَّ عِبٰادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطٰانٌ إِلاّٰ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغٰاوِينَ ،بلحاظ أنّ ظاهر هذه الآيه أنّ للشيطان سلطه على الغاوين-طبعا بعض المفسّرين احتملوا أن يكون«الاستثناء منقطعا أيضا».

نعلم بالمؤمنين بالآخره من الذين هم فی شکّ منها،و یجب أن تکون هناک للشیطان وسوسه حتّی نعلم ذلک»کلاّ،بل المقصود من هذه الجمله هو التحقّق العینی لعلم اللّه،لأنّ اللّه سبحانه و تعالی لا یعاقب أحدا بناء علی علمه بالبواطن، و الأعمال المستقبلیه لذلک الشخص،بل یجب توفّر میدان للامتحان،و من خلال وساوس الشیاطین و هوی النفس یظهر الإنسان ما بداخله-بکامل الإراده و الإختیار إلی الواقع الفعلی،و یتحقّق علم اللّه سبحانه و تعالی عینا،لأنّه لو لا تحقّق الأعمال بالفعل لا یحصل الاستحقاق للثواب و العقاب.

و بتعبیر آخر:فإنّ الثواب و العقاب لا یقع علی حسن الباطن أو سوئه،فلا بدّ لما هو موجود بالقوّه أن یتحقّق بالفعل.

ثمّ تختتم الآیه بتنبیه للعباد وَ رَبُّکَ عَلیٰ کُلِّ شَیْءٍ حَفِیظٌ .حتّی لا یتصوّر أتباع الشیطان بأنّ أعمالهم و أقوالهم تتلاشی فی هذه الدنیا،أو أنّ اللّه ینسی،کلاّ، بل إنّ اللّه یحتفظ بکلّ ذلک إلی یوم الجزاء.

الآيات [سوره سبإ (٣۴): الآيات ٢٢ الی ٢٧]

اشاره

قُلِ اُدْعُوا اَلَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اَللّهِ لاٰ يَمْلِكُونَ مِثْقٰالَ ذَرَّةٍ فِي اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ لاٰ فِي اَلْأَرْضِ وَ مٰا لَهُمْ فِيهِمٰا مِنْ شِرْكٍ وَ مٰا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ (٢٢) وَ لاٰ تَنْفَعُ اَلشَّفٰاعَةُ عِنْدَهُ إِلاّٰ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتّٰى إِذٰا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قٰالُوا مٰا ذٰا قٰالَ رَبُّكُمْ قٰالُوا اَلْحَقَّ وَ هُوَ اَلْعَلِيُّ اَلْكَبِيرُ (٢٣) قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ قُلِ اَللّهُ وَ إِنّٰا أَوْ إِيّٰاكُمْ لَعَلىٰ هُدىً أَوْ فِي ضَلاٰلٍ مُبِينٍ (٢۴) قُلْ لاٰ تُسْئَلُونَ عَمّٰا أَجْرَمْنٰا وَ لاٰ نُسْئَلُ عَمّٰا تَعْمَلُونَ (٢۵) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنٰا رَبُّنٰا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنٰا بِالْحَقِّ وَ هُوَ اَلْفَتّٰاحُ اَلْعَلِيمُ (٢۶) قُلْ أَرُونِيَ اَلَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكٰاءَ كَلاّٰ بَلْ هُوَ اَللّهُ اَلْعَزِيزُ اَلْحَكِيمُ (٢٧)

التّفسير

اشاره

نبئونی لماذا؟

قلنا فی بدایه السوره بأنّ هناک مجموعه من آیاتها تتحدّث حول المبدأ و المعاد و الإعتقادات الحقّه،و من ربطها مع بعضها نحصل علی حقائق جدیده.

فی هذا المقطع من الآیات یجرّ القرآن المشرکین فی الواقع إلی المحاکمه، و بالضربات الماحقه للأسئله المنطقیه،یحشرهم فی زاویه ضیّقه،ثمّ یبیّن تفسّخ منطقهم الواهی بخصوص شفاعه الأصنام.

فی هذه المجموعه من الآیات،خوطب الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله خمس مرّات، و قیل له:(قل)لهم...و فی کلّ مرّه تعرض الآیات مطلبا جدیدا یتعلّق بمصیر الأصنام و عبّادها،بشکل یشعر معه بأن لیس هناک عقیده أفرغ و لا أجوف من عباده الأصنام،بل لا یمکن أساسا تسمیه هذه العباده(عقیده)أو(مذهبا).

فی الآیه الاولی یقول تعالی: قُلِ ادْعُوا الَّذِینَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللّهِ (۱) و لکن اعلموا أنّ هذه الأصنام أو الشرکاء لا یستجیبون لدعائکم أبدا،و لا یحلّون لکم مشکله،ثمّ تنتقل الآیه إلی عرض الدلیل علی هذا القول،فیقول تعالی:

لأنهم لاٰ یَمْلِکُونَ مِثْقٰالَ ذَرَّهٍ فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ لاٰ فِی الْأَرْضِ وَ مٰا لَهُمْ فِیهِمٰا مِنْ شِرْکٍ وَ مٰا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِیرٍ .

فلو کانوا یستطیعون شیئا لکان لهم أحد هذه الأوصاف الثلاثه:إمّا مالکیه مستقلّه لشیء فی السماء أو الأرض،أو علی الأقل مشارکه مع اللّه فی أمر الخلق، أو معاونه الخالق فی شیء من هذه الأمور.

فی حال أنّ الواضح هو أنّ«واجب الوجود»واحد لا غیر،و الباقون جمیعهم «ممکن الوجود»مرتبطون به.و لو قطع اللّه تعالی نظر لطفه عنهم لحظه لأحلّهم دار البوار و العدم.

و اللطیف هو قوله تعالی: مِثْقٰالَ ذَرَّهٍ فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ لاٰ فِی الْأَرْضِ ،فموجودات لا تملک فی هذه السماء اللامحدوده،و هذه الأرض المترامیه الأطراف ما یعادل مِثْقٰالَ ذَرَّهٍ ،فأی مشکله یمکنها حلّها لنفسها،ناهیک عن سواها!!

۱- ۱) فی الحقیقه إنّ فی الجمله مستترین:الأوّل بعد«زعمتم»تقدیره«أنّهم آلهه»و الثّانی بعد«من دون اللّه»تقدیره«لا یستجیبون دعاءکم»و الجمله تکون هکذا«قل ادعوا الذین زعمتم أنّهم آلهه من دون اللّه لا یستجیبون لکم».

هنا يتبادر إلى الذهن فورا السؤال التالی:إذا كانت الأمر كذلک،فما ذا تكون قضیّه شفاعه الشفعاء؟ و للإجابه علی هذا التساؤل تقول الآیه التی بعدها:لو كان هناک شفعاء لدی اللّه تعالی فانّهم لا یشفعون إلاّ بإذنه و أمره وَ لاٰ تَنْفَعُ الشَّفٰاعَهُ عِنْدَهُ إِلاّٰ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ .

و علیه فإنّ العذر الذی یتعلّل به الوثنیون بقولهم: هٰؤُلاٰءِ شُفَعٰاؤُنٰا عِنْدَ اللّٰهِ (۱) ، ینتهی بهذا الجواب،و هو أنّ اللّه سبحانه و تعالی،لم یجز شفاعتها أبدا.

أمّا جمله إِلاّٰ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ فهی إشاره إلی الشافعین أو إلی المشفوع لهم.

احتمل المفسّرون الاحتمالین،و إن كان یناسب ما ورد فی الآیه السابقه من الحدیث حول الأصنام و أولئک الذین توهّموا أنّها شفعاؤهم،أن تكون الإشاره إلی «الشافعین».

ثمّ هل أنّ المقصود من«الشفاعه»هنا شفاعه الدنیا،أم الآخره؟كلاّ الاحتمالین واردان،و لكن الجمله التی تلی ذلک تدلّل علی أنّ المقصود هو شفاعه الآخره.

لذا تقول العباره بعدها بأنّه فی ذلک الیوم تهیمن الوحشه و الاضطراب علی القلوب،و یستولی القلق علی الشافعین و المشفوع لهم بانتظار أن یروا لمن یأمر اللّه بجواز الشفاعه؟و علی من ستجوز تلک الشفاعه؟و تستمر حاله القلق و الاضطراب،حتّی حین..فیزول ذلک الفزع و الاضطراب عن القلوب بصدور الأمر الإلهی. حَتّٰی إِذٰا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ (۲) .

علی كلّ حال فذلک یوم الفزع،و عیون الذین یطمعون بالشفاعه تعلّقت بالشفعاء،ملتمسه منهم الشفاعه بلسان الحال أو بالقول.و لكن الشفعاء أیضا ینتظرون أمر اللّه،كیف؟و لمن سیجیز الشفاعه؟و یبقی ذلک الفزع و ذلک

۱- ۱) یونس،۱۸.

۲- ۲) (فزع)من مادّه«فزع»،و فی وقت تعدّیها بحرف الجرّ(عن)تكون بمعنی إزاله الفزع و الوحشه و الاضطراب،كذلک لو وردت بصوره الثلاثی المجرّد و تعدّت بحرف الجرّ(عن)یكون لها نفس المعنی أیضا.

الاضطراب عاما،إلى أن يصدر عن الحكيم المتعالى أمره بخصوص المتأهّلين للشفاعه.

هنا و حينما يتواجه الفريقان و يتساءلان،(أو أنّ المـذنبين يسألون الشافعين) قٰالُوا:مٰا ذٰا قٰالَ رَبُّكُمْ فيجيبونهم: قٰالُوا:اَلْحَقَّ ،و ما الحقّ إلاّ-جواز الشـفاعه لمن لم يقطعوا ارتبـاطهم تماما مع اللّه،لا-للـذين قطعوا كلّ حلقات الارتباط، و أضـحوا غرباء عن و رسوله و أحبّائه.

و تضـيف الآـيه فى الختـام وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ و هـذه العباره متمّمه لما قاله «الشـفعاء»،حيث يقولون: لأنّ اللّه علىّ و كبير فأى أمر يصدره هو عين الحقّ،و كلّ حقّ ينطبق مع أوامره.

ما عرضـناه هو أقرب تفسير يتساوق و ينسجم مع تعابير الآيه،و للمفسّرين بهذا الخصوص تفسيرات اخرى،و العجيب أنّ بعضها لم يأخذ بنظر الإعتبار الترابط بين صدر الآيه و ذيلها و ما قبلها و ما بعدها.

فى الآـيه التـاليه يلـج القرآن الكريـم طريقـا آخر لإبطـال عقائـد المشـركين، و يجعـل مسـأله«الرازقيـه»عنوانـا بعـد طرحه لمسأله«الخالقيه»التى مرّت معنا فى الآيات السابقه.و هـذا الـدليل-أيضا-يطرحه القرآن بصـيغه السؤال و الجواب من أجل إيقاظ وجدان هؤلاء و الفاتهم إلى اشتباههم من خلال تثوير الجواب فى ذواتهم.

يقول تعالى: قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ .

بديهى أن لا أحد منهم يستطيع القول بأنّ هذه الأصـنام الحجريه و الخشبيه هى التى تنزل المطر من السـماء،أو تنبت النباتات فى الأرض،أو تسخّر المنابع الأرضيه و السماويه لنا.

الجميل أنّه-بدون انتظار الجواب منهم-يردف تعالى قائلا: قُلِ اللّٰهُ .

قل اللّه الذى هو منبع كلّ هذه البركات،أى أنّ الأمر واضح إلى درجه لا يحتاج

إلى جواب من طرف آخر،بل إنّ للسائل و المجيب رأيا واحدا،لأنّ المشركين يعتقدون بأنّ اللّه هو الخالق و الرازق،و الأصنام لها مقام الشفاعه فقط.

من الجدير بالملاحظه-أيضا-أنّ الأرزاق التى تصل إلى الناس من السماء ليست محصوره بالغيث،بل إنّ النور و الحراره الصادره عن الشمس،و الهواء الموجود فى جوّ الأرض،هى الاخرى لا تقلّ أهميّه عن قطرات المطر.

كما أنّ بركات الأرض كذلك،ليست محصوره فى النباتات،بل إنّ المنابع المائيه تحت سطح الأرض،و المعادن المختلفه التى كانت معروفه فى ذلك الوقت و التى عرفت بعد مرور الزمان تندرج تحت هذا العنوان أيضا.

آخر الآيه تشير إلى موضوع يمكنه أن يكون أساسا لدليل واقعى و متوائم مع غايه الأدب و الإنصاف،بطريقه تستنزل الطرف المقابل من مركب الغرور و العناد الذى يمتطيه،و تدفعه إلى التفكّر و التأمّل،يقول تعالى: وَ إِنّٰا أَوْ إِيّٰاكُمْ لَعَلىٰ هُدىً أَوْ فِي ضَلاٰلٍ مُبِينٍ (1) .

و هذا إشاره إلى:أنّ عقيدتنا و عقيدتكم متضادّتان،و عليه-بناء على استحاله الجمع بين النقيضين-فلا يمكن أن تكون الدعوتان على حقّ،لذا فمن المحتّم أن يكون أحد الفريقين أهل هدى،و الثّانى أسير الضلال.

و الآن عليكم أن تفكّروا فى أىّ الفئتين على هدى،و أيّهما على ضلال؟..

انظروا إلى علامات و خصائص كلّ منهما،و مدى تطابقها مع علامات الهدى و الضلال.

و هذا أحد أفضل أساليب المناظره و البحث،بأن يضع الطرف الآخر فى حاله من التفكّر و التفاعل،و ما يتوهّمه البعض أنّ ذلك نوع من التقيّه فهو منتهى الاشتباه.

الملفت للنظر هو ذكر«على»من«الهدى»و«فى»مع«الضلال»،إشاره إلى أنّ

ص :۴۴۲

---

۱ – ۱) هذه الجمله تقديرا تعود إلى جملتين كما يلى«و انّا لعلى هدى أو فى ضلال مبين،و إنّكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين»(مجمع البيان،مجلّد ۷،ص ۳۸۸).

المهتدين كأنّهم يركبون مركبا سريعا،أو يستعلون منارا عاليا و يتسلّطون على كلّ شىء،فى حال كون الضالّين مغمورين فى ظلمه جهلهم.

و من الجدير بالملاحظه كذلك هو أنّه تعالى تحدّث عن«الهدى»أوّلا ثمّ «الضلال»،و ذلك أنّه قال:«إنّا»فى بدايه الجمله أوّلا،ثمّ قال«إيّاكم»،لتكون تلميحا إلى هدى الفريق الأوّل،و ضلاله الفريق الثانى.

و رغم أنّ بعض المفسّرين ذهبوا إلى أنّ وصف«المبين»يرتبط فقط(بالضلال)، بلحاظ أنّ الضلال أنواع و ضلال الشرك أوضحها.و لكن يحتمل أيضا أن يكون هذا الوصف للهدى و الضلال على حدّ سواء،لأنّ«الصفه»فى مثل هذه الموارد لا تتكرّر لتكون أكثر بلاغه،و عليه فيكون(الهدى)مبنيا و(الضلال)مبنيا،كما ورد فى كثير من آيات القرآن (1) .

و تستمرّ الآيه التى بعدها بالاستدلال بشكل آخر-و لكن بنفس النمط المنصف الذى يستنزل الخصم من مركب العناد و الغرور.يقول تعالى: قُلْ لاٰ تُسْئَلُونَ عَمّٰا أَجْرَمْنٰا وَ لاٰ نُسْئَلُ عَمّٰا تَعْمَلُونَ .

و العجيب هنا أنّ الرّسول صلّى اللّه عليه و آله مأمور باستعمال تعبير«جرم»فيما يخصّه،و تعبير «أعمال»فيما يخصّ الطرف الآخر،و بذا تتّضح حقيقه أنّ كلّ شخص مسئول أن يعطى تفسيرا لأعماله و أفعاله، لأنّ نتائج أعمال أى إنسان تعود عليه،حسنها و قبيحها،و فى الضمن إشاره لطيفه إلى إنّنا إنّما نصرّ على إرشادكم و هدايتكم، لا لأنّ ذنوبكم تقيّد فى حسابنا،و لا لأنّ شرّكم يضرّ بنا،نحن نصرّ على ذلك بدافع الغيره عليكم و طلبا للحقّ.

الآيه التاليه-فى الحقيقه-توضيح لنتيجه الآيتين السابقتين،فبعد أن نبّه إلى أنّ أحد الفريقين على الحقّ و الآخر على الباطل،و إلى أنّ كلاّ منهما مسئول عن

۱- ۱) راجع الآيات التاليه:النمل:۱،النور:۱۲،هود:۶،القصص:۲،النمل:۷۹.

أعماله،انتقل إلى توضيح كيفيه التحقّق من وضع الجميع،و التفريق بين الحقّ و الباطل و مجازاه كلّ فريق طبق مسئوليته،فيقول تعالى،قل لهم بأنّ اللّه سوف يجمعنا فى يوم البعث،و يحكم بيننا بالحقّ،و يفصل بعضنا عن بعض،حتّى يعرف المهتدون من الضالّين،و يبلغ كلّ فريق بنتائج أعماله. قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنا رَبُّنا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنا بِالْحَقِّ .

و إذا كنتم اليوم ترون أنّكم مخلوطون بعضكم البعض،و كلّا يدّعى بأنّه على الحقّ و بأنّه من أهل النجاه،فإنّ هذا الوضع لن يدوم إلى الأبد،و لا بدّ أن يأتى يوم التفريق بين الصفوف.فربوبيه اللّه اقتضت فصل«الطيب»من«الخبيث»و «الخالص»من«المشوب»و«الحقّ»عن«الباطل»فى النهايه.و يستقرّ كلّ منهما فى مكانه اللائق.

فكّروا الآن ماذا ستعملون فى ذلك اليوم؟و فى أى صفّ ستقفون؟و هل أحضرتم إجابه لمساءله اللّه فى ذلك اليوم؟.

و فى آخر الآيه يضيف ليؤكّد حتميه ذلك التفريق فيقول: وَ هُوَ الْفَتّاحُ الْعَلِيمُ .

هذان الاسمان-و هما من أسماء اللّه الحسنى-أحدهما يشير إلى قدره اللّه تعالى على عمليه فصل الصفوف،و الآخر إلى علمه اللامتناهى.إذ أنّ عمليه تفريق صفوف الحقّ عن الباطل لا يمكن تحقّقها بدون هاتين الصفتين.و استخدام كلمه «الربّ»فى الآيه أعلاه إشاره إلى أنّ اللّه هو المالك و المربّى للجميع،و ذلك ممّا يقتضى أن يكون برنامج مثل ذلك اليوم معدّا،و فى الحقيقه هى إشاره لطيفه إلى إحدى دلائل«المعاد».

لفظه«فتح»،كما يشير الراغب فى مفرداته«الفتح إزاله الإغلاق و الإشكال، و ذلك ضربان:أحدهما يدرك بالبصر كفتح الباب و نحوه،و كفتح القفل،و الغلق و المتاع.و الثّانى:يدرك بالبصيره كفتح الهم و هو إزاله الغمّ،و ذلك ضروب:أحدها:

فى الأمور الدنيويه كغمّ يفرج و فقر يزال بإعطاء المال و نحوه،و الثانى:فتح

المستغلق من العلوم،...إلى أن يقول:و«فتح القضيّه فتاحا»فصل الأمر فيها و أزال الإغلاق عنها».و عليه فإنّ استخدام هذه المفرده هنا لأنّ الحكم و القضاء يتمّ أيضا هناك،فضلا عن الفصل و التفريق بينهما الذى هو أحد معانى كلمه«فتح» -و مجازاه كلّ بما يستحق.

الجدير بالملاحظه،هو أنّ بعض الرّوايات أشارت إلى ذكر«يا فتّاح»فى الأدعيه لحلّ بعض المعضلات،لأنّ هذا الاسم الإلهى العظيم و هو بصيغه المبالغه من الفتح-يدلّل على قدره اللّه على حلّ أى مشاكل و رفع أى حسره و غمّ،و تهيئه أسباب أى فتح و نصر،و فى الواقع فإنّه هو وحده(الفتّاح)،و مفتاح كلّ الأبواب المغلقه فى يد قدرته تعالى.

فى الآيه الأخيره من هذه الآيات و التى هى عباره عن الأمر الخامس للرسول صلّى اللّه عليه و آله يعود القرآن إلى الحديث مرّه اخرى فى مسأله التوحيد التى ابتدأ بها ليختمه بها،يقول تعالى: قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكاءَ .

فما هى قيمه هؤلاء و قابلياتهم؟فإن كان مقصودكم حفنه الحجر و الخشب الجامده الميته.فإنّ ذلك لممّا يدعو إلى الخجل و يدلّل على سوء التوفيق أن تتوهّموا تشابه أحقر الموجودات-و هى الجمادات ممّا صنعت أيديكم-مع اللّه تعالى.و إن اعتقدتم بأنّها تمثّل الأرواح و الملائكه فالمصيبه أعظم،لأنّ هؤلاء أيضا مخلوقات له سبحانه و تعالى،و منفذه لأوامره.

لذا فبعد هذه الجمله مباشره،و بكلمه واحده يشطب على هذه الأباطيل فيقول:

كَلاّ

فهذه الأشياء لا تستحقّ أن تعبد أبدا و هذه الأوهام و التصورات ليس لها شىء من الواقعيه،فإلى متى تسلكون هذه الطريقه الخاطئه.

و كلمه«كلاّ»مع صغرها استبطنت كلّ هذه المعانى.

ثمّ لأجل تأكيد و تثبيت هذا المعنى يقول مختتما الحديث بَلْ هُوَ اللّٰهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .فعزّته و قدرته الخارقه،تقتضى الدخول فى حريم ربوبيته،و حكمته

تقتضی توجیه هذه القدره فی محلّها.

نعم،فإنّ امتلاک هذه الصفات علامه کونه واجب الوجود،و واجب الوجود وجود لا نهایه له و لا حدّ،و غیر قابل للتعدّد،و لا شریک له و لا شبیه،لأنّ أی تعدّد له یعنی حدّه و إمکانیته،بینما«الوجود اللامتناهی»دائما و أبدا و احد لا غیر «تأمّل».

بحث

اشاره

طریق تسخیر القلوب:

کثیرا ما یلاحظ أفراد فضلاء و علی مستوی من العلم و المعرفه،لا یمکنهم النفوذ فی أفکار الآخرین،لعدم اطّلاعهم علی الفنون الخاصّه بالبحث و الاستدلال،و عدم رعایتهم للجوانب النفسیه،علی عکس البعض الآخر الذین لیسوا علی و فره من العلم،إلّا أنّهم موفّقین من ناحیه جذب القلوب و تسخیرها و النفوذ فی أفکار الآخرین.

و العلّه الأساسیه لذلک هی أنّ طریقه البحث،و أسلوب التعامل مع الطرف المقابل یجب أن تکون مقرونه بأصول و قواعد تتّسق مع الخلق و الروح،فلا تستثار الجوانب السلبیه فی الطرف المقابل،کی لا یندفع إلی العناد و الإصرار،إذ أنّ مراعاه الجانب النفسی ستؤدّی إلی إیقاظ وجدانه و إثاره روح البحث عن الحقیقه و إحیائها فیه.

و المهمّ هنا أن نعلم أنّ الإنسان لیس فکرا و عقلا صرفا کی یستسلم أمام قدره الاستدلال،بل علاوه علی ذلک فإنّ مجموعه من العواطف و الأحاسیس التی تشکّل جانبا مهمّا من روحه مطویه فی وجوده،و التی یجب إشباعها بشکل صحیح و معقول.

و القرآن الكريم علّمنا كيفيه مزج البحوث المنطقيه بالأصول الأخلاقيه فى المحاوره،حتّى تنفذ فى أرواح الآخرين.

شرط التأثير و النفوذ فى روح الطرف المقابل هو إحساس الطرف المقابل بأنّ المتحدّث يتحلّى بالصفات التاليه:

۱-مؤمن بما يقول،و ما يقوله صادر من أعماقه.

۲-هدفه من البحث طلب الحقّ،و ليس التفوّق و التعالى.

۳-لا يقصد تحقير الطرف المقابل،و إعلاء شأن نفسه.

۴-ليس له مصلحه شخصيه فيما يقول،بل إنّ ما يقوله نابع من الإخلاص.

۵-يكنّ الاحترام للطرف المقابل،لذا فهو يستخدم الأدب و الرقّه فى تعبيراته.

۶-لا يريد إثاره العناد لدى الطرف المقابل،و يكتفى من البحث فى موضوع بالمقدار الكافى،دون الإصرار على إثبات أنّ الحقّ إلى جانبه.ليعرض حديثه.

۷-منصف،لا يفرط بالإنصاف أبدا،حتّى و إن لم يراع الطرف المقابل هذه الأصول.

۸-لا يقصد تحميل الآخرين أفكاره،بل يرغب فى إيجاد الدافع لدى الآخرين حتّى يوصلهم إلى الحقيقه بمنتهى الحريه.

الدقّه المتناهيه فى هذه الآيات،و أسلوب تعامل الرّسول صلّى اللّه عليه و آله-بأمر اللّه-مع المخالفين،المقترن بكثير من اللفتات الجميله،تعتبر دليلا حيّا على ما ذكرناه.فهو أحيانا يصل إلى حدّ لا يشير بدقّه إلى المهتدى أو المضلّ فى أحد الفريقين،بل يقول: وَ إِنّا أَوْ إِيّاكُمْ لَعَلى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ حتّى يثير فى الذهن التساؤل عن علامات الهدى أو الضلال فى أى الفريقين.

أو يقول: قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنا رَبُّنا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنا بِالْحَقِّ .

طبعا لا يمكن إنكار أنّ كلّ ذلك بالنسبه إلى الأشخاص المؤمّل اهتداؤهم،و إلاّ فإنّ القرآن يتعامل مع الأعداء المعاندين و الظلمه القساه الذين لا يؤمّل منهم القبول بذلك بطريقه اخرى.أسلوب محاورات الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و الأئمّه عليهم السّلام مع

ص: ۴۴۷

مخالفیهم یمثّل نموذجا حیّا فی هـذا المجال،و کمثال علی ذلک لاحظوا ما ورد عن الإمام الصادق علیه السّلام بهـذا الخصوص فی کتب الحدیث:

ففی أوائل کتاب توحیـد المفضّل نقرأ«روی محمّد بن سـنان قال:حدّثنی المفضّل بن عمر قال:کنت ذات یوم بعد العصـر جالسا فی الروضـه الشـریفه بیـن القـبر و المنـبر،و أنـا مفکّر فیمـا خصّ اللّه تعـالی به سـیّدنا محمّـدا صـلّی اللّه علیه و آله،من الشـرف و الفضائـل،و مـا منحـه و أعطـاه و شـرّفه و حبـاه،ممّـا لاـ یعرفـه الجمهـور مـن الامّه و مـا جهلـوه من فضـله و عظیم منزلته،و خطیر مرتبتـه،فـإنّی لکـذلک إذ أقبـل«ابـن أبی العوجـاء،«رجـل ملحـد معروف».إلی أن یـذکر أحـادیث هـذا الرجـل الـتی سـمعها المفضّل...إلی أن(قال المفضّل):فلم أملک نفسی غضبا و غیظا و حنقا،فقلت:

یا عـدوّ اللّه ألحـدت فی دین اللّه،و أنکرت الباری جلّ قـدسه الـذی خلقک فی أحسن تقویم و صوّرک فی أتمّ صوره،و نقلک فی أحوالـک حتّی بلغ إلی حیث انتهیت.فلو تفکّرت فی نفسـک و صـدقک و لطیف حسّـک،لوجـدت دلائـل الربوبیه و آثـار الصنعه فیک قائمه،و شواهده جلّ و تقدّس فی خلقک واضحه،و براهینه لک لائحه،فقال:

یا هذا إن کنت من أهل الکلام کلّمناک فإن ثبتت لک حجّه تبعناک،و إن لم تکن منهم فلا کلام لک،و إن کنت من أصحاب جعفر بن محمّد الصادق فما هکذا تخاطبنا، و لا بمثل دلیلک تجادل فینا،و لقد سـمع من کلامنا أکثر ممّا سـمعت،فما أفحش فی خطابنا،و لا تعدّی فی جوابنا،و إنّه الحلیم الرزین،العاقل الرصـین،لا یعتریه خرق و لا طیش و لا نزق،یسمع کلامنا،و یصغی إلینا و یتعرّف حجّتنـا،حتّی إذا اسـتفرغنا مـا عنـدنا،و ظننـا أنّـا قطعناه،دحض حجّتنا بکلام یسـیر،و خطاب قصـیر یلزمنا به الحجّه،و یقطع العذر،و لا نستطیع لجوابه ردّا،فإن کنت من أصحابه فخاطبنا بمثل خطابه» (۱) .

۱- ۱) توحید المفضّل-أوائل الکتاب.

الآيات [سوره سبإ (۳۴): الآيات ۲۸ الی ۳۰]

اشاره

وَ مٰا أَرْسَلْنٰاکَ إِلاّٰ کَافَّةً لِلنّٰاسِ بَشِیراً وَ نَذِیراً وَ لٰکِنَّ أَکْثَرَ اَلنّٰاسِ لاٰ یَعْلَمُونَ (۲۸) وَ یَقُولُونَ مَتیٰ هٰذَا اَلْوَعْدُ إِنْ کُنْتُمْ صٰادِقِینَ (۲۹) قُلْ لَکُمْ مِیعٰادُ یَوْمٍ لاٰ تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سٰاعَةً وَ لاٰ تَسْتَقْدِمُونَ (۳۰)

التّفسیر

اشاره

الدّعوه العالمیه:

الآیه الاولی من هـذه الآیات،تتحـدّث فی نبوّه الرّسول صـلّی اللّه علیه و آله،و الآیات التی تلیها تتحدّث حول المیعاد،و مع الأخذ بنظر الإعتبار أنّ الآیات السابقه تحدّثت عن التوحید،نصبح أمام مجموعه کامله من بحوث العقائد،تتناسب مع کون السوره مکیه.

أشارت الآیات ابتداء إلی شـمولیه دعوه الرّسول صـلّی اللّه علیه و آله و عمومیه نبوّته لجمیع البشر فقالت: وَ مٰا أَرْسَلْنٰاکَ إِلاّٰ کَافَّةً لِلنّٰاسِ بَشِیراً وَ نَذِیراً وَ لٰکِنَّ أَکْثَرَ النّٰاسِ لاٰ یَعْلَمُونَ .

«کافّه»من مادّه«کفّ»و تعنی الکفّ من ید الإنسان،و بما أنّ للإنسان یقبض

على الأشياء بكفّه تاره و يدفعها عنه بكفّه تاره اخرى،فلذا تستخدم هذه الكلمه للقبض أحيانا،و للمنع اخرى.

و قد احتمل المفسّرون الاحتمالين هنا،الأوّل بمعنى«الجمع»و فى هذه الحاله يكون مفهوم الآيه«إنّنا لم نرسلك إلاّ لجميع الناس».أى عالميه دعوه الرّسول صلّى اللّه عليه و آله.و يقوّى هذا المعنى روايات عديده وردت فى تفسير الآيه من طرق الفريقين.

و عليه فمحتوى الآيه شبيه بالآيه(١)سوره الفرقان تَبٰارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقٰانَ عَلىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعٰالَمِينَ نَذِيراً .و كذلك الآيه(١٩)من سوره الأنعام وَ أُوحِيَ إِلَيَّ هٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَ مَنْ بَلَغَ .

جاء فى حديث عن ابن عبّاس ينقله المفسّرون بمناسبه هذه الآيه،أنّ عموميه دعوه الرّسول صلّى اللّه عليه و آله ذكرت كواحده من مفاخره العظيمه.

فعنه صلّى اللّه عليه و آله يقول: «أعطيت خمسا و لا أقول فخرا،بعثت إلى الأحمر و الأسود، و جعلت لى الأرض طهورا و مسجدا،و أحلّ لى المغنم و لا يحلّ لأحد قبلى، و نصرت بالرعب فهو يسير أمامى مسيره شهر،و أعطيت الشفاعه فادّخرتها لامّتى يوم القيامه» (١) .

و إن كان لم يرد فى الحديث أعلاه تصريح بتفسير الآيه،فثمّه أحاديث اخرى بهذا الخصوص،إمّا أن تصرّح بأنّها فى تفسير الآيه،أو يرد فيها تعبير«للناس كافّه»الذى ورد فى نفس الآيه (٢) .و جميعها تدلّل على أنّ مقصود الآيه أعلاه،هو عالميه دعوه الرّسول صلّى اللّه عليه و آله.

و ذكر للآيه تفسير آخر مأخوذ من المعنى الثّانى لكلمه«كفّ»و هو(المنع)، و طبقا لهذا التّفسير تكون«كافّه»صفه للرسول صلّى اللّه عليه و آله (٣) و يكون المقصود أنّ اللّه

١- ١) تفسير مجمع التبيان،مجلّد ٨،ص ٣٩١.

٢- ٢) انظر تفسير نور الثقلين،مجلّد ۴،ص ٢۵۵ و ٢۵۶.

٣- ٣) أحيانا تلحق(التاء)اسم الفاعل لتكون صيغه مبالغه لا علامه للتأنيث كما فى«روايه».

سبحانه و تعالى أرسل الرّسول صلّى اللّه عليه و آله كمانع و رادع و كافّ للناس عن الكفر و المعصيه و الذنوب،و لكن يبدو أنّ التّفسير الأوّل أقرب.

على كلّ حال-كما أنّ لكلّ الناس غريزه جلب النفع و دفع الضرر- فقد كان للرسل أيضا مقام«البشاره»و«الإنذار».لكى يوظّفوا هاتين الغريزتين و يحرّكوهما،و لكن أكثر المغفّلين الجهّال-بدون الالتفات إلى مصيرهم-ينهضون للوقوف فى وجههم و يتنكّرون تلك المواهب الإلهيه العظيمه.

و بناء على ما أشارت إليه الآيات السابقه من أنّ اللّه سبحانه و تعالى يجمع الناس و يحكم بينهم تورد هذه الآيه سؤال منكرى المعاد كما يلى: وَ يَقُولُونَ مَتىٰ هٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ .

لقد طرح هذا السؤال من قبل منكرى المعاد على الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله أو الأنبياء الآخرين مرارا،حينا لفهم و إدراك هذا المطلب،و أغلب الأحيان للاستهزاء و السخريه من قبيل:أين هذه القيامه التى تؤكّدون على ذكرها مرارا و تكرارا،لو كانت حقّا فقولوا متى ستأتى؟إشاره منهم إلى أنّ الإنسان الصادق فى إخباره يجب أن يعلم بجميع جزئيات الموضوع الذى يخبر عنه.

و لكن القرآن الكريم يمتنع دائما عن الإجابه الصريحه على هذا السؤال و تعيين زمان وقوع البعث،و يؤكّد أنّ هذه الأمور هى من علم اللّه الخاصّ به سبحانه و تعالى،و ليس لأحد غيره الاطلاع عليها.

لذا فقد تكرّر فى الآيه التى بعدها،هذا المعنى بعباره اخرى،يقول تعالى: قُلْ لَكُمْ مِيعٰادُ يَوْمٍ لاٰ تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سٰاعَةً وَ لاٰ تَسْتَقْدِمُونَ .

إنّ إخفاء تأريخ قيام الساعه-حتّى على شخص الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله-كما أسلفنا-لأنّ اللّه سبحانه و تعالى أراد لعباده نوعا من حريه العمل مقترنه بحاله من التهيّؤ الدائم،لأنّه لو كان تأريخ قيام القيامه معلوما فإنّ الجميع سيغطّون فى الغفله و الغرور و الجهل حينما يكون بعيدا عنهم،أمّا حين اقترابه منهم فستكون أعمالهم

ذات جنبه اضطراریه،و فی کلتا الحالتین تتحجّم الأهداف التربویه للإنسان،لذا بقی تأریخ القیامه مکتوما،کما هو الحال بالنسبه إلی«لیله القدر»تلک اللیله التی هی خیر من ألف شهر،أو تاریخ قیام المهدی علیه السّلام،و عبّر عن ذلک المعنی بلطف ما ورد فی الآیه(۱۵)من سوره طه إِنَّ السّاعَهَ آتِیَهٌ أَکادُ أُخْفِیها لِتُجْزی کُلُّ نَفْسٍ بِما تَسْعی .

أمّا أولئک الذین یتصوّرون أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله یجب أن یکون علی علم بالتأریخ الدقیق لیوم القیامه لأنّه یخبر عنها،فإنّ ذلک غایه الاشتباه،و دلیل علی عدم معرفتهم بوظیفه النبوّه،فالنّبی مکلّف بالإبلاغ و البشاره و الإنذار،أمّا مسأله القیامه فمرتبطه باللّه سبحانه و تعالی،و هو وحده الذی یعلم تمام تفاصیلها،و ما یراه اللّه لازما لأغراض تربویه،أطلع علیه الرّسول الکریم صلّی اللّه علیه و آله.

هنا یثار سؤال،و هو أنّ القرآن الکریم فی مقام تهدید المخالفین یقول: لا تَسْتَأْخِرُونَ و لکن لماذا یقول أیضا: لا تَسْتَقْدِمُونَ ؟فما هو تأثیر ذلک فی هدف القرآن.

للإجابه یجب الالتفات إلی نکتتین:

الاولی:أن ذکر ذینک الإثنین معا إشاره إلی قطعیه و دقّه تأریخ أی أمر،تماما کما تقول:«فلان قطعی الموعد،و لیس لدیه تقدیم أو تأخیر».

الثّانیه:أنّ جمعا من الکفّار المعاندین یلحّون علی الأنبیاء دائما،بقولهم:لماذا لا تأتی القیامه؟و بتعبیر آخر،کانوا یستعجلون ذلک الأمر سواء کان ذلک من قبیل الاستهزاء أو غیر ذلک.و القرآن یقول لهم:«لا تستعجلوا فإنّ تأریخ ذلک الیوم هو عینه الذی قرّره اللّه سبحانه و تعالی».

ص:۴۵۲

الآیات [سوره سبإ (۳۴): الآیات ۳۱ الی ۳۳]

اشاره

وَ قالَ اَلَّذِینَ کَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهٰذَا اَلْقُرْآنِ وَ لاٰ بِالَّذِی بَیْنَ یَدَیْهِ وَ لَوْ تَریٰ إِذِ اَلظّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ یَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلیٰ بَعْضٍ اَلْقَوْلَ یَقُولُ اَلَّذِینَ اُسْتُضْعِفُوا لِلَّذِینَ اِسْتَکْبَرُوا لَوْ لاٰ أَنْتُمْ لَکُنّا مُؤْمِنِینَ (۳۱) قالَ اَلَّذِینَ اِسْتَکْبَرُوا لِلَّذِینَ اُسْتُضْعِفُوا أَ نَحْنُ صَدَدْناکُمْ عَنِ اَلْهُدیٰ بَعْدَ إِذْ جاءَکُمْ بَلْ کُنْتُمْ مُجْرِمِینَ (۳۲) وَ قالَ اَلَّذِینَ اُسْتُضْعِفُوا لِلَّذِینَ اِسْتَکْبَرُوا بَلْ مَکْرُ اَللَّیْلِ وَ اَلنَّهارِ إِذْ تَأْمُرُونَنا أَنْ نَکْفُرَ بِاللّٰهِ وَ نَجْعَلَ لَهُ أَنْداداً وَ أَسَرُّوا اَلنَّدامَةَ لَمّا رَأَوُا اَلْعَذابَ وَ جَعَلْنَا اَلْأَغْلالَ فِی أَعْناقِ اَلَّذِینَ کَفَرُوا هَلْ یُجْزَوْنَ إِلاّ ما کانُوا یَعْمَلُونَ (۳۳)

التّفسیر

لمناسبه البحث الوارد فی الآیات السابقه،حول مواقف المشرکین إزاء مسأله المعاد،تعرّج هذه الآیات إلی تصویر بعض فصول المعاد المؤلمه لهؤلاء المشرکین کی یقفوا علی خاتمه أعمالهم.

ص: ۴۵۳

أوّلا،يقول تعالى: وَ قٰالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهٰذَا الْقُرْآنِ وَ لاٰ بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ .أى و لا بالكتب السماويه السابقه.

كلمه«لن»للنفى الأبـدى،و عليه فهم يريـدون القول لرسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله:انّك حتّى لو بقيت تدعونا للإيمان إلى الأبد فلن نؤمن لك،و هـذا دليل على عنادهم،بحيث أنّهم صـمّموا على موقفهم إلى الأبـد،فى حين أنّ من يطلب الحقّ و يسـعى له،إذا لم يقتنع بـدليل مـا لا يمكنه أن ينكر جميع الأدلّه الممكن ظهورها مسـتقبلا قبل أن يسـمعها،فيقول:إنّى أردّ جميع الأدلّه الأخرى أيضا.

أمّا من المقصود ب«الـذين كفروا»؟فقد أشار جمع من المفسّرين إلى أنّهم «المشـركون»،و بعضـهم أشار إلى أنّهم«اليهود و أهل الكتاب»،و لكن القرائن الوارده فى الآيات اللاحقه،و التى تتحدّث عن الشرك،تدلّل على أنّ المقصود هم المشركون.

و المقصود من«الـذى بين يديه»هو تلك الكتب السـماويه التى نزلت قبل القرآن على أنبياء سابقين،و قد ورد هذا التعبير فى كثير من آيات القرآن مشيرا إلى هذا المعنى-خصوصا بعد ذكر القرآن-و ما احتمله البعض من أنّ المقصود منه هو«المعاد»أو«محتوى القرآن»فيبدو بعيدا جدّا.

على كـلّ حال فإنّ إنكار الإيمان بكتب الأنبياء السابقين،يحتمل أن يكون المقصود به.نفى نبوّه الرّسول صـلّى اللّه عليه و آله من خلال نفى الكتب السـماويه الاخرى، باعتبار أنّ القرآن أكّد على موضوع ورود دلائل على نبوّه الرّسول صـلّى اللّه عليه و آله فى التوراه و الإنجيل،و لهذا يقولون:نحن لا نؤمن لا بهذا الكتاب و لا بالكتب التى سبقته.

ثمّ تنتقـل إلى الحـديث حول وضع هؤلاـء فى القيـامه من خلاـل مخاطبه الرّسول صـلّى اللّه عليه و آله فيقول تعالى: وَ لَوْ تَرىٰ إِذِ الظّٰالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ

إِلىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ

(۱)

.

و مرّه اخرى يستفاد من الآيه أعلاه أنّ من أهمّ مصاديق«الظلم»هو«الشرك و الكفر».

التعبير«عند ربّهم»إشاره إلى أنّهم حاضرون بين يدى مالكهم و ربّهم،و ما أكثر و أشدّ خجلا من أن يكون الإنسان حاضرا بين يدى من كفر به،فى حين أنّ كلّ وجوده غارق بنعمه.

فى حين أنّ«المستضعفين»الذين اتّبعوا بجهلهم«المستكبرين»و هم الذين سلكوا طريق الغرور و التسلّط على الآخرين و رسموا لهم منهجهم الشيطانى، هناك: يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْ لاٰ أَنْتُمْ لَكُنّٰا مُؤْمِنِينَ .

إنّهم يريدون بذلك إلقاء مسئوليه ذنوبهم على عاتق هؤلاء«المستكبرين»،مع أنّهم لم يكونوا حاضرين للتعامل معهم بمثل هذه القاطعيه فى دار الدنيا،لأنّ الضعف و الخور و الذلّه كانت حاكمه على وجودهم،و قد فقدوا حريتهم،أمّا هناك و بعد أن تبعثرت تلك المفاهيم الطبقيه التى كانت سائده فى دار الدنيا،و انكشفت نتائج أعمال الجميع،فهم يقفون وجها لوجه مقابل هؤلاء و يتحدّثون بصراحه و يتلاومون معهم.

لكن«المستكبرين»لا يبقون على صمتهم بل قٰالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَ نَحْنُ صَدَدْنٰاكُمْ عَنِ الْهُدىٰ بَعْدَ إِذْ جٰاءَكُمْ . كلاّ،فلسنا بمسؤولين،فمع امتلاككم حريه الإراده،استسلمتم لأحاديثنا الباطله،و كفرتم و ألحدتم متناسين أحاديث الأنبياء المنطقيه، بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ .

صحيح أنّ المستكبرين ارتكبوا ذنبا كبيرا بوسوستهم،و لكن حديثهم الذى تذكره الآيه الكريمه له حقيقه أيضا،حيث أنّ المتملّقين لم يكن عليهم أن يصمّوا

۱- ۱) (يرجع):تأتى كفعل لازم و كفعل متعدّى،و قد وردت هنا بالحاله الثّانيه لتعطى معنى العوده،و مجيئها بعد«بعضهم إلى بعض»معناه فى النتيجه بمعنى«مفاعله».

أسماعهم و أبصارهم و يلهثوا وراءهم،و إنّما عليهم أيضا مسئوليه ذنوبهم.

و لكن المستضعفين لا يقتنعون بهذا الجواب،و يعاودون القول مرّه اخرى لإثبات جرم المستكبرين: وَ قالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا،بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَ النَّهارِ إِذْ تَأْمُرُونَنا أَنْ نَكْفُرَ بِاللّهِ وَ نَجْعَلَ لَهُ أَنْداداً .

نعم،فأنتم الذين لم تكفوا عن بثّ السموم،و لم تفرطوا بأى فرصه من الليل أو النهار من أجل تحقيق أهدافكم المشؤومه،فصحيح أنّنا كنّا أحرارا فى القبول بذلك،و بذا نكون مقصّرين و جناه،و لكن باعتباركم عامل الفساد فأنتم مسئولون و مجرمون،بل إنّكم واضعو حجر الأساس لذلك،خاصّه و أنّكم كنتم تتحدّثون معنا دائما من موقع القدره و السلطه،(التعبير ب«تأمروننا»شاهد على هذا المعنى).

بديهى أنّ المستكبرين لا يملكون جوابا لهذا القول،و لا يمكنهم إنكار جرمهم الكبير ذاك،لذا فإنّ الفريقين يندمون على ما قدّمت أيديهم،المستكبرون على إضلالهم للآخرين،و المستضعفون على إيمانهم و قبولهم بتلك الأباطيل المشؤومه، و لكن لكى لا يفتضحوا أكثر فانّهم يكتمون الندم حينما يواجهون العذاب الإلهى..

وَ أَسَرُّوا النَّدامَهَ لَمّا رَأَوُا الْعَذابَ وَ جَعَلْنَا الْأَغْلالَ فِی أَعْناقِ الَّذِینَ کَفَرُوا

.

فمع أنّ الكتمان لا ينفع فى«يوم البروز»هناك،و مع عدم إمكانيه إخفاء شىء، إلاّ أنّهم-جريا على ما تعوّدوه فى الدنيا من قبل- يتوهّمون أنّ فى استطاعتهم كتمان حالتهم،فيلجئون إلى ذلك.

نعم،فهم فى الدنيا حينما يلتفتون إلى اشتباههم و يندمون لم يكونوا يمتلكون الشجاعه لإظهار ندمهم الذى هو أوّل طريق التوبه و إعاده النظر،و تلك هى الخصله الأخلاقيه الخاصّه بهم و التى يمارسونها فى الآخره أيضا.و لكن ما الفائده؟ بعض المفسّرين احتملوا أن يكون ذلك الكتمان للندامه بسبب الرهبه الشديده من مشاهده العذاب الإلهى،و انحباس أنفاسهم فى صدورهم و انعقاد ألسنتهم

نتیجه الأغلال التی غلّت بها رقابهم و السلاسل التی لفّتهم.مع أنّهم یطلقون صرخاتهم فی مواقف اخری من القیامه یٰا وَیْلَنٰا إِنّٰا کُنّٰا ظٰالِمِینَ (۱) .

و قال آخرون:إن«أسرّوا»بمعنی«أظهروا»بناء علی أنّ هذه اللفظه تستعمل لمعنیین متضادّین فی اللغه العربیه،و لکن من ملاحظه الموارد التی استعملت فیها هذه اللفظه فی القرآن و غیر القرآن،یبدو هذا المعنی مستبعدا،بلحاظ أنّ«سرّ» عاده تستخدم للإشاره إلی ما یقابل«العلن».و قد ضعّف الراغب هذا المعنی أیضا مع أنّ بعض علماء اللغه أشار إلی کلا المعنیین (۲) .

و علی کلّ حال،فإنّ هؤلاء قد وجدوا نتائج أعمالهم هَلْ یُجْزَوْنَ إِلاّٰ مٰا کٰانُوا یَعْمَلُونَ .

نعم،فأعمال و جنایات الکفّار و المجرمین هی التی أضحت قیودا و سلاسل تلفّ أعناقهم و أیدیهم و أرجلهم،لقد کانوا فی هذه الدنیا أساری هوی النفس و الطمع و الظلم و الرغبه فی المقام،و فی یوم القیامه حیث تتجسّد الأعمال،یظهر ذلک الأسر بشکل آخر...إذن،فالآیه تشیر أیضا إلی قضیّه تجسّم الأعمال التی أشرنا إلیها مرارا.لأنّها تقول: هَلْ یُجْزَوْنَ إِلاّٰ مٰا کٰانُوا یَعْمَلُونَ و أی تعبیر أکثر وضوحا و حیویه من ذلک التعبیر عن تجسّم الأعمال.

التعبیر ب«الذین کفروا»یشیر إلی أنّ فریقی الغاوین و المغویین المستضعفین و کلّ الکفّار یلقون ذلک المصیر،و عاده فإنّ ذکر ذلک الوصف هو إشاره إلی أنّ علّه عقابهم إنّما هی«کفرهم».

۱- ۱) الأنبیاء،۱۴.

۲- ۲) انظر لسان العرب ذیل مادّه(سرّ)فهناک بحث مفصّل بهذا الخصوص مع اختلافات أهل اللغه و الأدب، مجلّد ۴،ص ۳۵۷.

الآیات [سوره سبإ (٣۴): الآیات ٣۴ الی ٣٨]

اشاره

وَ مٰا أَرْسَلْنٰا فِی قَرْیَهٍ مِنْ نَذِیرٍ إِلاّٰ قٰالَ مُتْرَفُوهٰا إِنّٰا بِمٰا أُرْسِلْتُمْ بِهِ کٰافِرُونَ (٣۴) وَ قٰالُوا نَحْنُ أَکْثَرُ أَمْوٰالاً وَ أَوْلاٰداً وَ مٰا نَحْنُ بِمُعَذَّبِینَ (٣۵) قُلْ إِنَّ رَبِّی یَبْسُطُ اَلرِّزْقَ لِمَنْ یَشٰاءُ وَ یَقْدِرُ وَ لٰکِنَّ أَکْثَرَ اَلنّٰاسِ لاٰ یَعْلَمُونَ (٣۶) وَ مٰا أَمْوٰالُکُمْ وَ لاٰ أَوْلاٰدُکُمْ بِالَّتِی تُقَرِّبُکُمْ عِنْدَنٰا زُلْفیٰ إِلاّٰ مَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صٰالِحاً فَأُولٰئِکَ لَهُمْ جَزٰاءُ اَلضِّعْفِ بِمٰا عَمِلُوا وَ هُمْ فِی اَلْغُرُفٰاتِ آمِنُونَ (٣٧) وَ اَلَّذِینَ یَسْعَوْنَ فِی آیٰاتِنٰا مُعٰاجِزِینَ أُولٰئِکَ فِی اَلْعَذٰابِ مُحْضَرُونَ (٣٨)

التّفسیر

اشاره

الأموال و الأولاد لیست دلیلا علی القرب من اللّه..

بعد أن کان الحدیث فی الآیات السابقه فی الغاوین من المستکبرین،فإنّ جانبا آخر من هذا المبحث تعکسه الآیات أعلاه بطریقه اخری،و تقدّم المواساه أیضا للرسول صلّی اللّه علیه و آله ضمن إشارتها بأن لا تعجب إذا خالفک المخالفون،فإنّ المستکبرین

المرفّهين طبعوا على مخالفه أنبياء الحقّ،فتقول الآيه المباركه: وَ مٰا أَرْسَلْنٰا فِي قَرْيَهٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاّٰ قٰالَ مُتْرَفُوهٰا إِنّٰا بِمٰا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كٰافِرُونَ .

«نـذير»من«الإنـذار»و هو الإخبار الذى فيه تخويف،و إشاره إلى أنبياء اللّه الذين ينذرون الناس من عذاب اللّه فى قبال الانحرافات و الظلامات و الذنوب و الفساد.

«مترفوها»جمع«مترف»من مادّه«ترف»بمعنى«التوسّع فى النعمه»و (المترف)الذى قد أبطرته النعمه و سعه العيش.و أترفته النعمه أى أطغته (۱) .

نعم،فإنّ هـذه الفئه المترفه الغافله الطاغيه كانت الصف المتقدّم من مخالفى الأنبياء عاده،لأنّهم يرون أنّ تعليمات الأنبياء تتضارب مع أمانيهم و أهوائهم من جهه،و لأنّ الأنبياء يـدافعون عن حقوق المحرومين التى اغتصبها هؤلاء المترفين و نالوا هـذا النعيم،من جهه ثانيه،و لأنّهم دائما يستخدمون عامل التسلّط لحمايه مصالحهم و أموالهم من جهه ثالثه،و الأنبياء يقفون قبالهم فى كلّ هذه الحالات،لذا فإنّهم يهبّون فورا لمخالفه الأنبياء.

العجيب أنّهم لا يشيرون إلى حكم أو فقره خاصّه ليخالفوها،بل إنّهم فورا و مرّه واحـده يقولون(نحن كافرون بكلّ ما بعثتم به)و لن نخطوا معكم خطوه واحده، و هذا بعينه أحسن دليل على عنادهم و تعصّبهم إزاء الحقّ.

و قـد كشف القرآن فى آيات مختلفه عن مسأله مهمّه،و هو أنّ المحرومين هم أوّل من يلبّى دعوه الأنبياء،و المتنّعمين المغرورين أيضا هم أوّل مجموعه ترفع لواء المخالفه.

و رغم أنّ منكرى دعوه الأنبياء لا ينحصرون فى هـذه المجموعه فقط،و لكنّهم غالبا عامل الفساد الأوّل و الـدعاه إلى الشرك و الخرافات،و يسعون دوما إلى إكراه

۱- ۱) لسان العرب،مجلّد ۹،ص ۱۷.

الآخرين لسلوک طريقهم.و ردّ هذا المعنى أيضا فى الآيات ٢٣-الزخرف،و ١١٦ -هود،و ٣٣-المؤمنون.

هذه المجموعه لم تقف فقط فى وجه الأنبياء فحسب،بل قبال أيّه خطوه إصلاحيه من قبل أى عالم أو مصلح أو مفكّر مجاهد،فقد كانوا السبّاقين للمخالفه، و لا يتورّعون فى ارتكاب أيّه جريمه و تآمر ضدّ هؤلاء المصلحين.

تشير الآيه التاليه إلى المنطق الأجوف الذى يتمسّک به هؤلاء لإثبات أفضليتهم و لاستغفال العوام فتقول: وَ قٰالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوٰالاً وَ أَوْلاٰداً .

إنّ اللّه يحبّنا،فقد أعطانا المال الوفير،و القوّه البشريه،و ذلک دليل على لطفه بحقّنا و إشاره إلى مقامنا و موقعنا عنده،و لذلک لن نعاقب أبدا وَ مٰا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ! فلو كنّا مطرودين من رحمته فلم سخّر لنا كلّ هذه النعم؟الخلاصه،إنّ وفره النعيم فى دنيانا دليل واضح على كونه كذلک آخرتنا!! بعض المفسّرين احتملوا أن يكون قولهم: وَ مٰا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ دليلا على إنكارهم الكلّى للقيامه و العذاب.و لكن الآيات اللاحقه تدلّل على عدم قصد هذا المعنى،بل المراد هو(القرب من اللّه بسبب الثروه التى يملكونها).

الآيه التى بعدها تردّ بأرقى أسلوب على هذا المنطق الأجوف الخدّاع و تنسفه من الأساس،و بطريق مخاطبه الرّسول صلّى اللّه عليه و آله تقول الآيه الكريمه:قل لهم:إنّ ربّى يرزق من يشاء و يقدر لمن يشاء،و ذلک أيضا طبق مصالح مرتبطه بامتحان الخلق و بنظام حياه الإنسان،و ليس له أى ربط بقدر و مقام الإنسان عند اللّه سبحانه و تعالى: قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشٰاءُ وَ يَقْدِرُ .

و عليه فلا يجب اعتبار سعه الرزق دليلا على السعاده،و قلّته على الشقاء.

وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَ النّٰاسِ لاٰ يَعْلَمُونَ

. طبعا أكثر الجهّال المغفّلين هم كذلک،و إلاّ فإنّ هذا الأمر واضح للعارف.

ثمّ تتابع الآيات هذا المعنى بصراحه أكثر.تقول: وَ مٰا أَمْوٰالُكُمْ وَ لاٰ أَوْلاٰدُكُمْ

بِالَّتِی تُقَرِّبُکَمْ عِنْدَنٰا زُلْفیٰ

(۱)

لقد عمّ هذا الاشتباه الخطیر بعضا من البسطاء، و تصوّروا بأنّهم ما داموا محرومین فی الدنیا فهم مغضوب علیهم و مطرودون من رحمه اللّه،و هؤلاء المرفّهون هم المحبوبون المقبولون لدیه.

ما أکثر المحرومین الذین امتحنوا بالحرمان،فنالوا أرقی الدرجات و المراتب الروحیه.

و ما أکثر المرفّهین الذین أصبحت أموالهم و ثرواتهم وبالا علیهم و مقدّمه لعقابهم.

ألیس قد ذکرت الآیه(۱۵)من سوره التغابن بصراحه إِنَّمٰا أَمْوٰالُکُمْ وَ أَوْلاٰدُکُمْ فِتْنَهٌ وَ اللّٰهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِیمٌ .

و لکن لیس معنی هذا هو حثّ الإنسان علی ترک السعی و الدأب اللازم لإقامه الأود،بل المقصود هو التأکید علی أنّ امتلاک الإمکانات الاقتصادیه و القوّه البشریه الواسعه لا یمثّل أبدا أیّه قیمه معنویه للإنسان عند اللّه.

ثمّ تتناول الآیه موضوع المعیار الأصلی لتقییم الناس،و ما یسبّب قربهم منه (علی شکل استثناء منفصل)فتقول: إِلاّٰ مَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صٰالِحاً فَأُولٰئِکَ لَهُمْ جَزٰاءُ الضِّعْفِ بِمٰا عَمِلُوا وَ هُمْ فِی الْغُرُفٰاتِ آمِنُونَ (۲) .

و علیه فجمیع المعاییر تعود أصلا إلی هذین الأمرین«الإیمان»و«العمل الصالح».و یستوعب هذا المعیار جمیع الأفراد و فی أی زمان أو مکان،و من أی طبقه أو مجموعه کان.و اختلاف مراتب البشر أمام اللّه إنّما هو بتفاوت درجات إیمانهم و مراتب عملهم الصالح،و لا شیء سوی ذلک.حتّی طلب العلم أو

---

۱ – ۱) «زلفی»و«زلفه»بمعنی المنزله و الحظوه(مفردات الراغب)،و لهذا السبب عبّر عن(منازل اللیل)ب(زلف اللیل)– و التعبیر ب«التی»لأجل أنّه فی کثیر من الموارد یعود الضمیر المفرد المؤنث إلی جمع التکسیر،و علیه فلا حاجه إلی التقدیر هنا.

۲– ۲) التعبیر ب«جزاء الضعف»من قبیل إضافه الموصوف إلی الصفه.

الانتساب إلی أفراد عظماء،بل حتّی للأنبیاء،إذا لم یکن مقترنا بهذین الأمرین فإنّه وحده لا یضیف إلی قیمه الإنسان شیئا.

هنا یشطب القرآن و بصراحه قلّ نظیرها علی کلّ الظنون المنحرفه و الخرافات بخصوص عوامل القرب من اللّه،و ما یرفع من قیمه الإنسان،و یخلص إلی أنّ المعیار الأصیل هو فی شیئین فقط،یستطیع کلّ الناس تحصیلها،و أنّ الإمکانات و المحرومیات المادیه لا أثر لها فی ذلک.

أجل،فإنّ الأموال و الأولاد أیضا إذا وجّهت بهذا المسیر،صبغت بتلک الصبغه الإلهیّه و تقبّلت لون الإیمان و العمل الصالح،و أصبحت سببا فی القرب من اللّه.أمّا الأموال و الأولاد التی تبعد الإنسان عن اللّه،و تکون له صنما یعبد من دون اللّه و سببا للفساد و الإفساد،فهی جواذب جهنّم،و کما قال القرآن الکریم: یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوٰاجِکُمْ وَ أَوْلاٰدِکُمْ عَدُوًّا لَکُمْ فَاحْذَرُوهُمْ . (۱)

کلمه«ضعف»لیست بمعنی«مضاعفه الشیء مرتین»فقط،بل بمعنی«أضعاف مضاعفه لأکثر من مرتین».و قد وردت فی هذه الآیه بهذا المعنی.لأنّنا نعلم أنّ أی عمل حسن یحسب عند اللّه بعشره أمثاله علی الأقل مَنْ جٰاءَ بِالْحَسَنَهِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثٰالِهٰا . (۲) و أحیانا أکثر من ذلک بکثیر.

«غرفات»جمع«غرفه»بمعنی الحجرات العلویه من البناء،و التی غالبا ما تکون إضاءتها أکثر و هواؤها أفضل.و بعیده عن الآفات،لذا عبّر القرآن عن أفضل منازل الجنّه(بالغرف).و هذه اللفظه من مادّه«غرف»،علی زنه(بحر)بمعنی رفع الشیء و تناوله.

التعبیر ب«آمنون»فیما یخصّ أهل الجنّه،تعبیر جامع یعکس حاله الطمأنینه الروحیه و الجسدیه لهم من کافّه النواحی،فلا خوف من هجوم عدوّ،أو مرض،أو

۱- ۱) التغابن،۱۴.

۲- ۲) أنعام،۱۶۰.

آفه أو ألم،و لا خوف حتّى من الخوف!،و ليس أغلى من هذه النعمه بأن يكون الإنسان آمنا من كلّ جانب،فلا بلاء أشدّ من الإحساس بعدم الأمن فی مختلف جوانب الحیاه.

الآیه التالیه تصف الفریق المقابل لهؤلاء،فتقول:أمّا هؤلاء الذین یسعون و یجتهدون لتسفیه آیاتنا،لا یؤمنون و لا یترکون غیرهم یسیرون فی طریق الإیمان،و یتوهّمون أنّهم یستطیعون الفرار من ید قدرتنا،هؤلاء یحضرون فی عذاب ألیم یوم القیامه وَ الَّذِینَ یَسْعَوْنَ فِی آیاتِنا مُعاجِزِینَ أُولئِکَ فِی الْعَذابِ مُحْضَرُونَ .

هؤلاء هم الذین اعتمدوا علی أموالهم و أولادهم و کثره عددهم لتکذیب الأنبیاء،و عملوا علی إغواء عباد اللّه،حتّی بلغ غرورهم درجه أن توهّموا أنّهم یفلتون من قبضه العذاب الإلهی،و لکن هیهات فانّ مصیرهم فی قلب جهنّم.

و بما أنّ جمله أُولئِکَ فِی الْعَذابِ مُحْضَرُونَ لیس فیها ما یدلّل علی الزمان الآتی-فقد تکون إشاره إلی کون هؤلاء مأسورین بالعذاب حتّی فی الوقت الحاضر،و أی عذاب أشدّ من هذا السجن الذی صنعوه لأنفسهم من أموالهم و أولادهم.

کذلک یحتمل أن یکون التعبیر للتدلیل علی أنّ وعد اللّه مسلّم به إلی درجه یمکن القول بأنّهم حالیا فیه،کما هو الحال بالنسبه إلی قوله: وَ هُمْ فِی الْغُرُفاتِ آمِنُونَ .

«معاجزین»:کما ذهب بعض أرباب اللغه إلی أنّ معناه أنّ هؤلاء تصوّروا أنّهم یستطیعون الفرار من دائره قدره اللّه تعالی و جزائه و عقابه،إلاّ أنّ هذا التوهّم باطل و سراب خادع (۱) .

ص:۴۶۳

۱- ۱) الحقیقه أن تعبیر«معاجزین»الذی أوردنا تفسیره من مفردات الراغب،شبیه بتعبیر(یخادعون الله و رسوله)البقره- ۹،لأنّ باب مفاعله یمکن أن یأتی علی هذه الصوره.

بحث

اشاره

معاییر التقییم:

من القضایا المهمّه فی حیاه الأفراد و المجتمعات هی قضیّه«معاییر التقییم»و «نظام القیم»الذی یتحکّم بثقافه ذلک المجتمع.لأنّ کلّ الحرکات الصادره عن الأفراد و الجماعات فی حیاتهم إنّما تنبع من هذا النظام و تهدف إلی خلق تلک القیم.

و اشتباه قوم من الأقوام و امّه من الأمم فی هذه القضیّه و التعامل بقیم خیالیه لا أساس لها قد یؤدّی إلی طبع تأریخهم بطابع الغرور.و إدراک القیم الواقعیه و المعاییر الحقیقیه یشکّل أساسا متینا لبناء سعادتهم.

عبید الدنیا المغرورون یتصوّرون بأنّ القیم تنحصر فقط فی المال و القدره المادیه و التعداد البشری،و حتّی القیمه أمام اللّه ینظرون إلیها من داخل هذا الإطار،کما لاحظنا نموذجا من ذلک فی الآیات السابقه،و هناک نماذج کثیره من هذا القبیل تلاحظ فی القرآن الکریم،منها:

۱-فرعون،الطاغیه المتجبّر،الذی کان یقول لمن حوله بأنّه لا یصدق أنّ موسی علیه السّلام رسول من اللّه،فإن کان حقّا ما یقول فلم لم یعطه اللّه سوارا من الذهب فَلَوْ لاٰ أُلْقِیَ عَلَیْهِ أَسْوِرَهٌ مِنْ ذَهَبٍ . (۱)

و حتّی انّه یری عدمها دلیل هی المهانه و الدونیه،فیقول: أَمْ أَنَا خَیْرٌ مِنْ هٰذَا الَّذِی هُوَ مَهِینٌ . (۲)

۲-مشرکو عصر الرساله المحمّدیه،تعجّبوا من نزول القرآن علی رجل فقیر کرسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و قالوا: لَوْ لاٰ نُزِّلَ هٰذَا الْقُرْآنُ عَلیٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْیَتَیْنِ عَظِیمٍ . (۳)

۱- ۱) الزخرف،۵۳.

۲- ۲) الزخرف،۲۵.

۳- ۳) الزخرف،۳۱.

۳-بنو إسرائيل اعترضوا على نبى زمانهم«أشموئيل»فى قضيّه انتخاب «طالوت» كقائد للجيش و قالوا: نَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَ لَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمٰالِ . (۱)

۴-مشركو زمان نوح عليه السّلام الأثرياء اعترضوا عليه بأن اتّبعه أراذلهم،و هم الفقراء فى نظرهم قٰالُوا أَ نُؤْمِنُ لَكَ وَ اتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (۲) ۵-أثرياء مكّه أوردوا نفس هذا الاعتراض على الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله بقولهم:

لقد أحاط بك الحفاه،و نحن نشمئزّ حتّى من رائحتهم،فلا نتبعك إلّا بابتعادهم عنك.و قد حقّرهم القرآن الكريم فى سوره الكهف بشدّه،و هدّدهم،و أمر الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله بأن يكون مع الذين عشقوا اللّه،و يدعونه صباحا و مساء و إن كانوا فقراء وَ اصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدٰاهِ وَ الْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَ لاٰ تَعْدُ عَيْنٰاكَ عَنْهُمْ . (۳)

لهذه الأسباب،كان أوّل عمل إصلاحى يقوم به الأنبياء هو تحطيم اطر التقييم الكاذبه تلك،و استبدالها بالقيم الإلهيه الأصيله و القيام ب«ثوره ثقافيه»أبدلوا أساس الشخصيه و محورها من الأموال و الأولاد و الثروه و الجاه و الشهره القبليه و العائله إلى التقوى و الإيمان و العمل الصالح.

و قد مرّ نموذج لذلك فى الآيات السابقه،فبعد شجب الأموال و الأولاد كوسيله للتقرّب من اللّه تعالى،و الآيه وَ مٰا أَمْوٰالُكُمْ وَ لاٰ أَوْلاٰدُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنٰا زُلْفىٰ أعطت بعدها مباشره القيم الأصيله كبديل بالقول: إِلاّٰ مَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صٰالِحاً .

و الآيه الشريفه إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّٰهِ أَتْقٰاكُمْ و التى أضحت شعارا إسلاميا بعد استبعاد القيم المرتبطه بالقبيله و العشيره،تشير إلى هذه الثوره الفكريه و الاعتباريه. فاستنادا إلى هذه الآيه(الحجرات-۱۳)فليس هناك شيء غير

۱- ۱) البقره،۲۴۷.

۲- ۲) الشعراء،۱۱۱.

۳- ۳) الكهف،۲۸.

التقوی،و الإیمان المقترن بالشعور بالمسؤولیه،و صلاح العمل،لیس سوی ذلک معیارا لتقییم شخصیه الإنسان و قربه من اللّه تعالی.و کلّ من کان له نصیب أکبر من ذلک کان إلی اللّه أقرب و عنده أکرم.

و الملفت للنظر أنّ محیط الجزیره العربیه کان قبل نزول التعالیم الإسلامیه القرآنیه السامیه-بتأثیر هیمنه القیم الظالمه-خاضعا لأصحاب الأموال و الکذبه من أمثال أبی سفیان و أبی جهل و أبی لهب.و لکن بعد ثوره القیم ظهر من نفس ذلک المحیط أمثال أبی ذرّ و عمّار و المقداد(رضوان اللّه علیهم).

الجمیل أنّ القرآن المجید فی سوره«الزخرف»و بعد ذکر الآیات التی أوردناها آنفا یقول: وَ لَوْ لاٰ أَنْ یَکُونَ النّٰاسُ أُمَّهً وٰاحِدَهً لَجَعَلْنٰا لِمَنْ یَکْفُرُ بِالرَّحْمٰنِ لِبُیُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّهٍ وَ مَعٰارِجَ عَلَیْهٰا یَظْهَرُونَ وَ لِبُیُوتِهِمْ أَبْوٰاباً وَ سُرُراً عَلَیْهٰا یَتَّکِؤُنَ وَ زُخْرُفاً وَ إِنْ کُلُّ ذٰلِکَ لَمّٰا مَتٰاعُ الْحَیٰاهِ الدُّنْیٰا وَ الْآخِرَهُ عِنْدَ رَبِّکَ لِلْمُتَّقِینَ (1) .

هذا کلّه لکی لا تحلّ القیم المزیّفه محلّ القیم الإنسانیه الواقعیه.

1- 1) الزخرف،33-35.

الآیات [سوره سبإ (۳۴): الآیات ۳۹ الی ۴۲]

اشاره

قُلْ إِنَّ رَبِّی یَبْسُطُ اَلرِّزْقَ لِمَنْ یَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ یَقْدِرُ لَهُ وَ ما أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَیْءٍ فَهُوَ یُخْلِفُهُ وَ هُوَ خَیْرُ اَلرّازِقِینَ (۳۹) وَ یَوْمَ یَحْشُرُهُمْ جَمِیعاً ثُمَّ یَقُولُ لِلْمَلائِکَهِ أَ هؤُلاءِ إِیّاکُمْ کانُوا یَعْبُدُونَ (۴۰) قالُوا سُبْحانَکَ أَنْتَ وَلِیُّنا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ کانُوا یَعْبُدُونَ اَلْجِنَّ أَکْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ (۴۱) فَالْیَوْمَ لا یَمْلِکُ بَعْضُکُمْ لِبَعْضٍ نَفْعاً وَ لا ضَرًّا وَ نَقُولُ لِلَّذِینَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذابَ اَلنّارِ اَلَّتِی کُنْتُمْ بِها تُکَذِّبُونَ (۴۲)

التّفسیر

اشاره

نفور المعبودین من عابدیهم:

تعود هذه الآیات لتؤکّد مرّه اخری خطأ الذین یتوهمون بأنّ أموالهم و أولادهم سبب لقربهم من اللّه فتقول: قُلْ إِنَّ رَبِّی یَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ یَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ یَقْدِرُ لَهُ .

ثمّ تضیف الآیه: وَ ما أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَیْءٍ فَهُوَ یُخْلِفُهُ وَ هُوَ خَیْرُ الرّازِقِینَ .

فمع أنّ محتوى هذه الآيه يؤكّد ما عرضته الآيات السابقه إلاّ أنّ هناك ما هو جديد من جهتين:

الاولى:أنّ الآيه السابقه التى عرضت نفس المفهوم،كانت تتحدّث عن أموال و أولاد الكفّار،بينما الآيه محلّ البحث باحتوائها على كلمه«عباد»تشير إلى المؤمنين،و المعنى أنّه حتّى فيما يخصّ المؤمنين فإنّه قد يتّسع الرزق-لأنّه الأصلح بالنسبه للمؤمن-و قد يضيق-لأنّ المصلحه تقتضى ذلك-على كلّ حال، فإنّ سعه و ضيق الرزق لا يمكن أن يشكّل دليلا على أى شیء.

الثّانيه:الآيه السابقه أشارت إلى سعه الرزق و ضيقه بالنسبه إلى مجموعتين مختلفتين،فى حين أنّ هذه الآيه تشير إلى حالتين مختلفتين بالنسبه لشخص واحد،حينا يتّسع رزقه و حينا يضيق.

إضافه إلى أنّ ما جاء فى بدايه هذه الآيه هو فى الحقيقه مقدّمه لما جاء فى آخرها،و هو الترغيب فى الإنفاق فى سبيل اللّه.

جمله«فهو يخلفه»تعبير جميل يشير إلى أنّ ما ينفق فى سبيل اللّه إنّما هو فى الحقيقه تجاره وافره الربح،لأنّ اللّه سبحانه و تعالى تعهّد بأن يخلفه،و نعلم أنّه فى الوقت الذى يتعهّد فيه الكريم بأداء العوض فإنّه لا يراعى المقدار الذى يريد تعويضه،بل إنّه يعوّض بأضعاف مضاعفه،بل بمئات الأضعاف.

طبعا فإنّ هذا الوعد الإلهى لا ينحصر بالآخره،فإنّ ذلك مسلّم به،و لكن فى الدنيا أيضا فإنّه يخلف ما أنفق بمختلف البركات.

جمله هُوَ خَيْرُ الرّٰازِقِينَ ذات معنى واسع،و يمكن الإفاده منها من وجوه مختلفه.

هو خير من يعطى رزقا،لأنّه يعلم ماذا يعطى و إلى أى حدّ،بحيث لا يكون ما يعطيه عاملا للفساد و الغرور،لأنّه عالم بكلّ شیء.

هو يعطى أى شیء يريد أن يعطيه لأنّه قادر على كلّ شیء.

و لا يريد جزاء على ما يعطيه لأنّه غنى بذاته.و يعطى ابتداء،لأنّه حكيم و عالم بكلّ شىء. بل الحقيقه أنّه ليس من رزّاق غيره،لأنّ أى معط إنّما يعطى ممّا رزقه اللّه،و بذا فهو ليس سوى«واسطه انتقال»لا رزّاقا.

و كذلك فهو تعالى يعطى النعم الباقيه قبال المال الفانى،و الكثير مقابل القليل.

و لأنّ فريقا من الأثرياء الظالمين الطغاه كانوا فى صفّ المشركين،و ادّعوا بأنّهم يعبدون الملائكه و أنّهم شفعاؤهم يوم القيامه،فقد ردّ القرآن على هذا الادّعاء الباطل فقال: وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلاٰئِكَهِ أَ هٰؤُلاٰءِ إِيّٰاكُمْ كٰانُوا يَعْبُدُونَ .

بديهى أنّ هذا السؤال ليس من باب الاستفهام عن الجواب،لأنّ اللّه تعالى عالم بكلّ شىء،و لكن الهدف هو أن تظهر الحقائق من إجابه الملائكه،لكى يخسأ هؤلاء الضالّون و يخيب ظنّهم،و يعلموا بأنّ الملائكه متنفّرين من أعمالهم، فيصيبهم اليأس إلى الأبد.

ذكر(الملائكه)من بين المعبودات التى كان المشركون يعبدونها،إمّا لأنّ الملائكه أشرف المخلوقات التى عبدها الضالّون،و التى لم يحصلوا على شفاعتها يوم القيامه،فما ذا يستطيعون الحصول عليه من حفنه من الحجر أو الأخشاب أو الجنّ أو الشياطين!؟ أو أنّه من قبيل أنّ عبده الأوثان كانوا يعتقدون بأنّ الأحجار و الأخشاب هى مظهر و نموذج لموجودات علويه(كالملائكه و أرواح الأنبياء)،و لذا عبدوها.

فكما ورد فى تاريخ الوثنيه عند العرب«إنّ سبب حدوث عباده الأصنام فى العرب،هو أنّ«عمرو بن لحى»مرّ بقوم بالشام فرآهم يعبدون الأصنام فسألهم فقالوا له:هذه أرباب نتّخذها على شكل الهياكل العلويه فنستنصر بها و نستسقى.

فتبعهم و أتى بصنم معه إلى الحجاز و سوّل للعرب فعبدوه و استمرّت عباده الأصنام

فیهم إلی أن جاء الإسلام» (۱) (۲) .

و الآن لننظر ماذا تقول الملائکه للإجابه علی سؤال الباری عزّ و جلّ؟لقد اختارت الملائکه فی الحقیقه أکثر الأجوبه شمولیه و أعظمها أدبا قَالُوا سُبْحَانَکَ أَنْتَ وَلِیُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ کَانُوا یَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَکْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ .

أمّا ما هو المقصود من الجواب الذی أجابت به الملائکه؟فللمفسّرین أقوال، و یبدو أنّ أقربها هو القول بأنّ المقصود(بالجنّ)هو(الشیطان)و سائر الموجودات الخبیثه التی شجّعت عبده الأوثان علی ذلک العمل،و زینته فی أنظارهم،و علیه فإنّ المراد من عباده الجنّ هی تلک الطاعه و الانقیاد لأوامرها و الرضی بأضالیلها.

فالملائکه إذا یقولون ضمن إعلان تنفّرهم و عدم رضاهم علی هذه الأعمال:إنّ العامل الأساسی لهذا الفساد هم الشیاطین،و إن کان الظاهر أنّهم یعبدوننا،فالمهمّ هو الکشف عن الوجه الحقیقی لهذا العمل أمام الملأ.

و قد ورد نظیر هذا المعنی فی سوره یونس-الآیه(۲۸)حیث یقول تعالی:

وَ یَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِیعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِینَ أَشْرَکُوا مَکَانَکُمْ أَنْتُمْ وَ شُرَکَاؤُکُمْ فَزَیَّلْنَا بَیْنَهُمْ وَ قَالَ شُرَکَاؤُهُمْ مَا کُنْتُمْ إِیَّانَا تَعْبُدُونَ .أی إنّکم فی الحقیقه لم تعبدونا نحن،بل تعبدون أهواءکم و أوهامکم و خیالاتکم،ناهیک عن أنّ هذه العباده لم تکن بأمرنا و رضانا.و عباده هذا شکلها لیست بعباده أصلا.

و بهذه الطریقه یتبدّل أمل المشرکین فی ذلک الیوم إلی یأس کامل،و تتجلّی لهم بذلک حقیقه أنّ معبودیهم لن یحلّوا من مشاکلهم عقده صغیره واحده،بل علی العکس فهم منهم متنفّرون مستاءون.

لذا-و کاستخلاص للنتیجه-تقول الآیه الکریمه التی بعدها:

۱- ۱) تفسیر روح المعانی،مجلد ۲۲،ص ۱۴۰-کذلک ورد هذا المعنی بتفاوت یسیر فی سیره ابن هشام،مجلد ۱،ص ۷۹- و هناک نقرأ أنه جلب معه الصنم«هبل».

۲- ۲) عمرو بن لحی:أحد الشخصیات المعروفه فی مکه قبل الإسلام.

فَالْيَوْمَ لاٰ يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعاً وَ لاٰ ضَرًّا

. و بناء على ذلك فلا الملائكه-الذين هم ظاهرا معبودون-يستطيعون الشفاعه لهم،و لا هم يستطيعون مساعده بعضهم البعض.

وَ نَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذٰابَ النّٰارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهٰا تُكَذِّبُونَ

.

ليست هذه هى المرّه الاولى التى يعبّر فيها القرآن عن المشركين ب«الظلم»بل ورد ذلك فى الكثير من آيات القرآن.

التعبير عن«الكفر»ب«الظلم».أو عن«الكافرين و المشركين»ب«الظالمين».

ذلك لأنّهم قبل كلّ شىء ظلموا أنفسهم بخلعهم تاج العبوديه للّه عن رؤوسهم،و لفّوا طوق الذلّه للأوثان على رقابهم.و دمّروا شخصيتهم و مصيرهم.

و فى الحقيقه فإنّهم سيعاقبون يوم القيامه على شركهم و على إنكارهم للمعاد، و جمله وَ نَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذٰابَ النّٰارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهٰا تُكَذِّبُونَ تشتمل على المعنيين.

بحوث

اشاره

١-الإنفاق سبب النماء لا النقصان

التعبير الوارد فى الآيه السابقه يحتوى على معان جمّه:

أوّلا:فمن جهه أنّ كلمه«شىء»بمعناها الواسع تشمل كلّ أنواع الإنفاق، المادّى و المعنوى القليل و الكثير،لأىّ من المحتاجين كان الإنفاق،صغيرا أو كبيرا،المهمّ أن يعطى الإنسان شيئا ممّا يملك فى سبيل اللّه بأى كيفيه كان و بأى كميّه كانت.

ثانيا:لقد أخرجت الآيه(الإنفاق)بمفهومه من«الفناء»،و لوّنته بلون«البقاء» لأنّ اللّه ضمن إخلاف ما ينفق فى سبيله بمواهبه الماديه و المعنويه،بمرّات مضاعفه،مئات الآلاف،أقلّها عشره أضعاف،و بذا فإنّ المنفق-و بهذه الروحيه

و هذا الإعتقاد-سيلج ميدان الإنفاق بيد و قلب أكثر انفتاحا،و لن يخطر على باله إحساس بالقلّه،و لن يفكّر بالفقر،بل إنّه سيشكر اللّه على حسن توفيقه له على هذه التجاره الوفيره الربح.

و قد عبّر القرآن فى الآيات(١٠)و(١١)من سوره الصفّ عن هذا المعنى فقال: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَهٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ- تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ .

و نقرأ

فى الحديث عن الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله:

ينادى مناد كلّ ليله:لدوا للموت.

و ينادى مناد:ابنوا للخراب.

و ينادى مناد:اللهمّ هب للمنفق خلفا.

و ينادى مناد:اللّهمّ هب للممسك تلفا.

و ينادى مناد:ليت الناس لم يخلقوا.

و ينادى مناد:ليتهم إذ خلقوا فكّروا فيما له خلقوا!!» (١) .

و المقصود من هؤلاء المنادين هم الملائكه الذين يدبّرون أمور هذا العالم بأمر اللّه.

و

فى حديث آخر عنه صلّى اللّه عليه و آله: «من أيقن بالخلف سخت نفسه بالنفقه» (٢) .

و قد نقل نفس المعنى عن الإمامين الباقر و الصادق عليهما السّلام.

و الجدير بالتذكير هو أنّ الإنفاق يجب أن يكون من المال الحلال و الكسب المشروع،و إلّا فلا قبول لغيره عند اللّه و لا بركه فيه.

لذا

فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السّلام حينما سأله أحدهم قال:قلت:آيتان فى

۱- ۱) -مجمع البيان:ذيل الآيات مورد البحث.

۲- ۲) نور الثقلين،المجلّد ۴،ص ۳۴۰،ح ۷۷.

کتاب اللّه عزّ و جلّ أطلبهما فلا أجدهما.

قال علیه السّلام«و ما هما؟».

قلت:قول اللّه عزّ و جلّ: اُدْعُونِی أَسْتَجِبْ لَکُمْ ،فندعوه و لا نری إجابه.

قال علیه السّلام:أفتری اللّه عزّ و جلّ أخلف وعده؟».

قلت:لا.

قال:فممّ ذلک؟ قلت:لا أدری.

قال علیه السّلام:«لکنّی أخبرک،من أطاع اللّه عزّ و جلّ فیما أمره من دعائه من جهه الدعاء أجابه».

قلت:و ما جهه الدعاء.

قال:«تبدأ فتحمد اللّه و تذکر نعمه عندک ثمّ تشکره ثمّ تصلّی علی النّبی صلّی اللّه علیه و آله، ثمّ تذکر ذنوبک فتقرّ بها،ثمّ تستعیذ منها فهذا جهه الدعاء».

ثمّ قال علیه السّلام:«و ما الآیه الاخری؟».

قلت:قول اللّه عزّ و جلّ: وَ مٰا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَیْءٍ فَهُوَ یُخْلِفُهُ وَ هُوَ خَیْرُ الرّٰازِقِینَ و إنّی أنفق و لا أری خلفا؟ قال:«أفتری اللّه عزّ و جلّ أخلف وعده؟ قلت:لا.

قال:«فممّ ذلک؟».

قلت:لا أدری؟ قال:لو أنّ أحدکم اکتسب المال من حلّه و أنفقه فی حلّه لم ینفق درهما إلاّ أخلف علیه» (۱) .

۱- ۱) تفسیر البرهان،مجلّد ۳،ص ۳۵۳.

۲-أمنوا على أموالكم بتأمين إلهى!!

لأحد المفسّرين تحليل جميل بهذا الخصوص،يقول:«ثمّ إنّ من العجب أنّ التاجر إذا علم أنّ مالا من أمواله فى معرض الهلاك يبيعه نسيئه و إن كان من الفقراء،و يقول بأنّ ذلك أولى من الإمهال إلى أن يهلك المال،فإن لم يبع حتّى يهلك ينسب إلى الخطأ،ثمّ إن حصل به كفيل ملىء و لا يبيع ينسب إلى قلّه العقل.

فإن حصل به رهن و كتب به وثيقه و لا يبيعه ينسب إلى الجنون،ثمّ إنّ كلّ أحد يفعل هذا و لا يعلم أنّ ذلك قريب من الجنون،فإنّ أموالنا كلّها فى معرض الزوال المحقّق،و الإنفاق على الأهل و الولد إقراض،و قد حصل الضامن الملىء و هو اللّه العلى و قال تعالى: وَ مٰا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ثمّ رهن عند كلّ واحد إمّا أرضا أو بستانا أو طاحونه،أو حمّاما أو منفعه،فإنّ الإنسان لا بدّ أن يكون له صفه أو جهه يحصل له منها مال،و كلّ ذلك ملك اللّه،و هو فى يد الإنسان بحكم العاريه، فكأنّه مرهون بما تكفّل اللّه من رزقه ليحصل له الوثوق التامّ،و مع هذا لا ينفق و يترك ماله ليتلف لا مأجورا و لا مشكورا» (۱) .

۳-سعه مفهوم الإنفاق:

لأجل فهم الحدّ لمفهوم الإنفاق فى الإسلام،نطالع الحديث التالى

عن الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله إذ يقول: «كلّ معروف صدقه،و ما أنفق الرجل على نفسه و أهله كتب له صدقه،و ما وقى به الرجل عرضه فهو صدقه،و ما أنفق الرجل من نفقه فعلى اللّه خلفها،إلاّ ما كان من نفقه فى بنيان أو معصيه» (۲) .

يبدو أنّ استثناء البنيان من قانون الإخلاف،لأنّ عين البناء باقيه،أو لأنّه يكثر توجّه الناس إليه.

۱- ۱) تفسير الفخر الرازى،مجلّد ۲۵،ص ۲۶۳(ذيل الآيات مورد البحث).

۲- ۲) الجامع لأحكام القرآن(القرطبى)،مجلّد ۱۴،ص ۳۰۷.

الآيات [سوره سبإ (۳۴): الآيات ۴۳ الى ۴۵]

اشاره

وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالُوا ما هذا إِلاّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُكُمْ وَ قالُوا ما هذا إِلاّ إِفْكٌ مُفْتَرىً وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمّا جاءَهُمْ إِنْ هذا إِلاّ سِحْرٌ مُبِينٌ (۴۳) وَ ما آتَيْناهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَها وَ ما أَرْسَلْنا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ (۴۴) وَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ ما بَلَغُوا مِعْشارَ ما آتَيْناهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ (۴۵)

التّفسير

اشاره

بأىّ منطق ينكرون آيات اللّه:

تعود هذه الآيات لتكمل البحث الذى تناولته الآيات السابقه حول المشركين الكفّار و أقوالهم يوم القيامه،فتتحدّث حول وضع هؤلاء فى الدنيا و مواقفهم عند سماعهم القرآن حتّى يتّضح أنّ مصيرهم الاخروى المشؤوم إنّما هو نتاج تلك المواقف الخاطئه التى اتّخذوها إزاء آيات اللّه فى الدنيا.

تقول الآيه الكريمه الاولى: وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالُوا ما هذا إِلاّ رَجُلٌ

يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُكُمْ

.

فهذا أوّل ردّ فعل لهم إزاء«الآيات البيّنات»و هو السعى إلى تحريك حسّ العصبيه فى هؤلاء القوم المتعصّبين.

خاصّه مع ملاحظه استخدامهم تعبير«آباؤكم»بدل«آباؤنا»،يفهم منه أنّهم يريدون القول لقومهم بأنّ تراث الأجداد فى خطر،و إنّ عليكم النهوض و التصدّى لهذا الرجل عن العبث بذلك الميراث.

ثمّ تعبير«ما هذا إلاّ رجل»إنّما يقصد به تحقير النّبى صلّى اللّه عليه و آله من جهتين الاولى كلمه«هذا»و الثّانيه«رجل»بهيئه النكره،مع العلم بأنّهم يعرفون النّبى صلّى اللّه عليه و آله جيّدا، و يعلمون بأنّ له ماضيا مشرقا.

من الجدير بالملاحظه أيضا أنّ القرآن وصف«الآيات»ب«البيّنات»،أى أنّها تحمل دلائل حقّانيتها معها،و ما هو قابل للمعاينه لا يحتاج إلى توضيح أو بيان.

ثمّ توضّح الآيه مقولتهم الثّانيه التى قصدوا بها إبطال دعوه النّبى صلّى اللّه عليه و آله فتقول:

وَ قالُوا ما هٰذا إِلاّ إِفْكٌ مُفْتَرىً

.

«إفك»كما ذكرنا سابقا بمعنى كلّ مصروف عن وجهه الذى يحقّ أن يكون عليه،و منه قيل للرياح العادله عن المهابّ«مؤتفكه»،و أى صرف عن الحقّ فى الإعتقاد إلى الباطل،و من الصدق فى المقال إلى الكذب،و من الجميل فى الفعل إلى القبيح.و لكن كما قال البعض،فإنّ«الإفك»يطلق على الأكاذيب الكبيره.

و كان يكفى استخدامهم لكلمه«الإفك»فى اتّهام الرّسول صلّى اللّه عليه و آله بالكذب،لكنّهم أرادوا تأكيد ذلك المعنى باستخدامهم لكلمه«مفترى»،دون أن يكون لهم أدنى دليل على ذلك الادّعاء.

و أخيرا،كان الاتّهام الثالث الذى ألصقوه بالرّسول صلّى اللّه عليه و آله هو(السحر)كما نرى ذلك فى آخر هذه الآيه وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمّا جاءَهُمْ إِنْ هٰذا إِلاّ سِحْرٌ مُبِينٌ .

العجيب أنّ هؤلاء الضالّين يطلقون هذه التّهم الثلاث المذكوره بأصرح

التأكيدات،ففى موضع يقولون إنّه سحر،و فى آخر يقولون:إنّه مجرّد كذب،ثمّ يقولون فى موضع ثالث،إنّه يريد أن يصدّكم عن مآثر أجدادكم! طبعا هذه الصفات الذميمه الثلاثه ليست متضادّه فيما بينها-مع أنّ هؤلاء لا يأنفون من الكلام المتضادّ-و على فلا داعى-كما يقول المفسّرين-لاعتبار أنّ كلّ واحده من هذه الصفات تنسب إلى مجموعه مستقلّه من الكفّار.

كذلك فمن الجدير بالملاحظه أنّ القرآن الكريم استخدم فى المرتين الاولى و الثّانيه جمله «قالوا»،ثمّ استخدم فى المرّه الثالثه جمله«قال الذين كفروا»، إشاره إلى أنّ كلّ التعاسه التى أصابتهم إنّما منشأها الكفر و إنكار الحقّ و معاداه الحقيقه،و إلاّ فكيف يمكن لأحد أن يتّهم رجلا تظهر دلائل حقّانيته من حديثه و عمله و ماضيه بهذه التّهم المتلاحقه و بلا أدنى دليل.

فكأنّهم يواصلون بهذه التّهم الثلاث برنامجا مدروسا لمواجهه النّبى صلّى اللّه عليه و آله فقد لاحظوا من جانب أنّ الدين جديد و له جاذبيه،و من جانب آخر،فقد أخافت إنذارات الرّسول صلّى اللّه عليه و آله بالعذاب الإلهى فى الدنيا و الآخره فئه من المجتمع شاءوا أم أبوا،و من جانب ثالث فإنّ معجزات الرّسول صلّى اللّه عليه و آله تركت أثرها الإيجابى فى نفوس عامّه المجتمع-شاءوا أم أبوا كذلك.

لذا فإنّهم-لأجل إبطال مفعول هذه الأمور الثلاثه-فكّروا بالدعوه إلى حفظ تراث السلف فى قبال الدين الجديد،فى حين أنّ السلف كان مصداقا لما ذكره القرآن الكريم لاٰ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَ لاٰ يَهْتَدُونَ البقره-١٧٠.فلا جرم أن يتخلّى الناس عن مثل تلك الهياكل الخرافيه التى كانت إرث هؤلاء الجهله و الحمقى.

و أمّا فى قبال إنذارات الرّسول صلّى اللّه عليه و آله بالعذاب الإلهى،فقد طرحوا قضيّه الاتّهام بالكذب لكى يريحوا العامّه.

و فى قبال المعجزات،طرحوا تهمه(السحر).ظنّا منهم أنّ المعجزات لن تترك أثرا فى نفوس الناس بسبب هذا التوجيه.

و لكن تاريخ الإسلام شاهد على أنّ أيّا من هذه المخطّطات الشيطانيه لم تكن ذات أثر،و كانت النتيجه أن دخل الناس فى هذا الدين العظيم فوجا بعد فوج.

فى الآيه التى بعدها،يشطب القرآن الكريم على جميع تلك الادّعاءات الواهيه،مع أنّها واضحه البطلان،فيقول: وَ مٰا آتَيْنٰاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهٰا،وَ مٰا أَرْسَلْنٰا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ .

و هى إشاره إلى أنّ هذه الادّعاءات يمكنها أن تكون مقبوله فيما لو جاءهم رسول من قبل بكتاب سماوى يخالف مضمونه الدعوه الجديده،فلا بأس أن ينبروا لتكذيبها،و ينادوا بتراث الأجداد تاره،و بتكذيب الدعوه الجديده تاره اخرى،أو اتّهام من جاء بها بالسحر.أمّا من لا يعتمد إلاّ على فكره الشخصى- بدون أى وحى من السماء-و بدون أن يكون له نصيب من علم،فلا يحقّ له الحكم لمجرّد تلفيقه الخرافات و الأوهام.

و يستفاد من هذه الآيه أيضا أنّ الإنسان لا يمكنه أن يطوى طريق الحياه بعقله فقط،بل لا بدّ أن يستمدّ المعونه من وحى السماء و يتقدّم إلى الأمام بالاستعانه بالشرائع،و إلاّ فهى الظلمات و الخوف من التيه.

الآيه الأخيره من هذه الآيات،تهدّد تلك المجموعه المتمردّه بكلمات بليغه مؤثّره فتقول: وَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فى حين أنّ هؤلاء لم يبلغوا فى القوّه و القدره عشر ما كان لأولئك الأقوام وَ مٰا بَلَغُوا مِعْشٰارَ مٰا آتَيْنٰاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِى فَكَيْفَ كٰانَ نَكِيرِ .

فمدنهم المدمّره بضربات العقوبه الإلهيه الساحقه ليست ببعيده عنكم..فهى فى الشام القريب منكم،فليكونوا لكم مرآه للعبره،و استمعوا إلى النصائح التى يقولها الدمار،و قارنوا مصيركم بمصيرهم،فلا السنّه الإلهيّه قابله للتغيير و لا أنتم أقوى منهم!

«معشار»:بمعنى واحد إلى عشره.البعض اعتبرها«عشر العشر»أىّ واحد إلى

مائه،و لكن أكثر كتب اللغه و التفاسير ذكرت المعنى الأوّل.و إن كان مثل تلك الأعداد لا يقصد بها التعداد،و تستخدم للتقليل فى مقابل سبعه و سبعين و ألف و أمثالها التى تستخدم للتكثير،و بذا يكون المعنى المقصود من الآيه،إنّنا دمّرنا عصاه أقوياء لا يمتلك هؤلاء إلاّ جزءا صغيرا من قدرتهم.

و قد ورد نظير هذا المعنى فى آيات كثيره من آيات القرآن الكريم،من جملتها ما ورد فى الآيه(۶)من سوره الأنعام أَ لَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنّاهُمْ فِى الْأَرْضِ ما لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَ أَرْسَلْنَا السَّماءَ عَلَيْهِمْ مِدْراراً وَ جَعَلْنَا الْأَنْهارَ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَ أَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ . و كذا ورد نظير هذا المعنى فى الآيات ۲۱-المؤمن،۹-الروم.

لفظه«نكير»من مادّه«نكر»و الإنكار ضدّ العرفان،و المقصود أنّ إنكار اللّه هو تلك المجازاه و العذاب الصادر عنه تعالى.

بعض المفسّرين احتملوا تفسيرا آخر لهذه الآيه،و هو أنّ المقصود من وَ ما بَلَغُوا مِعْشارَ ما آتَيْناهُمْ و هو عشر الآيات التى أنزلناها على مشركى قريش لإتمام الحجّه عليهم،لم ننزّله على الأقوام السابقين،فإذا كان العذاب الذى عذّبناهم به بتلك الشدّه،فما بالك بمصير مشركى قريش الذين نالهم عشره أضعاف الآيات لإتمام الحجّه!و لكن يبدو أنّ التّفسير الأوّل أنسب(و بناء على التّفسير الأوّل فإنّه من أربعه ضمائر موجوده فى الآيه،يعود الضميران الأوّل و الثّانى على كفّار قريش،و الضمير الثالث و الرابع على الكفّار السالفين،أمّا بناء على التّفسير الثّانى فإنّ الضمير الأوّل يعود على كفّار قريش،و الثّانى على الكفّار السالفين،و الثالث على كفّار قريش و الرابع على الكفّار السابقين-تأمّل).

ص:۴۷۹

الآیه [سوره سبإ (۳۴): آیه ۴۶]

اشاره

قُلْ إِنَّمٰا أَعِظُکُمْ بِوٰاحِدَهٍ أَنْ تَقُومُوا لِلّٰهِ مَثْنیٰ وَ فُرٰادیٰ ثُمَّ تَتَفَکَّرُوا مٰا بِصٰاحِبِکُمْ مِنْ جِنَّهٍ إِنْ هُوَ إِلاّٰ نَذِیرٌ لَکُمْ بَیْنَ یَدَیْ عَذٰابٍ شَدِیدٍ (۴۶)

التّفسیر

اشاره

الثّوره الفکریه أساس لأیّ ثوره أصیله:

فی هذا المقطع من الآیات و الآیات التالیه،و التی تشکّل أواخر سوره سبأ المبارکه،یؤمر الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله مرّه اخری بدعوه هؤلاء بالأدلّه المختلفه لیؤمنوا بالحقّ،و یرجعوا عن ضلالهم،و کما مرّ فی البحوث السابقه فقد خوطب الرّسول صلّی اللّه علیه و آله خمس مرّات بأن قیل له(قل...).

ففی الآیه الاولی إشاره إلی اللبنه الأساسیه فی کلّ التحوّلات و التبدلات الاجتماعیه و الأخلاقیه و السیاسیه و الاقتصادیه و الثقافیه،فتقول و بجمل قصیره و عمیقه المعنی قُلْ إِنَّمٰا أَعِظُکُمْ بِوٰاحِدَهٍ أَنْ تَقُومُوا لِلّٰهِ مَثْنیٰ وَ فُرٰادیٰ ثُمَّ تَتَفَکَّرُوا مٰا بِصٰاحِبِکُمْ مِنْ جِنَّهٍ إِنْ هُوَ إِلاّٰ نَذِیرٌ لَکُمْ بَیْنَ یَدَیْ عَذٰابٍ شَدِیدٍ .

کلمات و تعبیرات هذه الآیه یشیر کلّ منها إلی موضوع هامّ،نجملها فی عشره

نقاط كما يلى:

۱-جمله«أعظكم»توضّح فى الحقيقه واقع أنّ الرّسول صلّى اللّه عليه و آله يريد القول بأنّى ألحظ فيما أقول لكم خيركم و صلاحكم دون أىّ شىء آخر.

۲-التعبير ب«واحده»مع ارتباطه بالتأكيد بواسطه«إنّما»إشاره معبّره إلى أنّ أصل جميع الإصلاحات الفرديه و الجماعيه،إنّما هى بإعمال الفكر،فما دام تفكير الامّه فى سبات فستكون هدفا لسرّاق و لصوص الذين و الإيمان و الحريه و الاستقلال،و لكن حينما تصحوا الأفكار فإنّها تقطع الطريق أمام هؤلاء.

۳-التعبير ب«قيام»ليس معناه مجرّد الوقوف على القدمين،بل معناه الاستعداد لإنجاز العمل،بلحاظ أنّ الإنسان بوقوفه على قدميه إنّما يكون مستعدّا لإتمام البرامج الحياتيه المختلفه،و عليه فإنّ التفكّر يحتاج إلى استعداد قبلى،لكى يوجد السبب و المحرّك فى الإنسان الذى يدفعه بالإراده و التصميم إلى التفكّر.

۴-تعبير«للّه»يوضّح أنّ القيام و الاستعداد يجب أن يكون باعثه إلهيا،و التفكّر الذى يكون صادرا عن هذا الدافع له قيمه عاليه،فالإخلاص فى العمل عاده- و حتّى فى التفكّر-هو الأساس للنجاه و السعاده و البركه.

و الملفت للنظر هو اعتبار الإيمان باللّه هنا أمرا مسلّما،و عليه فالتفكّر المطلوب إنّما هو فى مسائل اخرى،و تلك إشاره إلى أنّ التوحيد إنّما هو أمر فطرى واضح يدرك حتّى بدون تفكّر.

۵-التعبير ب«مثنى و فرادى»إشاره إلى أنّ التفكّر يجب أن يكون بعيدا عن الغوغائيه و الفوضى،بأن يقوم الناس آحادا أو على الأكثر مثنى و يتفكّرون،لأنّ التفكّر وسط الضوضاء و الغوغائيه لا يمكنه أن يكون عميقا،خصوصا و أنّ عوامل الذاتيه و التعصّب فى طريق الدفاع عن الإعتقادات الشخصيه ستكون أشدّ فعلا فى التجمّعات الأكبر.

بعض المفسّرين احتمل أن يكون هذان التعبيران إشاره إلى الإفاده من

المشوره بالخلط بين الأفكار الفرديه و الجماعيه،فالإنسان يجب أن يتفكّر منفردا و كذلك يستفيد من أفكار الآخرين،لأنّ الاستبداد بالرأى و الفكر سبب للعجب، و التشاور و التعاون لأجل حلّ المشكلات العلميه-و الذى لا يؤدّى إلى الغوغاء- سيعطى حتما-أثرا أفضل،و يمكن أن يكون تقديم«مثنى»على«فرادى»فى الآيه لهذا السبب.

۶-الملفت للنظر أنّ القرآن الكريم يقول هنا«تتفكّروا»دون أن يذكر بماذا؟ فحذف المتعلّق دليل على العموم،أى فى كلّ شىء،فى الحياه المعنويه و الماديه، فى الأمور الكبيره و الصغيره.و بكلمه:فى كلّ أمر يجب التفكّر أوّلا،و أهمّ من ذلك كلّه هو التفكّر للعثور على الإجابه للأسئله الأربعه التاليه:من أين جئت؟لأى شىء أتيت؟إلى أين أذهب؟و أين أنا الآن؟ و لكن بعض المفسّرين ذهبوا إلى أن«تتفكّروا»تتعلّق بالجمله التى تليها و هى «ما بصاحبكم من جنّه»بمعنى أنّكم لو تفكّرتم قليلا لوجدتم أنّ الرّسول صلّى اللّه عليه و آله منزّه عن اتّهامكم الواهى له بالجنون.و الظاهر أنّ المعنى الأوّل أوضح.

و من البديهى أنّ من الأمور التى يجب التفكّر بها هى مسأله النبوّه و الصفات العاليه التى كان يتمتّع بها شخص النّبى صلّى اللّه عليه و آله دون أن تكون منحصره بذلك.

۷-تعبير«صاحبكم»إشاره إلى الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و إنّه ليس نكره بالنسبه لكم،فقد كان بينكم لسنوات طويله.لقد عرفتموه بالأمانه و الصدق و الاستقامه، و لم تجدوا حتّى الآن نقطه ضعف واحده فى مسيره حياته،لذا فعليكم بالإنصاف قليلا،فالتّهم التى تلصقونها به لا أساس لها جميعا.

۸-«جنّه»بمعنى«جنون»و فى الأصل من مادّه«جن»بمعنى ستر الشىء عن الحاسّه،و من كون أنّ(المجنون)ستر عقله،فقد اطلق عليه هذا التعبير،و الجدير بالملاحظه هنا هو أنّ العباره تريد الكشف عن هذه الحقيقه،و هى أنّ من يدعو إلى التفكّر و الانتباه كيف يكون هو مجنونا،و الحال أنّ مناداته بالتفكّر إنّما هى دليل

على تمام عقله و درايته.

۹-جمله إِنْ هُوَ إِلاّ نَـذِيرٌ لَكُمْ تلخّص رساله الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله فى مسأله «الإنـذار»أى:التحـذير من المسؤوليه،و من المحكمه الإلهيه،و العقاب الإلهى، صحيح أنّ للرسول صلّى اللّه عليه و آله رساله فى«التبشير»أو«البشاره»و لكن الـذى يـدفع الإنسان أكثر إلى التحرّك هو«الإنـذار»،لـذا فقد ذكرت مسأله«الإنذار»فى آيات اخرى من القرآن الكريم على أنّها وظيفه الرّسول الأكرم الأساسيه،كما فى الآيه (۹)من سوره الأحقاف وَ مٰا أَنَا إِلاّ نَـذِيرٌ مُبِينٌ ،كما ورد كـذلك شبيه هـذا المعنى فى الآيه ۶۵ من سوره(ص)و آيات اخرى.

۱۰-التعبير ب بَيْنَ يَدَيْ عَـذٰابٍ شَدِيـدٍ إشاره إلى أنّ القيامه قريبه إلى درجه و كأنّها أمام العين،و الحقّ أنّها كذلك بالنسبه إلى عمر الدنيا،كذلك فقد ورد فى الروايات الإسلاميه نظير هذا المعنى كما

فى الأثر عن الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله قال:

«بعثت أنا و الساعه كهاتين» و ضمّ صلّى اللّه عليه و آله الوسطى و السبّابه.

بحث

اشاره

الدين أصل التحوّلات:

بسبب إحساس العقائـد الماديه و الشيوعيه بالخطر من المذاهب السـماويه الحقّه،فهى تدعوها ب(أفيون الشعوب)أى أنّها عامل تخدير لأفكار الجماهير!! و قد سعى المستعمرون فى الغرب و الشرق إلى تلقين مثل هذا الرأى عن طريق علماء الاجتماع و علماء النفس،و ذلك لتضـليل الجماهير و إبعادها عن فطرتها، و الذى دفعهم إلى هذا هو خوفهم و حذرهم من نهضه الشعوب المؤمنه المسلّحه بالأفكار الدينيه السماويه،و من استقبالها الشهاده فى سبيل اللّه بصدور رحبه!..

و الأنكى من ذلك أنّهم أو عزوا منشأ الدين لجهل البشر بالعوامل الطبيعيّه.

ص :۴۸۳

و الجواب علی مثل الکلام مرّ فی محلّه،و لسنا هنا فی معرض سرد الردود جمیعا،و لکن الآیات التی نحن بصددها تدعو الإنسان إلی التفکّر و التدبّر، و اعتبرت طریق التفکّر هو الأساس لتطور و تکامل البشریه.

کیف یمکن أن یکون الإسلام داعیه لتخدیر أفکار الناس،أو أنّه نشأ بفعل جهل البشر بالعوامل الطبیعیّه،و یدعو الناس إلی النهضه و التفکّر و العیش بصفاء فی محیط بعید عن الضوضاء و الضجیج الإعلامی المسموم،بعیدا عن التعصّب و العناد؟!هل یمکن اتّهام الدین الذی یدعو الناس لمثل هذه الأفکار بکونه أفیون الشعب،أو عامل تخدیر لها؟! و یمکن هنا القول:إنّ علی الإنسان أن لا یفکّر لوحده و بشکل انفرادی،بل علیه مشاوره الآخرین و أن تتعاضد آراؤه معهم،لسماع دعوه الأنبیاء الصادقه، و مطالعه الدلائل و الآیات التی جاؤوا بها..عند ذلک یمکن للإنسان الإذعان للحقّ.

إنّ الأحداث التی مرّت فی عصرنا الحالی سیّما نهضه المسلمین الثوریین فی مختلف البلدان الإسلامیه بوجه القوی الکبری و عملائها فی الشرق و الغرب، و التی جعلت الدنیا ظلاما دامسا فی وجوههم،و هزّت کیاناتهم،تشیر جمیعا إلی أنّ الخطر الکبیر الذی یتهدّد هذه القوی هو العقائد الدینیه الأصلیه،و من هنا یفهم هدف الاتّهامات الموجّهه ضدّ العقائد الدینیه.

و ممّا یثیر العجب و الغرابه أنّ علماء الاجتماع فی الغرب قالوا بعدم وجود عالم ما وراء الطبیعه،و اعتبروا الدین ظاهره من صنع البشر،کما قالوا بوجود عوامل مختلفه لنشوء الدین، کالعامل الاقتصادی،و خوف الإنسان،و عدم اطّلاعه،و العقد النفسیه...إلخ!!کما أنّهم غیر مستعدّین للتفکّر و لو للحظه واحده بعالم ما وراء الطبیعه و بالدلائل المدهشه و الواضحه لتوحید الخالق جلّ و علا،و العلامات الصریحه لنبوّه الأنبیاء کنبیّنا الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.و غیر مستعدّین أیضا للتنصّل عن أحکامهم التی أثبتت فشلها.

لا یمکن أن نماثل بین هؤلاء و بین مشرکی عصر الجاهلیه بالتعصّب و العناد و عدم الاطّلاع،نعم،هؤلاء متعصّبون و معاندون و لکنّهم مطّلعون،و لهذا فهم أکثر خطرا و ضلاله من مشرکی عصر الجاهلیه.

و ممّا یجدر ذکره أنّ ذیل أکثر الآیات القرآنیه یدعو الإنسان إلی التفکّر و التعقّل و التذکّر:فأحیانا تقول: إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیَهً لِقَوْمٍ یَتَفَکَّرُونَ (النحل-۱۱ و ۶۹)و اخری تقول: إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیٰاتٍ لِقَوْمٍ یَتَفَکَّرُونَ (الرعد-۳،و الزمر-۴۲، و الجاثیه-۱۳)و ثالثه تقول: لَعَلَّهُمْ یَتَفَکَّرُونَ (الحشر-۲۱،و الأعراف-۱۷۶)، و أحیانا تطرح الآیات القرآنیه نفس المفهوم وجها لوجه کَذٰلِکَ یُبَیِّنُ اللّٰهُ لَکُمُ الْآیٰاتِ لَعَلَّکُمْ تَتَفَکَّرُونَ (البقره-۲۱۹ و ۲۶۶).

و قد ورد فی القرآن الکریم الکثیر من هذا القبیل،منه الدعوه إلی الفقه-أی الفهم-و الدعوه إلی العقل و التعقّل،و مدح الناس المتعلّقین،و الندم الشدید لأولئک المتعصّبین،و قد جاء ذلک فی(۴۶)آیه من آیات القرآن المجید،و قد قال الکثیر من العلماء:إنّنا لو أردنا جمع هذه الآیات و تفسیرها لاحتجنا إلی کتاب مستقل.

و فی هذا المجال ذکر القرآن الکریم أنّ أحد صفات أهل النار هو عدم التفکّر و التعقّل کقوله تعالی: وَ قالُوا لَوْ کُنّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما کُنّا فِی أَصْحابِ السَّعِیرِ و منه قوله تعالی: وَ لَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ کَثِیراً مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا یَفْقَهُونَ بِها وَ لَهُمْ أَعْیُنٌ لا یُبْصِرُونَ بِها وَ لَهُمْ آذانٌ لا یَسْمَعُونَ بِها أُولئِکَ کَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولئِکَ هُمُ الْغافِلُونَ .

۲-جانب من الروایات الإسلامیه فی التفکّر و التأمّل:

اهتّمت الروایه الإسلامیه-و علی خطی القرآن الکریم-بمسأله التفکّر إلی حدّ أن جعلتها فی المقام الأوّل من الأهمیّه،و یلاحظ المطالع للروایات تعبیرات جمیله و معبّره أوردنا نماذج منها هنا:

ألف-التفکّر أعظم عباده:نقرأ

عن الإمام الرضا علیه السّلام «لیس العباده کثره الصلاه و الصوم إنّما العباده التفکّر فی أمر اللّه عزّ و جلّ» (۱) .

و نقرأ

فی روایه اخری: «کان أکثر عباده أبی ذکر التفکّر» (۲) .

ب-ساعه تفکّر أفضل من لیله من العباده:

عن الحسن الصیقل قال: سألت أبا عبد اللّه الصادق علیه السّلام:عمّا یروی الناس أنّ تفکّر ساعه خیر من قیام لیله،قلت:کیف یتفکّر؟قال:«یمرّ بالخربه أو بالدار فیقول:أین ساکنوک و أین بانوک،ما لک لا تتکلّمین؟» (۳) .

ج-التفکّر مصدر العمل:

قال أمیر المؤمنین علیه السّلام: «إنّ التفکّر یدعو إلی البرّ و العمل به» (۴) .

ص:۴۸۵

۱- ۱) اصول الکافی،المجلّد ۲،کتاب الکفر و الإیمان-باب التفکّر-صفحه ۵۵ حدیث ۴.

۲- ۲) سفینه البحار،المجلّد الثّانی،صفحه ۳۸۲.

۳- ۳) المصدر السابق.

۴- ۴) المصدر السابق.

الآیات [سوره سبإ (٣۴): الآیات ۴٧ الی ۵٠]

اشاره

قُلْ مٰا سَأَلْتُکُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَکُمْ إِنْ أَجْرِیَ إِلاّٰ عَلَی اَللّٰهِ وَ هُوَ عَلیٰ کُلِّ شَیْءٍ شَهِیدٌ (۴٧) قُلْ إِنَّ رَبِّی یَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلاّٰمُ اَلْغُیُوبِ (۴٨) قُلْ جٰاءَ اَلْحَقُّ وَ مٰا یُبْدِئُ اَلْبٰاطِلُ وَ مٰا یُعِیدُ (۴٩) قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمٰا أَضِلُّ عَلیٰ نَفْسِی وَ إِنِ اِهْتَدَیْتُ فَبِمٰا یُوحِی إِلَیَّ رَبِّی إِنَّهُ سَمِیعٌ قَرِیبٌ (۵٠)

التّفسیر

اشاره

و ما یبدئ الباطل و ما یعید:

قلنا أنّ اللّه تعالی أمر رسوله الکریم صلّی اللّه علیه و آله فی هذه السلسله من الآیات الکریمه خمس مرّات بأن یخاطب هؤلاء الضالّین و یقطع علیهم طریق الاعتذار من کلّ جانب.

فالآیه السابقه کانت دعوه للتفکّر و نفی أی حاله من عدم التوازن الروحی عن الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله.

و فی مطلع هذه الآیات،یتحدّث القرآن فی عدم مطالبه الرّسول صلّی اللّه علیه و آله بأی أجر مقابل تبلیغ الرساله.تقول الآیه الاولی: قُلْ مٰا سَأَلْتُکُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَکُمْ،إِنْ

أَجْرِیَ إِلاّ عَلَی اللّهِ

.

و ذلک إشاره إلی أنّ العاقل حینما یتصرّف أی تصرّف یجب أن یکون لتصرفه باعث،فحینما یثبت لکم بأنّ لدی عقل کامل،و ترون بأن لیس لی هدف مادّی، فیجب أن تعلموا بأنّ هناک دافعا و محرّکا إلهیا و معنویا هو الذی دفعنی إلی ذلک التصرّف أو العمل.

بتعبیر آخر:أنا دعوتکم للتفکّر،و الآن تأمّلوا،و اسألوا وجدانکم،أی سبب یدعونی لأن أنذرکم من العذاب الإلهی الشدید؟،و أی ربح سوف أجنیه من هذا العمل؟،و أی فائده مادیه لی فیه؟.إضافه إلی ذلک فإن کانت حجّتکم فی هذا الإعراض و مخالفه الحقّ،هو أنّکم ستدفعون لی أجرا علیه،فسیضیع جزافا،لأنّی أساسا لم أطالبکم بأی أجر أو جزاء.

کذلک فقد ورد هذا المعنی بصراحه أیضا فی الآیه(۴۶)من سوره القلم أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ .

أمّا ما هو تفسیر جمله فَهُوَ لَکُمْ ؟فهناک تفسیران:

الأوّل:أنّ الجمله کنایه عن عدم المطالبه بأی أجر کما لو قلت«کلّ ما أردته منک فهو لک»کنایه عن أنّک لا ترید شیئا مطلقا.و الدلیل علی ذلک هو الجمله التالیه و التی تقول: إِنْ أَجْرِیَ إِلاّ عَلَی اللّهِ .

الثانی:أنّکم إن لاحظتم أنّی فی بعض ما أخبرتکم به عن اللّه سبحانه و تعالی، قلت لکم: لا أَسْئَلُکُمْ عَلَیْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّهَ فِی الْقُرْبی (۱) ،فهذا أیضا یعود نفعه إلیکم،لأنّ مودّه ذی القربی ترتبط بمفهوم(الإمامه و الولایه)و«استمرار خطّ النبوّه،الذی هو ضروری لإدامه هدایتکم.

الدلیل علی هذا القول هو ما ورد فی أسباب النّزول الذی نقله بعضهم هنا،ففی

۱- ۱) الشوری،۲۳.

تفسیر روح البیان،ورد أنّه عند نزول الآیه قُلْ لاٰ أَسْئَلُکَمْ عَلَیْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّهَ فِی الْقُرْبیٰ

قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله لمشرکی مکّه: «لا تؤذوا ذوی قربای» و هم قبلوا بهذا الطلب،و لکن عند ما نال الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله من أصنامهم،قالوا:إنّ محمّدا لم ینصفنا،فهو من جانب یدعونا لعدم التعرّض لذوی قرباه بالأذی،و لکنّه من جانب آخر یمسّ أربابنا بالأذی،و هنا نزلت الآیه موضوع بحثنا قُلْ مٰا سَأَلْتُکُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَکُمْ .فما أردته منکم بهذا الخصوص هو بنفعکم،سواء آذیتموهم أو لم تؤذوهم.

ثمّ تختم الآیه بالقول: وَ هُوَ عَلیٰ کُلِّ شَیْءٍ شَهِیدٌ .فإن کنت أرید أجری من اللّه وحده فلأنّه وحده عالم بکلّ أعمالی و مطّلع علی نوایای. علاوه علی أنّه هو سبحانه و تعالی شاهد صدقی و حقّانیه دعوتی،لأنّه هو سبحانه سخّر لی کلّ هذه المعجزات و الآیات البیّنات،و الحقّ أنّه سبحانه و تعالی نعم الشاهد،فهو الذی قد أحاط بکلّ شیء علما و هو أفضل من یستطیع الأداء،و لا یصدر عنه إلاّ الحقّ و هو خیر الشاهدین.و هو اللّه سبحانه و تعالی.

بالالتفات إلی ما قیل حول حقّانیه دعوه الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله،تضیف الآیه التی بعدها قائله أنّ القرآن واقع غیر قابل للإنکار لأنّه ملقی من اللّه سبحانه و تعالی علی قلب الرّسول صلّی اللّه علیه و آله: قُلْ إِنَّ رَبِّی یَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلاّٰمُ الْغُیُوبِ .

کلمه«یقذف»من مادّه(قذف)و هو الرمی البعید،و ثمّه تفسیرات متعدّده لهذه الآیه،یمکن جمعها مع بعضها البعض.

أوّلا:المقصود ب«یقذف بالحقّ»هو الکتب السماویه و الوحی الإلهی علی قلوب الأنبیاء و المرسلین،و لأنّه سبحانه و تعالی هو علاّم الغیوب،فهو یعلم بالقلوب المهیّأه،فینتخبها و یقذف الوحی فیها حتّی ینفذ إلی أعماقها.

و علی ذلک فالمعنی شبیه بما ورد فی الحدیث المعروف«العلم نور یقذفه اللّه فی قلب من یشاء».

و التعبير ب«علاّم الغيوب»يؤيّد هذا المعنى.

الآخر:إنّ المقصود من«قذف الحقّ على الباطل و زهوق الباطل»،يعنى أنّ للحقّ قوّه تجعله قادرا على تجاوز أى عائق فى طريقه، و ليس لأحد طاقه على الوقوف بوجهه،و بهذا تكون الآيه تهديدا للمخالفين لكى لا يقفوا بوجه القرآن، و أن يعلموا أنّ حقّانيه القرآن ستسحقهم.

و بذا تكون الآيه تعبيرا مشابها لما ورد فى الآيه(١٨)من سوره الأنبياء بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبٰاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذٰا هُوَ زٰاهِقٌ .

و يحتمل أن يكون المقصود بتعبير«القذف»هنا هو نفوذ حقّانيه القرآن إلى نقاط العالم القريبه و البعيده،و هى إشاره إلى أنّ هذا الوحى السماوى سيضيء جميع العالم بنوره فى نهايه الأمر.

بعدئذ و لزياده التأكيد يضيف سبحانه و تعالى: قُلْ جٰاءَ الْحَقُّ وَ مٰا يُبْدِئُ الْبٰاطِلُ وَ مٰا يُعِيدُ (١) .و عليه فلن يكون للباطل أى دور مقابل الحقّ،لا خطّه اولى جديده، و لا خطّه معاده،إذ أنّ خطط الباطل نقش على الماء،و لهذا السبب فلم يتمكّن الباطل من طمس نور الحقّ و محو أثره من القلوب.

مع أنّ بعض المفسّرين أرادوا حصر مصاديق«الحقّ»و«الباطل»فى هذه الآيه فى حدود معيّنه،لكن الواضح أنّ مفهوم الإثنين واسع و شامل جدّا،القرآن،الوحى الإلهى،تعليمات الإسلام،جميعها مصاديق لمفهوم«الحقّ». و الشرك و الكفر، و الضلال،و الظلم و الذنوب،و وساوس الشيطان،و البدع الطاغوتيه كلّها تندرج تحت معنى«الباطل»،و فى الحقيقه فإنّ هذه الآيه شبيهه بالآيه(٨١)من سوره الإسراء، وَ قُلْ جٰاءَ الْحَقُّ وَ زَهَقَ الْبٰاطِلُ إِنَّ الْبٰاطِلَ كٰانَ زَهُوقاً .

و قد ورد أنّ ابن مسعود قال:دخل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله مكّه و حول البيت ثلاثمائه

---

١ - ١) (يبدئ)من مادّه«بدء»بمعنى الإيجاد الابتدائى،و(يعيد):من مادّه(عود)بمعنى التكرار،الباطل:فاعل،و المفعول محذوف،و التقدير«ما يبدئ الباطل شيئا و ما يعيد شيئا».

و ستّون صنما فجعل يطعنها بعود فی يديه و

يقول: «جاء الحقّ و زهق الباطل إنّ الباطل كان زهوقا-جاء الحقّ و ما يبدئ الباطل و ما يعيد» (۱) .

سؤال:

يثار هنا سؤال و هو أنّ الآيه أعلاه تقول:إنّه بظهور الحقّ،يمحق الباطل،و يفقد كلّ خلّاقيته،و الحال أنّنا نرى أنّ الباطل له جولات وصيت إلى الآن،و يسيطر على مناطق كثيره؟ و للإجابه على هذا السؤال،يجب الالتفات إلى ما يلی:

أوّلا:إنّه بظهور الحقّ و إشراقه.فإنّ الباطل-و الذی هو الشرك و النفاق و الكفر و كلّ ما ينبع عنها-يفقد بريقه،و إذا استمرّ وجوده فبالقوّه و الظلم و الضغط،و إلاّ فإنّ النقاب قد ازيل عن وجهه،و ظهرت صورته القبيحه لمن يطلب الحقّ،و هذا هو المقصود من مجیء الحقّ و محو الباطل.

ثانيا:لأجل تحقّق حكومه الحقّ و زوال حكومه الباطل فی العالم،فإضافه إلى الإمكانيات التی يضعها اللّه فی خدمه عباده،هناك شرائط اخرى مرتبطه بالعباد أنفسهم،و التی أهمّها«القيام بترتيب المقدّمات للاستفاده من تلك الإمكانات الإلهيه».و بتعبير آخر،فإنّ انتصار الحقّ على الباطل ليس فقط فی المناحی العقائديه و المنطقيه و فی الأهداف،بل فی المناحی الإجرائيه على أساسين، «فاعليه الفاعل»و«قابليه القابل»و إذا لم يصل الحقّ إلى النصر على الباطل فی المرحله العمليه نتيجه عدم تحقّق(القابليه)فليس ذلك دليلا على عدم انتصاره.

و لنضرب لذلك مثلا قرآنيا،فالآيه الكريمه تقول: اُدْعُونِی أَسْتَجِبْ (۲) ،و لكن المعلوم لدينا بأنّ استجابه الدعاء ليست بدون قيد أو شرط،فإن تحقّقت شرائط

۱- ۱) مجمع البيان،مجلّد ۸،صفحه ۳۹۷.

۲- ۲) المؤمن، ۶۰

الـدعاء فهو مسـتجاب قطعا،و فى غير هـذه الحاله ينبغى عـدم انتظار الاسـتجابه، (شـرح هذا المعنى جاء فى تفسـير الآيه ۱۸۶-من سوره البقره).

و ذلك بالضبط كما لو أنّنا أتينا بطبيب حاذق لمريض ممدّد على فراشه،و عندها نقول له:زادت فرصه النجاه لك،و فى أى وقت أحضـرنا لـه دواء نـذكره بأنّنـا قـد حللنـا لـه مشـكلا آخر،فى حيـن أنّ كـلّ هـذه الأمور هى مـن مقتضـيات الشـفاء و ليست(علّه عـامّه)،فيجب أن يكون الـدواء مؤثّرا فى المريض،و أن تراعى توصـيات الطبيب،كمـا أنّه يجب أن لا ننسـى الحميه و أثرها،لكى يتحقّق الشفاء العينى و الواقعى(تأمّل).

ثمّ يضـيف تعالى:لأجل إيضاح أنّ ما يقوله صـلّى اللّه عليه و آله هو من اللّه،و أنّ كلّ هدايه منه، و أن ليس هناك أدنى خطأ أو نقص فى الوحى الإلهى، قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمٰا أَضِلُّ عَلىٰ نَفْسِی وَ إِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمٰا يُوحِی إِلَيَّ رَبِّی (۱) .

أى إنّنى لو اتّكلت على نفسـى فسوف أضـلّ،لأنّ الاهتـداء إلى طريق الحقّ من بين أكـداس الباطل ليس ممكنا بغير إمـداد اللّه،و نور الهدايه الذى ليس فيه ضلال و تيه هو نور الوحى الإلهى.

صحيح أنّ العقل هو مصـباح مضىء،غير أنّ الإنسان ليس معصوما،و شعاع هذا المصباح لا يمكنه كشف جميع حجب الظلام،إذا تعالوا و تعلّقوا بنور الوحى الإلهى هذا حتّى تخرجوا من الظلمات،و تضعوا أقدامكم على أرض النور.

و فى ختام الآيه يضيف تعالى: إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ .

فلعلّكم تعتقدون أنّه تعالى لا يسـمع ما نقول و ما تقولون،أو أنّه يسـمع ذلك و لكنّه بعيد،كلاّ،فهو(سميع)و(قريب)،فلا تعزب عنه ذرّه ممّا نقول أن ندعو.

ص :۴۹۱

۱- ۱) فيمـا يخصّ لمـا ذا أورد فى الجمله الاولى عَلىٰ نَفْسِی و فى الجمله الثّانيه فَبِمٰا يُوحِی إِلَيَّ رَبِّی قال بعض المفسّرين:كلّ واحـده من هاتين الجملتين تحتوى على محذوف مقدّر،و التقدير كاملا«إن ضـللت فإنّما أضلّ نفسـى و إن اهتديت فإنّما أهتدى لنفسى بما يوحى إلىّ ربّى»(تأمّل!!)-تفسير روح المعانى-تفسير الآيه مورد بحثنا.

الآیات [سوره سبإ (۳۴): الآیات ۵۱ الی ۵۴]

اشاره

وَ لَوْ تَریٰ إِذْ فَزِعُوا فَلاٰ فَوْتَ وَ أُخِذُوا مِنْ مَکٰانٍ قَرِیبٍ (۵۱) وَ قٰالُوا آمَنّٰا بِهِ وَ أَنّٰی لَهُمُ اَلتَّنٰاوُشُ مِنْ مَکٰانٍ بَعِیدٍ (۵۲) وَ قَدْ کَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَ یَقْذِفُونَ بِالْغَیْبِ مِنْ مَکٰانٍ بَعِیدٍ (۵۳) وَ حِیلَ بَیْنَهُمْ وَ بَیْنَ مٰا یَشْتَهُونَ کَمٰا فُعِلَ بِأَشْیٰاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ کٰانُوا فِی شَکٍّ مُرِیبٍ (۵۴)

التّفسیر

اشاره

لیس للکافرین مفرّ:

الآیات الأخیره من سوره سبأ تعود إلی الحدیث فی المشرکین المعاندین الذین مرّ الحدیث فیهم فی الآیات السابقه عن طریق مخاطبه الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله فتصوّر حال تلک المجموعه عند وقوعها فی قبضه العذاب الإلهی،کیف تفکّر فی الإیمان،حین لا یکون لإیمانهم أدنی فائده.

یقول تعالی: وَ لَوْ تَریٰ إِذْ فَزِعُوا فَلاٰ فَوْتَ وَ أُخِذُوا مِنْ مَکٰانٍ قَرِیبٍ .

ثمّه آراء بین المفسّرین فی:متی یکون ذلک الصراخ و الفزع و الاضطراب؟ فبعضهم یری أنّه عذاب الدنیا أو عذاب الموت،و بعضهم یری أنّه یخصّ عقاب یوم

القيامه،غير أنّ آخر هذه الآيه،يشير إلى أنّ هذه الآيات جميعها تتحدّث عن الدنيا و عذاب الاستئصال،أو لحظه تسليم الروح،إذ يقول تعالى فى الآيه الأخيره من هذا المقطع وَ حِيلَ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ و هذا التعبير لا ينسجم مع يوم القيامه.لأنّ الجميع يجمعون فى ذلك اليوم للحساب،كما تشير إلى ذلك الآيه(۱۰۲)من سوره هود ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النّاسُ وَ ذلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ .

و فى الآيتين ۴۹-۵۰ من سوره الواقعه أيضا نقرأ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَ الْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ .

و عليه فإنّ المقصود من جمله أُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ هو أنّ هؤلاء الأفراد الكافرين و الظالمين،ليس فقط لا يمكنهم الفرار من يد القدره الإلهيّه فحسب،بل إنّ اللّه سبحانه و تعالى يأخذهم بالعذاب من مكان قريب منهم جدّا.

ألم يدفن الفراعنه فى أمواج النيل الذى كان المصدر الأساس لفخرهم،ألم تنخسف الأرض بقارون و كنوزه،و«قوم سبأ»الذين مرّت بنا قصّتهم فى هذه السوره ألم يحيق بهم الهلاك أقرب الأمكنه لهم،و هو ذلك السدّ العظيم الذى كان سبب عمران بلادهم و سبب حياتهم و حركتهم؟لذا فإنّه اللّه يأخذ بالعذاب من أقرب الأماكن حتّى يعلم مدى قدرته و سطوته.

فأكثر السلاطين الظلمه قتلوا على أيدى أقرب أفراد حواشيهم،و أغلب المتسلّطين الجبابره تلقّوا الضربه الأخيره من داخل قصورهم.

و لو لا حظنا ما ورد فى الكثير من الروايات من طرق السنّه و الشيعه،لرأينا أنّ لهذه الآيه مصداقا فى أحاديث«السفيانى»(مجموعه على خطّ أبى سفيان و عصاره عصر الجاهليه يخرجون على أتباع الحقّ فى عصر ظهور المهدى عليه السّلام).

حيث أنّ السفيانى و جيشه تخسف بهم الصحراء وسط الطريق إلى مكّه،و ذلك فى الحقيقه واحد من مصاديق الآيه وَ أُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ .حيث أنّهم وقعوا فى

العذاب الإلهی من أقرب النقاط لهم،و هی الأرض التی تحت أقدامهم.و قد وردت أحادیث کثیره بهذا المضـمون عن ابن عبّاس و ابن مسعود و أبی هریره و حذیفه و امّ سلمه و عائشه،کما یلاحظ فی کتب السنّه،و کلّهم ینقلون عن الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله (۱) .

و قد أوردت تلک الأحادیث فی تفسیر هذه الآیه فی الکثیر من کتب التّفسیر الشیعیه من أمثال تفسیر القمّی،و مجمع البیان،و نور الثقلین،و الصافی،و الکثیر من کتب التّفسیر السنّیه کتفسیر روح المعانی،و روح البیان،و القرطبی.

کـذلک فـإنّ العلاّمه المجلسـی-أعلی اللّه مقامه-أورد العدیـد من الروایات عن الإمام الباقر علیه السّـلام بهـذا الخصوص،و التی تشیر إلی کونها أحد مصادیق هذه الآیات، باعتبار أنّ الخسف الذی یحلّ بالسـفیانی و جیشه هو مصداق للأخذ من مکان قریب . (۲)

و کما أشرنا مرارا فإنّ الرّوایات التی یوردها المفسّرون للتدلیل علی معنی الآیه،إنّما هی المصادیق الأوضح،و لیس معناها تحدید معنی الآیه فی ذلک.

الآیه التی بعـدها،تعرض وضع هؤلاء بعـد أن أخـذهم العـذاب الإلـهی تقول الآیه الکریمه وَ قالُوا آمَنّا بِهِ (۳) و لکـن أَنّی لَهُمُ التَّناوُشُ مِنْ مَکانٍ بَعِیدٍ .

نعم فبحلول الموت و عـذاب الاستئصال أغلقت أبواب العوده کلیّا،و حیل کالسدّ المحکم بین الإنسان و بین أن یکفّر عن ذنوبه، لذا فإنّ إظهار الإیمان فی ذلک الحین،کأنّه کائن من مکان بعید،و هو إیمان اضـطراری بسبب الخوف الشدید من العذاب الذی یعاین هناک،مثل ذلک الإیمان أصلا لا قیمه له،لذا فإنّ الآیه

۱- ۱) تفسیر المیزان،المجلّد ۱۶،صفحه ۴۱۹.

۲- ۲) بحار الأنوار،مجلّد ۵۲،صفحه ۱۸۵ فیما بعد.

۳- ۳) الضـمیر فی کلمه«به»یعود علی«الحقّ»علی اعتبـار أنّه أقرب مرجع له،و نعلم بـأنّ الحقّ الآیـات السابقه یشـیر إلی «القرآن و محتواه و المبدأ و المعاد و رسول الإسلام».

(۲۸)من سوره الأنعام تعبّر عنهم قائله: بَلْ بَدٰا لَهُمْ مٰا كٰانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَ لَوْ رُدُّوا لَعٰادُوا لِمٰا نُهُوا عَنْهُ وَ إِنَّهُمْ لَكٰاذِبُونَ .

«التناوش»من مادّه«نوش»-على زنه خوف-بمعنى التناول،و بعضهم اعتبروا أنّها بمعنى«التناول بسهوله»أى كيف يتناولون الإيمان من مكان بعيد و لم يكونوا يتناولونه من قريب؟ كيف يستطيعون الآن و بعد أن انتهى كلّ شىء،أن ينبروا لجبران خطاياهم و يؤمنوا،فى حين أنّهم قبل هذا كفروا مع أنّهم كانوا يتمتّعون بالاختيار و الإراده:

وَ قَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ

.

و لم يكتفوا بالكفر فقط،بل إنّهم ألصقوا بالرّسول صلّى اللّه عليه و آله و بتعاليمه مختلف أنواع التّهم،و حكموا أحكاما خاطئه فيما يخصّ(عالم الغيب-و القيامه-و النبوّه):

وَ يَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكٰانٍ بَعِيدٍ

.

«القذف»-كما قلنا-الرمى من بعيد،و«الغيب»هو عالم ما وراء الحسّ، و الجمله كنايه لطيفه عمّن يطلق أحكامه على عالم ما وراء الطبيعه بلا سابق علم أو معرفه،كمن يرمى شيئا من نقطه بعيده،فقلّما يصيب الهدف،فظنونهم و أمانيهم و أحكامهم لا تصيب أهدافها أيضا. فقد عدّوا الرّسول صلّى اللّه عليه و آله(ساحرا)حينا،و حينا (مجنونا)و آخر(كذّابا)،و حينا اعتبروا القرآن«نتاجا فكريا بشريا».و مرّه أنكروا الجنّه و النار و القيامه بشكل كلّى،كلّ هذه أنواع«للرجم بالغيب»أو«اصطياد الطيور فى ظلام الليل»أو بعباره اخرى«القذف من مكان بعيد».

ثمّ يضيف تعالى: وَ حِيلَ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ مٰا يَشْتَهُونَ كَمٰا فُعِلَ بِأَشْيٰاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ ففى لحظه مؤلمه،فصل بينهم و بين كلّ ثرواتهم و أموالهم،و قصورهم و مقاماتهم، و أمانيهم،فكيف سيكون حالهم؟هؤلاء الذين كانوا يعشقون الدرهم و الدينار، و الذين كانت قلوبهم لا تطاوعهم فى التخلّى عن أبسط الإمكانات الماديه..كيف سيكون حالهم فى تلك اللحظه التى يجب عليهم فيها أن يودّعوا كلّ ذلك وداعا

أخيرا،ثمّ يغمضون عيونهم و يسيرون باتّجاه مستقبل مظلم موحش.

جمله حِيلَ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ مٰا يَشْتَهُونَ ،فسّرت بتفسيرين:

الأوّل:هو ما عرضناه سابقا.

الثانى:أنّه حيل بينهم و بين رغبتهم فى الإيمان و جبران ما فاتهم..غير أنّ التّفسير الأوّل ينسجم أكثر مع جمله مٰا يَشْتَهُونَ .

فضلا عن أنّ جمله أَنّٰى لَهُمُ التَّنٰاوُشُ مِنْ مَكٰانٍ بَعِيدٍ قد تعرّضت إلى قضيّه عدم تمكّنهم من الإيمان عند الموت و عذاب الاستئصال كما ذكرنا،فلا يبدو أنّ هناك داعيا للتكرار.

من الجدير بالذكر أيضا أنّ كثيرا من مفسّرى هذه الآيه اعتبروا هذه الآيات ممّا يخصّ الحديث فى عقوبات الآخره و ندامه المسيئين فى المحشر، و لكن الآيه الأخيره و بالأخصّ جمله كَمٰا فُعِلَ بِأَشْيٰاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ لا تنسجم مع هذا المعنى، بل إنّ المقصود هو لحظه الموت و مشاهده عذاب الفناء.

و ما أجمل ما يقول أمير المؤمنين على(عليه أفضل الصلاه و السّلام)حينما يصوغ بكلماته النورانيه وصفا للحظات فراق الروح لعالم الدنيا،و مفارقه نعمها:

«اجتمعت عليهم سكره الموت،و حسره الفوت،ففترت لها أطرافهم و تغيّرت لها ألوانهم! ثمّ زاد الموت فيهم و لوجا،فحيل بين أحدهم و بين منطقه،و إنّه لبين أهله،ينظر ببصره و يسمع باذنه...

يفكّر فيم أفنى عمره؟و فيم أذهب دهره؟و يتذكّر أموالا جمعها،أغمض فى مطالبها،و أخذها من مصرحاتها و مشبهاتها!...

فهو يعضّ يده ندامه على ما أصحر له عند الموت من أمره،و يزهد فيما كان يرغب فيه أيّام عمره،و يتمنّى أنّ الذى كان يغبطه بها و يحسده عليها قد حازها

دونه»! (۱) .

اللهمّ اجعلنا من الذين ينتبهون قبل فوات الفرص،و يجبرون ما فاتهم.

شباك الدنيا و مغرياتها مشرعه لنا،و العدوّ شديد المراس،و لو لا لطفك،فإنّ أعمالنا تافهه حقيره...

اللهمّ!!جعلنا من الـذين يشـكرون النعم حين حلولها،و أعـذنا من الغفله و الغرور، و اجعلنا من الذين لا يجزعون حين المصائب و الشدائد..

...إنّك عليّ سميع نهايه تفسير سوره سبأ نهايه المجلّد الثالث عشر

۱- ۱) نهج البلاغه،خطبه ۱۰۹.

ص :

ص :

ص :

ص :

ص :

ص :

ص :

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم

هَلْ يَسْتَوِی الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

الزمر: ۹

المقدمة:

تأسّس مركز القائمیة للدراسات الکمبیوتریة فی أصفهان بإشراف آیة الله الحاج السید حسن فقیه الإمامی عام ۱۴۲۶ الهجری فی المجالات الدینیة والثقافیة والعلمیة معتمداً علی النشاطات الخالصة والدؤوبة لجمع من الإخصائیین والمثقفین فی الجامعات والحوزات العلمیة.

إجراءات المؤسسة:

نظراً لقلة المراکز القائمة بتوفیر المصادر فی العلوم الإسلامیة وتبعثرها فی أنحاء البلاد وصعوبة الحصول علی مصادرها أحیاناً، تهدف مؤسسة القائمیة للدراسات الکمبیوتریة فی أصفهان إلی التوفیر الأسهل والأسرع للمعلومات ووصولها إلی الباحثین فی العلوم الإسلامیة وتقدم المؤسسة مجاناً مجموعة الکترونیة من الکتب والمقالات العلمیة والدراسات المفیدة وهی منظمة فی برامج إلکترونیة وجاهزة فی مختلف اللغات عرضاً للباحثین والمثقفین والراغبین فیها.

وتحاول المؤسسة تقدیم الخدمة معتمدة علی النظرة العلمیة البحتة البعیدة من التعصبات الشخصیة والاجتماعیة والسیاسیة والقومیة وعلی أساس خطة تنوی تنظیم الأعمال والمنشورات الصادرة من جمیع مراکز الشیعة.

الأهداف:

نشر الثقافة الإسلامیة وتعالیم القرآن وآل بیت النبیّ علیهم السلام

تحفیز الناس خصوصا الشباب علی دراسة أدقّ فی المسائل الدینیة

تنزیل البرامج المفیدة فی الهواتف والحاسوبات واللابتوب

الخدمة للباحثین والمحققین فی الحوازت العلمیة والجامعات

توسیع عام لفکرة المطالعة

تهمید الأرضیة لتحریض المنشورات والکتّاب علی تقدیم آثارهم لتنظیمها فی ملفات الکترونیة

السیاسات:

مراعاة القوانین والعمل حسب المعاییر القانونیة

إنشاء العلاقات المترابطة مع المراکز المرتبطة

الاجتنباب عن الروتینیة وتکرار المحاولات السابقة

العرض العلمی البحت للمصادر والمعلومات

الالتزام بذكر المصادر والمآخذ فی نشر المعلومات

من الواضح أن يتحمل المؤلف مسؤولية العمل.

نشاطات المؤسسة:

طبع الكتب والملزمات والدوريات

إقامة المسابقات فی مطالعة الكتب

إقامة المعارض الالكترونية: المعارض الثلاثية الأبعاد، أفلام بانوراما فی الأمكنة الدينية والسياحية

إنتاج الأفلام الكرتونية والألعاب الكمبيوترية

افتتاح موقع القائمية الانترنتی بعنوان : www.ghaemiyeh.com

إنتاج الأفلام الثقافية وأقراص المحاضرات و...

الإطلاق والدعم العلمی لنظام استلام الأسئلة والاستفسارات الدينية والأخلاقية والاعتقادية والردّ عليها

تصميم الأجهزة الخاصة بالمحاسبة، الجوال، بلوتوث Bluetooth، ويب كيوسك kiosk، الرسالة القصيرة ((sms

إقامة الدورات التعليمية الالكترونية لعموم الناس

إقامة الدورات الالكترونية لتدريب المعلمين

إنتاج آلاف برامج فی البحث والدراسة وتطبيقها فی أنواع من اللابتوب والحاسوب والهاتف ويمكن تحميلها على ٨ أنظمة؛

JAVA.١

ANDROID.٢

EPUB.٣

CHM.۴

PDF.۵

HTML.۶

CHM.٧

GHB.٨

إعداد ۴ الأسواق الإلكترونية للكتاب على موقع القائمية ويمكن تحميلها على الأنظمة التالية

ANDROID.١

IOS.٢

WINDOWS PHONE.٣

WINDOWS.۴

وتقدّم مجاناً فی الموقع بثلاث اللغات منها العربية والانجليزية والفارسية

الكلمة الأخيرة

نتقـدم بكلمـة الشـكر والتقـدير إلى مكاتب مراجع التقليـد منظمات والمراكز، المنشورات، المؤسـسات، الكتّاب وكل من قدّم لنا المساعدة فى تحقيق أهدافنا وعرض المعلومات علينا.
عنوان المكتب المركزى
أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباده ای، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلى، الرقم ١٢٩، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir
البريد الالكترونى : Info@ghbook.ir
هاتف المكتب المركزى ٠٣١٣۴۴٩٠١٢۵
هاتف المكتب فى طهران ٨٨٣١٨٧٢٢ ـ ٠٢١
قسم البيع ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩شؤون المستخدمين ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩.